مُنْيَةُ الطَّالبين

في

تفسيرِ القرآنِ المبينِ

تفسير علمي أدبي يحتوي على أبحاث كلامية وعقائدية وتأريخية وروائية

المجلد الرابع عشر

الفقيه المُحقِّق

الشيخ جعفر السبحاني

دار جواد الأئمة

الفهرس

www.quraniyat.net

منية الطالبين في تفسير القرآن المبين الجزء الرابع عشر

ويشتمل على تفسير السورتين التاليتين: هود، يوسف

تفسير علمي، أدبي، يحتوي على أبحاث كلامية وعقائدية وتاريخية وروائية

تأليف: الفقيه المحقّق جعفر السبحاني

نشر مؤسسة الإمام الصادق (عليه السلام)

سورة هود

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا
رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ
كَبِيرٍ (٣) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤) أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ
مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥) وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ
فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ
إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ
لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨) وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ
نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلَّا الَّذِينَ
صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١) فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا
أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ
مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٤) مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَئِكَ
الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦) أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ
مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ
الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١٧) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ
الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ
هُمْ كَافِرُونَ (١٩) أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا
يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠) أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي
الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) مَثَلُ
الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٤) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ
مُبِينٌ (٢٥) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا
مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) قَالَ يَا قَوْمِ

أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ
عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَنْ
يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ
لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١) قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ
جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلَا يَنْفَعُكُمْ
نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ
فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ
(٣٦) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٣٧) وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ
سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ
عَذَابٌ مُقِيمٌ (٣٩) حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ
وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠) وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (٤١) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ
وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا
عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي
وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤) وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ
وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي
أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ
الْخَاسِرِينَ (٤٧) قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨)
تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩) وَإِلَى عَادٍ
أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى
الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ
وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢) قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِنْ نَقُولُ إِلَّا
اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (٥٥)
إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا
أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٥٧) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا
وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ
عَنِيدٍ (٥٩) وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠) وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ
صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي
قَرِيبٌ مُجِيبٌ (٦١) قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ
مُرِيبٍ (٦٢) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ
تَخْسِيرٍ (٦٣) وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤)
فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا

وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا
فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ (٦٨) وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ
بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ
قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ
عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (٧٣) فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ
الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ
رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦) وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءَهُ
قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي
أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ
آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا
امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا
عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (٨٢) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣) وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ
اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (٨٤) وَيَا
قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ
كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (٨٦) قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا
نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ
إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ
شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (٨٩) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا
إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠) قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا
بِعَزِيزٍ (٩١) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا
عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا
نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا
بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٩٦) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ
فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ
الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩) ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ
عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ
الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ
مَشْهُودٌ (١٠٣) وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ (١٠٤) يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي
النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا
الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨) فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا
يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ (١٠٩) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ

فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١١٠) وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١١) فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (١١٣) وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥) فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧) وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩) وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١) وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٢٢) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣)

خصائص السورة

تسمية السورة

سمّيت السورة في المصاحف بسورة «هود»، تنويهاً بالنبي هود(عليه السلام)الذي ورد اسمه في هذه السورة، عند عرض قصّته، خمس مرّات، كما عرضت السورة أيضاً لقصص أنبياء الله الآخرين، وهم: نوح، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب، وموسى(عليهم السلام). وقد جاءت التسمية في رواية للحاكم النّيسابوري عن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)أنّه قال:«شيّبتني هود، والواقعة، وعمّ يتساءلون، وإذا الشمس كوّرت».(المستدرك على الصحيحين:٢/٣٤٣.)

وسيأتي الكلام حول ذلك عند تفسير قوله تعالى:(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ)(هود:١١٢.).

ومن غُرر آيات السورة قوله سبحانه:(الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ)، وقوله سبحانه:(إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ).(هود:٥٦.)

وهي إحدى السور الخمس المفتتحة بالحروف المقطعة (الر) وسائرالسور هي: يونس، يوسف، إبراهيم، الحِجر.

عدد آياتها ومحلّ نزولها

عدد آياتها مئة وثلاث وعشرون آية في عدّ الكوفي والبصري، ومئة واثنتان وعشرون في عدّ المدني، وقد ذكر في «مجمع البيان»(لاحظ: مجمع البيان:٥/٢٦٣.) مواضع اختلافهم.

والسورة مكية في قول الأكثرين، واستثنيت آية واحدة، وهي قوله تعالى:(وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ)(هود:١١٤.)، وسيوافيك الكلام فيها في محلّه.

أغراض السورة

تتناول هذه السورة ـ كسائر السور المكّية ـ بيان أُصول المعارف، وتبتدئ بالتحدّي بالقرآن الكريم، والدعوة إلى التوحيد ونبذ الشّرك، والإيمان بالبعث والنشور والحشر. ثمّ تذكر ـ تطييباً لنفس النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) ـ قصص الأنبياء السابقين(عليهم السلام) ولكنّها تفصّل في بيان قصة هود(عليه السلام) أكثر من غيرها.

وبما أنّ بين هذه السورة، والتي تقدّمتها (سورة يونس) اشتراك في كثير من المضامين، فقد أشار السيد الطباطبائي إلى الفرق بين

السورتين وقال: إنّ سورتي يونس وهود مسوقتان لغرضين مختلفين، فسورة يونس تبيّن أنّ السُّنّة الإلهية جارية على القضاء بين الرُّسل وبين أُممهم المكذّبين لهم، ثم توعد هذه الأُمّة بما جرى مثله على الذين من قبلهم، وسورة هود تبيّن أنّ المعارف القرآنية ترجع بالتحليل إلى التوحيد الخالص، كما أنّ التوحيد يعود بحسب التركيب إلى تفاصيل المعارف الأصلية والفرعية.(الميزان في تفسير القرآن:١٠/١٣٦).

سورة هود: الآيات ١ ـ ٦ (الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ ... مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ).

الآيات: الستّ الأُولى

(الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ * إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * أَلاَ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلاَ حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ).

المفردات

أُحكمت: من الإحكام بمعنى إتقان الصنع، وكون الشيء خالياً من الخلل، ومنه قوله سبحانه: (آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ)(آل عمران:٧).

وأمّا ما هو المراد من الإحكام في المقام فلا يعلم إلاّ من مُقابله، أعني قوله: (ثُمَّ فُصِّلَتْ) فإذا كان التفصيل ـ كما سيأتي ـ فصل أجزاء الشيء بعضها عن بعض، يكون الإحكام ضمّ أجزاء الشيء بعضها إلى بعض. وسيأتي ما هو المقصود من الضمّ والفصل عند التفسير.

فُصِّلت: من التفصيل، المشتقّ من الفَصْل، وهو إبانة أحد الشيئين من الآخر بحيث يكون بينهما فُرجة، ومنه قيل المَفاصل، الواحد مَفْصِل...، وفصل الخطاب ما فيه قطع الحكم.(المفردات للرّاغب:٣٨١، مادّة «فصل»).

حكيم: يوصف به سبحانه لإتقان صنعه، وربما يوصف به لكون فعله منزّهاً عن العبث واللّغو. والمناسب للمقام، هو المعنى الأوّل.

خبير: العالم بخفايا الأشياء، ولعل المراد العالم بما يحتاج إليه الإنسان في حياته وما يصلحه أو يفسده.

يثنون: من الثني: الطيّ، أي يطوون رؤوسهم وصدورهم على معاداة النبيّ؛ نقل أنّ قوماً من المشركين قالوا: إذا غلقنا أبوابنا وأرخينا ستورنا واستغشينا ثيابنا وثنينا صدورنا على عداوة محمد كيف يعلم بنا؟ فأنبأ الله تعالى عمّا كتموه.(مجمع البحرين:١/٧٣، مادة «ثنى»).

ليستخفوا: من الاستخفاء وهو طلب خفاء الشيء، يقال: استخفى وتخفّى بمعنى واحد.

مستقرّها: المستقرّ: مكان الاستقرار الدائم.

مستودعها: المستودع: مكان الاستقرار المؤقّت.

التفسير

١. (الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ):

تعتبر هذه الآية من غُرر الآيات في السُّورة.

قوله: (الر)، من الحروف المقطَّعة في أوائل عدد من السور، والمراد بها ـ على وجه الإيجاز ـ هو أنّ القرآن مؤلَّف من هذه الحروف، فإن كنتم في ريب من أنّ القرآن من صنع الله تعالى، فقوموا بصنع سورة من سور القرآن، فإنّ المادّة ـ أعني: الحروف الهجائية ـ في متناولكم، ولذلك نرى أنّه سبحانه بعد ذكر الحروف المقطَّعة يشير إلى القرآن وصفاته في أكثر السور المصدَّرة بهذه الحروف. وسيوافيك الكلام فيها بتفصيل في صدر سورة الأحقاف.

قوله تعالى: (كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) هذه الفقرة تتضمّن أُموراً أربعة ناظرة إلى كيفية نزول القرآن من الله سبحانه إلى رسوله:

١. إحكام آيات القرآن.

٢. تفصيل تلك الآيات.

٣. أنّ المُنزِل حكيم.

٤. أنّ المُنزِل خبير.

فيقع الكلام فيما هو المراد من الإحكام والتفصيل، وما هي الصلة بين هذين الأمرين وبين وصفه تعالى بالحكيم والخبير؟

أمّا الأوّل، فقيل في المراد منه وجوه خمسة، أشار إليها الطبرسي في «مجمع البيان» ولو صحّ ما ذكره فأحسن الوجوه في معنى إحكام الآيات قوله: إنّها أُتقنت فليس فيها خلل ولا باطل، لأنّ الفعل المحكم ما قد أتقنه فاعله حتى لا يكون فيه خلل.(مجمع البيان:٥/٢٦٥.)

وأمّا الثاني، فقد عرفت أنّ الفصل عبارة عن إبانة أحد الشيئين من الآخر، فآياته فصّلت فجاءت في سور مختلفة. وقد أُشير إلى هذا الوجه في المجمع بقوله: أُحكمت آياته جملة، ثمّ فرّقت في الإنزال آية بعد آية ليكون المكلّف أمكن من النظر والتدبّر.(المصدر نفسه. وسيوافيك البيان ـ أيضاً ـ حول الإحكام والتفصيل في تفسير سورة «فصّلت».)

تبيين المراد من الإحكام والتفصيل

والظاهر أنّ المراد غير هذا، ويُعلم واقع المراد من مقابلة الإحكام مع التفصيل بأن يقال: إنّ مرحلة الإحكام مرحلة وجود إجمالي جمعي في اللّوح المحفوظ، إذ لم يكن قرآناً يُقرأ ولا عربيّاً يُعرب، فلم يكن فيه فصل شيء منه عن شيء آخر. وأمّا التفصيل فيراد به إنزاله إلى مرتبة البيان بحيث يتمكّن السامع العارف بأساليب البيان من فهم معانيه وتعقّل مقاصده.

والذي يدلّ على هذا المعنى مضافاً إلى قرينة: (فُصِّلَتْ)، ما ذُكر في قوله سبحانه: (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ)(البروج:٢١ـ٢٢.)

ثمّ إنّه سبحانه يحكي عن أنّ القرآن نزل من(لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) فكون المُنزِل حكيماً، آية كون فعله متقَناً لأنّ المُنزل حكيم وفعل الحكيم لا ينفكّ عن الإحكام والإتقان.

ثمّ إنّ قوله:(مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) قيد لكلا الفعلين، كأنّه قال: أُحكمت وفصّلت من لدن حكيم خبير.

هذا، وفي قوله:(أُحْكِمَتْ) دليل على أنّ القرآن مُحدَث إذ الإحكام من صفات الأفعال ولا يجوز أن يكون إحكامه غيره؛ لأنّه لو كان إحكامه غيره لكان قبل أن يُحكمه غيرَ محكم، ولو كان كذلك لكان باطلاً، لأنّ الكلام متى لم يكن محكماً وجب أن يكون باطلاً فاسداً، وهذا باطل.(التبيان في تفسير القرآن:٥/٤٤٦، نقله عن الجُبّائي.)

وأمّا كون المُنزل خبيراً، فلعلّه إشارة إلى أنّه خبير بحقائق الأشياء وما يصلح الإنسان وما يفسده، ولذلك جاء تفسيره في الآية التالية بدعوة الإنسان إلى التوحيد الذي هو رأس المعارف، واجتناب الشِّرك الذي هو آية انحطاط الإنسان.

٢. (أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ):

الآية تشير إلى أُسّ المعارف ورأسها الذي بعث لأجله الأنبياء عبر القرون، قال سبحانه: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ)(النحل:٣٦.)، فكأنّ قوله سبحانه: (أَلاَّ تَعْبُدُوا) شيئاً (إِلاَّ اللهَ) دليل على كونه خبيراً بحقائق الأمور ومصالحها ومفاسدها، وأنّ في التوحيد كلّ المصلحة ويقابله الشِّرك. ثم يأمر النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بأن يقول: (إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ)فالنبيّ منذر، أي مخوّف من التمرّد على الله وعصيانه بشديد عقابه، مبشِّر بحُسن ثوابه على طاعته سبحانه، وامتثال أمره ونهيه. وقوله:(نَذِيرٌ)راجع إلى قوله: (أَلاَّ تَعْبُدُوا)الدالّ على نهيه سبحانه عن عبادة غيره، وأمّا قوله:(وَبَشِيرٌ) فناظر إلى أمره بعبادة الله وحده، فيكون اللَّف والنَّشر مرتَّباً.

٣. (وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ):

لمّا كان الخطاب في الآية السابقة متوجّهاً إلى المشركين، الذين دلّت الآية على أنّهم كانوا يعبدون غير الله، جاء البيان القرآني يدعوهم للاستغفار أوّلاً والتوبة ثانياً وقال:(وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ) بالنّدم على ما مضى من الذَّنب (ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ) بالعزم على عدم العود في المستقبل، وبهذا ظهر عدم التكرار بين الفقرتين.

قال الزمخشري: فإن قلت: ما معنى (ثُمَّ) في قوله:(ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ)؟ قلت: استغفروا من الشِّرك، ثمّ ارجعوا إليه بالطاعة.(تفسير الكشّاف:٢/٢٠٧.)

وللسيد الطباطبائي بيان آخر في رفع التكرار، قال: الظاهر أنّ المراد بالتوبة في الآية الإيمان، كما في قوله تعالى:(فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ)(غافر:٧.)، فيستقيم الجمع بين الاستغفار والتوبة مع عطف التوبة عليه بثمّ، والمعنى: اتركوا عبادة الأصنام بعد هذا واطلبوا من ربّكم غفران ما قدّمتم من المعصية، ثمّ آمنوا بربّكم.(الميزان في تفسير القرآن:١٠/١٤١.)

ثمّ إنّه سبحانه يرتّب على استغفارهم وتوبتهم أمرين:

أ. (يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى): أي يمتّعكم في الدنيا بالنّعم السابغة إلى الوقت الذي قُدّر لكم في الدنيا.

ب. (وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ) وأراد من الفضل الأوّل عمل الخير، ومن الفضل الثاني الجزاء في الآخرة، ومعنى الفقرة: يجزي كلَّ من عمل عملاً صالحاً جزاءه في الآخرة. إلى هنا تمّ ما يرجع إلى المستغفر والتائب.

وجود الصلة بين الاستغفار والسعادة

ثمّ إنّه يستفاد من قوله سبحانه:(وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا) أنّ بين أعمال الإنسان وما يترتّب عليها من السعادة والشقاء صلة واضحة، حيث إنّ الاستغفار يسبّب تمتُّع الإنسان متاعاً حسناً، وهذا ما أشار إليه سبحانه في غير واحدة من الآيات، أوضحها ما في سورة نوح، قال تعالى: حاكياً عن نوح:(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا)(نوح:١٠ـ١٢.). وسيوافيك شرح هذا الموضوع في تفسير سورة نوح، فانتظر.

هذا وقد قال الشيخ الرئيس ابن سينا: واعلم أنّ أكثر ما يقرّ به الجمهور ويفزع إليه، ويقول به، فهو حقّ، وإنّما يدفعه هؤلاء المتشبّهة بالفلاسفة جهلاً منهم بعلله وأسبابه، وقد عملنا في هذا الباب كتاب البرّ والإثم، فتأمّل شرح هذه الأُمور من هناك، وصدق بما يحكى من العقوبات الإلهية النازلة على مدن فاسدة، وأشخاص ظالمة، وانظر أنّ الحقّ كيف يُنصر، واعلم أنّ السبب في الدعاء منّا أيضاً وفي الصدقة وغير ذلك، وكذلك حدوث الظلم والإثم إنّما يكون من هناك، فإنّ مبادئ جميع هذه الأُمور تنتهي

إلى الطبيعة والإرادة والاتّفاق.(الشفاء:٤٣٩، الإلهيات، المقالة العاشرة، الفصل الأوّل.)

بقيت هنا طائفة، وهم مَن لم يقلع عن الشّرك وبقي على عبادة غير الله، وإليهم يشير سبحانه بقوله:(وَإِنْ تَوَلَّوْا): أي أعرضوا عمّا أُمروا به: (فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ) أطلق الخوف وأُريد به اليقين. ووصف اليوم بالكِبَر بمعنى كبير شأنُه، ويحتمل أن يراد: كبير عذابُه، لقوله سبحانه:(وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا)(الفرقان:١٩.) والإيعاد بعذاب الآخرة ربما يدلّ على دوام نعم الدنيا في حقّهم، وهو من مظاهر رحمته سبحانه على المؤمن والكافر.

٤. (إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ):

لمّا أوعدهم في الآية السابقة بالعذاب الأُخروي، علّل ذلك بأنّ الجميع صائرون إلى الله سبحانه فقال: (إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) ومنه رجوعكم إلى الله يوم البعث.

٥. (أَلاَ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلاَ حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمَ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ):

للوقوف على معنى الآية نمهّد لذلك بما يلي:

بما أنّ الشرك ملّة واحدة، فيظهر أنّ عمل المشركين في الفترة المكّية كان نظير عمل المشركين في عهد مَن تقدّم من الأنبياء، مثل نوح(عليه السلام) الذي وصف موقف مشركي عهده من دعوته بقوله:(وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا)(نوح:٧.). هذا حال مشركي عهد النبي نوح(عليه السلام) ومنه يظهر معنى الآية، وهو أنّه كلّما كان النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) يتلو عليهم الكتاب وينذرهم، فإنّ ردّة فعلهم كانت على نحوين:

ما هو المراد من ثني الصدور؟

١. (أَلاَ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ)والثّني ـ كما تقدّم في المفردات ـ عبارة عن العطف والطيّ، فالآية تتحدّث عن حالة نفسيّة للمشركين، حيث كانت صدورهم مملوءة بالحقد والعداء لرسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)فصارت هذه الحالة النفسيّة تظهر بالعمل الجوارحي، وهي أنّهم عند ما يَرون النبيّ وهو يقرأ القرآن يطأطئون رؤوسهم ويعطفون صدورهم على بطونهم (لِيَسْتَخْفُوا) من سماع كلام النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) أو من رؤيته .

٢. (أَلاَ حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ): أي وفي الوقت نفسه كانوا يستغشون ثيابهم، أي يَتغَطّون بها، إمعاناً في الاستخفاء منه لئلاّ يراهم يستمعون إليه، وإشعاراً بأنّهم لا يسمعون كلامه بتاتاً.

ثمّ إنّه سبحانه أنذرهم بقوله: (يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ): أي حينما يغطّون رؤوسهم بثيابهم، فإنّ الله يعلم ما يخفون وما يعلنون (إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) وعلمه بذات الصُّدور كناية عن علمه بالنيّات المكنونة، وبما تضمره النّفس من أسرار. وبهذا نكون قد خرجنا بتفسير للآية من دون أن نجعلها كناية أو مجازاً عن شيء.

ويؤيّد هذا التفسير ما رواه الكليني عن سَدير عن أبي جعفر]الباقر[(عليه السلام) قال: أخبرني جابر بن عبد الله أنّ المشركين كانوا إذا مرّوا برسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) حول البيت طأطأ أحدهم ظهره ورأسه هكذا، وغطّى رأسه بثوبه حتى لا يراه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فأنزل الله عزّ وجلّ(أَلاَ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلاَ حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ).(الكافي:٨/١٤٤ برقم ١١٥؛ تفسير نور الثقلين:٢/٣٣٥.)

وروى ابن أبي حاتم عن عطاء بن أبي مسلم الخراساني في تفسير الآية قوله: يطأطئون رؤوسهم ويحنون صدورهم.

هذا، وقد نقل السّيوطي شيئاً كثيراً عن ابن عباس ممّا لا يناسب سياق الآية.(تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم:٦/١٩٩٩ برقم ١٠٦٦٠.)

ثمّ إنّ ما ذكرناه هو ما اختاره صاحب «تفسير المنار» حيث قال: والأقرب أن يكون تصويراً لما كان يحاوله بعض الكفّار ثمّ المنافقين عند سماع القرآن من الاستخفاء بتنكيس الرأس، وثني الصدر على البطن كما يطوى الثوب، حتى يخفى فاعله بين الجمع، خجلاً ممّا فيه من القرع والصداع، فالمعنى:ألا إنّ هؤلاء الكافرين الكارهين لدعوة التوحيد يحنون ظهورهم وينكسون رؤوسهم كأنهم يحاولون طيّ صدورهم على بطونهم عند سماع القرآن، وهو معنى بليغ... .(تفسير المنار:١٢/١٠. والأولى حذف كلمة «المنافقين»، لأنّ الآية مكّية، ولم يكن في مكّة نفاق.)

وقال السيد الطباطبائي: فالمراد بقوله:(يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ)أنّهم يميلون بصدورهم إلى خلف ويطأطئون رؤوسهم ليتخفّوا من الكتاب أي من استماعه حين تلاوته، وهو كناية عن استخفائهم من النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) ومن حضر عنده حين تلاوة القرآن عليهم للتبليغ، لئلاّ يُروا هناك فتلزمهم الحجّة.(الميزان في تفسير القرآن:١٠/١٤٧.)

يلاحظ عليه: أنّ الصحيح أن يقول: يميلون بصدورهم إلى بطونهم لا إلى الخلف، لأنّ الميل إلى الوراء هو من مظاهر الإقبال، كما أنّ الأَولى حذف كلمة كناية، إذ ليس في الآية كناية.

ويظهر من السيد الرضيّ(رحمه الله) أنّه جعل الآية استعارة وقال: هذه استعارة لأنّ حقيقة الثني لا تتأتّى في الصدور، والمراد بذلك ـ والله أعلم ـ أنّهم يثنون صدورهم على عداوة الله ورسوله(صلى الله عليه وآله وسلم) وذلك كما يقول القائل: هذا الأمر في طيّ ضميري، أي قد اشتمل عليه قلبي، فيكون قوله تعالى:(يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ) بمنزلة قوله: يطوون صدورهم، ولفظ يثنون أعذب استماعاً، وأحسن مجازاً.(تلخيص البيان في مجازات القرآن:٥٨.)

٦. (وَمَا مِنْ دَابَّة فِي الأَرْضِ إلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَاب مُبِين):

الآية تشتمل على فقرات ثلاث كلّ بحاجة إلى تفسير:

أ. (وَمَا مِنْ دَابَّة فِي الأَرْضِ إلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا).

ب. (وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا).

ج. (كُلٌّ فِي كِتَاب مُبِين).

هذا بالإضافة إلى بيان صلة الآية بما قبلها من الآيات.

أمّا الفقرة الأُولى، فالدابّة عبارة عن كلّ ما يدبّ في الأرض أي يسير فيها سواء أكان السير بسرعة أم ببطء، فيشمل الفرس والنّملة، كما أنّ المراد من الرّزق هو العطاء المستمرّ الذي به حياة الدابّة، فالفقرة تحكي عن أنّ الله تعالى قد تكفّل برزق كلّ دابّة وألزم نفسه بذلك، كما يدلّ عليه قوله: (عَلَى اللهِ) فقد التزم سبحانه من جانب نفسه فصار ملتزماً أن يُرزِق كلَّ دابّة، فيكون سبحانه مَن عليه الحقّ، والدابّة مَن لها الحقّ، وهذا ليس أمراً محالاً ولا قبيحاً؛ لأنّه سبحانه لأجل تفضّله ولطفه ألزم نفسه بهذا، حتى أنّه تظاهر بالاقتراض من عباده وقال:(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا)(البقرة:٢٤٥.)، كما أنّه سبحانه ألزم نفسه بإنجاء الرُّسل والمؤمنين وقال: (ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ)(يونس:١٠٣.).

ثمّ إنّ تكفّله سبحانه برزق كلّ دابّة لا يستفاد منه وصول الرّزق بلا كدٍّ ولا سعي، وإنّما جعل وصول رزقه مرتبطاً بالأسباب. وسيوافيك توضيحه في تفسير قوله سبحانه:(إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ)(الذاريات:٥٨.).

قال صاحب «تفسير المنار»: إنّ بعض العبّاد والشعراء زعموا أنّ الكسب وعدمه سواء، نظير قول بعض الخياليّين الجاهلين المتواكلين غير المتوكّلين:

جرى قلم القضاء بما يكونُ *** فسيّان التحرك والسكونُ

جنون منك أن تسعى لرزق *** ويُرزَق في غشاوته الجنينُ

فهذا الشاعر أحقّ بصفة الجنون ممّن يصفهم بها.(تفسير المنار:١٢/١٤.)

كيف يقول ذلك، والله يأمرنا بالسّير لكسب الرزق ويقول:(فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ)(الملك: ١٥.)؟

وقد ورد في الحديث: «أنّ الله تعالى ليبغض العبد الفارغ»(من لا يحضره الفقيه:٣/١٦٩.)، كما ورد: «ملعون من ألقى كَلَّه على النّاس»،(الكافي:٥/٧٢.) إلى غير ذلك من الروايات. ثمّ إنّه سبحانه قد هيّأ لمريم(عليها السلام) جميع الأُمور من جانب الغيب، فحملُها لعيسى وولادتُها وما يمتّ لذلك بصلة، كلّه كان عملاً غيبياً خارجاً عن قدرة مريم، ولكنّها لمّا احتاجت إلى الغذاء بعد وضع الحمل أمرها سبحانه بهزّ جذع النخلة، ولم يشأ أن يرزقها الرُّطب من دون قيامها بهذا العمل.

ومن عجيب الأمر ما ذكره الرازي في المقام قال: تعلّق أصحابنا بهذه الآية في إثبات أنّ الرّزق قد يكون حراماً، قالوا لأنّه ثبت أنّ إيصال الرزق إلى كلّ حيوان واجب على الله تعالى بحسب الوعد وبحسب الاستحقاق، والله تعالى لا يخلّ بالواجب، ثمّ قد نرى إنساناً لا يأكل من الحلال طول عمره، فلو لم يكن الحرام رزقاً لكان الله تعالى ما أوصل رزقه إليه، فيكون تعالى قد أخلّ بالواجب، وذلك محال، فعَلمنا أنّ الحرام قد يكون رزقاً.(تفسير الرازي:١٧/١٨٦.)

يلاحظ عليه: أنّه سبحانه قد وفى لنا بما وعد، فبيّن لنا ما هو الحلال والحرام، ومكّن العبد من تحصيل الحلال واجتناب الحرام، وحينئذ فمن الناس مَن يؤْثِر الحلال على الحرام، ومنهم مَن يختار العكس، أي الحرام على الحلال، فلو كان هناك لوم فإنّما هو على العبد وأنّ مولاه سبحانه قد وفى بوعده ولم يُخلفه.

إيضاح المراد من المستقرّ والمستودع

وأمّا الفقرة الثانية، أعني قوله تعالى: (وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا)فالضميران يرجعان إلى الدابّة، والفقرة بحاجة إلى تفسير ما هو المراد من المستقرّ والمستودع. ويمكن أن يقال: إنّ المستودع عبارة عن المكان الذي كانت فيه قبل أن تدبّ في الأرض، وهي الأرحام للجنين، والمستقرّ الذي قرّت فيه بعد الدبيب، بخروج الفرخ من البيضة، والجنين من الرَّحِم، فالله سبحانه يوجد أسباب العيش والحياة لكلّ دابّة في مستودعها ومستقرّها. وهذا هو الظاهر من صاحب «الكشّاف»، حيث قال: المستقرّ: مكانه من الأرض ومسكنه، والمستودع حيث كان مودَعاً قبل الاستقرار من صُلب أو رَحِم أو بيضة.(تفسير الكشّاف:٢/٩٠.) واختاره أيضاً غير واحد من المفسّرين، ولكن يلزم من هذا التفسير تقديم المستودع على المستقرّ، ولذلك عدل السيد الطباطبائي إلى وجه آخر، حاصله: أنّ الدوابّ على قسمين، فقسم ما كان في مستقرّه لا يخرج منه كالحيتان في الماء، والرّخويات(ذات الأصداف) في الأماكن التي استقرّت فيها من الأرض، فهذه الدوابّ يرزقها سبحانه في مستقرّها، وقسم آخر يخرج عن مستقرّه وهو في مستودع سيتركه إلى مستقره كالطير في الهواء والمسافرين النازحين عن أوطانهم والأجنّة في الأرحام، فهذه الدوابّ يرزقها سبحانه في مستودعها إلى أن ترجع إلى مستقرها، فالله تعالى عالم بحال كلّ دابّة في الأرض، وكيف لا وعليه تعالى رزقها ولا يصيب الرِّزق المرزوق إلا بعلم من الرازق بالمرزوق وخبرة منه بما حلّ فيه من محلّ دائم أو معجّل، ومستقرّ أو مستودع.(انظر: الميزان في تفسير القرآن:١٠/١٤٨(مع تصرّف في بعض العبارات).)

وبذلك يُعلم وجه تقديم المستقرّ على المستودع، لأنّ الأوّل هو الأصل في حياة الدابّة.

وأمّا الفقرة الثالثة فهي قوله: (كُلٌّ): أي كلّ واحد من الدوابّ أرزاقها ومستقرّها ومستودعها مكتوب (فِي كِتَاب مُبِين) ولوح محفوظ، كتب الله فيه مقادير الخلق كلّها، قال سبحانه:(وَمَا مِنْ دَابَّة فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِر يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْء ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ)(الأنعام:٣٨.)، وقال سبحانه: (وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّة لاَ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ

يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ).(العنكبوت:٦٠.)

وقال الإمام علي(عليه السلام):«قَسَمَ أَرْزَاقَهُمْ، وَأَحصَى آثَارَهُمْ وَأَعْمَالَهُمْ، وَعَدَدَ أَنْفُسِهِمْ، وَخَائِنَةَ أَعْيُنِهِمْ، وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ مِنَ الضَّمِيرِ، وَمُسْتَقَرَّهُمْ وَمُسْتَوْدَعَهُمْ مِنَ الأَرْحَامِ وَالظُّهُورِ، إِلَى أَنْ تَتَنَاهَى بِهِمُ الْغَايَاتُ...».(نهج البلاغة: الخطبة ٩٠.)

وأمّا وجه اتصال الآية بما قبلها، فإنّه سبحانه لمّا ذكر علمه بما يسرّون وما يعلنون وبما في ذات الصدور، عطف عليه بأنّه لا يخفى عليه شرّ هؤلاء، كيف؟ وهو الذي يرزقهم ويرزق كلّ دابّة ويعلم مستقرّها ومستودعها.

سورة هود: الآيتان ٧ ـ ٨ (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ.... وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ).

الآيتان: السابعة والثامنة

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّام وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ * وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّة مَعْدُودَة لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ).

المفردات

أُمّة: الأمة: الجماعة الذين يعيشون في مكان واحد وتربطهم أواصر مختلفة، ويُطلَق أيضاً على الزمان، كما في قوله تعالى:(وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّة)(يوسف:٤٥.)وهذا المعنى هو المراد هنا.

حاق: نزل وأحاط.

التفسير

٧. (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّام وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ولَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ):

الآية تشتمل على المقاطع التالية:

١. خلق السماوات والأرض في أيام ستة.

٢. كون عرشه على الماء يومذاك.

٣. الغاية من خلق النظام السائد، هي ابتلاء الإنسان .

٤. تلقي الكفّار الوعيد بالبعث على أنّه سحر.

وإليك دراسة الجميع:

أمّا الأوّل فيشير إليه بقوله:(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّام)، تكرّر ذكر خلق السماوات والأرض في ستة أيام في ست سور أُخرى.(لاحظ: الأعراف:٥٤، يونس:٣، الفرقان:٥٩، السجدة:٤، ق:٣٨، الحديد:٤.) والأيام جمع اليوم ويراد به مقدار معتدّ به من الزمان، وليس من الواجب أن يطابق اليوم في كلّ ظرف ووعاء، يومَ أرضنا الحاصل من دوران الأرض حول محورها دورة واحدة، بشهادة أنّ اليوم الواحد في القمر يعدل (٢٩) يوماً من أيام الأرض، كلّ ذلك يلزمنا القول أنّ المراد من الأيام هو الأدوار التي تمّ فيها خلق السماوات والأرض، فإنّ اليوم يستعمل ويراد به الوقت مطلقاً ومنه قول الإمام علي(عليه السلام): «وَاعْلَمْ بِأَنَّ الدَّهْرَ يَوْمَانِ: يَوْمٌ لَكَ وَيَوْمٌ عَلَيْكَ».(نهج البلاغة، قسم الحكم، برقم ٣٩٦.) وقوله(عليه السلام) في حقّ مروان وولده:«وَسَتَلْقَى الأُمَّةُ مِنْهُ وَمِنْ وَلَدِهِ يَوْماً أَحْمَرَ!».(نهج البلاغة، الخطبة ٧٣.)

وعلى هذا فالمراد من (أَيَّام) في قوله: (سِتَّةِ أَيَّام) هو المقدار المعتدّ به من الزمان، لا الأيام في مقابل اللّيالي، وقد مرّ في الروايات أنّه يطلق اليوم ويراد به الزمان نفسه.

ويشهد لِما ذكرنا دراسة حقيقة الزمان، فإنّها مقدار الحركة، فلو لم يكن هناك جوهر في مسير التحوّل والتدرّج لا يتحقّق الزمان بشهادة أنّه مقدار الحركة وهي فرع وجود المتحرِّك عند سيلانه، وعلى هذا فلا تتعلّق القدرة على خلق الزمان ابتداءً ما لم يكن هناك جوهر متحرّك.

وممّا ذكرنا يظهر أنّ المراد من ستة أيام ليس وجودها مستقلّة عن خلق السماوات والأرض حتى يتصوّر بأنّها خُلقت في نفس الفترة وفي ظرفها إذ لازم ذلك كون الزمان مخلوقاً مستقلاًّ، وقد عرفت امتناعه.

فإن قلت: إنّ أفعال الله تعالى لا تقدّر بالزمان، لقوله سبحانه:(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)(يس:٨٢.).

قلت: أُريد من الأيام المدّة التي تكونت فيها السماوات والأرض وتمّت فيها تسويتها على الصورة التي أرادها الله تعالى، وتهيّأت الأرض لاستقبال الحياة. فتعلّقت مشيئته على تكوّن العالم بالتدريج، وهو مفاد «كن» في المقام. قال الآلوسي: والمراد باليوم الوقت مطلقاً لا المتعارف إذ لا يتصوّر ذلك حين لا شمس ولا أرض.(روح المعاني:٤/١٢.)

والذي يؤيّد ذلك، أي أنّ السماوات والأرض لم تُخلقا دفعة واحدة، هو قول الباحثين بأنّ خلق الكون قد مرّ بأدوار ومراحل لا يعلم قدرها إلاّ الله سبحانه. وسيوافيك بيانه في تفسير سورة (السجدة)، فانتظر.

وأمّا المقطع الثاني، وهو ما في قوله تعالى: (وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ)فالبحث فيه تارة عن معنى العرش وأُخرى عن كونه على الماء.

أمّا العرش فهو في اللُّغة سرير المَلك الذي يجلس عليه وهو يدبّر شؤون البلد، وربّما يُكنى به عن القدرة وزوالها، فيقال: (اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) بمعنى ملك أو استقام أمر المُلك له، ويقال في خلافه: ثُلَّ عرشُه، بمعنى هلك وزال ملكه، قال الشاعر:

إذا ما بنو مروان ثُلّت عروشهم *** وأودت كما أودت إيادٌ وحِمْيَرُ

(مجمع البيان:٤/٢٩٤(تفسير الآية ٥٤ من سورة الأعراف).)

وبما أنّه سبحانه متعال عن الجسم والجسمانيات، فلا يمكن تفسير عرشه بسرير الملوك، لأنّه يستلزم الجسم والجهة، تعالى عن ذلك (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)(الشورى:١١.)، فلا محالة أن يكون المراد استيلاؤه على عرش التدبير، دون أن يعجز عن تدبير ما خلق أو يفوّضه إلى غيره. وقد مرّ توضيح ذلك في تفسير قوله:(ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ)(الأعراف:٥٤.)، فلاحظ.

تبيين كون عرشه سبحانه على الماء

الكلام هنا حول متعلّق السُّلطة والمُلك في الآية، حيث قال: (وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) وكونه على الماء كناية عن أنّ ملكه وسلطانه كان مستقرّاً يومئذ على الماء الذي هو مادّة الحياة. وبما أنّ قوله: (وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) جملة حالية تتعلّق بقوله: (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ) فهو يدلّ على وجود الماء قبل السماوات والأرض حين خلقهما، والحال أنّ ملكه وسلطانه كان على الماء. هذا هو الظاهر من الآية، ولو أردنا إيضاحها بما توصّل إليه العلم الحديث، فيمكن أن يقال: إنّ الماء وإن كان هو المائع السائل المستعمل للشرب والتطهير إلاّ أنّه قد يطلق على كلّ سائل مائع كالفلزات المائعة وما أشبه ذلك، وعلى ذلك فيمكن أن يقال:إنّ في بداية الخلق كان عالم الوجود على صورة مواد مذابة، وهي التي تشكّل مادة السماوات والأرض، فعلى هذا فعالم الوجود وعرش قدرة الله كان مستقرّاً على المواد المتراكمة الذائبة.(انظر: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل:٦/٤٤٢.)

وحصيلة الكلام: إنّ الماء يُطلق على شيئين:

١. الماء الذي خُلق منه كلّ شيء حيّ، قال سبحانه:(وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْء حَيّ)(الأنبياء:٣٠.).

٢. السائل (وهو إحدى الحالات الثلاث للمادة)(والحالتان الأُخريان، هما: الحالة الغازية، والحالة الصلبة.) ولذلك أُطلق على النُّطفة، قال سبحانه: (خُلِقَ مِنْ مَاء دَافِقٍ)(الطارق:٦.)، وقال سبحانه: (ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاَلَة مِنْ مَاء مَهِين).(السجدة:٨.) ويقول سبحانه: (وَيُسْقَى مِنْ مَاء صَدِيد)(إبراهيم:١٦.)، وهو القَيح المختلط بالدم.

ثمّ إنّ القرطبي فسّر كون العرش على الماء برواية كعب الأحبار(تفسير القرطبي:٩/٨.)، ذلك اليهودي الماكر الذي أدخل الإسرائيليات في أحاديث المسلمين.

هذا ما وصل إليه الإنسان في تفسير الكون الذي يمكن أن يكون تفسيراً للآية، ومع ذلك فالآية يكتنفها الإبهام، ولعلّ المستقبل الكشّاف يفسّر لنا هذه الآية بنحو أفضل من ذلك.

يقول صديقنا الشيخ مغنية(رحمه الله):(وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) المراد بعرش الله ملكه واستيلاؤه، والماء معروف، وتدلّ الآية على أنّ الماء كان موجوداً قبل خلق السماوات والأرض، أمّا من أين جاء، وهل كان قائماً على قرار؟ فلا نصّ على شيء من ذلك في آية، أو رواية متواترة، والعقل وحده لا يملك العلم به، لذا نترك البحث عنه، وكلّ ما قرأنا في هذا الباب لا يعدو الحدس والتخمين، أمّا المادة الأُولى التي وُجد منها الكون فلا تفسير لها عندنا إلاّ قوله تعالى: كوني فكانت، ومَن أنكر هذا علينا تلونا قوله سبحانه:(لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ).(التفسير الكاشف:٤/٢١٠ـ٢١١.)

ونعمَ ما يقول صاحب الظلال: إنّ القرآن هو الأصل والنظريات العلمية توافقه أو تخالفه سواء، أمّا الحقائق العلمية التجريبية فمجالها غير مجال القرآن، وقد تركها القرآن للعقل البشري يعمل فيها بكامل حريته... إلى آخر ما ذكر.(في ظلال القرآن:١٠/٥١٨.)

العبرة في الأعمال بالكيفية لا بالكمية

وأمّا المقطع الثالث، أعني قوله:(لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) فظاهره أنّ ما تقدّم من خلق السماوات والأرض في ستة أيام كان من أجل اختبار الناس، وبهذا يعطي للإنسان مكرمة ومقاماً حيث إنّه الغاية الكبرى لخلق ما سواه، لكنّه سبحانه يختبر الإنسان بحسن العمل لا بكثرته كما يقول:(أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)، وهذا يدلّ على أنّ العبرة بالكيفية لا بالكمية.

روى ابن أبي حاتم بإسناده عن ابن عمر: أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) تلا (أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) ثم قال: أيّكم أحسن عقلاً، وأورع عن محارم الله، وأسرعكم في طاعة الله.(تفسير القرآن العظيم:٦/٢٠٠٦ برقم ١٠٧٠٥.)

وروى سفيان بن عُيينة عن أبي عبد الله[الصادق](عليه السلام) في قول الله عزّ وجلّ:(لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)، قال: «ليس يعني أكثر عملاً، ولكن أصوبكم عملاً، وإنّما الإصابة خشية الله والنيّة الصادقة»، ثم قال: «الإبقاء على العمل حتى يخلص أشدّ من العمل، والعمل الخالص الذي لا تُريد أن يحمدك عليه أحدٌ إلاّ الله عزّ وجلّ، والنّيّة أفضل من العمل، ألا إنّ النّيّة هي العمل، ثم تلا قوله عزّ وجلّ:(قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ)(الإسراء:٨٤.) يعني على نيّته».(الكافي:٢/١٦، باب الإخلاص، برقم٤.)

ومن هنا قال أحد المعاصرين: النوايا الصّادقة طليعة جيش الأعمال الصالحة.(القيم الإنسانية للدكتور محمود الموسوي:٤٢.)

وأمّا المقطع الرابع، أعني قوله:(وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ)، فذكر فيه سبحانه إنكار المشركين البعث بعد الموت على وجه التعجّب. ووجهه واضح لأنّ الفقرة مرتبطة بخلق السماوات والأرض لغاية ابتلاء الإنسان، فإذا كان الإنسان هو الأصيل في الخلق وسُنن الوجود، فلابدّ أن يكون لخلقه غاية، وليس هي إلاّ الابتلاء، ثمّ الجزاء حسب ابتلائه.

ما هي الغاية من ابتلاء الإنسان؟

جدير بالتنبيه أنّ ابتلاء الإنسان لا يعني عدم علمه سبحانه بمصير الإنسان، وما تنطوي عليه نفسه، وإنّما الغاية تمييز

الصادق في إيمانه وأفعاله من الكاذب فيهما، وإظهار ما هو مكنون في ذات الإنسان من خير وشرّ وإخراج ما هو بالقوة إلى الفعل، من غير فرق بين كون الإنسان سعيداً أو شقيّاً، فالله سبحانه يعامل الناس معاملة المختبر«لِتَظْهَرَ الْأَفْعَالُ الَّتِي بِهَا يُسْتَحَقُّ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ». (نهج البلاغة: قصار الحكم، برقم ١٩٣.)

ومثال ذلك: الابتلاء الشديد الذي تعرّض له المسلمون في غزوة الأحزاب(الخندق)، والذي تكشّفت عنه ثلاث طوائف: أقوياء الإيمان، وضعاف الإيمان، والمنافقون. وسيوافيك تفصيل ذلك في تفسير سورة الأحزاب إن شاء الله تعالى.

ثمّ إنّ نسبة البعث بعد الموت إلى السّحر نابع عن جهل المشركين بأنّ البعث مرتبط بناموس الكون، وأنّ الحياة الدنيوية مقدّمة للحياة الأُخروية، فكيف يمكن فصل الحياتين؟

ثمّ إنّ وصف البعث بعد الموت بالسِّحر أُريد بالسِّحر الكلام العاري عن الحقيقة لأنّه لا أساس له، لا السّحر المصطلح.

٨. (وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ):

يظهر من بعض الآيات أنّ الاستهزاء بنزول العذاب كان سنّة في الأُمم السابقة أيضاً، يقول سبحانه: (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ * وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ). (يونس:٤٧ـ٤٨.)

وحكى سبحانه عن أُمّة نوح أنّهم كانوا يخاطبون نبيّهم(عليه السلام) بقولهم: (يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا). (هود:٣٢.)

وإلى هذه السنّة تشير آيتنا هذه. ويظهر من سياق الآية أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) كان يوعدهم بالبعث وأنّهم سيُجزَون فيه على أعمالهم السيئة، فكان المشركون المعاندون يحتجّون على النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بأنّه لو صحّ كلامك هذا، فلماذا لا ينزل علينا العذاب؟ فهؤلاء كانوا جاهلين بسبب تأخير العذاب وأنّه سوف يشملهم العذاب في يوم معيّن، ولكن للتأخير سبب وهو:

ما هو السبب لتأخير العذاب؟

أوّلاً: وجود الفرق بين الأُمّة الإسلامية والأُمم السالفة، حيث إنّه لا يعذّبهم بعذاب الاستئصال مادام النبيّ بينهم. (لاحظ: الأنفال:٣٣.)

وثانياً: إنّ في تأخير العذاب مصالح منها إيمان كثير من المشركين وأولادهم بالإسلام، فكم قد ولد للكفّار من أولاد نشأوا بعد رحيل الآباء في الإسلام. ولعلّ هناك مصالح أُخرى يمكن أن تكون سبباً لتأجيل العذاب، فعلى هذا فمعنى قوله سبحانه:(وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ): أي عذاب الاستئصال (إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ): أي إلى زمان مؤجّل، فهو لسبب، وإنْ كان المشركون جاهلين بالمصلحة، ولذلك (لَيَقُولُنَّ) على وجه الاستهزاء (مَا يَحْبِسُهُ): أي أيّ شيء يؤخّر عنّا هذا العذاب إن كان حقّاً؟ ثمّ يوعدهم بقطعية نزول العذاب بقوله: (أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ): أي يوم القيامة (لَيْسَ)هذا العذاب (مَصْرُوفًا عَنْهُمْ): أي مردوداً عنهم (وَحَاقَ بِهِمْ): أي نزل بهم (مَا)الذي (كَانُوا بِهِ):أي بالعذاب الإلهي(يَسْتَهْزِئُونَ) ويسخرون منه قبل وقوعه.

سورة هود: الآيات ٩ ـ ١١ (وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ... أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ).

الآيات: التاسعة إلى الحادية عشرة

(وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ * إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ).

المفردات

أذقنا: الذَّوق: وجود الطَّعم في الفم، وأصله فيما يقلّ تناوله دون ما يكثر.

نزعنا: نزع الشيء: جذبه من مكانه وقلعه، وأُريد به هنا سلب النِّعمة.

ليئوس: يؤوس: مبالغة في اليائس. واليأس، هو انقطاع الأمل.

كفور: مبالغة في الكفر، وأُريد كافر النّعمة.

نعماء: النّعماء: الخير والمنفعة.

ضرّاء: من الضُّرّ، وهو سوء الحال في النَّفس أو البدن أو في حالة ظاهرة من قلّة مال وجاه.

مسَّتْه: نالتْه.

فَرِح: مغترّ بالنِّعمة.

فخور: شديد الفخر، والفخر: ذكر المناقب للتباهي والتطاول بها على السّامع.

التفسير

هذه المجموعة من الآيات تتحدّث عن أنّ الإنسان الذي لا يعرف مبدأ النعمة ومنشأها، ولو عرفه أيضاً لم يشكره، أنّ هذا الإنسان تعرض له حالتان:

١. إذا سُلبت منه النِّعمة صار يؤوساً كفوراً من تبديل حالته إلى حالة أُخرى.

٢. إذا نالته نعمة من نعم الله، لا يقابلها بشكره عليها، بل يفرح ويفتخر بها على غيره على خلاف الذي يأتي ذكره في الآية الثالثة من هذه المجموعة. وعلى هذا فالظاهر أنّ المراد بالإنسان هنا أعمّ من الكافر، فيشمل أيضاً الغافل عن مبدأ النعمة وإن كان مؤمناً بالله تعالى.

٩. (وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ):

الحالة الأُولى للإنسان

يقول سبحانه: (وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ): أي منحنا الإنسان، وأُريد به الذي لا يعرف مصدر النعمة أو الذي يغفل عنه، فيشمل الكافر والفاسق والمؤمن الغافل(مِنَّا رَحْمَةً) كالسَّعة في المال والصحّة والولد وغير ذلك من نعم الدنيا (ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ): أي سلبنا منه تلك النعمة لمصلحة، تجده (إِنَّهُ لَيَئُوسٌ): أي قنوط من رحمة الله (كَفُورٌ): أي كافر بالنّعمة غير شاكر لها، فلو كان مؤمناً بالله الذي وسعت رحمته كلّ شيء إيماناً راسخاً، لَمَا يئس من رحمته ورجا رجوع النِّعمة، ولم يكفر بها بل يشكرها.

هذه حالته الأُولى، وأمّا حالته الثانية فهي كما تحكيه الآية التالية:

١٠. (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ):

الحالة الثانية للإنسان

فلو تعلّقت مشيئته سبحانه بإعادة النّعمة عليه بعد سلبها منه، كما يقول:(وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ): أي بعد سلب النّعمة لأصبح في حالة جديدة وهي (لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي) أُريد بها الشدائد والآلام، ثمّ (إِنَّهُ لَفَرِحٌ) لشديد الفرح، أي بَطِر بالنِّعمة مغترٌّ بها (فَخُورٌ)شديد الفخر، يباهي الناس ويفاخر بالنّعماء، فهو لا يذكر مَن أذهب عنه السيئات، وبدّلها إلى النّعماء فيشكره، بل ينسى كلّ ذلك ولا يعتدّ به، ويغمره الفرح الشديد.

روي عن الإمام علي(عليه السلام) أنّه قرأ... وقوله: (وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ) قال: «إذا أغنى الله العبد ثم افتقر أصابه الإياس والجزع

والهلع، فإذا كشف الله عنه ذلك فرح». (تفسير القمي:١/٣٢٣.)

١١. (إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ):

استثناء الصابرين والعاملين

لمّا وصف سبحانه الإنسان المجرّد عن الإيمان بالله أو الغافل عنه باليؤوس إذا سُلبت منه النعمة، وبالفَرِح الفخور إذا رجعت إليه، استثنى الإنسان المؤمن، إذ هو على طرف النقيض ممّن آثر الدنيا وحرص عليها (الكافر وغيره)، وقال: (إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا) عند نزع الرحمة ونزول البلاء (وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) عند النَّعماء، بالمبادرة إلى استعمالها فيما يرضيه من أعمال البرّ والخير ومنفعة العباد، وهو ثمرة الإيمان، وتعبير عن شكر المُنعم جلّ شأنه، فالله سبحانه يجزي هؤلاء بجزاءين:

١. (أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ) بإمحاء ما صدر منهم من الذنوب.

٢. (وَأَجْرٌ كَبِيرٌ) والمراد به ـ كما يظهر ـ الجنّة وما فيها من نعيم.

وحصيلة الآية: إنّ الصبر عند البلاء والشكر عند نزول النعمة من آثار الإيمان بالله الحكيم الذي لا يقدّر في حقّه إلاّ ما فيه المصلحة.

وأشير إلى هذا في آية أُخرى، قال تعالى:(لِكَيْ لاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَال فَخُور)(الحديد:٢٣.).

بقي هنا سؤال، طرحه صديقنا الشيخ الفقيد محمد جواد مغنية(رحمه الله)، قال: إنّ ما تقدّم من كون الإنسان يؤوساً أو كفوراً عند نزول البلاء، فخوراً وفرحاً عند الرّخاء والنعمة. هل هو لازم طبيعة الإنسان، أو هو لازم سلوك الإنسان في بعض مواقفه، وقد ورد ما تقدّم من الأوصاف في بعض الآيات أيضاً، قال تعالى: (إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا)(المعارج:١٩ـ٢١.)(التفسير الكاشف:٤/٢١٣، بتصرّف.)؟ وهذا ما يدعونا إلى الاسترسال في الكلام للإجابة عن السؤال.

الإنسان في القرآن الكريم

يظهر من بعض الآيات أنّ الإنسان لا يخلو من الميل إلى الشرّ والابتعاد عن الخير، ويظهر هذا المعنى من الآيات التالية:

١. قال تعالى: (إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)(إبراهيم:٣٤.).

٢. قال تعالى: (وَكَانَ الإِنْسَانُ قَتُورًا).(الإسراء:١٠٠.)

٣. قال تعالى: (وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْء جَدَلاً).(الكهف:٥٤.)

٤. قال تعالى: (إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا)(المعارج:١٩ـ٢١.).

٥. قال تعالى: (وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ).(العاديات:٨.) والمراد بالخير هنا: المال.

وهناك قسم آخر من الآيات يدلّ على رفعة مقام الإنسان وشرف خلقته، وهي:

١. قوله تعالى: (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً).(البقرة:٣٠.)

٢. قوله تعالى: (وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا).(البقرة:٣١)

٣. قوله تعالى:(قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ).(البقرة:٣٣.)

٤. قوله تعالى: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ).(البقرة:٣٤.)

٥. قوله تعالى: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ).(الإسراء:٧٠.)

٦. قوله تعالى: (لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيم).(التين:٤.)

٧. قوله تعالى: (فِطْرَةَ اللهِ التي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا).(الروم:٣٠)
٨. قوله تعالى: (فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا).(الشمس:٨)

فالقسم الأوّل يصف الإنسان بصفات سلبية، مثل كونه ظلوماً كفّاراً، وقتوراً، وأكثر شيء جدلاً، وهلوعاً، وجزوعاً إذا مسّه الشرّ، ومَنوعاً إذا مسّه الخير، وشديد الحب للخير، فهذه الأوصاف تصوّر الإنسان موجوداً راغباً عن الخير، ميّالاً إلى الشّرّ.

وأمّا القسم الثاني فيصف الإنسان بصفات إيجابية، مثل كونه خليفة الله في الأرض، ومعلّم الملائكة بالأسماء التي علّمه إيّاها سبحانه، ومسجودَ الملائكة، ومكرّماً عند الله، ومُنشَأً بأحسن تقويم، ومفطوراً على التوحيد، ومُلهَماً بأسباب الفجور والتقوى.

فكيف الجمع بين هذين القسمين من الآيات؟

أقول: يمكن الجمع بأحد وجهين:

الأوّل: أنّ الإنسان جُبل على الخير والشرّ معاً

وحاصل هذه النظرية: إنّ الله سبحانه خلقه مزيجاً من دواعي الخير ودواعي الشرّ، فهو يحسّ من صميم ذاته باليأس والاستعجال وغير ذلك من الميول السافلة، كما أنّه يحسّ من صميم ذاته بالميول العالية كالصبر والشكر والرجاء، ولأجل أنّ طبيعته تكمن فيها دواعي كلٍّ من الخير والشرّ، فالله سبحانه يختبر الإنسان فيهما، فلو استجاب لدواعي الخير فيجزى بالخير، وإن استسلم لدواعي الشرّ فيجزى بالشرّ.

الثاني: أنّ الإنسان جُبل على الخير فقط

إنّ ما ذكره من الأوصاف المتضادّة ليست تحديداً لحقيقة الإنسان وماهيّته، وإنّما هو تفسير لسلوكه في بعض المواقف، فالإنسان الذي هو خليفة الله في أرضه، والمتعلّم عند ربّه، والمعلّم للملائكة، خُلق على أحسن خلقة ظاهرة وباطنة، وليس في حدّ ذاته شيء من الأوصاف الرذيلة، غير أنّه خلق موجوداً مختاراً في الجنوح إلى أي جانب من جانبي الخير والشرّ، فمفتاح الأمرين بيده، فهو مختار في فتح أيّ باب من أبواب الخير والشرّ.

وإن شئت قلت: إنّ الغرائز السافلة التي تشير إليها آيات القسم الأوّل، هي دون حدّ الإنسان وطبيعته وإنّما نتعرّف إليها عند سلوكه في بعض المواقف، ولذلك نرى أنّه سبحانه يصف صنفاً من الناس باليأس والكفر والفخر والفرح، ويستثني منهم الإنسان المؤمن، مع أنّ الفطرة واحدة، والخلقة متشاكلة، وإنّما تعرض هذه الحالات في بعض المواقف، والله العالم.

سورة هود: الآيات ١٢ ـ ١٤(فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْك ... فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ).
الآيات: الثانية عشرة إلى الرابعة عشرة

(فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْء وَكِيلٌ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَر مِثْلِهِ مُفْتَرَيَات وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ).

المفردات

ضائق:ضائق وضيِّق بمعنى واحد، لكن اختير الأوّل لكونه مشاكلاً لقوله: (تارك).

قال في الكشّاف: فإن قلت: لِمَ عدل من ضيِّق إلى ضائق؟ قلت: ليدلّ على أنّه ضِيق عارض غير ثابت؛ لأنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) كان أفسح الناس صدراً. ومثله قولك: زيد سيِّد وجواد، تريد السيادة والجود الثابتين المستقرّين، فإذا أردت

الحدوث قلت: سائد وجائد.(تفسير الكشّاف:٢/٢٠٩).

كنز: الكنز: ما يُدّخر من المال في الأرض.

وكيل:رقيب، أو موكّل بحراسة الأُمور.

مسلمون:مذعنون، أو خاضعون.

التفسير

لمّا تقدّم في صدر السورة أنّه تعالى جعل آيات القرآن محكمة ثمّ فصّلها وبيّنها، وأنّ المشركين كانوا يثنون صدورهم حتى لا يسمعوا شيئاً من القرآن الكريم، صار ذلك سبباً للعودة إلى القرآن، وبدأ كلامه بقوله:

١٢. (فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ):

المقترحات الباطلة للمشركين

الآية تحكي عن أمرين:

١. مظنّة كون النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) تاركاً بعض ما يوحى إليه كما يقول: (فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ) ولفظ «لعلّ» يستعمل للترجّي والتوقّع، وهو بالمعنى الحقيقي محال في حقّه سبحانه لاستلزامه الجهل بالواقع، وسيوافيك وجه وروده في كلامه تعالى.

٢. ضِيق صدر النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بما يُطلب منه من نزول كنز عليه من السماء أو مجيء مَلَك معه، كما يقول:(وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ).

وعندئذ يقع السؤال: كيف يحتمل من النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) أن يترك بعض ما يوحى إليه؟ وإن كان ضيق صدره عن بعض اقتراحاتهم أمراً طبيعياً لا ينافي العصمة.

توضيح ذلك: أنّه يظهر من قوله سبحانه: (بَعْضَ مَا يُوحَى) أنّ المشركين كانوا يستهزئون بالنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)عند تلاوة الآيات التي تمسّ عقائدهم وسلوكياتهم كالأمر بالتوحيد ورفض الوثنية، وكانوا يقولون له: لو كنت صادقاً فيما تقول لأمطرتنا ذهباً أو فضة أو لأتى ملك من الملائكة معك يشهد بنبوّتك. ويظهر هذا من غير واحدة من الآيات، يقول سبحانه:(وَ قَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلاَ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُورًا)(الفرقان:٧ـ٨.).

وقد ورد ذكر ضيق صدر النبيّ من كلماتهم في آية أُخرى قال سبحانه:(كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)(الأعراف:٢.). فعلى هذا فالمشركون كانوا ينزعجون من قسم من الآيات القرآنية التي تخالف مبادئهم وسلوكياتهم فعند ذلك كانوا يطلبون من النبيّ أحد الأمرين، فصار ذلك مظنّة للاستفهام الإنكاري بأن يخاطب نبيّه(صلى الله عليه وآله وسلم)بقوله: (فَلَعَلَّكَ) ولفظ «لعلّ» وُضع للترجّي ويُستعمل فيه بالإرادة الاستعمالية، ويراد به تارة الترجّي جدّاً وهو شيمة العاجز، وأُخرى للاستفهام الإنكاري، أي: هل أنت (تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ): أي ليس من شأنك ولا المترقَّب منك أن تقوم بذلك، والضمير في (بِهِ)يرجع إلى مقترحاتهم التي يدلّ عليها ذيل الآية. ويُحتمل رجوعه إلى الموصول في قوله: (مَا يُوحَى إِلَيْكَ)(لاحظ: التحرير والتنوير:١١/٢١٧.)، والأوّل أفضل، (أَنْ يَقُولُوا): أي مخافة أن يقولوا (لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ). وبذلك يتجلّى أمران:

١. أنّ لفظ «لعلّ» استعمل بالإرادة الاستعمالية في الترجّي، لكن أُريد به الاستفهام الإنكاري.

٢. أنّ هذين الاقتراحين أفضل دليل على أنّهم لم يجدوا ثغرة في معجزة النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) فلجأوا إلى المغالطة وطلبوا هذين الأمرين. ولمّا كان تعنّتهم يسبّب للنبيّ الهمّ وضيق الصدر، خاطبه سبحانه بقوله: (إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ) فلا تكترث لقول هؤلاء ومغالطاتهم، ومع ذلك فالله لا يهملهم لأنّه كما يقول:(وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ): أي رقيب حفيظ للأُمور.

وبما ذكرنا ظهر وجود الصلة بين تلاوة بعض الآيات وطلب الأمرين، كما ظهر وجود الصلة بين ترك تلاوته وترك هذين الطلبين،

ووجه الصلة هو أنّ قسماً من الآيات يسبّب هذا الطلب، وتركه ترك الطلب لا كلّ الآيات.

ومنه يظهر أنّ الآية بصدد تطييب نفس النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) وأنّ وجود تلك المظنّة صارت سبباً لهذا الاستفهام الإنكاري قائلة بأنّك هل تفعل ذلك؟ كلاّ ولا، أنت لا تفعل ذلك، وليس هذا هو المترقّب منك. ويؤيّد ذلك ما ذكره الطبرسي في شأن النزول عن ابن عباس: أنّ رؤساء مكة من قريش أتوا رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، فقالوا: يا محمد، إن كنت رسولاً فحوّل لنا جبال مكّة ذهباً، أو ائتنا بملائكة يشهدون لك بالنبوّة، فأنزل الله تعالى: (فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ...)الآية.(مجمع البيان:٥/٢٧٤.)

ويبدو من السيد الطباطبائي أنّ الآية ليست بصدد تسلية النبيّ وتطييب نفسه إثر ما كان يناله من الحزن والأسى؛ بل الكلام مسوق ليتوصّل به إلى ذكر قوله:(إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)(الميزان في تفسير القرآن:١١/١٦٠.) والظاهر أنّه لا منافاة بين الأمرين.

وربما يقال: إنّه متى أُمر النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بتبليغ حكم فوري فمن المسلّم به أنّه يبلّغه بلا إبهام، ولكن يتّفق ـ أحياناً ـ أن يكون وقت التبليغ موسّعاً والنبيّ يؤخّر البلاغ تبعاً لأُمور... هذه الأُمور ليس لها جانب شخصيّ بحيث تعود للنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) نفسه، بل لها جانب عام ودفاع عن الدين، وهذا التأخير ليس ذنباً قطعاً... وهذا مثل ما ورد في سورة المائدة من أمر الله للرسول الأعظم(صلى الله عليه وآله وسلم) بالتبليغ، وأن لا يخاف من تهديدات الناس، وأنّه سبحانه هو الحافظ، حيث يقول عزّ وجلّ:(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)(المائدة:٦٧.).(لاحظ: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل:٦/٤٥١.)

يلاحظ عليه: بأنّ الدعوة إلى التوحيد ونبذ الأصنام والحثّ على البعث كان أثقل شيء على المشركين الذين ولدوا وعاشوا على الوثنية، وهو من أكثر الأشياء التي يتضايق منها المشركون، ومع ذلك فالنبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم)لم يترك ما يوحى إليه إلى وقت آخر موسّع له فيه، وأمّا ما استشهد به من آية التبليغ فالظاهر أنّ الغرض هو التأكيد على التبليغ وإشارة إلى أهمية الموضوع.

١٣. (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ):

التحدّي بعشر سور

قوله تعالى: (أَمْ يَقُولُونَ) فيه وجهان:

١. أنّ لفظة (أَمْ) متّصلة، لكون قوله:(فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) في معنى الاستفهام، والتقدير: أفأنت تارك بعض ما يوحى إليك خوفاً من مقترحاتهم المعجزة (أَمْ يَقُولُونَ): أي خوفاً من أن يقولوا إنّك افتريته علينا.(انظر: الميزان في تفسير القرآن:١١/١٦٢.)

٢. أن تكون لفظة (أَمْ) منقطعة، والمعنى: بل يقولون افتراه. والوجه الأوّل أفضل.

ثمّ إنّه سبحانه يأمر النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) أن يقول لهم، ردّاً عليهم وتحدّياً لهم، بأن يأتوا (بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ)والضمير في (مِثْلِهِ) راجع إلى القرآن أو إلى السورة بما أنّها قرآن، والفقرة مع إيجازها تفيد معنى أبسط وهو إنّكم تقولون إن هذا القرآن قد افتريته على الله وإنّه يمكن لإنسان أن يأتي بمثله فإن كنتم صادقين في هذه الدعوى (فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ)في البلاغة والنظم، وفي علوّ المعاني وروعة الصياغة (مُفْتَرَيَاتٍ): أي مختلَقات، واستعينوا في مقام المعارضة بغيركم كما يقول: (وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ) في دعواكم (صَادِقِينَ)بأنّ القرآن مفترىً على الله تعالى.

والآية برهان واضح على أنّ القرآن ليس من صنع النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) وأنّه ليس من جنس كلام البشر، إذ لو كان كذلك لوُجد بينكم من يأتي بعشر سور من سور القرآن، فإنّكم فرسان الفصاحة والبلاغة وأهل اللَّسَن والبيان، والسابقون في فنون الشعر والخطابة.

١٤. (فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ):

بعد أن دعا سبحانه المشركين في الآية السابقة، على سبيل التحدّي والمحاججة، إلى الاستعانة بالإنس والجنّ لمعارضة عشر سور من سور القرآن، أعني قوله:(وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ)، فرّع عليه بقوله:(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ): أي فيما دُعوا له.

ثمّ إنّ في المخاطب في قوله:(لَكُمْ) وجهين:

الأوّل: أنّ الخطاب موجّه للمشركين وأنّه من تمام كلام النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)الذي أُمر بقوله تعالى: (قُلْ) أن يلقيه إليهم، وعلى هذا فضمير الجمع في (لَمْ يَسْتَجِيبُوا) راجع إلى كلّ من استعانوا به، المدلول عليه بقوله: (وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ)، والمعنى: فإن لم يستجب لكم معاشرَ المشركين هؤلاء الذين دعوتموهم من آلهتكم ومن بلغاء أهل لسانكم العارفين بأساليب الكلام وعلماء أهل الكتاب الذين عندهم الكتب السماوية وأخبار الأنبياء والأُمم، فاعلموا أنّما أُنزل هذا القرآن بعلم الله.(الميزان في تفسير القرآن:١٠/١٧١ـ ١٧٢.) وإلى هذا الوجه يشير الزمخشري بقوله: أن يكون الخطاب للمشركين والضمير في (لَمْ يَسْتَجِيبُوا) لـ(مَنِ اسْتَطَعْتُمْ)يعني: فإن لم يستجب لكم مَن تدعونه من دون الله إلى المظاهرة على المعارضة لعلمهم بالعجز عنه وأنّ طاقتهم أقصر من أن تبلغه.(تفسير الكشّاف:٢/٢١٠.)

الثاني: أنّ هذا خطاب للرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) وللمؤمنين، والمراد أنّ الكفّار إن لم يستجيبوا لكم في الإتيان بالمعارضة، فاعلموا أنّما أنزل بعلم الله. والمعنى: فاثبتوا على العلم الذي أنتم عليه، وازدادوا يقيناً وثبات قدم على أنّه منزل من عند الله.(تفسير الرازي:١٧/١٩٦.)

ولا يخفى أنّ الوجه الأوّل هو الأوفق بالسياق. وعلى هذا فالخطاب (فَاعْلَمُوا) موجّه أيضاً للمشركين، أي أيقِنوا أنّ القرآن (أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ): أي فيه أثر لعلمه سبحانه، فألفاظه الفصيحة ومعانيه البليغة وما فيها من حقائق ترجع إلى الكون والآخرة، كلّ ذلك أثر من آثار علمه سبحانه فلا يمكن أن يكون مثل ذلك مفترى، فاشتمال القرآن على معارف عليا وأُصول أخلاقية كريمة وأحكام تنظّم حياة الفرد والمجتمع وغير ذلك، يدلّ على أنّ القرآن مضافاً إلى عجيب نظمه وسموّ معانيه واشتماله على كلّ ما يحتاج إليه الإنسان، من آثار علمه سبحانه، ومثل ذلك يمتنع أن يكون مفترىً، فالقرآن بذاته، لِما له من هذا الكمال، يدفع عن نفسه وصف الافتراء.

ثمّ يؤكّد على أُسّ المعارف ويقول: (وَأَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ): أي خاضعون لما علمتم من عدم كون القرآن مفترىً وأنّه من صنع البشر؟ فالقرآن الكريم يدلّ بنفسه على نفسه، ومثله كمثل الشمس لا تحتاج رؤيتها إلى ضوء غيرها.

إلى هنا انتهينا من تفسير الآيات وبيان معانيها، وبقي أمران:

الأمر الأوّل: التحدّي بوجوه مختلفة

لقد تحدّى القرآن المعاندين تارة بالإتيان بمثله، وأُخرى بالإتيان بعشر سور، وثالثة بالإتيان بسورة واحدة.

أمّا الأوّل فقد جاء التحدّي به في سورتَي الإسراء والطُّور، قال في الأُولى: (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)(الإسراء:٨٨)، وقال في الثانية: (فَلْيَأْتُوا بِحَدِيث مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ)(الطور:٣٤).

وأمّا التحدّي بعشر سور ففي آيتنا هذه، وأمّا التحدّي بسورة واحدة فهو في سورتَي البقرة ويونس، قال في الأُولى: (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ).(البقرة:٢٣)، وقال في الثانية: (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ).(يونس:٣٨)

وقيل في الجواب عن سرّ التحدّي بهذه الصور المختلفة: إنّ التحدي إنّما يقع بما يظهر فيه الإعجاز من منظوم الكلام، فيجوز أن يتحدّى مرّة بالأقلّ، ومرّة بالأكثر.(مجمع البيان:٥/٢٧٦)

وحاصله: إنّ الله تعالى تحدّى فصحاء قريش الذين هم أفصح العرب بأن يأتوا بمثل هذا القرآن في جملته، فلمّا عجزوا تحدّاهم بعشر سور مثله، فلمّا عجزوا تحدّاهم بسورة واحدة مثله. فعندئذ يَرِد عليه الإشكال بأنّ المروي في ترتيب نزول السور يخالف ذلك، فإنّ سورة هود نزلت عقب سورة يونس(لاحظ: الفهرست لابن النديم:٤٤، مطبعة الاستقامة، القاهرة.)، وقد جاء التحدّي في الأُولى بسورة واحدة، وفي الثانية بعشر سور، فيلزم مخالفة الترتيب.

ويمكن أن يقال: إنّ ترتيب نزول السور على النحو الموجود في فهرست ابن إسحاق النديم وفي كتب العلوم القرآنية، قد وردت به أخبار مرسلة غير مسندة، وعلى فرض الإسناد هي أخبار آحاد لا يمكن أن يعتمد عليها في الأمر المطروح هنا، بل أكثر ما روي في شأن النزول وأسبابه وترتيب نزول القرآن وفضائل السور أخبار آحاد، لا يعتدّ بها ما لم تثبت صحّتها، فصار الاعتماد على أخبار الآحاد سبباً للبحث الطويل في تفسيري المنار والميزان.

وعلى كلّ تقدير، فقد أُجيب على فرض صحّة الأخبار بوجوه، نذكر منها ما يلي:

الأوّل: أنّ ترتيب الآيات في النزول ليس من الضروري أن يتبع ترتيب السور، فقد كانت تنزل الآية فتلحق بسورة سابقة أو لاحقة في النزول، فمن المحتمل أنّ آية يونس نزلت بعد آية هود فأمر النبي بإلحاقها بسورة يونس، فكان الترتيب محفوظاً في الواقع.

الثاني: قال سيد قطب: إنّ التحدّي كان يلاحظ حالة القائلين وظروف القول، لأنّ القرآن كان يواجه حالات واقعة محدّدة، مواجهة واقعة محددة، فيقول مرّة: ائتوا بمثل هذا القرآن، أو ائتوا بسورة، أو بعشر سور دون ترتيب زمني، لأنّ الغرض كان هو التحدّي في ذاته بالنسبة لأيّ شيء من هذا القرآن، كلّه أو بعضه أو سورة منه على السواء، فالتحدّي كان بنوع هذا لا بمقداره، والعجز كان عن النوع لا عن المقدار، وعندئذ يستوي الكلّ والبعض والسورة، ولا يلزم ترتيب، إنّما هو مقتضى الحالة التي يكون عليها المخاطبون، ونوع ما يقولون عن هذا القرآن في هذه الحالة، فهو الذي يجعل من المناسب أن يقال سورة أو عشر سور أو هذا القرآن، ونحن اليوم لا نملك تحديد الملابسات التي لم يذكرها لنا القرآن.(في ظلال القرآن:٤/٥٢٣ـ ٥٢٤)

الثالث: ما أجاب به صاحب المنار، وقد أتعب نفسه في الجواب، الذي استغرق عدة صفحات من تفسيره، وخلاصته: إنّ القرآن الكريم معجز في جميع ما يتضمّنه من المعارف والأخلاق والأحكام والقصص وغيرها، وينعت به من الفصاحة والبلاغة وانتفاء الاختلاف، وإنّما تظهر صحّة المعارضة والإتيان بالمثل عند الإتيان بعدّة سور يظهر به ارتفاع الاختلاف وخاصة من بين

القصص المودعة فيها مع سائر الجهات كالفصاحة والبلاغة والمعارف وغيرها.

وإنّما يتمّ ذلك بالإتيان بأمثال السور الطويلة التي تشتمل على جميع الشؤون المذكورة وتتضمّن المعرفة والقصة والحجّة وغير ذلك كسورتي الأعراف والأنعام.

والتي نزلت من السور الطويلة القرآنية ممّا يشتمل على جميع الفنون المذكورة قبل سورة هود على ما ورد في الرواية هي سورة الأعراف وسورة يونس وسورة مريم وسورة طه وسورة الشعراء وسورة النمل وسورة القصص وسورة القمر وسورة ص، فهذه تسع من السور عاشرتها سورة هود، وهذا هو الوجه في التحدّي بأمرهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات.(لاحظ: الميزان في تفسير القرآن:١٠/١٦٤ـ ١٦٥.)

وأورد عليه بوجوه:

١. أنّ ما عوّل عليه في ترتيب نزول السور أخبار آحاد لا يُبنى عليها تفسير القرآن.

٢. أنّ ظاهر قوله: (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ)أنّ رميهم النبيّ بالافتراء على الله سبحانه، قول تقوّلوه بالنسبة إلى جميع السور القرآنية طويلاتها وقصيراتها من غير أن يخصّوا به سورة دون سورة، فيترتّب على ذلك أنّ عجزهم عن الإتيان بعشر سور مفتريات طويلة تجمع الفنون القرآنية لا يثبت به كون الجميع حتى السور القصيرة كسورتي الكوثر والعصر من عند الله تعالى.

٣. أنّ الضمير في قوله:(بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ) راجع إلى القرآن، وعلى هذا فالقرآن تحدّاهم بالإتيان بعشر سور مفتريات مثله مطلقاً، سواء في ذلك الطوال والقصار، فتخصيص التحدّي بعشر سور طويلة جامعة تقييد للفظ الآية من غير مقيِّد.(لاحظ: الميزان في تفسير القرآن:١٠/١٦٥.)

وأنت خبير بأنّ هذه البحوث الطويلة قد بنيت على خبر واحد، وهو تقدّم نزول سورة يونس على هود، وقد علمت أنّه لا يعتدّ به.

وهناك أجوبة أُخرى من أراد فليرجع إلى تفسيرَي الميزان، والأمثل.

الأمر الثاني: ما هو وجه ورود الافتراء في هذه الآية؟

لم يرد الافتراء في شيء من آيات التحدّي إلاّ في هذه الآية، إذ جاء فيها: (فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ)، ولم يرد مثل ذلك في قوله: (فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ)، فلم يقل: فأتوا بسورة مثله مفتراة، وكذا في بقية آيات التحدّي، فما الوجه في ذلك؟

والجواب: هو أنّه سبحانه عقّب هذه الفقرة بقوله: (فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ)فدلّ على أنّ التحدّي فيها إنّما هو بكون القرآن متضمّناً لما يختصّ علمه بالله تعالى ولا سبيل لغيره إليه، وهذا أمر لا يقبل الافتراء بذاته، فكأنّه قيل: إنّ هذا القرآن لا يقبل بذاته افتراءً فإنّه متضمّن لأُمور من العلم الإلهي الذي لا سبيل لغيره تعالى إليه، وإن ارتبتم في ذلك فأتوا بعشر سور مثله مفتريات تدّعون أنّها افتراء، واستعينوا بمَن استطعتم من دون الله، فإن لم تقدروا عليه فاعلموا أنّه من العلم المخصوص به تعالى.(الميزان في تفسير القرآن:١٠/١٦٩.)

أقول: هذا الجواب يتمّ في السور التي اشتملت على علم من علوم الله سبحانه ممّا يرجع إلى المعاد والمعارف والأحكام إلى غير ذلك ممّا لا سبيل للعلم به لغيره سبحانه.

سورة هود: الآيتان ١٥ ـ ١٦(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ... وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

الآيتان: الخامسة عشرة والسادسة عشرة

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ

وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

المفردات

نوفِّ إليهم: أي نوصل إليهم، يقال: وفى بعهده، أي تمّم العهد.

لا يُبخَسون: البَخْس: نقص الشيء على سبيل الظلم.

حبط: الحَبْط: البُطلان وعدم الانتفاع.

التفسير

١٥.(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ):

لكلّ ساعٍ سعيه مؤمناً كان أم كافراً

دلّ قوله سبحانه في الآية السابقة:(فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) على أنّه يطلب منهم التسليم لدعوة الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) القائمة على التوحيد والاعتقاد بالبعث والانقياد للأحكام الشرعية التي تحدّد انتفاع الإنسان من الدنيا وزينتها، بحدود وموازين خاصّة، فجاء البيان القرآني مذكّراً بأنّ مَن يريد الآخرة،

فإنّ اتّباع الرّسول هو السبيل لذلك، وأمّا مَن يريد الشهوات والحظوظ الدنيوية والكبرياء والسيادة في الدنيا كما يقول: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا)فنحن (نُوَفِّ): أي نؤدِّ (إِلَيْهِمْ) ثمرات (أَعْمَالَهُمْ) التي يعملونها وافية تامّة حسب سُننا في الأسباب والمسبِّبات (فِيهَا): أي في الدنيا (وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ): أي لا يُنقَصون فيها شيئاً من نتائج كسبهم لأجل كفرهم، فإنّ مدار الأرزاق في الدنيا على الأعمال السببيّة، لا على النيّات والمقاصد الدينية.(تفسير المنار:١٢/٤٨.)

وحاصل الكلام: إنّ الله تعالى جعل لكلّ شيء سبباً في الدنيا، فمَن أخذ بما تهيّأ له من الأسباب، وعمل بمقتضاه بنحو صحيح يصل إلى المسبّب سواء أكان مؤمناً أم كافراً، وما أحسن قول صديقنا المرحوم الشيخ مغنية حيث يقول: مَن يزرع يحصد، ومَن يتاجر متقناً فنّ التجارة يربح، ومَن يجتهد في مدرسته ينجح... إلى آخر ما ذكر.(التفسير الكاشف:٤/٢١٧.)

وبكلمة قصيرة: لكلّ ساعٍ سعيُه، من غير فرق بين أن يكون السّاعي مؤمناً أو كافراً، فالأرزاق تأتي نتيجة اتّباع السّبب، لا الكفر ينقصها ولا الإيمان يزيدها، وهذا هو الذي يشير إليه سبحانه في قوله:(نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ).

وهناك احتمال آخر للآية، وهو أنّه سبحانه أراد من قوله:(نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ): أي نوفّر عليهم جزاء أعمالهم في الدنيا تامّاً، فلو عملوا خيراً فيُجزَون في الدنيا.

وبعبارة أُخرى: إنّ كلّ ما يستحقّون عليه من الأجر فإنّه يصل إليهم حال كونهم في دار الدنيا، فإذا خرجوا من الدنيا لم يبق معهم من تلك الأعمال أثرٌ من آثار الخيرات، بل ليس لهم منها إلاّ النار.(مجمع البيان:٥/٢٧٨، تفسير الرازي:١٧/٢٠٠.)

وعلى هذا فالفقرة ناظرة إلى آثار الأعمال الخيرية لا الآثار الطبيعية التابعة للأسباب كما في التفسير الأوّل.

هذا حال هؤلاء في الدنيا، يعيشون متنعّمين بالشهوات واللّذائذ، وأمّا حالهم في الآخرة فتتحدّث عنه الآية التالية:

١٦. (أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ):

قوله: (أُولَئِكَ): أي الذين انغمسوا في الدنيا معرضين عن الآخرة (الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ) جزاء (إِلاَّ النَّارُ). ولمّا كان هناك مظنّة سؤال، وهو:

إنّ بعض هؤلاء ربما يعملون أعمالاً صالحة كإقراء الضيف وإطعام اليتيم وإيواء الغريب إلى غير ذلك من الأعمال، فالله

سبحانه يخبر عن بطلان أعمالهم كما يقول: (وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا): أي في الحياة الدنيا (وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)، وما ذلك إلاّ لأنّ الأعمال بمقاصدها وغاياتها وهؤلاء لم يقصدوا في أعمالهم وجه الله تعالى، فلن يستحقّوا عليها ثواباً ولا أجراً، يقول سبحانه: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَاب بِقِيعَة يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * أَوْ كَظُلُمَات فِي بَحْر لُجِّيّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْض إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُور).(النور:٣٩ـ ٤٠.)

ويؤكّده ما روي عن النبي الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) قال:«إنّما الأعمال بالنيّات، وإنّما لكلّ امرئ ما نَوَى، فمن كانت هِجرتُه إلى دنيا يُصيبها، أو إلى امرأة يَنكحُها، فهجرتُه إلى ما هاجرَ إليه».(صحيح البخاري:١/٥، كتاب بدء الوحي، برقم ١.)

وبذلك يظهر أنّ كلتا الفقرتين، أعني قوله: (وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا)وقوله: (وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)تفسير لقوله: (لَيْسَ لَهُمْ فِي الأخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ).

ثمّ إنّ منهج القرآن في تبيين حال أحد الفريقين (المؤمنين والكافرين) هو المقارنة بين حالي كلٍّ منهما، وقد تعرّض لحال فريق الكافرين في آيتنا هذه، وأمّا حال فريق المؤمنين فسوف يذكرها في الآية الثالثة والعشرين، أعني قوله تعالى:(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...)(هود:٢٣، ومابعدها.) إلخ.

وقد جاء بيان حال كلا الفريقين في مواضع أُخرى، قال تعالى: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاَهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا * كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا * انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْض وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَات وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً)(الإسراء:١٨ـ ٢١.)، وقال عزّ مَن قائل: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيب).(الشورى:٢٠.)

الإسلام يحثّ على كلا الدارين

ربما يتبادر إلى أذهان بعضهم من خلال هذه الآية أنّ الإسلام يحثّ على التفرّغ للحياة الأُخروية ويصدّ أتباعه عن الاهتمام بالدنيا، لقوله: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) وكأنّ الدنيا مكروهة في نظر الإسلام. إلاّ أنّ هذا الرأي بعيد عن الحقيقة، لأنّ مصبّ الآية إدانة من يريد الحياة الدنيا فقط ويعدّها الميدان الوحيد لتحقيق مصالحه المادية الشخصية، ولا يقيم للآخرة وزناً ولا قيمة، وأين هذا ممّن يقول: (رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً)(البقرة:٢٠١.) يريد خير الدارين؟ ولذلك يقول سبحانه في حقّ هذا الطالب: (أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ).(البقرة:٢٠٢.) فالآية تثبت أنّ لهذه الطائفة نصيب في الدنيا والآخرة.

ومن هنا ورد الحثّ على طلب الرزق الحلال في كثير من الروايات، نقتصر على ذكر واحدة منها، فقد روى الكليني بإسناده عن عبد الرحمن بن الحجّاج عن أبي عبد الله(عليه السلام) قال: إنّ محمد بن المنكدر كان يقول: ما كنت أظن أنّ علي بن الحسين يدع خلفاً أفضل منه حتى رأيت ابنه محمد بن علي فأردت أن أعظه فوعظني، فقال له أصحابه: بأي شيء وعظك؟ فقال: خرجت إلى بعض نواحي المدينة في ساعة حارّة فلقيني أبو جعفر محمد بن علي وكان رجلاً بادناً ثقيلاً وهو متكئ على غلامين أسودين أو موليين فقلت في نفسي: سبحان الله شيخ من أشياخ قريش في هذه الساعة على مثل هذه الحالة في طلب الدنيا أما لأعظنّه.

فدنوت منه فسلَّمت عليه فردّ عليَّ بنهر(في بعض النُّسخ: ببهر ـ بالباء الموحّدة المضمومة ـ والبُهْر: تتابع النَّفس من الإعياء. صحاح الجوهري:٢/٥٩٨، مادة «بهر».) وهو يتصابُّ عرقاً، فقلت: أصلحك الله شيخ من أشياخ قريش في هذه الساعة على هذه الحالة في

طلب الدنيا أرأيت لو جاء أجلك وأنت على هذه الحال ما كنت تصنع؟ فقال: «لو جاءني الموت وأنا على هذه الحال جاءني وأنا في]طاعة من[(في نسخة أخرى.)طاعة الله عزّ وجلّ، أكفّ بها نفسي وعيالي عنك وعن الناس، وإنّما كنت أخاف إن جاءني الموت وأنا على معصية من معاصي الله». فقلت: صدقت يرحمك الله أردت أن أعظك فوعظتني.(الكافي:٥/٧٣، كتاب المعيشة، برقم ١.)

سورة هود: الآية ١٧ (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ و ... وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ).

الآية: السابعة عشرة

(أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ).

المفردات

بيّنة:«التاء» للتأكيد لا للتأنيث، وهو ما يتبيّن به الشيء. وتسمّى الحجّة بالبيّنة لأنّها تميّز الحقّ عن الباطل. كما في قوله(صلى الله عليه وآله وسلم): «إنّما أقضي بينكم بالبيّنات والأيمان».(وسائل الشيعة:١٨، الباب٢ من أبواب كيفية الحكم، الحديث٢.) وقد يطلق على نفس البصيرة الإلهيّة كما في قوله تعالى: (قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ).(الأنعام:٥٧.)والظاهر أنّ المعنى الثاني هو المراد من الآية.

يتلوه: من التلو بمعنى يتبعه، لا من التلاوة بمعنى القراءة، والسياق يشهد لذلك.

الأحزاب: قال الراغب: الحزب: جماعة فيها غلظ أي كثافة وكثرة، ويجب أن يضاف إليه وحدة الأهواء، فلذلك تارة يضاف إلى الله، وأُخرى إلى الشيطان.

موعده: الموعد: مكان الوعد.

مرية:شكّ.

التفسير

١٧.(أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ):

اختلف المفسّرون فيما هو المراد من الآية وسبب ذلك كثرة الاحتمالات فيما هو المراد من مفردات الآية ومراجع الضمائر فيها، كلّ ذلك صار سبباً لتفسير الآية على وجوه مختلفة، وقد جمع ابن عطية مواضع الاختلاف في تفسيره،(لاحظ: المحرّر الوجيز:٣/١٥٧.) ومثله القرطبي(لاحظ: تفسير القرطبي:٩/١٦)، وقد خصّ الرازي(تفسير الرازي:١٧/٢٠٠.)محل الاختلاف بألفاظ أربعة:

١. ما هو المراد من الموصول في قوله:(فَمَنْ)؟

٢. ما هو المراد من قوله: (بَيِّنَة)؟

٣. ما هو المراد من قوله: (يَتْلُوهُ)؟

٤. ما هو المراد من قوله: (شَاهِدٌ)؟

وقبل الخوض في تفسير الآية نذكر المعنى الجملي لها، وهو أنّ مَن كان على بيّنة من ربّه في أمر، وشهد شاهد عليه منه، وقبله كتاب موسى وهو إمام ورحمة، فهو ليس كغيره من الناس الغافلين المغفَّلين، فهو يؤمن بما عنده من أمر الله، ولا يوحشه إعراض أكثر الناس عمّا عنده.

وعلى هذا فجواب الاستفهام محذوف، والمراد: أفمَن كان على بيّنة من ربّه كمَن يريد الحياة الدنيا وزينتها وليس له في الآخرة إلاّ النار؟ ونظيره قوله تعالى: (أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا)(فاطر:٨).

والذي يلزم الالتفات إليه أنّ مفاد الآية ضابطة كلّية لا يختصّ ظاهرها بشخص دون شخص، ومضمون الآية يدلّ على كونها ضابطة؛ لأنّ مَن اجتمعت فيه هذه الخصال من بصيرة إلهية ويتبعه شاهد منه وقبله كتاب موسى إماماً ورحمة، يؤمن بالرسالة الإلهية الخاتمية والقرآن الذي أُنزل، فسلامة النّفس بضميمة أمرين آخرين تلازم الإيمان. نعم، مَن لم يتمتّع بما ذكرناه فهو يكفر به، ومن المعلوم أنّ مصير هؤلاء هو النّار.

وعلى ضوء ما ذكرنا فالآية ضابطة بحسب الإرادة الاستعمالية، وأمّا بحسب الإرادة الجدّيّة فسيوافيك أنّ الآية ناظرة إلى النبيّ الخاتم، فهو الذي كان على بصيرة إلهية وتلاه شاهد منه، أي من النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)، وهو الإمام علي بن أبي طالب(عليه السلام)، كما أنّ التوراة شهدت بما ذكرنا.

وعلى ضوء هذه الضابطة، فعليك يا رسول الله (حسب ظاهر سياق الآية) وعلى الناس (بالاستعمال الجدّي) أن يؤمنوا به، ولكن ـ يا للأسف ـ أنّ (أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ).

واعلم أنّ الآية تبرهن على صدق دعوة النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) وتزيل الشكّ والمرية عن قلب كلّ مَن يريد الإيمان، والحجج هي:

١. أنّ النبيّ على بيّنة من ربه وبصيرة إلهية، يرى الواقع على ما هو عليه.

٢. ويتبعه شاهد من نفسه(صلى الله عليه وآله وسلم) يشهد على صدق دعوته.

٣. ومن قبل هذا الشاهد كتاب موسى(عليه السلام)، حال كونه إماماً ورحمة، يشهد على صدق دعوته.

فمَن اجتمعت فيهم هذه الأُمور الثلاثة يؤمنون بالرّسالة الإلهية من غير فرق بين النبيّ وغيره، لكن الأحزاب لا يؤمنون، فلا تبتئس بعدم إيمانهم فإنّ موعدهم النار، ومصيرهم إليها.

إذا عرفت ذلك فلنفسّر الآية ضمن مقاطع، هي:

١. قوله تعالى: (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَة مِنْ رَبِّهِ) الاستفهام إنكاريّ، والفقرة ضابطة كلّية ـ حسب ما عرفت في المعنى الجملي ـ وإن كان الغرض تطبيقها على النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)، إنّما الكلام في تبيين ما هو المراد من البيّنة؟

ما هو المراد من «البيّنة»؟

الظاهر أنّ المراد بها البصيرة الإلهية التي أُوتيها النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) والله سمّى تلك البصيرة الإلهية في مورد سائر الأنبياء بيّنة، فقال في سورتنا هذه في حقّ نوح(عليه السلام): (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَة مِنْ رَبِّي)(هود:٢٨).

وقال ـ أيضاً ـ في حقّ صالح(عليه السلام): (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَة مِنْ رَبِّي)(هود:٦٢)، وفي حقّ شعيب(عليه السلام) قال: (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَة مِنْ رَبِّي)(هود:٨٨)، فالجامع بينهم هو البصيرة الإلهية التي يُميّز بها الحقّ عن الباطل، وربما تفسّر بالمعجزة، ولكنّه غير ظاهر، لأنّ تعبير القرآن عن المعجزة يختلف مع تعبيره في هذه الموارد، حيث يقول هناك: (قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَة مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ)(الأعراف:١٠٥) وقوله: (فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ)(الأنعام:١٥٧) فالاختلاف في التعبير (الإيتاء والمجيء) دليل على الاختلاف في المراد.

أضف إلى ما ذكرنا: أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) لأجل كونه ذا بصيرة إلهية في غنىً عن الإعجاز، وإنّما يؤيَّد بالإعجاز لأجل إيمان الآخرين به، ولذلك نرى أنّ النبيّ موسى(عليه السلام) آمن برسالته قبل تأييده بالإعجاز، يقول سبحانه في حقّه(عليه

السلام) :(فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ)(القصص:٣٠ـ ٣١) .

والشاهد على أنّ الإعجاز للاحتجاج على الآخرين، هو قوله: (فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ).(القصص:٣٢.)

٢. قوله تعالى: (وَيَتْلُوهُ) من التّلو والتبعيّة، لا التلاوة، أي يتبعه (شَاهِدٌ مِنْهُ)، الضمير في (يَتْلُوهُ) عائد على الموصول (فَمَن)، وأُريد من قوله:(شَاهِدٌ)مَن يشهد على صدق دعوة النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) وأُريد من الشهادة تأديتها لا تحمّلها؛ لأنّ المفيد هو الأوّل لا الثاني. وبما أنّ هذا الشاهد يتلوالنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) أي يحتلّ مكانة بعده، فيجب أن يكون ذا بيّنة مثل بيّنة النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)أي يكون ذا بصيرة إلهية مثله، وبذلك يعلم أنّ الضمير المجرور في قوله:(مِنْهُ) يرجع إلى الموصول لا إلى الربّ، أي شهد به مَن هو من نفسه، نظير قوله:(وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا)(يوسف:٢٦.)، يقول السيد الطباطبائي: المراد بهذا الشاهد بعض مَن أيقن بحقّيّة القرآن وكان على بصيرة إلهية من أمره، فآمن به عن بصيرة وشهد بأنّه حقّ منزل من عند الله تعالى كما يشهد بالتوحيد والرسالة، فإنّ شهادة الموقن البصير على أمر، تدفع عن الإنسان مرية الاستيحاش وريب التفرّد، فإنّ الإنسان إذا أذعن بأمر وتفرّد فيه ربما أوحشه التفرّد فيه إذا لم يؤيّده أحد في القول به، أمّا إذا قال به غيره من الناس وأيّد نظره في ذلك زالت عنه الوحشة وقويَ قلبه وارتبط جأشه، وقد احتجّ تعالى بما يماثل هذا المعنى في قوله:(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ)(الأحقاف:١٠.).(الميزان في تفسير القرآن:١٠/١٨٥.) وأمّا ما هو المراد من الشاهد مصداقاً، فسنذكره بعد إتمام تفسير الآية.

وجه وصف كتاب موسى بأمرين

٣. قوله تعالى: (وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً) الضمير المجرور يصلح لأن يرجع إلى الموصول وإلى شاهد، فإنّ كتاب موسى الذي نزل من قبل شهد على نبوّة من كان على بيّنة، فإنّ أوصاف النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)وردت في التوراة على وجه التفصيل. ثمّ إنّ وصف كتاب موسى(عليه السلام) (التوراة) بالوصفين المذكورين لأجل أنّه يؤتَمّ ويُقتدى به في الأُمور الدينية، وهو سبب لرحمة الله تعالى لمن عمل به.

وإنّما خصّ التوراة بالذّكر لأجل أنّ البشارة بالنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) وردت فيها بشكل أوضح وأوسع من الإنجيل، كما أنّ وصف التوراة بالإمام لأجل أنّها كانت مصدراً لحكم أنبياء بني إسرائيل بمَن فيهم عيسى(عليه السلام)، حيث كانوا يرجعون في تعاليمهم إليها.

٤. قوله تعالى:(أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ) الظاهر أنّ الإشارة بصيغة الجمع ترجع إلى ما تقدّم، أي مَن كان على بيّنة من ربّه، وشهد على صدق دعوته شاهدٌ من نفسه، وشهد قبله كتاب موسى إماماً ورحمة، فهؤلاء يؤمنون بالقرآن، فكيف أنت يا رسول الله الذي جُمعت فيك هذه الأُمور الثلاثة؟ فأنت على بيّنة من ربّك، ولك شاهد من نفسك، وقد صدّقتِ التوراةُ دعوتَك ونبوّتك ورسالتك.

فإن قلت: إنّ صيغة (أُولئِكَ) صيغة جمع مع أنّ المشار إليه مفرد وهو النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)، فكيف أُشير بصيغة الجمع إلى المفرد؟

قلت: هناك فرق بين الإرادة الاستعمالية والإرادة الجدّية، فما تقدّم من الفقرات الثلاث استُعمل في معنىً كلّيّ، وإن كانت الغاية الفرد المعيّن، ولا يحصل الغرض الذي سيقت لأجله الآية إلاّ بجعل الفقرات الثلاث أمراً كلّيّاً حتى يخاطب النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)، بأنّ مَن كان على هذه الصفات يؤمن به، فكيف أنت يا رسول الله وأنت جامع لها؟

وعلى هذا، فاسم الإشارة يرجع إلى الموصول، والضمير المجرور، أعني(بِهِ) يرجع إلى القرآن الذي يدلّ عليه السياق.

وربما يقال: إنّ (أُولئِكَ) إشارة إلى المؤمنين، وهذا لا يوافق السياق، لأنّ الغرض من الآية تطييب نفس النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) والتأكيد على ثباته في مواقفه أمام العتاة المعاندين.

٥. قوله تعالى:(وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ).

لمّا تقدّم ذكر إيمان من اجتمعت فيه الخصال الثلاث، عاد البيان القرآني إلى مصير المعاندين الذين اجتمعوا على محاربة الدعوة الإسلامية، وقال: (وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ) الضمير يرجع إلى القرآن(مِنَ الأَحْزَابِ)فإلى النّار مصيره، يَرِدها لا محالة، كما قال: (فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ).

يقول صاحب المنار: أُريد بالأحزاب هم الذين تحزّبوا من أهل مكة وزعماء قريش للصدّ عنه، وقال مقاتل: هم بنو أُميّة، وبنو المغيرة بن عبد الله المخزومي، وآل طلحة بن عبيد الله، والذين سيتحزّبون لمثل ذلك من أهل الكتاب.(تفسير المنار:١٢/٥٢.)

وقال الرازي: المراد من الأحزاب أصناف الكفّار، فيدخل فيهم اليهود والنّصارى والمجوس.(تفسير الرازي:١٧/٢٠٣.)

٦. قوله تعالى:(فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَة مِنْهُ) الضمير يرجع إلى القرآن، والخطاب للنبيّ بالإرادة الاستعمالية، والمخاطب الواقعي بالإرادة الجدّية هو كلّ مَن على خلاف ما سبق، وهو من باب (إيّاكِ أعني واسمعي يا جارة)، وعلى هذا فسياق الآية وإن كان ظاهراً متوجّهاً إلى النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) قائلاً له بأنّ مَن كان على هذه الأوصاف يؤمن بما أنزل إليه، (فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَة مِنْهُ)، غير أنّ الغرض الأصلي هو إنذار المشركين، بأنّه إذا كان الداعي على هذه الصفات، فما وجه الشكّ في دعوته وكتابه ورسالته؟ وبذلك يُعلم معنى الفقرة التالية.

٧. قوله تعالى: (إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ) الظاهر أنّ مرجع الضمير في (إِنَّهُ)هو القرآن، فهو تأكيد لما مرّ في قوله: (فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَة مِنْهُ) .

٨. قوله تعالى: (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ)بسبب الاستكبار أو العصبية، وظاهر الفقرة أنّ أهل مكة لا يؤمنون فعلاً ولا مستقبلاً وأنّ إيمانهم بعد فتح مكة لم يكن إيماناً من صميم القلب.

والآن نعود إلى السؤال المتقدّم: مَن هو هذا الشاهد مصداقاً في قوله:(وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ)؟ لنجيب عنه.

تضافر الروايات على أنّ المراد من الشّاهد مصداقاً، هو الإمام علي(عليه السلام)

بيّنّا فيما سبق أنّ الكلام أُخرج على نحو القضية الكلّية، ولكنّ المصداق المنطبق عليه عند نزول الآية هو الإمام عليّ(عليه السلام) حسب ما ورد في الروايات، ومنها:

روى إبراهيم بن محمد الثقفيّ في كتاب «الغارات»(انظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد:٦/١٣٦ـ١٣٧.) عن المنهال ابن عمرو، عن عبد الله بن الحارث؛ وابنُ أبي حاتم الرّازيّ(تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم:٦/٢٠١٤ برقم ١٠٧٦.) عن المنهال، عن عبّاد بن عبد الله]الأسديّ[؛ وابن جرير الطبريّ(جامع البيان(تفسير الطبريّ):١٢/٢٣ برقم ١٨٠٦٤.) عن جابر]الجُعفيّ[، عن عبد الله بن نُجَيّ(واللّفظ له)، قال: قال عليّ(عليه السلام): ما من رجل من قريش إلاّ وقد نزلت فيه الآية والآيتان، فقال له رجل: فأيّ شيء نزل فيك؟ فقال عليّ: أما تقرأ الآية التي في هود:(وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ)؟

ورواه أيضاً محمد بن الحسن الصفّار(بصائر الدّرجات:١/٢٧٢ـ ٢٧٣، الباب(٩)، برقم ٥١١.) عن أبي الجارود، عن الأصبغ بن نباتة؛ وأبو جعفر الطوسيّ(الأمالي:٣٧١، المجلس (١٣)، برقم ٨٠٠.) عن أبي الحسن الرّضا، عن آبائه، عن أمير المؤمنين(عليهم السلام).

كما رواه الحاكم الحسكانيّ(شواهد التنزيل:١/٣٦٦ برقم ٣٨٤.) عن حبيب بن يسار]الكندي[، عن زاذان؛ ونقل روايته أيضاً عن

بسّام بن عبد الله]الصيرفيّ[، عن أبي الطُّفيل]عامر بن واثلة الكنانيّ الصحابيّ[.(شواهد التنزيل:١/٣٦٣ برقم ٣٧٧.)

وأخرج ابن عساكر، وابن مردويه، عن عليّ(عليه السلام)، قال: قال: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ) أنا، و (وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ) عليّ.(انظر: فتح القدير للشوكاني:١/١٠٠٨ برقم ١٣٢٢؛ كنز العمّال للمتّقي الهندي:٢/٤٣٩ برقم ٤٤٣٩.)

وروى نحوه الحاكم الحسكاني عن الحارث]الهَمْدانيّ[، عن عليّ(عليه السلام)، ورواه أيضاً عن ابن عبّاس، وعن أنس]بن مالك[.(شواهد التنزيل:١/٣٦٥ برقم ٣٨٢، وص ٣٦٦ برقم ٣٨٣.)

وروى الكليني عن أحمد بن عمر الحلاّل قال: سألت أبا الحسن]الرّضا[(عليه السلام) عن قول الله عزّ وجلّ:(أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ)، فقال:«أمير المؤمنين الشاهد على رسول الله، ورسول الله على بيّنة من ربّه».(تفسير نور الثقلين:٢/٣٤٥.)

وممّا يؤكّد ما تقدّم، وأنّ مصداق الشاهد، عند نزول الآية، الذي يلي صاحب البيّنة(أي رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) بحسب انطباق المورد)، هو عليّ بن أبي طالب(عليه السلام)، ما رواه البخاري من أنّه(صلى الله عليه وآله وسلم) قال لعليّ:«أنت منّي وأنا منك»(صحيح البخاري:٣/٦٨، كتاب الصلح، و ج٤/٢٠٧، كتاب مناقب المهاجرين وفضلهم، ولاحظ رقم ٢٦٩٩، كتاب الصلح، باب كيف يُكتب، طبعة دار الفكر.)، وما رواه النّسائي عن أبي ذرّ، قال: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم):«لينتهينّ بنو وليعة أو لأبعثنّ إليهم رجلاً كنفسي...».(السنن الكبرى: ٥/١٢٧، برقم ٨٤٥٧.)

وقفة مع تكذيب الآلوسيّ للخبر

قال السيّد الآلوسيّ، بعد أن نقل بعض الأخبار التي تذكر أنّ المراد بالشاهد في الآية أمير المؤمنين(عليه السلام)، قال: إنّ هذا الخبر ممّا لا يكاد يصحّ. وأضاف: ويكذّبه ما أخرجه ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والطبرانيّ في الأوسط عن محمد بن الحنفيّة، قال: قلت لأبي: إنّ الناس يزعمون في قوله تعالى: (وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ) أنّك أنت التالي؟ قال: وددت أنّي هو، ولكنّه لسان محمد(صلى الله عليه وآله وسلم).(روح المعاني:١٢/٢٨.)

ولم يذكر الآلوسي سند هذا الخبر المرويّ عن محمد بن الحنفية، ولو رجعنا إلى مصادره لرأينا أنّ مداره على عروة بن الزّبير بن العوّام(انظر الخبر في: جامع البيان(تفسير الطبري):١٢/٢٢ برقم ١٨٠٤٦؛ والمعجم الأوسط للطبراني:٥/١٣٤ برقم ٦٨٢٨.)، وعروة هذا من المنحرفين عن أمير المؤمنين(عليه السلام)، اتّهمه بذلك تلميذه الزُّهريّ(انظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد:٤/٦٤.) (المقرّب عند بني أُميّة).

ويؤكّد انحرافه قول أبي جعفر الإسكافي المعتزليّ(المتوفّى ٢٤٠هـ): وقد تظاهرت الرواية عن عروة بن الزُّبير أنّه كان يأخذه الزّمع(الزَّمَع: تحرُّك الأنف غضباً.) عند ذكر عليّ(عليه السلام)، فيسبّه ويضرب بإحدى يديه على الأُخرى، ويقول: وما يغني أنّه لم يخالف إلى ما نُهي عنه، وقد أراق من دماء المسلمين ما أراق.(شرح نهج البلاغة:٤/٦٩.)

وما رواه أيضاً عليّ بن محمد بن سليمان النوفليّ بإسناده عن حمّاد ابن سلمة، قال: كان عروة بن الزبير يعذر أخاه إذا جرى ذكر بني هاشم وحصره إيّاهم في الشِّعب، وجمعه لهم الحطب لإحراقهم، ويقول: إنّما أراد بذلك إرهابهم ليدخلوا في طاعته إذ هم أبوا البيعة فيما سلف.(مروج الذهب للمسعودي:٣/٢٧٦ برقم ١٩٤٣.)

أليس من الغريب بعد هذا، أن لا يذكر الآلوسي اسم الراوي لهذا الخبر عن ابن الحنفيّة، ولا يلتفت إلى موقفه السّلبيّ من الإمام (عليه السلام)، فيعتمد خبره، ويكذِّب به جميع الأخبار التي تقدّم ذكرها آنفاً، والتي رويت عن عليّ(عليه السلام) من طرق متعدّدة، وعن غيره؟!!

وثمّة نكتة في الخبر جديرة بالتأمُّل، فعلى الرغم من أنّ بغض عروة للإمام دفعه إلى هذا المكر، وهو محاولة نفي أمر كونه(عليه السلام) هو التالي الشاهد، بلسان الإمام نفسه، وعن طريق ابنه!! إلاّ أنّه لم يستطع كتمان تداول النّاس لهذا الأمر، وشيوعه

بينهم، في حياة الإمام: «إنّ النّاس يزعمون في قوله:(وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ)أنّك أنت التالي»، وهذا له مغزىً كبير.

ونذكّر مرّة أُخرى بأنّ الآية نزلت بصورة ضابطة كلّية، وأنّ انطباقها على الرسول والوصيّ من باب كونهما من أظهر المصاديق.

تفسير آخر للآية

ما ذكرنا من التفسير هو ما توصّلنا إليه بعد التدبّر في الآية، وما ذكره المفسّرون حولها وأخصّ بالذّكر ما ذكره السيد الطباطبائي (رحمه الله)، وهناك تفسير آخر للآية وهو أنّها تخاطب المؤمنين، والغرض الحثّ على إيمانهم، وعلى هذا فالموصول في قوله:(أَفَمَنْ كَانَ) وما بعده راجع إلى المؤمنين بالنحو الآتي.

المعنى: (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَة) وبصيرة في دينه (مِنْ رَبِّهِ)، فهو كقوله سبحانه:(أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ فَهُوَ عَلَى نُور مِنْ رَبِّهِ)(الزمر:٢٢.)، (وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ): أي ويتبع هذا النور الفطريّ والبرهان العقلي المراد بالبيّنة، ويؤيّده نور آخر غيبيّ إلهيّ منه، يشهد بحقّيّته وصحّته، وهو هذا القرآن الذي هو مشرق النور والهدى والبرهان (وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً): أي يتبعه ويؤيّده شاهد آخر جاء من قبله وهو الكتاب الذي أُنزل على موسى(عليه السلام)، حال كونه إماماً متّبعاً في الهدى والتشريع (أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ): أي أُولئك الموصوفون بمَن ذكر من الجمع بين البيّنة الوهبية وشهادة الوحي لعقائدهم يؤمنون بهذا القرآن (وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ) أهل مكة (فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَة مِنْهُ): أي من هذا الوعد (إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ)وهو الحقّ الكامل (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ).(تفسير المنار:١٢/٥١ـ ٥٢.)

أقول: ما ذكر من التفسير لا يخلو من نظر في جهتين:

١. أنّ تفسير (شاهد) في قوله: (وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ) بالقرآن، لا يناسب قوله: (وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ) إذ الجميع على مستوى واحد، لا أنّ القرآن يقع تلو الفطرة والبرهان العقلي.

٢. أنّ لازم ما ذكره أنّ الضمير المنصوب في قوله:(وَيَتْلُوهُ) يرجع إلى البيّنة، مع أنّ المرجع مؤنّث، ورجوع الضمير المذكّر إلى المؤنث رهن تكلّف.

ثمّ إنّ ابن عاشور فسّر الآية على غرار هذا التفسير، وفي كلامه تكلّف وإشكال، مَن أراد الاطّلاع عليه فليرجع إلى تفسيره.(لاحظ: التحرير والتنوير:١١/٢٢٣ـ٢٢٤.)

سورة هود: الآيات ١٨ ـ ٢٤ (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا ... أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ).

الآيات: الثامنة عشرة إلى الرابعة والعشرين

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاَءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ).

المفردات

الأشهاد: جمع شاهد، كأصحاب جمع صاحب، وقيل: جمع شهيد كشريف وأشراف.

روى الرازي عن أبي علي الفارسي أنّ كون الأشهاد جمع شاهد أرجح، لأنّ ما جاء من ذلك في التنزيل جاء على فعيل، كقوله: (وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)(البقرة:١٤٣.)، و(وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيدًا)(النساء:٤١.).(تفسير الرازي:١٧/٢٠٤.)

لعنة: اللَّعن :الطرد من رحمة الله.

يُصدُّون عن سبيل الله: يصرفون الناس عنه ويمنعونهم من الاعتقاد به.

عوجاً: العِوَج: الالتواء، وأُريد به العدول عن طريق الصواب.

معجزين: المُعجز: مَن يُعجِز غيرَه، كمَن أفلت ممّن يروم إضراره.

لا جرم: قال الراغب: أصل الجَرم: قطع الثمرة عن الشجر.(مفردات الراغب:٩١، مادة«جرم».) نقل الطريحي عن الفرّاء: هي كلمة في الأصل بمعنى لابدّ ولا محال، فجرت على ذلك، وكثرت حتى تحوّلت إلى معنى القَسم وصارت بمعنى «حقّاً» فلذلك يجاب عنها باللاّم، ثم يبتدأ بها كقوله تعالى: (لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ)(النحل:٦٢.).(مجمع البحرين:٦/٢٧ـ٢٨، مادة «جرم».)

أخبتوا: الإخبات: الخضوع والتواضع. وربما يفسّر بالاطمئنان حيث يطلق «الخبت» على الأرض المطمئنّة، والثاني أنسب بسياق الآية، يقال: أخبتَ الرجل، أي قصد الخبت، نحو: أسهلَ، وأنجدَ، أي طلب الأرض السّهلة أو النجد. ويستعمل الخبت مع «إلى» تارة، ومع«اللاّم» أُخرى، ويراد به الخشوع، قال تعالى: (فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ)(الحج:٥٤.): أي تلين وتخشع.

التفسير

هذه الآيات السَّبع بصدد بيان الفرق بين أهل البصيرة الإلهية ومَن عميت عين بصيرتهم، ويظهر ذلك من تفسير الآيات، التي بدأت بذكر الفريق الثاني الذين بلغ بهم التمادي في الكفر والعناد حدّاً أن صاروا لايستطيعون سماع دعوات الإيمان ولا أن يبصروا آياته، وقد وصفهم سبحانه بخمسة عشر صفة، في مقابل من آمن وعمل صالحاً وأخبت إلى ربّه.

أوصاف المتمادين في الكفر

١٨. (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاَءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ):

قوله: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا) الاستفهام هنا يراد به النفي، وقد جاء في صيغة الاستفهام، ليكون أبلغ في تقرير النفي، والمعنى: لا أحد أظلم منه. والافتراء من أظهر مصاديق الظلم، ويُقدَّر قبحُه بحسب مكانة المكذوب عليه، وأعظم الافتراء هو الافتراء على الله سبحانه في صفاته وأفعاله وأحكامه، ولذلك وَصَفَ مرتكبَه بأنّه أظلم لنفسه من كلّ ظالم.

وصلة الآية بما قبلها واضحة حيث إنّهم وصفوا النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) بالمفتري، وقالوا ـ كما حكى القرآن عنهم ـ (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ)(هود:١٣.) فقابله سبحانه بأنّهم هم المفترون لا أنت يا رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، وأمّا ما هو المفترى به فيختلف بحسب موارد الآية، فتارة يكون من مقولة العقائد كاتّخاذ الشركاء والأولياء والشفعاء له بدون إذنه أو اتّخاذ الولد، وأُخرى يكون الافتراء في الأحكام كتحريم البحيرة والسائبة والوصيلة وغيرها كما في قوله تعالى: (مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَة وَلاَ سَائِبَة وَلاَ وَصِيلَة وَلاَ حَام وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ).(المائدة:١٠٣.)

إذا عرفت ذلك، فاعلم أنّ الله سبحانه وصف من عميت بصيرتهم بأوصاف:

١. (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا) قد مضى تفسير هذه الفقرة، وهي تعمّ المشركين في تحريم ما لم يحرّمه سبحانه من جانب، وأهل الكتاب من جانب آخر، حيث جعلوا الواحد ثلاثة، إلى غير ذلك من الأكاذيب.

٢. (أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ) والعرض هو إظهار الشيء، ولمّا كان ارتفاع الحجب بينهم وبين ربّهم يوم القيامة أمراً قطعيّاً،

كُنّي عنه بالعرض، أي عرض أعمالهم الإجرامية على الله جلّ شأنه.

٣. (وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاَءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ) فيشهدون على كذبهم على الله تعالى، مشيرين إليهم بقولهم:(هَؤُلاَءِ) ليحصل لهم الخزي والنكال والفضيحة العظيمة. وأمّا مَن هم الأشهاد في ذلك المقام؟ فيمكن أن يراد بهم الملائكة الكرام الكاتبين، أو سائر شهود الأعمال.

٤. (أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ): أي يُطلب طردهم من رحمة الله بعد تلك الشهادة.

١٩. (الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ):

٥. (الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ) ويمنعون الناس من اعتناق دينه بمنطق القوّة والتهديد، وهؤلاء هم الذين يصفهم الله في آية أُخرى بقوله:(وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ).(الأنعام:٢٦.)

٦. (وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا) الضمير يرجع إلى (سَبِيلِ) وهو يذكّر ويؤنّث، فمع أنّ سبيل الله سبيل مستقيم فهؤلاء يريدون أن يجعلوها معوجّة منحرفة حتى لا ينتهجها الناس، وذلك بإلقاء الشكوك والشبهات والتضبيب على الدلائل الواضحة، نظير قولهم:(مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ).(الجاثية:٢٤.) وهذا أيضاً صدّ بقوّة المنطق ـ حسب زعمهم ـ ولكنّه ليس إلاّ خيالاً وخبالاً. روى أبو عبيدة]الحذّاء[قال: سألت أبا جعفر(عليه السلام) عن قوله: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاَءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا)قال: «أي يطلبون لسبيل الله زيغاً عن الاستقامة يحرّفونها بالتأويل ويصفونها بالانحراف عن الحقّ والصواب».(البرهان في تفسير القرآن:٣/٩٦ـ٩٧.)

٧. (وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ): أي هم كافرون بالبعث والجزاء. والاعتقاد بالبعث والنشور هو من صميم الدين، فكلّ دين يخلو من الإيمان بالبعث فهو مسلك دنيوي ورابطة قومية بين الناس. وقد جاء نظير هذه الآية في موضع آخر من القرآن لكنّه يخلو من لفظ (هُمْ) ـ الثانية ـ قال تعالى:(الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ)(الأعراف:٤٥.).

٢٠. (أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ):

الآية بصدد تهديد المفترين والصادّين عن سبيل الله بوجوه مختلفة.

٨. (أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ): أي لم يكونوا فائتين فيها هرباً من الله تعالى. والفقرة ردّ لما يُتخيّل من إفلاتهم من عذابه.

٩. (وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ) يتولّون أمرهم وأنصار يمنعونهم من الله تعالى إذا أراد من عقابهم، ولكن اقتضت حكمته سبحانه أن يمهلهم ولكن لا يهملهم ويستدرجهم من حيث لا يشعرون. والفقرة ردّ لما يُتخيَّل أنّ لهم أنصاراً ينصرونهم ويحولون بينهم وبين عذاب الله سبحانه.

١٠. (يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ) لماذا يضاعف؟ لأنّهم ضالّون ومضلّون، فتعدّد العقاب لأجل فسادهم وإفسادهم، لأنّ جريمتهم مضاعفة، فلا ينافي قوله سبحانه: (وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)(الإسراء:١٥.) لأنّ ضعف العذاب عذاب متعلّق به دون أن ينتقل من الآخرين إليه. نعم لو تابوا وأصلحوا أمرهم يتوب الله عليهم.

١١. (مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ): أي يشقّ عليهم أن يسمعوا دعوة الهدى والإيمان. وسلب الاستطاعة كناية عن نفورهم من سماع كلام الله ورسوله، ولذلك كانوا ـ كما وصفهم القرآن ـ (يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ)(هود:٥.). والفقرة إجابة عن

سؤال يطرأها وهو ما هو السبب لإعراضهم؟ والجواب أنّ العصبية غلبت على عقولهم فصاروا ينفرون من سماع دعوة الحقّ كما أنّهم:

١٢. (وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ) آياته بعين البصيرة. ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى: (وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاك أَثِيم * يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا).(الجاثية:٧ـ٨.) وقوله سبحانه: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ)(فصلت:٢٦.) فمَن كان حاله هذا فهو أشبه بمَن لا يتذوّق الطعام الحلو ويزعم أنّه مُرّ. وأمّا نهاية أمرهم إذا ماتوا على الكفر، فهو ما تذكره الآية التالية.

ذكر صاحب «المنار» وهو في صدد تفسير قوله:(مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ) أنّه أعطى رجل مؤمن رجلاً متفرنجاً منهم كتاب «الوحي المحمديّ» الذي شهد له مَن قرأه من طبقات الناس المختلفة بطلاوة عبارته وحسن بيانه وموافقة أُسلوبه وترتيبه وتبويبه لذوق هذا العصر، ثم سأله بعد أيام كيف رآه؟ ظاناً أنّه قرأه كلّه بشغف وأنّه سيشكر له هديته، فقال: إنّني لم أستطع أن أقرأ منه صفحة واحدة، واعترف بأنّه يقرأ كتب أشهر الملاحدة الطاعنين في القرآن بلذّة ورغبة كما يقرأ القصص (الروايات) الغرامية.(تفسير المنار:١٢/٥٦ـ٥٧.)

٢١. (أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ):

١٣. (أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ) إذ لم ينتفعوا بحياتهم وأسماعهم وأبصارهم، فهم أشبه بمن كان عنده رأس مال لم يتّجر به، بل تركه فضاع منه.

١٤. (وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) يحتمل أن يراد أنّه غابت عنهم الآلهة المكذوبة يوم القيامة. وقد مرّ أنّه ليس لهم من أولياء، حيث كانوا يعتقدون بأنّ الشفعاء يشفعون لهم، ونظير الآية قوله سبحانه:(فَلَوْلاَ نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ).(الأحقاف:٢٨.)

٢٢. (لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ):

١٥. (لاَ جَرَمَ): أي لم يكن لهم بدٌّ، أو لا محالة (أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ) فصارت نتيجة عرضهم على ربّهم كونهم محكومين بأنّهم الأخسرون في الآخرة، حيث حُرموا من سعادة الدارين: الدنيا والآخرة، فلم ينتفعوا برأس مالهم في الدنيا، وحُكم عليهم بالعذاب المضاعف في الآخرة. أُعطوا الشريف الرفيع، وبدّلوه بالخسيس.

٢٣. (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ):

الظاهر أنّ الآية تقابل كلّ ما مرّ من قوله:(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا) إلى قوله: (لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ)، فلو أنّ الطائفة الأُولى كانوا خاسرين بل شديدي الخسارة، فإنّ الطائفة الثانية هم الرابحون، بشهادة أنّهم في الجنة خالدون. وأمّا هذه الطائفة ففيهم خصال ثلاث:

أ. قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا) بما جاء به النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) في مجالي المعارف والأحكام.

ب. قوله تعالى: (وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) والعمل الصالح من آثار الإيمان الصادق، أي طبّقوا أعمالهم على ما ورد في الشريعة .

ج. قوله تعالى: (وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ): أي اطمأنّوا إلى الله تعالى، فلا يتزلزل ما في قلوبهم من الإيمان، ولا يزيغون ولا يرتابون، كالأرض المطمئنّة. وربما يفسّر بالمتواضعين غير المستكبرين أو الخاشعين. والوجه الأوّل أَولى.

ثمّ تتحدّث الآية عن جزائهم بأنّ (أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ): أي ماكثون فيها أبداً.

٢٤. (مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ):

تمثيل لحال الكافر والمؤمن

لمّا تقدّم وصف الطائفة الأُولى بقوله: (مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ)، كما تقدّم وصف الطائفة الثانية بالأوصاف الثلاثة من الإيمان والعمل الصالح والإخبات، أي الاطمئنان إلى الله الذي يتضمّن تصديق ما وعد الله، صار ذلك سبباً لتمثيل فريق المؤمنين بالبصير والسميع، وفريق الكافرين بالأعمى والأصمّ، لأنّ المؤمن ينتفع بحواسّه الظاهرية والباطنية في معرفة المنعم وصفاته وأفعاله، بخلاف الكافر الجاحد فإنّه لا ينتفع بها، ثمّ إنّه سبحانه في قوله:(مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ)عطفَ الأصمَّ على الأعمى والسميع على البصير لإفادة تعدّد التشبيه في المعنى:

١. أنّ حال الكافر كحال الأعمى، وحاله أيضاً كحال الأصمّ.

٢. أنّ حال المؤمن كالبصير، وحاله أيضاً كحال السميع.

ثمّ إنّ وجه التشبيه في الموردين مختلف، فالكافر كالأعمى في عدم الاهتداء إلى الدلائل التي تدرك بالبصر، ثمّ هو كالأصمّ في عدم الانتفاع بالمواعظ التي طريقها السمع، فهو كالأعمى من جهة وكالأصمّ من جهة أُخرى، وأمّا المؤمن فبما أنّه يهتدي بالدلائل

التي طريقها البصر فهو كالبصير، وينتفع بالمواعظ النافعة التي طريقها السمع فهو كالسميع.

وعلى ما ذكرنا فقد شبّه كلّ واحد من الفريق المؤمن والفريق الكافر بتشبيهين. وأتمّ سبحانه الآية بقوله:(هَلْ يَسْتَوِيَانِ)وهو استفهام يراد به تقرير النّفي، أي لا يستوي الفريقان أبداً. وقوله:(أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ)فيه إشارة إلى إمكان علاج هذا العمى والصّمم، وإذا كان ممكناً فلماذا لا يسعَون إلى علاجهما؟!

سورة هود: الآيتان ٢٥ ـ ٢٦ (وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ... إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيم).

الآيتان: الخامسةوالعشرون والسادسة والعشرون

(وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنْ لاَ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيم).

المفردات

أخاف عليكم: أي أخوّفكم من يوم ينزل فيه عليكم من الله عذاب أليم.

أليم: مؤلم.

التفسير

قصص الأنبياء السبعة

٢٥. (وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ):

القصة الأُولى: قصة نوح(عليه السلام)

بدأت هذه الآية وما يأتي بعدها من الآيات ببيان قصص الأنبياء، مفتتحة بقصة نوح(عليه السلام) ومختتمة بقصة موسى(عليه السلام).

وجاءت بينهما قصص هود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب(عليهم السلام)، والغاية من ذلك تسلية نفس النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)بما لاقى قبله هؤلاء الرُّسل من أقوامهم، أو تذكير المشركين بأنّ رسالة النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) ليست أمراً جديداً، بل سبقتها رسالات أُخرى من الله سبحانه، ولذلك بدأ بذكر قصة نوح مع قومه، وقدّمها على قصص سائر الأنبياء، لأنّه شيخهم وأوّل مَن

نهض بوجه الوثنيين وحاورهم ونصح لهم. وكان سبحانه قد ذكر قصته بإيجاز في سورة يونس، وأعادها في هذه السورة لما فيها من زوائد الفوائد وبدائع الحكم.(تفسير الرازي:١٧/٢١٠).

صدّر سبحانه كلامه بلام القسم وقال: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ)لأنّ المقام يقتضي التأكيد، فالمخاطبون ينكرون بشدّة رسالة البشر. ثمّ بيّن(عليه السلام) مغزى رسالته، قائلاً لهم: (إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ): أي منذر لكم ومخوّف من عذاب الله إن تمرّدتم عليه.

٢٦. (أَنْ لاَ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ):

دلّت الآية السابقة على أنّه سبحانه أرسل نوحاً إلى قومه وبعثه إليهم، ولمّا كانت هنا مظنة سؤال عمّا أُرسل به، جاءت هذه الآية توضيحاً له، وأنّه أرسل لنشر التوحيد في العبادة والمنع عن عبادة غيره، كما قال: (أَنْ لاَ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ)، وما هذا إلاّ لأنّ التوحيد أمر مكتوب بقلم التكوين عن لوح النفس، قال سبحانه:(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ التي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ)(الروم:٣٠)، وقال في آية أُخرى: (فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)(الشمس:٨).

روى الكليني باسناده عن إسماعيل الجُعفي عن أبي جعفر]الباقر[(عليه السلام)قال: «كانت شريعة نوح(عليه السلام)أن يُعبد الله بالتوحيد والإخلاص وخلع الأنداد، وهي الفطرة التي فطر الناس عليها، وأخذ الله ميثاقه على نوح(عليه السلام) وعلى النبيّين(عليهم السلام) أن يعبدوا الله تبارك وتعالى، ولا يشركوا به شيئاً، وأمر بالصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحلال والحرام، ولم يفرض عليه أحكام حدود ولا فرض مواريث، فهذه شريعته».(الكافي:٨/٢٨٢ـ ٢٨٣ برقم ٤٢٤؛ تفسير العياشي:٢/١٤٤).

ثمّ إنّه هدّدهم وخوّفهم بعذاب الاستئصال وقال: (إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ)وبما أنّ تعذيب المشركين كان أمراً حتميّاً، فصار هذا قرينة على أنّ المراد من خوفه، هو تخويفهم من ذلك العذاب.

قلنا: إنّ المراد بالعذاب هو عذاب الاستئصال بشهادة قوله ـ فيما بعد ـ : (قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ).(هود:٣٢ـ ٣٣).

فالآيتان ظاهرتان في أنّ العذاب الموعود إنّما يأتيهم في هذه الدنيا، وأنّهم غير معجزين، ولا دافعين عنهم هذا العذاب. ويمكن أن يقال: إنّ قوم نوح كانوا يخافون من أوثانهم ومعبوداتهم الكاذبة، فعمد نوح(عليه السلام)إلى تغيير خوفهم من الخوف من الأوثان إلى الخوف من الله تعالى، وأنّ الذي يُخاف منه حقيقة هو الله سبحانه لا الآلهة المكذوبة، لأنّ الأُمور بيدالله سبحانه لا بأيدي الأوثان والأصنام.

سورة هود: الآية٢٧ (فَقَالَ الْمَلاَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ... بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ).

الآية: السابعة والعشرون

(فَقَالَ الْمَلاَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ).

المفردات

الملأ: أشراف القوم وزعماؤهم، مأخوذ من قولهم: مليء. ووصفوا بذلك لأنّ عظمتهم الظاهرية تملأ القلوب أو العيون.

أراذلنا: أخسّاؤنا. قال الطبرسي: الرّذل: الخسيس الحقير من كلّ شيء ويجمع على الأرذُل، ثم يجمع على أراذل، كقولك: كلب وأكْلُب وأكالُب.(مجمع البيان:٥/٢٩٠.)

بادي: قرأها الجمهور بالياء بلا همزة، وهو الظاهر من قولك: بدا الشيء: إذا ظهر، ومنه يقال: بادية لظهورها وبروزها للناظر. قال الراغب: في مادة بدأ: قوله: بادئ الرأي، أي ما يُبدأ من الرأي وهو الرأي الفطير، وقرئ باديَ بغير همزة، أي الذي يظهر من الرأي ولم يُرَوَّ فيه.(مفردات الراغب:٤٠، مادة «بدأ».)

الرأي: رأي العين، لا رأي القلب، أي أن كونهم أراذل أمر ظاهر لكلّ مَن يراهم.

التفسير

لم يزل المصلحون وما زالوا في قفص الاتّهام، وعلى رأسهم الأنبياء العظام، فقد رُمي كلّ نبيّ في عصره بتهم كاذبة، تشهد حياة الأنبياء بكذبها وتفاهتها. والتُّهمة ـ بلا ريب ـ سلاح الجاهل الّذي يقعد به العجز عن مواجهة دعوة النبيّ وحججه الدامغة، فيلجأ إلى إثارة التُّهم حتّى يسقطه من أعين الناس، وكان هذا الخط حاكماً طول التاريخ بين الجهلة والأنبياء. وقد ذكر القرآن الكريم عدداً من التُّهم والاعتراضات الّتي وجّهها قوم نوح لنبيّهم، واتّخذوها ذرائع لموقفهم المتعنّت منه(عليه السلام)، وإليك ما ورد منها في آيتنا هذه.

ذرائع قوم نوح الواهية

احتجّ قوم نوح عليه بوجوه أربعة، واستندوا إليها في رفض رسالته وعدم اعتناق دعوته والاستجابة لها. وقد نسب الذكر الحكيم الاحتجاج للأشراف الذين كفروا من قومه، وأمّا عامّة القوم فهم تَبَع لهم، كما قال: (فَقَالَ الْمَلاَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ) واقتران الجواب بالفاء دليل على السرعة في طرح الجواب. وإليك الوجوه الّتي احتجّوا بها:

١. (مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِثْلَنَا) غريب أمر هؤلاء الطغاة يخلقون من أهوائهم وتصوّراتهم المريضة مقاييس ونظريات، ثمّ يعجبون من جريان الأُمور على خلاف مقاييسهم ونظرياتهم!! وقولهم: إنّ النبيّ ينبغي أن لا يكون من البشر، نابع من نزعتهم الاستعلائية. والمتبادر من الفقرة أنّ وجه الشبه كون نوح بشراً مثلهم، فإذاً لا وجه لأن تكون متبوعاً ونحن تبع. والظاهر من صاحب المنار أنّ وجه الشبه كونه مثلهم في المكانة الاجتماعية، ثم استنتج من هذا أنّ نوحاً كان من طبقتهم أو ما يقرب منه، وهكذا كان كلّ رسول من وسط قومه.(تفسير المنار:١٢/٦٢.)

يلاحظ عليه: أنّ لازم ذلك عدم الحاجة إلى قوله:(بَشَراً) إذ يكفي أن يقولوا: ما نراك إلاّ مثلنا، وهذا يدلّ على أنّ وجه الشبه ليس المثلية في المكانة الاجتماعية، بل المثلية الجنسية، أي كونه بشراً مثلهم، فلا وجه لتفوّق أحدهما على الآخر.

٢. (وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ). وكأنّ ملاك الفضل والحقّ والصواب عند قوم نوح(عليه السلام)هو الثراء والجاه والقوّة، ومن هنا نفروا من دعوته(عليه السلام)، لالتفاف الضعفاء والمحرومين حوله، لأنّ أصحاب الثروة والمقدرة ـ حسب زعمهم الفاسد ـ هم أَولى الناس باتّباع الداعي لو كان محقّاً!! أمّا هؤلاء الأراذل والأخسّاء ـ في نظرهم ـ فقد أسرعوا إلى اتّباعه من دون تفكّر ولا تدبّر(بَادِيَ الرَّأْيِ). وهل يُعقل ونحن الأسياد والوجهاء ـ كما يتخيّلون ـ أن نقف على قدم المساواة معهم، وننضوي جميعاً تحت لواء دعوة واحدة؟!

وهذا المنطق الأعوج ـ للأسف الشديد ـ لا يزال قائماً في أكثر المجتمعات، ويتحكّم في مفاصل حياتها.

ثمّ إنّ في قوله:(بَادِيَ الرَّأْيِ) وجهين:

أ. أن يكون قيداً لقوله:(هُمْ أَرَاذِلُنَا): أي هم أراذلنا بادي الرأي، والطبقة السفلى في بدء النظر وأوّل وهلة.

ب. أن يكون قيداً لقوله: (اتَّبَعَكَ): أي اتّبعوك في ظاهر الرأي من غير تعمّق وتفكّر، ولو تفكّروا لمَا آمنوا بك.

والأول أنسب لسياق الآية لقربه للأراذل وشبهه بمنطق القوم، وذلك لأنّ القوم لا يرون للفقراء والمساكين أيّ عقل ورأي حتى يصنّفوا رأيهم إلى صنفين: النظر البادئ، والنظر المقرون بالتأمُّل.

٣. (وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ) وكأنّهم يريدون أنّ القائد يجب أن يتفضّل على المقود بشيء من المناصب أو الأموال الدنيوية أو شيئاً من الأُمور الغيبية، وأنت وقومك ـ بشهادة قوله: (لَكُم)ـ تفقدون هذا الفضل، فكيف نؤمن بكم؟!

٤. (بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ) أخّروا هذا الاحتجاج حتى يصحّ لهم الجدال بالوجوه الثلاثة المتقدّمة، وإلاّ فلو ذكروا هذا الوجه أوّلاً وأنّ الداعي ومَن تبعه كاذبون، لم يكن مجال ولا حاجة للجدال بالوجوه السابقة. والظنّ هنا هو الاعتقاد.

هذه هي التُّهم والاعتراضات التي اختلقها القوم، وجعلوها سبباً لعدم إيمانهم، وبما أنّ منطق الأنبياء في مقابل جدال القوم هو المنطق الصحيح، فهم يستمعون لكلام الطرف المقابل بصدر رحب ثم يُحلّلون احتجاجاته بشكل يقنع روّاد الحقيقة. وإليك مجموعة الآيات التي أجاب بها نوح عن هذه الاحتجاجات.

سورة هود: الآيات ٢٨ ـ ٣١ (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَة مِنْ رَبِّي ... إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ).

الآيات: الثامنة والعشرون إلى الحادية والثلاثين

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَة مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ * وَيَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاَقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ * وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْرًا اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ).

المفردات

أرأيتم: أخبروني عن رأيكم في هذا الموضوع. وقد استعمل هذا اللّفظ في هذا المعنى في غير هذا المورد، قال سبحانه: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ لَكُمْ مِنْ رِزْق فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلاَلاً) (يونس:٥٩).

فعُمّيت: خَفيت. والتعبير عن الخفاء بعُمّيت كناية عن التشديد في الخفاء.

أنلزمكموها: أي أنلزمكم إيّاها بالجبر والإكراه.

تزدري: الازدراء: من الزراية، يقال: زَرى على فلان، يزري، إذا عابه واستهزأ به، وأزرى به إزراءً: تهاون به. والمراد: تستخفّونهم وتحتقرهم أعينكم لما ترَون عليهم من الفقر والمسكنة.

التفسير

أجوبة نوح عن تهم واعتراضات قومه

هذه المجموعة من الآيات تشتمل على تحليل جدال القوم ونقده وردّه، كما تشتمل على أُمور أُخرى لو تأمّلها القوم لرجعوا عن جدالهم.

٢٨. (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَة مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ):

الإجابة عن الاعتراض الأوّل

خاطبهم بلفظة (يَا قَوْمِ) استعطافاً وإيذاناً بأنّه بصدد إيصال الخير إليهم، ثم خاطبهم بقوله: (أَرَأَيْتُمْ): أي أخبروني، وفي هذا أيضاً

دليل على عطفه وحنانه عليهم، ثم قال: (إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ) بما أنّ القوم اعتمدوا على كون نوح بشراً مثلهم وأنّه لا مزيّة له عليهم، ردّ على منطقهم الواهي بأنّه لا مانع من أن يتفضّل الله عليه بأمرين:

أ. (إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي) أراد من البيّنة ـ كما تقدّم ـ البصيرة الإلهية، فوق البصيرة الفطرية التي تبصر الحقائق وتعرفها. وقد مرّ وجه القول بأنّ المراد بالبيّنة هي البصيرة لا المعجزة، في تفسير قوله سبحانه:(أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ)(هود:١٧).

ب. (وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ) وهي النبوّة والتعاليم التي تستتبعها، فهي رحمة لي ولقومي. ولأجل هاتين المزيّتين بعثني الله سبحانه لهدايتكم إلى التوحيد، وإنقاذكم من الوثنيّة، وبهذا تبيّن فساد قولكم: (مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِثْلَنَا).

ثمّ إنّ السبب لامتناعكم عن الإيمان برسالتي هو جهلكم بهاتين المزيّتين وخفاؤهما عليكم كخفاء الأشياء عن الأعمى، كما يقول:(فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ): أي خفيت رسالتي عليكم وعجزتم عن فهمها.

فلم يبق هنا سبيل لإجابة دعوتي إلاّ أن أُكرهكم على الإيمان كما قال:

(أَنُلْزِمُكُمُوهَا)(في قوله: (أَنُلْزِمُكُمُوهَا) ضمائر ثلاث: ضمير المتكلّم، وضمير الغائب، وضمير المخاطب، فتدبّر.): أي أنُكرهكم على الإيمان بها (وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ): أي مع كراهتكم لها وإعراضكم عنها؟! وشأن الأنبياء هو الدعوة إلى الإيمان بالدليل والبرهان، لا الإكراه والإجبار. والفقرة تدلّ على أنّه لا إكراه في الدين ـ وكان ذلك سنّة في الشرائع السماوية من عصر نوح إلى عصر الشريعة الخاتمة ـ بمعنى أنّ الالتزام القلبي لا يقبل الإكراه.

٢٩. (وَيَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاَقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ):

أعاد نوح(عليه السلام) نداءه لقومه وقال: (وَيَا قَوْمِ) لنفس النكتة المذكورة، لأنّه منهم ولا يدعوهم إلاّ إلى خيرهم وصلاحهم. ولمّا كانت هنا مظنّة توهُّم أنّ الغاية من الدعوة إلى الإيمان به وبرسالته هي أخذ المال منهم طمعاً فيه، جاء الجواب عن هذا الأمر المتوهَّم بأنّه: (لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً) وما هذا إلاّ لأنّي مأجور من الله سبحانه:(إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ)وهذا هو منطق كلّ الرُّسل عبر الزمان، فتراهم يؤكّدون على هذه المقولة، تجد ذلك في قصص الأنبياء المذكورة في سورة الشعراء، فقد تكرّرت هذه الفقرة ما يناهزالعشر مرّات.

ويحتمل أن يراد:أنا لا أطلب المال على تبليغ دعوة الرسالة حتى يتفاوت الحال بسبب كون المستجيب فقيراً أو غنيّاً، فالفقير والغنيّ أمامها سيّان.

الإجابة عن الاعتراض الثاني

ولمّا اعترضوا على نوح(عليه السلام) بأنّ مَن آمن به هم من الطبقة السفلى بقولهم:(أَرَاذِلُنَا) وكأنّهم أرادوا بذلك أنّك لو طردتهم عنك ربما نؤمن بك، أجاب عنه بقوله: (وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا) إذ لا مبرّر لطردهم إلاّ أنّهم فقراء، وليس الفقر ذنباً عند الله تعالى (إِنَّهُمْ مُلاَقُوا رَبِّهِمْ): أي مبعوثون يوم القيامة وهو أعلم بمقاصدهم وضمائرهم، فكأنّهم اتّهموا أتباعه بأنّهم آمنوا به عن هوىً وطمع فلا يغترّ بإيمانهم فأجاب بقوله:(إِنَّهُمْ مُلاَقُوا رَبِّهِمْ): أي حسابهم على ربّهم (وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ): أي جاهلون بما يمتاز به البشر بعضهم على بعض، حيث جعلتم الملاك المالَ والجاه، دون التمسّك بالحقّ، وهؤلاء يتفضّلون عليكم بإيمانهم بالله سبحانه. قال الإمام علي(عليه السلام): «النَّاسُ أَعْدَاءُ مَا جَهِلُوا».(نهج البلاغة، قسم الحكم برقم ١٧٢. وفي الديوان المنسوب إلى الإمام(عليه السلام):«الجاهلون لأهل العلم أعداء».(الديوان:٢٤).)

والذي يدلّ على أنّهم جعلوا إيمان الفقراء والضّعفاء مانعاً من إيمانهم ما نُقل عنهم في سورة أُخرى:(قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ* قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ * وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ * إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ

مُبِينٌ).(الشعراء:١١١ـ ١١٥.)

ويظهر من آية سورة الأنعام أنّ هذا كان منطق مشركي مكة أيضاً، حيث إنّه سبحانه ينهى النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)عن طرد هذه الطبقة استجابةً لرغبة عتاة قريش، قال تعالى:(وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْء وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْء فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ).(الأنعام:٥٢.)

٣٠. (وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ):

تذكر الآية بأنّ طرد المؤمنين ذنب لا يغفر، حيث يقول: (وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ): أي مَن يمنعني من عذاب الله (إِنْ طَرَدْتُهُمْ) بعد إيمانهم بما أدعو إليه من التوحيد وطاعته سبحانه (أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ)وتتفكّرون أنّه ظُلم، والله سبحانه ينتصر للمظلوم يوم القيامة، فأكون مستوجباً للعقاب، ومَن ذا الذي يخلّصني من عذاب الله؟

إلى هنا تمّت الإجابة عن الاعتراضين الأوّلين، وأمّا الثالث فقد أجاب عنه في الآية التالية.

٣١. (وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْرًا اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ):

الإجابة عن الاعتراض الثالث

كان خطاب القوم في الاعتراضين الأوّلين متوجّهاً إلى نوح نفسه، بخلاف الاعتراض الثالث فإنّهم وجّهوه إليه وإلى مَن آمن به وقالوا: (وَمَا نَرى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْل)(هود:٢٧.) فعلى هذا يجب أن يكون الدفاع شاملاً لنفسه ولمتّبعيه، أمّا عن نفسه فقد نفى عنها الأُمور الثلاثة:

١. (وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ) أُريد بخزائن الله، أرزاق الناس للعيش والإنفاق، قال سبحانه:(قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لاَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ وَكَانَ الإِنْسَانُ قَتُورًا)(الاسراء:١٠٠.).

٢. (وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ) غيّر السياق ولم يقل: ولا أقول إنّي أعلم الغيب، لعدم الملازمة بين عدم القول بالعلم بالغيب وبين عدم علمه به، فلأجل نفي الثاني بتاتاً قال: (وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ): أي لا أدّعي العلم التامّ.

٣. (وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ) نفى ذلك لما تقرّر عند الناس من أنّ أكمل المخلوقات في القدرة والقوّة هم الملائكة، وبذلك بيّن نوح(عليه السلام) بأنّه لا فضل له على قومه لأجل هذه الأُمور. نعم، هو يتفضّل عليهم بالبصيرة الإلهية والنبوّة والرحمة، ولأجل ذلك صار قائداً يدعوهم إلى الرَّشاد.

إنّ نفي الأمرين الأوّلين لأجل دفع ما يُتوهَّم من أنّ المرسَل عن الله سبحانه يجب أن تكون له قدرة مطلقة، بيده أرزاق الناس، ويعلم مصائر الأُمور، فالنبيّ نوح ينفي هذين الأمرين، كما أنّه ينفي أن يكون ملَكاً لا لكونه أفضل منه؛ بل لأنّ مقتضى الرِّسالة أن يكون المُرسَل من جنس المرسَل إليهم.

جدير بالتذكير أنّه سبحانه أمر نبيّه الخاتم(صلى الله عليه وآله وسلم) أن يُعلن لقومه عن نفي هذه الأُمور الثلاثة عن نفسه، قال تعالى:(قُلْ لاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ)(الأنعام:٥٠.)، فبالتأمُّل في موقف هذين النبيّين في الأُمور الثلاثة يظهر أنّ المشركين كانوا يتصوّرون أنّ المرسّل من قبل الله تعالى يجب أن يتفوّق عليهم في الجوانب الثلاثة المشار إليها آنفاً.

إلى هنا تمّ دفاع نوح(عليه السلام) عن نفسه، وأمّا دفاعه عن المؤمنين به، فهذا ما تتضمّنه الفقرة التالية:

٤. (وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ): أي لا أقول في شأن الذين تنظرون إليهم نظرة استصغار واحتقار (لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْرًا)

في الدنيا والآخرة، خلافاً لكم حيث ترون الترف هو مقياس الحقّ والخير، وأمّا عند الله فمقياس الخير هو التقوى والعمل الصالح (اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ) من الإيمان والإخلاص، وإنّما عليّ قبول ظاهر إيمانهم بالله وتصديقهم بدعوتي، ولو قلتُ ذلك في حقّهم (إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ) حيث تجاوزت على حقوقهم. وبذلك عُلم أنّ الآية من أوّلها إلى آخرها دفاع عن النبيّ نوح(عليه السلام) نفسه وعن المؤمنين به.

وأمّا الاعتراض الرابع، أعني قولهم: (بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ) فقد تُركت الإجابة عنه، لأنّ مبنى ظنّهم بكذب نوح، هو الوجوه الثلاثة التي أبطلها نوح بأوجز البيان، ولذلك لم يحتج إلى جواب خاصّ.

ثمّ إنّ التأمُّل في هذه التُّهم يدلّ على أنّ النبيّ نوحاً(عليه السلام) قد بلغ من الطهارة والقداسة حدّاً لم يتمكّن فيه أعداؤه من اتّهامه بمساوئ الأخلاق ورذائل الأعمال، ولكن عنادهم دفعهم إلى توجيه الاتّهامات الثلاثة التي لا تؤثِّر ولا تمَسّ قداسة النبيّ، التي تفوح من سيرته العطرة، ومع ذلك فإنّ نفس هذه التهم تنفع العالِم الاجتماعي الذي يسعى لدراسة حياة الأنبياء ومعرفة سلوكهم في مجتمعاتهم، وهي خير وسيلة للوصول إلى معرفة قداستهم.

رفع شبهة

لمّا دلّت الآيتان على أنّ الأنبياء لا يعلمون الغيب، صار ذلك سبباً لنفي علم الغيب عنهم أعمّ من الذاتي والاكتسابي، وهذا هو صاحب «المنار» يقول: إنّ هذين الأمرين]يريد ما في قوله سبحانه:(وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ)(الأعراف:١٨٨.)[نفاهما كتاب الله عن رسله، يثبتهما مبتدعة المسلمين وأهل الكتاب لمن يسمّونهم الأولياء والقدّيسين منهم، وقد بيّنّا بطلان هذا مراراً.(تفسير المنار:١٢/٦٧.)

أقول: إنّ العلم بالغيب على ضربين:

أحدهما: ما هو مختصّ بالله سبحانه لا يشاركه فيه غيره، ولا يتجاوزه إلى سواه، وهو العلم الذاتي غير الاكتسابي الذي لا يُحدّ كمّاً ولا كيفاً. وما جاء في الذكر الحكيم من الإشارة إلى علم الغيب، لا يراد منه إلاّ هذا، فقوله سبحانه:(قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللهُ)(النمل:٦٥.) لا يراد منه إلاّ هذا المعنى المختص به تعالى كسائر أوصافه ونعوته.

ثانيهما: ما يتّصف به غيره سبحانه من ملائكته ورسله ومن يُظهره على غيبه، وهو العلم الاكتسابي (بتعلُّم من ذي العلم) المحدود كمّاً وكيفاً. وهذا لا يصحّ إطلاقه على الله سبحانه، والتقسيم هذا كما يجري في علم الغيب كذلك يجري في سائر نعوته وصفاته، مثل قدرته وحياته و... فما يجري منها على الواجب سبحانه لا يمكن تشريك الغير فيه، ولا يصحّ إطلاقه عليه، وما يجري على من سواه لا يصحّ إطلاقه عليه سبحانه، ولا يطلق إلاّ على غيره من المخلوقين.

إنّ من لاحظ سياق الآيات والقرائن الحافّة بها، وسير كتب التاريخ والحديث، يقف على أنّ المتبادر من «العلم بالغيب» في عصر الرسالة وبعده كان هو العلم الذاتي لا العرضي، ولأجل ذلك كان الأئمّة من أهل البيت(عليهم السلام) مع ما أخبروا به من المغيَّبات ممّا لا يحصى، يتحاشَون توصيف أنفسهم بأنّهم عالمون بالغيب، ناسبين علومهم ومعارفهم وما يخبرون به من ملاحم وأحداث وفتن، إلى التعلّم من ذي علم(لاحظ: نهج البلاغة: الخطبة١٢٨.)، أو الوراثة من الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم).

وهذا هو هشام بن الحكم يصف الإمام الصادق(عليه السلام) وهو من أكابر أصحابه، بأنّه يخبرنا بأخبار السماء وراثة عن أب عن جَدّ (الكافي:١/١٧٣، كتاب الحجّة، باب الاضطرار إلى الحجّة، برقم٤.)، وهذا أقوى دليل على أنّ المتبادر، في عصر الرسالة وبعده، من العلم بالغيب هو القسم اللائق بساحته سبحانه.

وكون العلم اكتسابياً أو غير اكتسابي ليس من المفاهيم الغامضة التي لا تنقدح في الأفهام الوسطى فضلاً عن العليا، فإنّ

الإنسان العارف بالله، مهما تنازل وبعُد عن المعارف، يقف على أنّ هناك موجوداً غنيّاً من جميع الجهات، والغنى نفسه وذاته، فوجوده وعلمه وقدرته وحياته، كلّ ذلك ثابت له من دون استناد إلى غيره، وأنّ هنا موجوداً فقيراً ومخلوقاً لغيره يعتمد في كلّ كمال وجمال إلى خالقه وبارئه، ولا نعني من الذاتي والاكتسابي غير هذا.

هذا هو موجز الجواب عن الإشكال، ولو سبر الإنسان القرآن الكريم لوقف على أنّ الأنبياء العظام أخبروا عن الغيب بتعليم من الله سبحانه، وتنبّأوا به بدءاً بالنبيّ آدم(عليه السلام) وختاماً بالنبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم)، ومن أراد المزيد فليرجع إلى موسوعتنا مفاهيم القرآن.(لاحظ: مفاهيم القرآن:٣/٤١٥ـ ٤٩٦.)

سورة هود: الآيات ٣٢ ـ ٣٥ (قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ... وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ).

الآيات: الثانية والثلاثون إلى الخامسة والثلاثين

(قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ * وَلاَ يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ).

المفردات

جادلتنا: قال الراغب: الجدال: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصله من: جدلت الحبل أي أحكمت فتله، ومنه الجديل، ثمّ قال: الجدال: فكأنّ المتجادلين يفتل]يصرف[كلّ واحد الآخر عن رأيه.(المفردات:٨٩ـ٩٠، مادة «جدل».)

نُصحي: النُّصح: تحرّي الصلاح والخير للمنصوح له، والإخلاص فيه قولاً وعملاً، من قولهم: ناصح العسل لخالصه المصفّى منه.

يُغويكم: الغيّ: الضلال، الخَيبة، الفساد. وقد يطلق عند العرب على كلّ شرّ.

إجرامي: قال الراغب: أصل الجَرْم قطع الثمرة عن الشجرة، واستعير لكلّ اكتساب مكروه.(المفردات:٩١، مادة «جرم».)

التفسير

ثبات نوح(عليه السلام) في طريق دعوته

٣٢. (قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ):

الآية تدلّ على أمرين:

١. كثرة جدال نوح(عليه السلام) مع قومه.

٢. استعجالهم العذاب.

إنّ صبر نوح(عليه السلام) واستقامته في طريق دعوته ممّا يضرب به المثل، إذ أنّه مكث في قومه تسعمئة وخمسين عاماً قضاها في طريق التبليغ والإرشاد من غير سأم ولا كلل رغم قلّة المؤمنين به وإعراض جلّ قومه عنه.

وليس دأبه على التبليغ والنصح لقومه ليلاً ونهاراً وعدم الاستسلام لعنادهم وعتوّهم إلاّ دليلاً على ثباته وعزمه على تحقيق رسالته، وبلوغ أُمنيته في هدايتهم وإرشادهم إلى الحياة الكريمة.

ولم يزل(عليه السلام) يدعوهم ويحاورهم ويحاججهم بأبلغ حجّة وأجمل بيان حتى ضاقت صدورهم به لبطلان كلّ حججهم وشبهاتهم، وسقوط جميع تهمهم فضجّوا قائلين: (قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا): أي خاصمتنا وحاججتنا(فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا) واستقصيت فيه، فلم تدَع لنا حجّة إلاّ دحضتها حتى مللنا وسئمنا، والفقرة تدلّ على كثرة جداله معهم في تقرير التوحيد والنبوّة

والمعاد.
إلى هنا تمّ الأمر الأوّل. وأمّا الثاني، أي استعجالهم العذاب، فيدلّ عليه قوله سبحانه:(فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا)من عذاب الله، في إشارة منهم إلى العذاب الذي مرّ في قوله:(إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ)(هود:٢٦.)، (إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)فيما تحكي عن الله سبحانه.

٣٣. (قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ):
لمّا كان ظاهر قولهم: (فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا) أنّ أمر العذاب بيد نوح(عليه السلام)، ردّ عليهم هذا الزعم بقوله: (قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللهُ إِنْ شَاءَ) فلو قضت مشيئته بذلك لأنزله بكم (وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ): أي ولستم بالذين لا تفوتونه هرباً، قال تعالى: (لَنْ نُعْجِزَ اللهَ فِي الأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا)(الجن:١٢.).

٣٤. (وَلاَ يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ):
الآية تشتمل على شرطين، كلٍّ بحاجة إلى جواب، أمّا الشرطان، فهما:
١. (إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ).
٢. (إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ).
وأمّا جواب هذين الشرطين، فيستفاد من قوله تعالى:(وَلاَ يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي)، وتقدير الآية: إن أردت أن أنصح لكم، وكان الله يريد أن يغويكم، لا ينفعكم نصحي.
أمّا مفاد الآية فلا شكّ في أنّ الله سبحانه لا يغوي عباده، فإنّ الإضلال من عمل الشيطان وقد أقسم على إضلال الناس: (قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)(ص:٨٢.)، ولذا فللمفسّرين في تفسير هذه الآية رأيان مختلفان:
١. تفسير الغيّ بمعنى العذاب، وهو خيرة الوزير المغربي حيث قال:(أَنْ يُغْوِيَكُمْ): أي يعذّبكم، من قوله: (فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا)(مريم:٥٩.).(تفسير المصابيح:٥٦٨.) ومن المعلوم أنّ تعذيبهم لأجل الشرك والعناد، أمر معقول لا إشكال فيه. ولعلّ تفسيره بالعذاب لأجل الفرار من دلالة الآية على الجبر، وقد نقله الرازي عن الحسن البصريّ، ونقل عن الجُبّائي أنّها بمعنى الخيبة، أي الخيبة من خير الآخرة.(تفسير الرازي:١٧/٢١٩.)
٢. أنّ الغواية بمعنى الضلالة، والإضلال على قسمين: إضلال ابتدائي من دون أن يصدر من العبد ما يوجبه ويستحقّه، وهو أمر قبيح لا يصدر من الله سبحانه، كيف؟ وقد بعث أنبياءه لهداية الناس، فكيف تتعلّق مشيئته بإضلالهم؟! وإضلال بعنوان المجازاة، بمعنى أنّه إذا تمادى الإنسان في عصيانه لربّه واستمر على لَجاجته، ففي هذه الحالة يُخلّيه سبحانه ونفسه ويقطع عنه أسباب التوفيق، وعندئذ يصحّ أن يقال: إنّ الله أغواه لفسقه وخروجه عن طاعته سبحانه، كما يقول:(يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ)(البقرة:٢٦.). وعلى هذا فمعنى الآية: أنّه إذا بلغتم حدّاً تعلّقت مشيئته بقطع أسباب التوفيق عنكم فلا ينفع نصحي ولا نصح غيري بعد هذه المشيئة (هُوَ رَبُّكُمْ) وأنتم المربوبون ومصيركم بيده (وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)فيجزيكم حسب أعمالكم وراء الاستئصال.
وبما ذكرنا ظهر أنّ الآية ليست دليلاً على الجبر، خلافاً للرازي، حيث قال: الآية صريحة في مذهبنا.(تفسير الرازي:١٧/٢١٨.)

٣٥. (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ):
اختلف المفسّرون في تفسير هذه الآية، فمن قائل: إنّها آية معترضة في قصّة نوح، حكاية لقول مشركي مكّة في تكذيب هذه القصص، إلى قائل بأنّها من قصّة نوح. ولعل الأوّل أفضل، والثاني أوفق لمقتضى السِّياق.

أمّا الأوّل: فلأنّ ما حكاه سبحانه من قصّة النبيّ الخاتم(صلى الله عليه وآله وسلم) مع مشركي قريش، ينطبق تماماً مع ما حصل مع نوح(عليه السلام) من قبل قومه، فقد جاء في سورة الأنعام في مورد النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) قوله:(قُلْ لاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ)(الأنعام:٥٠.)، وقوله تعالى: (وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ)(الأنعام:٥٢.) حتى أنّ ما احتجّ به(صلى الله عليه وآله وسلم) يشبه تماماً ما احتجّ به نوح(عليه السلام) على قومه(لاحظ: الأنعام:٤٦ـ ٤٩.)، ولهذه المناسبة صحّ هنا أن يعطف موضوع اتّهام قريش للنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)بالافتراء، على قصة اتّهام نوح به من قبل قومه، ويقول: (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ): أي افترى النبيُّ القرآنَ، (قُلْ) يا رسول الله (إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي): أي عقوبة جرمي عليّ، لا تؤاخذون به (وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ): أي لا أُؤاخذ بجرمكم.

يقول الرازي في تفسير قوله: (فَعَلَيَّ إِجْرَامِي): فهذا من باب حذف المضاف لأنّ المعنى: فإنّ عليّ عقاب إجرامي. وفي الآية محذوف آخر، وهو أنّ المعنى: إن كنت افتريتُه فعليّ عقاب جرمي، وإن كنت صادقاً وكذبتموني فعليكم عقاب ذلك التكذيب، إلاّ أنّه حذف هذه البقية لدلالة الكلام عليه.(تفسير الرازي:١٧/٢٢٠.)

ثمّ إنّه لو قلنا بتجسّم الأعمال وتمثّلها فلا حاجة إلى تقدير العقوبة؛ وذلك لأنّ معنى التمثُّل هو أنّ للشيء ظهورين: ظهور في الدنيا بصورة الجرم، وظهور في الآخرة بصورة العقوبة، فهنا شيء واحد يتمثّل بصورتين.

وقد جاءت هذه الآية في ثنايا قصة نوح(عليه السلام)، ليلتفت إليها المشركون، وكأنّها قصّتهم، ثمّ لينتبهوا إلى ما سيجيء بعدها، من أخذ الله سبحانه وتعالى للظالمين والمكذّبين.(التفسير القرآني للقرآن:٦/١١٣٧.)

وأمّا الثاني: فالأوفق لمقتضى السِّياق أنّها ذات صلة بنوح(عليه السلام)، والضمير في (يَقُولُونَ) يعود إلى قوم نوح، والمعنى قل يا نوح لقومك، إن كنت كاذباً فيما أقول كما تزعمون فأنا المسؤول عن ذلك(فَعَلَيَّ إِجْرَامِي)، وإن كنت صادقاً فأنتم المسؤولون عن أعمالكم(وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ).

سورة هود: الآيات ٣٦ ـ ٣٩ (وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ ... وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ).

الآيات: السادسة والثلاثون إلى التاسعة والثلاثين

(وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ * وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ).

المفردات

فلا تبتئس: من الابتئاس بمعنى الحزن، قال الشاعر:

فلا تبتئس من نقد من ليس حظُّهُ *** من الدهر، إلاّ أن يُرى وهو ساخرُ

بأعيننا: الأعين هنا كناية عن شدّة العناية بالمراقبة والحفظ، فالله سبحانه يصونه عن أن يزيغ في صنع السفينة عن الصواب، وأن لا يحول بينه وبين عمله أحدٌ من أعدائه، والشاهد لذلك قوله سبحانه:(وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي)(طه:٣٩.)، وقوله مخاطباً رسوله الكريم(صلى الله عليه وآله وسلم):(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)(الطور:٤٨.).

وهذا النوع من التفسير، حملٌ للظاهر على المعنى الظاهر، وليس تأويلاً وذلك للفرق بين الظهور الإفرادي وبين الظهور الجُملي،

فالعين والأعين إذا أُفردت تكون بمعنى الجارحة، وأمّا إذا وردتا ضمن جملة فقد يتبادر منها معنى العناية والحفظ، كقول الشاعر:

وإذا السّعادة لاحظتْك عيونُها *** نَم، فالمخاوف كُلّهُنّ أمانُ

فتفسير العين بالمعنى اللُّغوي جمود على الظهور الإفرادي وليس هو بحجّة، وإنما الحجّة هو ظهور مجموع الجملة، فإنّك لو أثنيتَ على شخص وقلت: فلان مبسوط اليد، فالمتبادر من اليد عند الإفراد هو الجارحة، لكن المتبادر من مجموع الجملة هو أنّه يعطي بسخاء.

التفسير

صُنع الفُلْك(السفينة) وسخرية قومه

لقد اقتضت إرادة الله سبحانه بإبادة الكافرين وإهلاكهم وتطهير الأرض منهم، وبإنقاذ المؤمنين من الهلاك، ولمّا كانوا جميعاً يعيشون في منطقة واحدة فقد اقتضى ذلك توجيه الأمر إلى نوح بأن يصنع الفلك، ليحفظ به حياة المؤمنين.

بدأ نوح بعمله في البَرّ بعيداً عن الماء، ولم يكن ذلك مناسباً لصنع الفُلك، الّذي ينبغي أن يُصنع قرب الشواطئ ليسهل إلقاؤه في الماء، ومن هنا أخذ قومه يهزأون به ويسخرون منه (وكانوا يقولون يتّخذ سفينة في البرّ)(روي هذا القول عن الإمام علي(عليه السلام). انظر: النور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين، للجزائري:٧٣.)، وهذا يدلّ على أنّ طبائعهم قد جُبلت على العناد والجحود والسخرية.

إنّ الفُلك الّذي يحمل المؤمنين، ومن كلّ جنس من أجناس الحيوانات زوجين اثنين، والطعام الّذي يحتاج إليه الركّاب طول فترة الطوفان، إن هذا الفلك لابدّ أن يكون عظيماً قوياً يقاوم الأمواج العاتية، وأن يكون صنعه بتعليم من الله سبحانه وتسديده، لأنّ نوحاً وقومه لم يروا سفينة من قبل، ولم يعرفوا كيفية صنعها.

هذا، وقد اختلفت كلمات المؤرّخين في خصوصيات هذا الفُلك، ومهما اختلفوا في عرضه وطوله وسعته فالآيات الّتي تشير إلى أنّه حُمل فيه كلّ ذلك، تدلّ على سعته وكبره. روي عن أمير المؤمنين علي(عليه السلام)أنّه قال: إنّ طولها كان ألفاً ومئتي ذراع وعرضها ثمانمئة ذراع وطولها في السماء ثمانون ذراعاً. ونقل ابن كثير أقوال الباقين في خصوصيات الفلك بما لا حاجة إلى ذكرها هنا. ومن المعلوم أنّ ذلك الفلك كان مؤلّفاً من طبقات بعضها للناس، وبعضها للدوابّ، وبعضها للوحوش، وبعضها للطيور.(النور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين للجزائري:٧٢.)

٣٦. (وَ أُوحِيَ إِلَى نُوح أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ):

الإخبار عن عدم إيمان الموجودين من قومه

قوله تعالى: (وَ أُوحِيَ إِلَى نُوح): أي أوحى الله سبحانه إليه(أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ) ولعلّ لفظة (قَدْ) إشارة إلى رسوخ إيمانهم، (فَلاَ تَبْتَئِسْ): أي لا تحزن ولا تغتمّ (بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) من سوق الاتّهامات الباطلة والازدراء والإصرار على الكفر. والشاهد على تولّيهم وإصرارهم على ما هم عليه قولُه سبحانه حاكياً عن نوح(عليه السلام):(فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا)(نوح:٦ـ٧.).

ثمّ إنّه سبحانه يخبر عن عدم إيمان الموجودين من قوم نوح، غير أنّ المتبادر من دعاء نوح عدم إيمان الموجودين وذرّيتهم، حيث قال: (رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا)(نوح:٢٦ـ ٢٧.)، ولعلّ النبيّ نوحاً(عليه السلام) دعا بهذا الدعاء بعد هذه الآية وقبل الأمر بصنع الفلك.

نقل الرازي أنّ أصحابه استدلّوا بقوله: (أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ) على صحّة قولهم في القضاء والقدر، وقالوا إنّه تعالى أخبر عن قومه أنّهم لا يؤمنون بعد ذلك، فلو حصل إيمانهم لكان إمّا مع بقاء هذا الخبر صدقاً، ومع بقاء هذا العلم علماً أو مع انقلاب هذا الخبر كذباً ومع انقلاب هذا العلم جهلاً. والأوّل ظاهر البطلان لأنّ وجود الإيمان مع أن يكون الإخبار عن عدم الإيمان صدقاً، ومع كون العلم بعدم الإيمان حاصلاً حال وجودِ الإيمان، جمع بين النقيضين؛ والثاني أيضاً باطل، لأنّ انقلاب خبر الله كذباً وعلم الله جهلاً محال، ولمّا كان صدور الإيمان منهم لابدّ وأن يكون على هذين القسمين وثبت أنّ كلّ واحد منهما محال، كان صدور الإيمان منهم محالاً مع أنّهم كانوا مأمورين به.

كما أنّه أورد في ذيل كلامه إشكالاً آخر وقال: وأيضاً القوم كانوا مأمورين بالإيمان ومن الإيمان تصديق الله تعالى في كلّ ما أخبر عنه، ومنه قوله:(أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ) فيلزم أن يقال: إنّهم كانوا مأمورين بأن يؤمنوا بأنّهم لا يؤمنون ألبتة، وذلك تكليف الجمع بين النقيضين.(تفسير الرازي:١٧/٢٢١.)

أقول: الظاهر من كلامه انّه استدلّ بالأوّل من الإشكالين على القول بالجبر، وبالثاني على جواز التكليف بمالايطاق. وإليك نقدهما.

أمّا الأوّل: فيلاحظ عليه: أنّ ما ذكره من أحد المحذورين (اجتماع النقيضين أو انقلاب العلم جهلاً) مبنيٌّ على فرض فرضه الرازي ورتّب عليه أحد المحذورين وهو قوله: «فلو حصل إيمانهم»، ومن المعلوم أنّه يترتّب على هذا الفرض ما ذكره، ولكنّ المفروض في كلامه سبحانه عِلمُه بعدم إيمانهم عن اختيار. وعلى هذا الفرض قال سبحانه:(أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ). وعلى هذا الفرض لا يترتّب عليه أحد المحذورين.

وإن شئت قلت: إنّه سبحانه عَلمَ أنّهم لا يؤمنون ـ مهما عاشوا ـ باختيارهم، ولذلك أخبر عن عدم إيمانهم، وعلمُه لا يتخلّف عن الواقع، فالقول «فلو حصل إيمانهم» خارج عن مفروض كلامه سبحانه.

هذا كلّه حول الإشكال الأوّل.

وأمّا الإشكال الثاني، فهو ما يكرّره المجبّرة في مورد أبي لهب أيضاً، حيث قالوا: إنّ الله تعالى كلّف أبا لهب بالإيمان، ومن جملة الإيمان تصديق الله في كلّ ما أخبر عنه، وممّا أخبر عنه أنّه لا يؤمن وأنّه من أهل النار، فقد صار مكلّفاً بأنّه يؤمن بأنّه لا يؤمن، وهذا تكليف بالجمع بين النقيضين، وهو محال.(تفسير الرازي:٣٢/١٧١.)

والجواب عنه: أنّ أبا لهب بلغ من العصيان والطغيان درجةً أن خُتم على قلبه، فما كان يؤمن بعدها أبداً، ولذلك سقط التكليف بالإيمان لأجل الطغيان الذي سلب عنه كلّ الإمكانات، فكان تكليفه بالإيمان تكليفاً لاغياً غير مفيد. وهذا الجواب نفسه يقال أيضاً في الجواب عن قوم نوح(عليه السلام).

بقي هنا سؤال، وهو أنّ النبيّ نوحا(عليه السلام) من أين علم أنّ ذرية هؤلاء لا يلدون إلاّ فاجراً كفّاراً كما في سورة نوح؟(لاحظ: نوح:٢٧.)

والجواب: أنّه رأى بنور النبوّة عدم وجود أي مؤمن ومؤمنة في ذرّيتهم. وهذا نوع من علم الغيب المكتسب المحدود المفاض من الله تعالى إلى مثل نوح الذي مكث في قومه تسعمئة وخمسين عاماً مرشداً ومبلغاً. وسيوافيك مزيد كلام في تفسيرنا لسورة نوح.

٣٧. (وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ):

أمرُه سبحانه نوحاً بصنع الفلك تحت مراقبته

لمّا دلّ نهي الله سبحانه نوحاً(عليه السلام) عن الحزن والغمّ بأفعال قومه الإجرامية على قرب حلول عذاب الاستئصال بهم، صار

ذلك سبباً لأمر نوح(عليه السلام) بصنع الفُلك لأنّ المشيئة الإلهية اقتضت أن يكون الاستئصال بالغرق، ولأجل ذلك أمره سبحانه بصنع الفلك لينجو هو ومن آمن معه بها، وقال: (وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا) قيّد صنع الفُلك بأمرين:

أ. كون الصُّنع بعين الله سبحانه، وهو كناية عن المراقبة والمحافظة.

وذُكرت بالجمع هنا (بِأَعْيُنِنَا) لإفادة شدّة العناية بالمراقبة والحفظ، فإنّ العرب تعبّر برؤية العين الواحدة عن العناية، وبالأعين عن المبالغة فيها، قال تعالى لموسى:(وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي)(طه:٣٩.) وقال للنبيّ محمد(صلى الله عليه وآله وسلم):(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)(الطور:٤٨.).

ب. كون الصنع بإيحاء من الله سبحانه، كما في قوله:(وَوَحْيِنَا): أي تعليمنا، حتى يصان صُنع الفُلك من الخطأ والخلل.

وعلى هذا فالمراد من الوحي هنا ليس الوحي التشريعي.

ثمّ نهاه سبحانه عن مراجعته ومسألته في أمر الظالمين وقال: (وَلاَ تُخَاطِبْنِي): أي لا تدْعني (فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا): أي في استدفاع العذاب عنهم (إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ): أي إنّهم محكوم عليهم بالغرق، فلا تنفع الشفاعة في حقّهم.

وعلى هذا، فلو كان ابن نوح من الظالمين لكان محكوماً بالعذاب أيضاً، وكان اللائق بنوح(عليه السلام) أن لا يسأل عنه، كما سيوافيك بيانه.

٣٨. (وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ):

سخرية قوم نوح منه لصنعه الفُلك

لمّا شرع نوح(عليه السلام) في صنع الفلك على اليابسة، أخذ الجاهلون في السخرية منه، كما يقول سبحانه:(وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ) صيغة المضارع تدلّ على أنّه اشتغل بصنعه في زمن مستمر وكان قومه كلّما اجتازوا به، وهو يصنع الفلك، قابلوه بالسخرية، كما يقول:(وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ): أي جماعة من كبراء قومه ورؤسائهم (سَخِرُوا مِنْهُ) وكأنّهم يقولون: اتّخذ سفينة في البرّ، غير أنّهم كانوا جاهلين بأمر الله وأنّه يجعل البَرّ بحراً موّاجاً، والفُلك طافية على الماء. ويظهر من قوله: (قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ)ولم يقل «فإنّي أسخر منكم» ليدافع عن نفسه وعن المؤمنين به. والسخرية (وهي تعبير عن الإهانة) وإن كانت قبيحة إلاّ أنّها ليست كذلك إذا كانت بعنوان المجازاة، وهي حقٌّ للمظلوم، قال تعالى: (فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)(التوبة:٧٩.).

نعم السخرية أمر قبيح إذا صدر من الإنسان ابتداءً، وأمّا إذا صدر من باب الجزاء فلا يستقبح، قال تعالى: (فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ)(البقرة:١٩٤.)، وقال سبحانه: (وَجَزَاءُ سَيِّئَة سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا)(الشورى:٤٠.). ومن غريب ما روي عن أبي جعفر[الباقر](عليه السلام) أنّه قال:«إنّ نوحاً(عليه السلام) لمّا غرس النّوى، مرّ عليه قومه فجعلوا يضحكون ويسخرون ويقولون: قد قعد غرّاساً، حتى إذا طال النخل، وكان جبّاراً طوّالاً، قطعه ثم نحته، فقالوا: قد قعد نجاراً، ثم ألّفه فجعله سفينة، فمرّوا عليه فجعلوا يضحكون ويسخرون ويقولون: قد قعد ملاّحاً في فلاة من الأرض حتى فرغ منها».(الكافي:٨/٢٨٣ برقم ٤٢٦.)

٣٩. (فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ):

يخبر نوح(عليه السلام) بقوله هذا عن أمرين:

١. إتيان العذاب المخزي

٢. حلول عذاب مقيم

أمّا الأوّل، فأُريد به التغريق في الماء الذي صار عذاباً مخزياً موهناً لهم، قال سبحانه:(رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ)(آل عمران:١٩٢)، وأيّ خزي وإهانة أشدّ من التغريق في الماء، تنقطع به أنفاسهم وتذهب نفائسهم، أو الإحراق بالنّار. وأمّا الثاني، فأُريد به عذاب الآخرة الذي هو عذاب مقيم ودائم.

سورة هود: الآيات ٤٠ ـ ٤٣ (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ... فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ).

الآيات: الأربعون إلى الثالثة والأربعين

(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ * وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرَيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْج كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِل يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلاَ تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ* قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَل يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ).

المفردات

أمرُنا: تعلّق إرادته سبحانه بالعذاب.

فار: من الفوران، وهو غليان الماء في القدر.

التنّور: الموقد الذي يُخبز فيه الخبز، وسيوافيك المراد منه.

من كلّ زوجين: الزوجان عبارة عن كلّ شيء يكون أحدهما ذكراً والآخر أُنثى، ووصفه باثنين للدلالة على أن لا يزيد عليهما. والزوج يطلق على المذكر والمؤنث.

مَجراها: مصدر ميمي، بمعنى الجري والحركة، أي مسيرها. ويجوز أن يكون اسم زمان.

مُرساها:مصدر ميمي من أرسى، أي موقفها، يقال: رسا الشيء يرسو: إذا ثبت، وأرساه غيره، قال تعالى: (وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا)(النازعات:٣٢). ويجوز أن يكون اسم زمان.

مَعزِل: مكان عُزلة وانفراد.

سآوي: سألجأ.

عاصم:مانع.

التفسير

٤٠. (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ):

المتبادر من الآية أنّ السخرية كانت مستمرة من القوم منذ بدأ النبيّ نوح(عليه السلام) بصنع الفلك إلى الوقت الذي جاء فيه أمر الله، كما يقول: (حَتَّى إِذَا): أي كانوا يسخرون إلى أن (جَاءَ أَمْرُنَا): أي تحقّق (وَفَارَ التَّنُّورُ)، في تفسير الفقرة وجهان:

١. أنّ فوران الماء من التنُّور كان علامة جعلها الله لنوح(عليه السلام)، أي إذا فار الماء من تنّوره علم أنّ ذلك مبدأ الطوفان، فعندئذ دعا من آمن به إلى ركوب الفلك. واللام في «التنّور» للعهد الخارجيّ.

٢. أنّ فوران الماء من التنُّور مثَل يراد به اشتداد الحال، وأُريد هنا الغضب، كما يقال: حَمِيَ الوطيس، بمعنى اشتدّت الحرب.(الوطيس ـ كما في المنجد ـ التنُّور وشبهه.) قال الطبرسيّ في بيان هذا الوجه: إنّ (فَارَ التَّنُّورُ) معناه: اشتدّ غضب الله عليهم ووقعت

نقمته بهم، كما تقول العرب: حميَ الوطيس إذا اشتدّ الحرب بينهم، وفار قِدر القوم، إذا اشتدّ حربهم، واستشهد بقول الشاعر:

تفور علينا قِدرُهم فَنُذيمُها *** ونفثأها[٢] عنّا إذا حَمْيُها غلى[٣]

[٢]القدر: الحرب، ونذيمها: نسكنها، ونفثأها: نلقي عليها الماء ليسكن غليانها.

[٣]مجمع البيان:٥/٢٧٩.

وروى الأعمش مرفوعاً إلى علي(عليه السلام) في تفسير الفقرة: أما والله ما هو تنُّور الخبز ثم أومأ بيده إلى الشمس فقال: طلوعها.(تفسير العياشي:٢/١٤٧.) وقال الأزهري اللُّغويّ: وعن علي(رضي الله عنه): تنوير الصُّبح.(تهذيب اللغة: مادة «تنر».)

ثمّ إنّه سبحانه أمر نوحاً(عليه السلام) بحمل الطوائف التالية معه في الفلك:

١. (مِنْ كُلّ): أي من كلّ جنس من الحيوان (زَوْجَيْنِ) ذكراً وأُنثى، وإنّما قال: (اثْنَيْنِ) بعد قوله:(زَوْجَيْنِ) لأجل ألاّ يزيد على اثنين، ولأجل الحفاظ على بقاء الحيوانات، أمره بالحمل.

٢. (وَأَهْلَكَ) واستثنى (إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ) وهي امرأته التي وصفها الله سبحانه في سورة التحريم بقوله:(ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوح وَامْرَأَةَ لُوط كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلاَ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ)(التحريم:١٠.).

وقد كان لنوح ثلاثة أبناء، وهم سام وحام ويافث، ولكلّ واحد منهم امرأة، فالمراد من سبق عليه القول امرأته وابنه وكانا كافرين.

٣. (وَمَنْ آمَنَ): أي احمل فيها مَن آمن بك. ثم أخبر سبحانه وقال: (وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ)، واختلفوا في عدد المؤمنين، وأكثر ما قيل في ذلك أنّهم ثمانون فرداً، وعلى هذا فقد آمن به ـ كمعدَّل ـ في كل اثني عشر سنة شخص واحد، فيالله ولصبره العجيب!؟ (سَلاَمٌ عَلَى نُوح فِي الْعَالَمِينَ).(الصافات:٧٩.)

ثمّ إنّ الرازي قال: احتجّ أصحابنا بقوله: (إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ) في إثبات القضاء اللازم والقدر الواجب، لأنّ قوله: (سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ) مشعر بأنّ كلّ مَن سبق عليه القول لا يتغيّر عن حاله.(تفسير الرازي:١٧/٢٢٧.)

يلاحظ عليه: أنّ قوله: (إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ) لا يدلّ على الجبر كما توهّمه الرازي، لأنّه بمعنى من أشرنا إلى أنّه لا يؤمن باختياره.

٤١. (وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرَيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ):

بعد أن أحضر نوح(عليه السلام) أهله ومَن آمن معه أمرهم بركوب السفينة:(وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا): أي في السفينة (بِسْمِ اللهِ مَجْرَيهَا وَمُرْسَاهَا). الظاهر أنّ المجموع كلام واحد، أي(بِسْمِ اللهِ مَجْرَيهَا وَمُرْسَاهَا)وكلا اللفظين يتعلّقان بالفعل (ارْكَبُوا)حالان من الضمير فيه. فإن قلنا: إنّ المَجرى والمُرسى اسما زمان يتضمّنان معنى الوقت، فيكون المعنى: اركبوا قائلين باسم الله وقت إجرائها ووقت إرسائها.

ولو قلنا: إنّهما مصدران ميميّان يقدّر فيهما الوقت المضاف، كما يقال: خفوق النجم، أي وقت غروب النجم، ومَقدَم الحُجّاج، أي وقت قدومهم، فيكون المعنى: اركبوا فيها مسمِّين الله، أو قائلين باسم الله.

روى علي بن إبراهيم القمي عن أبي عبد الله[الصادق](عليه السلام) في قوله عزّ وجلّ: (ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرَيهَا وَمُرْسَاهَا) يقول: «مجراها أي مَسيرها، ومُرساها أي موقفها».(تفسير القمي:١/٣٢٧.)

يقول السيد الطباطبائي: ونوح(عليه السلام) أوّل إنسان حكى الله سبحانه عنه التسمية باسمه الكريم فيما أوحاه من كتابه، فهو(عليه السلام) أوّل فاتح فتح هذا الباب كما أنّه أوّل مَن أقام الحجّة على التوحيد، وأوّل مَن جاء بكتاب وشريعة، وأوّل مَن

انتهض لتعديل الطبقات ورفع التناقض عن المجتمع الإنسانيّ.(الميزان في تفسير القرآن:١٠/٢٢٨)

ثمّ عقّب نوح(عليه السلام) كلامه بقوله:(إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)ولعلّ بعض مَن آمن معه كان مذنباً، فناسب أن يقول نوح(عليه السلام) ذلك لتأكيد عظم رحمة الله، حيث لم يهلكه بذنبه وتقصيره، وإنّما أهلك الكافرين. روى الطّبراني وابن مردويه وغيرهما عن الحسين بن علي(عليهما السلام)قال: «قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): أمان لأُمّتي من الغرق إذا ركبوا في السفن أن يقولوا: بسم الله الرحمن الرحيم: (بِسْمِ اللهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)، و(وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ)إلى آخر الآية.(الدر المنثور:٤/٤٣٢)

٤٢ و٤٣. (وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْج كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِل يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلاَ تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَل يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ):

دعوة نوح ابنه إلى الرّكوب في السّفينة

الآية الأُولى تتضمّن أمرين:

١. تحكي المنظر الرهيب لظهور الطوفان حيث إنّ المياه تنهمر من آفاق السماء والأرض تفجّرت عيوناً، والسفينة تسير في الماء وسط موج يشبه الجبال في علوّه وارتفاعه، وهذا النوع من الموج يسبّبه هبوب الرياح العاتية، التي ترفع كميات كبيرة من الماء إلى الأعلى، وهذا ما يحكيه بقوله:(وَهِيَ): أي السفينة (تَجْرِي بِهِمْ): أي بنوح(عليه السلام) ومن معه (فِي مَوْج كَالْجِبَالِ) في عظمها وارتفاعها. وسيوافيك الكلام حول الطّوفان، وهل كان عالمياً، أو لا؟ فانتظر.

٢. أنّ النبيّ نوحاً(عليه السلام) ركب في السفينة ورأى ابنه (الذي يقال إنّ اسمه كنعان) في مكان منعزل عنه، كما قال:(وَكَانَ فِي مَعْزِل)، فناداه بقلب لهيف: (يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلاَ تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ) ولكنّه أبى أن يُلبّي نداء الوالد المشفق، معتذراً بأنّه سيلجأ إلى جبل عال يحفظه من الماء (قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَل يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ).

ثم إنّه قال: (وَلاَ تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ) ولم يقل من الكافرين، والفرق بينهما واضح، فالأوّل غير ظاهر في كونه كافراً، وإنّما يكون ظاهراً في كونه مع المتخلِّفين عن الرّكوب في السفينة، بخلاف الثاني فهو ظاهر في كونه كافراً. وظاهر الآية أنّ الابن لم يُجب بشيء.

وكان يتصوّر أنّ المياه مهما ماجت فلن تصل إلى سفح الجبل فضلاً عن قمّته، ثم لم تلبث أن تنحسر، وأنّه سوف ينجو من الغرق بصعوده الجبل، فأجابه نوح(عليه السلام) البصير بعظمة الله وقدرته و: (قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ)، فلو كان قوله: «لا عاصم» بمعنى «لا معصوم» يكون الاستثناء متّصلاً، وإلاّ يكون منقطعاً، إذ المستثنى منه «لا حافظ» والمستثنى لا محفوظ. ولكن هذا المفتون بجهله وغروره لم يفهم مغزى هذا القول، ولم يدرك أنّه لن يفلت أحد من غضب الله إلاّ بالرجوع إليه تعالى، وظلّ سادراً في غيّه إلى أن حدث ما حدث (وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ): أي بينه وبين أبيه(فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ).

كيف طلب نوح من ابنه الرّكوب في السفينة؟

إنّ هنا سؤالاً قد شغل بال المفسّرين وهو أنّه كيف طلب نوح من ابنه الرّكوب في السفينة مع كونه كافراً؟

أقول: ذكر المفسّرون أجوبة مختلفة والذي يمكن أن يقال: إنّ النبيّ نوحاً لم يكن يعلم كفر ابنه، وكان الابن يخدع أباه فلذلك ناداه، ولولا ذلك لما أحبّ نجاته.

والذي يؤيّد ذلك خطابه بقوله:(وَلاَ تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ) حيث يشير إلى عدم وقوفه على كفر ابنه، حيث يكون المعنى: لا تتخلّف مع الكافرين فتغرق معهم(مجمع البيان:٥/٣١١)، وإلاّ فلو كان كافراً كان اللازم أن يقول «وَلاَ تَكُنْ من الْكَافِرِينَ»، وهذا ما

جعل نوحاً(عليه السلام) يسأل ربّه عن وجه غرق ابنه مع كونه من أهله، ولم يكن كافراً ـ عند أبيه ـ محكوماً بالغرق.

والشاهد على ذلك أنّه(عليه السلام) لم يسأل الله عن امرأته مع كونها كانت من أهله من دون ريب، وما ذلك إلاّ لأنّه كان يعلم أنّها كافرة، ولذا تركها تغرق دون أن يسأل عنها. وهذا الجواب أفضل من سائر الأجوبة.

وقد طرح الرازي سؤالاً آخر وهو أنّه كيف يكون ولد النبي المعصوم كافراً؟ ثم أجاب عنه بأنّه لا بُعد في ذلك، فإنّه ثبت أن والد رسولنا(صلى الله عليه وآله وسلم) كان كافراً، ووالد إبراهيم(عليه السلام) كان كافراً بنصّ القرآن.(لاحظ: تفسير الرازي:١٧/٢٣١.)

يلاحظ عليه: أنّ ما أفسده أكثر ممّا أصلحه، فإنّ والد الرسول الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) كان مؤمناً موحّداً فإنّ بيت عبد المطّلب كان بيت التوحيد. وقد ذهبت الإمامية والزيدية وجملة من محقّقي أهل السنّة إلى إيمانهما وكونهما(أي والدي النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)) على خط التوحيد، وشذّ مَن قال: «إنّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) مع كثرة ما أنعم الله عليه ووفور إحسانه إليه، لم يرزقه إسلام والديه»، فإنّ هذه الكلمة صدرت من غير تحقيق، فالتاريخ لم يضبط من حياتهما إلاّ شيئاً يسيراً، وفيما ضبط إيعاز لو لم نقل دلالة على إيمانهما وكونهما على الصراط المستقيم، كيف يكون كافراً وهو ولد عبد المطّلب الرجل الأوّل في هذا البيت؟ يقول اليعقوبي في الحديث عنه:... ورفض عبد المطّلب عبادة الأصنام، ووحّد الله عزّ وجلّ، ووفى بالنذر، وسنّ سنناً نزل القرآن بأكثرها، وجاءت السنّة من رسول الله بها، وهي: الوفاء بالنّذر، ومئة من الإبل في الدّيَة، وأن لا تُنكح ذات محرم، ولا تؤتى البيوت من ظهورها...(إلى أن قال): ولمّا قدم صاحب الفيل خرجت قريش من الحرم فارّة من أصحاب الفيل، فقال عبد المطّلب: والله لا أخرج من حرم الله، وأبتغي العزّ في غيره... فكانت قريش تقول: عبد المطّلب إبراهيم الثاني. وكان المبشّر لقريش بما فعل الله بأصحاب الفيل، عبد الله بن عبد المطّلب أبو رسول الله.(تاريخ اليعقوبي:٢/١٠ـ١١، دار صادر ـ بيروت.)

وقد بسطنا الكلام في ذلك في موسوعتنا «مفاهيم القرآن».(لاحظ: مفاهيم القرآن:٥/٢٦٣ـ ٢٦٩.)

وأمّا قوله في والد إبراهيم(عليه السلام) فباطل جدّاً، وسيأتي بيانه في تفسير قوله سبحانه:(رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ)(إبراهيم:٤١.).

بقي هنا شيء وهو أنّ مقتضى السياق أنّ النبيَّ نوحاً(عليه السلام) نادى ابنه قبل جري السفينة على سطح الماء، مع أنّه ذكره بعده حيث قال:(وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْج كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ).

وجهه: أنّ الواو لا تدلّ على الترتيب، فكان النداء قبل جريان السفينة وحركتها على سطح الماء.

وقد التفت إليه ابن عاشور وقال: إنّ نداءه ابنه كان قبل جريان السفينة في موج كالجبال، إذ يتعذّر إيقافها بعد جريها، ولم يذكر شيئاً من السؤال والجواب . وقد مرّ أنّ الواو يدلّ على الجمع لا الترتيب بخلاف «الفاء»، قال ابن مالك:

و «الفاءُ» لِلترتيبِ باتّصالِ *** و «ثُمَّ» للترتيبِ بانفصالِ

سورة هود: الآية ٤٤ (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي ... وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ).

الآية: الرابعة والأربعون

(وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ).

المفردات

ابلعي: البَلْع: تجرّع الشيء وازدراده، فشبّه قبض الأرض للماء وشربه فيها بذلك.

سماء: أُريد بها السماء المظلّة.

أَقلعي: الإقلاع: انتزاع الشيء من أصله، وأقلع عن الأمر: تركه. والمعنى: أقلعي وأمسكي عن الإمطار.

غيضَ: غاض الماء. نقَص، أو غار وذهب في الأرض.

قُضيَ الأمر: إشارة إلى جميع القصّة من فوران التنُّور وإهلاك الأُمم وإنجاء أهل السفينة.

استوت: استقرّت.

الجوديّ: اسم جبل معروف.

بُعداً: أي أبعد الله الظالمين من رحمته.

التفسير

٤٤. (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ):

بدأت الآية ببيان مصير السفينة وركّابها بعد نهاية الطوفان، وعلى هذا فهناك شيء مقدّر ترك الوحيُ ذكره لوضوحه، وهو أنّه لمّا انتهى أمر الطوفان وحان وقت نزول ركّاب السفينة إلى الأرض، قيل: (يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ): أي اشربي الماء الذي نبع من باطنك، والتعبير بـ(ابْلَعِي) دليل على سرعة ذهاب الماء حيث إنّ البلع يستعمل فيما إذا كان أكل الطعام غير مقرون بالمضغ على خلاف ما جرت به العادة، وذلك أدلّ على القدرة، وأحقّ بالعبرة.

قوله:(وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي): أي أمسكي وكفّي عن الإمطار (وَغِيضَ الْمَاءُ): أي غار الماء الذي فاضت به الأرض بسبب الأمر الإلهيّ، وذهب في باطنها(وَقُضِيَ الأَمْرُ): أي نَفَذَ الأمر بإهلاك الظالمين ونجاة نوح ومن معه (وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ): أي استقرّت السفينة على الجبل المعروف (وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)دعاء عليهم بالبُعد من الرحمة.

استواء السفينة على الجوديّ

إنّ الفلك التي أقلّت نوحاً(عليه السلام) ومَن معه استقرّت في نهاية الأمر على الجوديّ، وهو ـ كما قيل ـ جبل بديار بكر من بلاد الجزيرة في جبال تتّصل بجبال أرمينيا. قال في «القاموس المحيط»: والجوديّ جبل بالجزيرة استوت عليه سفينة نوح(عليه السلام) ويسمّى في التوراة آراراط.

وقال في «مراصد الاطلاع»: جبل مطلّ على جزيرة ابن عمر في شرقي دجلة، من أعمال الموصل.

وجاء في تفسير القمي عن أمير المؤمنين(عليه السلام) أنّه قال: واستوت السفينة على جبل الجوديّ وهو بالموصل جبل عظيم.(تفسير القمي:١/٣٢٨.)

وكلّ ذلك أخبار آحاد لا يمكن الاعتماد عليها، والعلم عند الله سبحانه وعند مَن علّمهم من المعصومين.

الجانب البلاغي في الآية

بلغت هذه الآية من مراتب الإعجاز أقاصيها وجمعت من المحاسن ما يضيق عنه نطاق البيان، فقد تكلّم صاحب «الطراز في علم الإعجاز» عن الآية على وجه التفصيل، ولخّص السيد الآلوسي في «روح المعاني» من كلام السَّكّاكي وغيره بتصرّف، وتبعهما صاحب المنار، غير أنّ الذي يمكن لنا الإشارة إليه هو في ما ذكرناه في محاضراتنا في «الإلهيات» تحت عنوان آيتان على منضدة التشريح. وإليك ما ذكرناه هناك.

قلنا: هذه الآية الكريمة من بدائع آيات القرآن الكريم، وهي التي أُنزلت، فأنْزلت قريش معلّقاتها السبع عن جدران الكعبة، والآية شغلت بال عباقرة الأدب، وبال أساتذة البديع، كعبد الله بن المقفع وغيره، لأنّها اشتملت على عشرات الأنواع من المحسّنات البديعية، بينما هي لا تتجاوز سبعة عشر لفظاً، وإليك الإشارة إلى بعضها:

١. المناسبة التامّة بين (ابْلَعِي) و(أَقْلِعِي).

٢. الاستعارة فيهما.

٣. الطباق بين الأرض والسماء.

٤. المجاز في قوله: (يَا سَمَاءُ)، فإنّ الحقيقة: يا مطر السماء.

٥. الإشارة في:(وَغِيضَ الْمَاءُ)، فإنّه عبَّر به عن معان كثيرة، لأنّ الماء لا يغيض حتى يُقلع مطر السماء وتبلع الأرض ما يخرج منها من عيون الماء.

٦. الإرداف في قوله:(وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ) فإنّه عبّر عن استقرارها في المكان بلفظ قريب من لفظه الحقيقي.

٧. التمثيل في قوله: (وَقُضِيَ الأَمْرُ)، فإنّه عبّر عن هلاك الهالكين ونجاة الناجين بلفظ بعيد عن المعنى الموضوع.

٨. التعليل، فإنّ (غِيضَ الْمَاءُ)، علّة الاستواء.

٩. صحّة التقسيم، فإنّه استوعب أقسام الماء حالة نقصه، إذ ليس إلاّ احتباس ماء السماء، وغَيض الماء النابع من الأرض، وبقاء الماء الذي على ظهرها.

١٠. الاحتراس في قوله: (وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)، إذ الدعاء يشعر بأنّهم مستحقّو الهلاك احتراساً من ضعيف يَتوهّم أنّ الهلاك لعمومه، ربما يشمل غير مستحقّه.

١١. المساواة، لأنّ لفظ الآية لا يزيد على معناها.

١٢. حسن النسق، فإنّه تعالى قصّ القصّة وعطف بعضها على بعض بحسن الترتيب.

١٣. ائتلاف اللّفظ مع المعنى، لأنّ كلّ لفظة لا يصلح معها غيرها.

١٤. الإيجاز، فإنّه تعالى أمر فيها ونهى، وأخبر ونادى، ونعت وسمّى، وأهلك وأبقى، وأسعد وأشقى، وقصّ من الأنبياء ما لو شرح لاستغرق كتاباً مفرداً.

١٥. التفهيم، لأنّ أوّل الآية يدلّ على آخرها.

١٦. التهذيب، لأنّ مفرداتها موصوفة بصفات الحُسن، إذ كلّ لفظة عليها رونق الفصاحة، سليمة عن التنافر، بعيدة عن البشاعة وتعقيد التركيب.

١٧. حسن البيان، لأنّ السامع لا يتوقّف في فهم معنى الكلام ولا يشكل عليه شيء منه.

١٨. الاعتراض، وهو قوله:(وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ).

١٩. الكناية، فإنّه لم يُصرّح بمَن أغاض الماء، ولا بمَن قُضي الأمر، ولا بمَن سوّى السفينة وأقرّها في مكانها، ولا بمن قال:(وَقِيلَ بُعْدًا) كما لم يصرّح بقائل: (يَا أَرْضُ ابْلَعِي)، و (وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي) في صدر الآية، سالكاً في كلّ واحد من ذلك سبيل الكناية، لأنّ تلك الأُمور العظام لا تتأتّى إلاّ من ذي قدرة قهّارة لا يُغالَب. فلا مجال لذهاب الوهم إلى أن يكون غيره سبحانه قائل: (يَا أَرْضُ ابْلَعِي)، (وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي)، ولا أن يكون غائض ما غاض، ولا قاضي مثل ذلك الأمر الهائل، غيره.

٢٠. التعرّض، فإنّه تعالى عرّض بكلّ مَن سلك مسلكهم في تكذيب الرّسل ظلماً، وأنّ الطوفان وتلك الأُمور الهائلة ما كانت إلاّ لأجل ظلمهم.

٢١. التمكين، لأنّ الفاصلة مستقرّة في محلّها، مطمئنّة في مكانها غير قلقة ولا مستدعاة.

٢٢. الانسجام، لأنّ الآية بجملتها منسجمة، كالماء الجاري في السلاسة.

٢٣. اشتمالها على بعض البحور الشعرية، إذ قوله: (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ)، على وزن «مستفعلن مستفعلن فاعل». (وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي) على وزن «مفاعلن مفاعل».

٢٤. تنزيل مَن لا يعقل منزلة مَن يعقل في النداء والمخاطبة.

٢٥. الإبهام في قوله: (وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ) وهو اسم الجبل المعروف، وقيل هو الزّقّ المنفوخ الذي تستقر عليه السُّفن المائية.

٢٦. المحافظة على فواصل الآيات، فإنّ الرويّ في قوله: (بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) مطابق للآيات المتقدّمة والمتأخّرة.

٢٧. التكرار، كما في «الماء»، معرّفاً باللام تارة وبالإضافة أُخرى.

٢٨. تخيّل مالكية الأرض، بحيث لها سلطة في إرجاع الماء.

إلى غير ذلك من المحاسن البديعية التي يدركها الممعن في الآية.

فهذه بعض الميزات الواردة في الآية الكريمة، وليس كلّ واحدة منها ولا جميعها أمراً معجزاً، ولكن المجموع أعطى للآية نظماً خاصّاً، وأُسلوباً بديعاً، يعرف الذوق العربي أنّه يغاير سائر الأساليب والنظم الكلامية. وهذا الجمال الطبيعي، يخلق في النفس جذبة روحية خاصّة، كأنّها كهرباء القلوب ومغناطيس الأرواح، ولأجل ذلك يقول الكرماني في كتاب «العجائب»:

«أجمع المعاندون على أنّ طوق البشر قاصرٌ عن الإتيان بمثل هذه الآية، بعد أن فتّشوا جميع كلام العرب والعجم، ولم يجدوا مثلها في فخامة ألفاظها، وحسن نظمها، في تصوير الحال مع الإيجاز من غير إخلال»(«العجائب» نقلاً عن المعجزة الخالدة للسيد هبة الدين الشهرستاني:٦٠، وقد توفّي(رحمه الله) في الكاظمين، عام ١٣٨٦هـ .).(الإلهيات:٢/٣٠٨ـ ٣١٢، الدار الإسلامية ـ بيروت، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.)

ثمّ إنّ الرازي طرح هنا سؤالاً وقال: كيف يليق بحكمة الله تعالى أن يُغرق الأطفال بسبب جرم الكبار؟ ثم أجاب عنه بوجهين:

الأوّل: أنّ كثيراً من المفسّرين يقولون إنّ الله تعالى أعقم أرحام نسائهم قبل الغرق بأربعين سنة، فلم يغرق إلاّ مَن بلغ سنّه الأربعين. ثم ردّه بقوله: لو كان الأمر كذلك لكان ذلك آية عجيبة قاهرة، ويبعد مع ظهورها استمرارهم على الكفر.

الثاني: أنّه لا اعتراض على الله تعالى في أفعاله.(تفسير الرازي:١٧/٢٣٤.)

يلاحظ عليه: أنّ الجواب الثاني التزام بالإشكال ومبنيٌّ على إنكار التحسين والتقبيح العقليين، وهو كماترى، لا ينكره مَن راجع وجدانه، فهل المحسن والمسيء عنده سيّان، أو أنّ مَن يقابل الإحسان بالإحسان مثل من يقابل الإحسان بالسيّئة؟

وأمّا ما أورده على الجواب الأوّل فمنقوض بما ذكره سبحانه في قوم فرعون، قال تعالى: (فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ)(الأعراف:١٣٥.). ومع ذلك فقد استمرّوا على كفرهم.

والأولى أن يجاب بما ذكره الآلوسي حيث قال: إنّه مجرّد سبب للموت بالنسبة إليهم، وأيّ محذور في إماتة من لا ذنب له، وفي كلّ وقت يميت الله سبحانه من ذلك ما لا يُحصى؟(روح المعاني:١٢/٦٢.)

سورة هود: الآيات ٤٥ ـ ٤٩ (وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ... فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ).

الآيات: الخامسة والأربعون إلى التاسعة والأربعين

(وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ * قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ).

المفردات

نادى: دعا.

اهبط: الهبوط: النزول والانحدار.

بسلام منّا: بسلامة منّا ونجاة.

وبركات عليك: أي نِعَم دائمة وخيرات نامية.

أُمم: جمع أُمّة: الجماعة الكثيرة المتّفقة على ملّة واحدة.

التفسير

٤٥ و ٤٦. (وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ):

سؤال نوح(عليه السلام) عن سبب غرق ولده

قد تقدّم أنّ ابن النبيّ نوح(عليه السلام)أبى أن يلبّي نداء الوالد المشفق بأن يركب معهم في السفينة، وظلّ سادراً في غيّه إلى أن حال بينه وبين أبيه الموج، فلمّا رأى نوح(عليه السلام) فلذة كبده وثمرة حياته يتقلّب بين الأمواج، ويعاني صرعات الغرق والموت، أراد أن يستنجز وعد الله بنجاة أهله.

والآيتان تتضمّنان سؤال نوح(عليه السلام) عن غرق ابنه، وجواب الله سبحانه عنه. وإليك تفسير الآيتين.

(وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ) لفظة (نَادَى) حاك عن أنّ تضرّعه كان بصوت عال مستنجزاً وعده في ابنه لأنّه من أهله كما يقول: (إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي) وهذا يدلّ على أنّ ابنه الغريق ولداً صلبياً (وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ) ولعلّه يشير إلى قوله سبحانه: (إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ)(العنكبوت:٣٣) ولم يفصح(عليه السلام) عن طلبه بنجاة ابنه تأدّباً أمام الله سبحانه، وإلاّ كان يقتضي أن يقول: يلزم ألاّ يغرق ولدي لأنّه من أهلي.

ثمّ إنّه سبحانه أجابه بوجوه ثلاثة:

١. (يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ):أي إنّه ذو عمل غير صالح، فليس هو من أهلك الّذين وعدتك نجاتهم.

فإن قلت: لماذا قال: (عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ) ولم يقل «عامل غير صالح»؟

قلت: بما أنّ المراد أنّه كان مُبطناً للكفر ومظهراً للإيمان، والمنافق أشدّ من الكافر، فهو إذاً قد بلغ من الفساد إلى حدّ صار عملاً غير صالح، لا عاملاً غير صالح، على حدّ قول الخنساء:

ترتع ما رتعت حتّى إذا ادّكرت *** فإنّما هي إقبال وإدبارُ[٢]

[٢]أي ذات إقبال وإدبار. انظر: التبيان في تفسير القرآن:٥/٤٩٥.

وبتعبير آخر: صلته بنوح لمّا كانت صلة جسمانية لا صلة روحية، فلا يعدّ مثل هذا ولداً أو أهلاً حقيقة، وما ربما يقال من أنّه لم يكن ولداً صلبياً له، مخالف لظاهر قوله (إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي).

٢. (فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ): أي لا ينبغي لنوح أن يسأل ما ليس له به علم.

فإن قلت: إنّ من شأن المؤمن أن يسأل ما ليس له به علم. وبعبارة أُخرى: السؤال عمّا لا يعلم لغاية تحصيل العلم، ليس عيباً، فلماذا خاطبه سبحانه بهذا الملاك؟وقد قال سبحانه: (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ).(النحل:٤٣)

قلت: السؤال عمّا لا يعلم شأن المؤمن بشرط أن لا يكون ممزوجاً بالاعتراض، فلمّا كان سؤاله عنه ممزوجاً به، خاطبه سبحانه

بوجه يتضمّن العتاب الخفيف، وقال: (فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ).

٣. (إِنِّي أَعِظُكَ): أي أنهاك (أَنْ تَكُونَ مِن) زمرة (الجَاهِلِينَ).

فإن قلت: إنّ لازم قوله سبحانه: (أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) أنّ النبيّ نوحاً كان منهم أو واقعاً في عتبتهم، وهو لا يناسب شأن الأنبياء المعصومين؟

قلت: إنّ الجهل تارة يطلق في مقابل العلم، وأُخرى في مقابل الحكمة، فبما أنّ سؤال نوح(عليه السلام) كان خارجاً عن حدود الحكمة، خاطبه سبحانه أن لا يكون من تلك الزمرة الذين لا توصف أفعالهم بالحكمة؛ وذلك لأنّه(عليه السلام) بعد ما كان عالماً بأنّ الله عالم حكيم، فلازم ذلك ترك السؤال لأنّ غرقه كان عدلاً وحكمة، فيكون سؤاله خارجاً عن حدود الحكمة.

وقال ابن جُزيّ الكلبيّ المالكيّ(المتوفّى ٧٤١هـ) في تفسير هذه الفقرة: تقديره: أعظك كراهة أن تكون من الجاهلين، وليس في ذلك

وصف له بالجهل، بل فيه ملاطفة وإكرام.(التسهيل لعلوم التنزيل:١/٣٩٨.)

نقد كلام صاحب المنار في تفسير الآية

ثمّ إنّ صاحب المنار عدّ سؤال نوح(عليه السلام) ما سأله لابنه من مقولة الخطأ في الاجتهاد، وقال: ومثل هذا الاجتهاد لم يُعصم منه الأنبياء فيقعون فيه أحياناً ليشعروا بحاجتهم إلى تأديب ربّهم وتكميله إيّاهم آناً بعد آن، بما يصعدون به في معارج العرفان.(تفسير المنار:١٢/٨٦.)

والظاهر أنّه تبع في هذا القول ما جاء في تفسير الرازي، فقد ورد فيه: فالزَّلّة الصادرة عن نوح(عليه السلام)، هو أنّه لم يستقص في تعريف ما يدلّ على نفاقه وكفره، بل اجتهد في ذلك، وكان يظنّ أنّه مؤمن، مع أنّه أخطأ في ذلك الاجتهاد، لأنّه كان كافراً فلم يصدر عنه إلاّ الخطأ في هذا الاجتهاد.(تفسير الرازي:١٨/٥.)

أقول: لا شكّ أنّ علم الأنبياء يزيد يوماً بعد يوم، وهذا هو النبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) يطلب من الله سبحانه زيادة العلم، قال تعالى: (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا)(طه:١١٤.) وهذا أمر لا غبار عليه، وليس ثمّة ما يمنع من أن يكون الواقع مستوراً عن نوح(عليه السلام) لتظاهر ابنه بالإيمان.

إنّما الكلام في كونهم مخطئين في الاجتهاد في بعض الأوقات، فهذا أمر غير جائز، لأن تسرُّب الخطأ في الاجتهاد يورث الشكّ عند الناس في سائر ما يرويه ويحكيه من الوحي، وليس الناس حكماء فيفرّقوا بين تلاوة الوحي وممارسة شيء خارج عن مجال الوحي، حتى لا يضرّ التخلّف في الثاني بالعصمة في الأوّل.

٤٧. (قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ):

لمّا أحسّ نوح(عليه السلام) أن طلبه هذا من ساحة الباري تعالى لم يكن صحيحاً وأنّ ابنه كان كافراً في الواقع، توجّه إلى الله معتذراً مستغفراً، و(قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ): أي أعتصم بك أن أسألك ما لا أعلم أنّه صواب، ومعناه الخضوع والتذلّل لله سبحانه ليوفّقه ولا يَكِلَه إلى نفسه (وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ) قال الطبرسي: إنّما قال ذلك على سبيل التخشّع والاستكانة لله تعالى وإن لم يسبق منه ذنب(مجمع البيان:٥/٣١٨.). وقد مرّ أنّه لم يكن عالماً بكفر ولده.

وهذا كلام صورته التوبة وحقيقته الشكر على ما أنعم الله عليه من التعليم والتأديب، أمّا أنّ صورته صورة التوبة، فإنّ في ذلك رجوعاً إلى الله تعالى بالاستعاذة، ولازمها طلب مغفرة الله ورحمته، أي ستره على الإنسان ما فيه زلّته، وشمول عنايته لحاله،

والمغفرة بمعنى طلب السّتر أعمّ من طلبه على المعصية المعروفة عند المتشرّعة، وكلّ ستر إلهي يسعد الإنسان ويجمع شمله.

وأمّا كون حقيقته الشكر، فإنّ العناية الإلهية التي حالت بينه وبين السؤال الذي كان يوجب دخوله في زمرة الجاهلين، كانت ستراً إلهياً على زلّة في طريقه، ورحمة ونعمة أنعم الله سبحانه بها عليه، فقوله:(وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ) بمعنى أنّه إن لم تُعذني من الزلاّت، لخسرت، فهو ثناء وشكر لصنعه الجميل.(انظر: الميزان في تفسير القرآن:١٠/٢٣٨.)

وتظهر حقيقة هذا الكلام ممّا قدمناه في قصة آدم من أنّ كثيراً من المباحات تعدّ ذنباً نسبيّاً بالنسبة إلى طبقة خاصّة من الأولياء والأنبياء، فعند صدور مثل ذلك يجب عليهم ـ تكميلاً لعصمتهم ـ طلب الغفران والرحمة، حتى لا يكونوا من الخاسرين، وليس الخسران منحصراً بالإتيان بالمعصية، بل ربّ فعل سائغ يُعدُّ صدوره من الطبقة العليا خسراناً وخيبة، كما أوضحناه في قصة آدم (عليه السلام).

نعم لم يصدر من شيخ الأنبياء في ذلك المقام فعل، غير أنّه وقع في مظنّة صدور ذلك الفعل منه، وهو السؤال عمّا لا يعلم، فلأجل ذلك صحّ له أن يطلب الستر على تلك الحالة بالعناية الإلهية الحائلة بينه وبين صدوره.

إلى هنا تبيّن مفاد الآيات وأنّه ليس فيها إشعار بصدور الذّنب، بل حتى ما يوجب العتاب واللّوم.

ثمّ إنّ لبعض المفسّرين من العدلية أجوبة أُخرى للأسئلة المطروحة ـ حول عصمة الأنبياء(عليهم السلام)ـ ، فمَن أراد الوقوف عليها، فليرجع إلى مظانّها.(لاحظ: تنزيه الأنبياء للشريف المرتضى:١٨ـ١٩؛ مجمع البيان:٣/١٦٧؛ بحار الأنوار:١١/٣١٣ـ ٣١٤، وغيرها.)

٤٨. (قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَم مِنَّا وَبَرَكَات عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَم مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ):

استواء سفينة نوح(عليه السلام) على الجوديّ

لمّا استوت السفينة على الجوديّ خوطب نوح(عليه السلام) بأمرين:

١. (قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَم مِنَّا). التعبير بالهبوط في (اهْبِطْ)إمّا لأجل وقوف السفينة على الجوديّ وهو جبل فوق الأرض فناسب أن يقال (اهْبِطْ)، أو أنّ سطح السفينة للخروج كان عالياً كما هو الرائج فقيل (اهْبِطْ بِسَلاَم).

والسلام يطلق ويراد به تارة السّلامة وأُخرى التحيّة، غير أنّ المراد في الآية هو الأوّل؛ لأنّ قوله في آخر الآية: (ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ) يؤيّد أن المراد هو السّلامة.

٢. (وَبَرَكَات عَلَيْكَ) أُريد بها الخيرات الكثيرة؛ وذلك لأنّ الطوفان قد دمّر كلّ آثار الحياة على الأرض التي غمرتها المياه، الأمر الذي اقتضى إنزال البركات على نوح(عليه السلام) ومن معه حتّى يعيشوا في ظلّ بركات جديدة، كما قال:(وَعَلَى أُمَم مِمَّنْ مَعَكَ) ولفظة «مِن» في (ممّن) بيانية وأُريد بها الأُمم الصالحة من أصحاب السفينة إذ كانوا كلّهم سعداء (وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ). ولعلّه سبحانه أراد قوم عاد وثمود ومن تلاهم .

إنّما الكلام: هل هذه الأُمم المعذّبون من ذرّية نوح أو من ذرّية مَن كان معه في السفينة؟ الظاهر أنّ هؤلاء المعذَّبون كانوا من ذرّية نوح لا من ذرية مَن معه في الفلك؛ لأنّه سبحانه يقول: (وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ)(الصافات:٧٧.)، وظاهر هذه الآية أنّ الباقين في الأرض كانوا من ذرّية نوح فقط لا من ذرّية غيره، فالأقوام التي نشأت بعد الطوفان وهلكوا كانوا قسماً من ذرّية نوح لا ذرّية غيره، ولم يكن لغيره ذرّية فلم يعقبوا أو أعقبوا وماتوا بلا عقب، ولذلك يعدّ نوح الأب الثاني للإنسانية.

يقول الرازي: إنّه تعالى صيّر نوحاً أبا البشر لأنّ جميع مَن بقي كانوا من نسله وعند هذا قال هذا القائل: إنّه لمّا خرج نوح من السفينة مات كلّ مَن كان معه ممّن لم يكن من ذريته ولم يحصل النسل إلاّ من ذريّته، فالخلق كلّهم من نسله وذرّيته. وقال آخرون: لم يكن في سفينة نوح (عليه السلام)إلاّ مَن كان من نسله وذرّيته، وعلى التقديرين فالخلق كلّهم إنّما تولّدوا منه ومن

أولاده، والدليل عليه قوله تعالى: (وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ)(الصافات:٧٧.) فثبت أنّ نوحاً (عليه السلام)كان آدم الأصغر، فهذا هو المراد من البركات الّتي وعده الله بها.(تفسير الرازي: ١٨ / ٧ .)

٤٩. (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ):

الإشارة بـ(تِلْكَ) إلى ما تقدّم من قصّة نوح(عليه السلام) من أوّلها إلى آخرها، ووصفها بأنّها (مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ)، إشارة إلى أنّها وصلت إلى رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) من جانب ربّه بوساطة الوحي، وقوله:(نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ) تفسير للغيب (مِنْ قَبْلِ هَذَا)الإيحاء إليك، وهو دليل واضح على صحّة نبوّتك ورسالتك، فعلى المنصفين أن يخضعوا لندائك، فإن تمادوا في الغيّ (فَاصْبِرْ)على مشاقّ الرسالة وأذى القوم، فإنّ الصبر شيمة الأنبياء وبه يصل المرء إلى مقاصده السامية، لكنّ صبر الأنبياء لا يقاس بصبر غيرهم، وهذا هو النبيّ نوح قد مكث في قومه (٩٥٠) عاماً صابراً على معاناة التبليغ والإرشاد.

(إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ) كما عُلمت من قصّة نوح، فإنّ المتقين نجوا، وغيرهم غرق.

بقيت هنا مسائل نشير إليها:

الأُولى: إذا ولد الإنسان من ماء الرجل ونشأ في رحم الأُم يوصف بأنّه ولد لهما، سواء أكان بينهما صلة معنوية أو لا، ولذلك يمكن أن يكون الوالد مسيحياً والولد مادّياً، لكن الإسلام يعتقد أنّ الولد الحقيقي وراء الرابطة المادّية عبارة عمّا يكون بين الوالد والولد من صلة معنوية ومن عقيدة واحدة تجمعهما، ولذلك وُصف ابن نوح بأنّه (عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ)بل سُلبت منه تلك العلاقة، أعني: كونه من أهله.

وبعبارة أُخرى: العلائق المادّية إنّما تُحترم إذا كانت مبنيّة على علائق روحية وإلاّ تنقطع تلك العلائق.

الثانية: رسّخ القرآن الكريم من خلال قصة امرأة نوح (وامرأة لوط أيضاً) قاعدة ربّانية ذات أثر كبير في حياة المجتمع وفي تقييم المواقف، وهي أنّ تزكية الإنسان ترتبط ارتباطاً وثيقاً بإيمانه وإخلاصه وحسن سيرته وصدق سريرته، وأنّ الرابطة الأُسرية وآصرة القربى من أزكى الناس وأطهرهم، لا تُجدي شيئاً إذا لم تعزّزها العقيدة الصالحة والأعمال المثمرة والمسلك القويم.

إنّ أسوأ ما قام به المنتفعون والمتحجّرون، هو استغلال وشائج القربى وإيحاءاتها الباطلة في خلق مقامات زائفة لهم بين الناس، وإضفاء صفة القدسية على أنفسهم وعلى آرائهم ومواقفهم.

والمثل الّذي ضربه الله تعالى في هذا المجال، مستوحىً من امرأتي نوح ولوط، فهما على صلتهما بنبيّين كريمين، كانتا رمزاً للكفر والخيانة، ولم تنفعهما تلك الصلة في قليل ولا كثير (ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلاَ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ).(التحريم:١٠.)

وفي قبال ذلك يعرض القرآن صورة لامرأة عاشت في قصر مليء بأسباب الراحة والترف والنعيم، وقائم على الكفر والظلم والطغيان، فلم ترهب هذا، ولم تغترّ بذاك، بل آثرت العزّ الباقي والنعيم الدائم في جوار الله على العزّ الكاذب والنعيم الزائل في ظلال القصر، فنالتهما ولم يضرّها كفر وظلم صاحب القصر وأعوانه، قال تعالى:(وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ).(التحريم:١١.)

الثالثة: هل كان الطوفان عالميّاً؟

اختلف العلماء في موقفهم من هذا الأمر، ففريق رجّح شمول الطوفان للأرض كلّها، وقد ذهب بعضهم إلى حدّ تبنّي هذا الرأي، وفريق آخر رجّح وقوعه في جزء من الأرض، وقد مال بعضهم إلى تبنّي هذا الرأي، وثالث لم يرجّح هذا ولا ذاك، واعتبر إبداء

الرأي في هذا المجال يدخل في إطار الظنّ ولا يستند إلى أدلّة واضحة، وأنّ معرفته ليست بذات قيمة في تحقيق أهداف القصص القرآنيّ.

ويعتمد الفريق الأوّل في ترجيحه على عدد من الشواهد والقرائن، منها ظاهر الآيات الكريمة، كإطلاق لفظ الأرض في قصة نوح (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ)، (رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا)(نوح:٢٥.)، والأمر بحمل زوجين اثنين من كلّ جنس من أجناس الحيوان، فلو كان الطوفان ـ كما يقولون ـ خاصّاً بناحية من نواحي الأرض لما كان ثمّة حاجة إلى الأمر بحمل ذلك(الميزان في تفسير القرآن:١٠/٢٦٤.)، ومنها وجود بعض الأصداف والأسماك المتحجّرة في أعالي الجبال، وهو دليل ـ كما يقولون ـ على أنّ الماء قد صعد إليها، ولن يكون ذلك حتّى يكون قد عمّ الأرض.

وأُجيب عن هذه الشواهد والقرائن بما يلي:

١. أنّ القرآن المجيد يذكر الأرض ويريد بها منطقة معيَّنة، كقوله تعالى حكاية عن خطاب فرعون لموسى وهارون(عليهما السلام): (وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ)(يونس:٧٨.) يعني أرض مصر، وقوله: (وَ إِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا)(الإسراء:٧٦.) والمراد بها مكّة المكرّمة.

٢. أنّ حمل الأحياء في السفينة، ربما يكون بهدف المحافظة على نسلها من الانقطاع في القسم الذي عمّه الطوفان، خصوصاً أنّ نقل الحيوانات وانتقالها في ذلك اليوم لم يكن أمراً هيّناً.(الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل:٦/٥٠١.)

ونقول: إنّ عالَم الأحياء الّتي تعيش على الأرض عالم واسع جداً، ويضمّ أنواعاً لا حصر لها، تعدّ بعشرات أو مئات الآلاف من الأنواع، ولا ندري كيف نتصور أنّ نوحاً(عليه السلام) قد حمل جنسين من كلّ نوع من هذا الكم الهائل من الأنواع، وأنّ السفينة قد استوعبت كلّ ذلك؟!

٣. أنّ وجود الأصداف وغيرها في قُلل الجبال قد يكون لأسباب أُخرى غير طوفان نوح(عليه السلام).

هذه الإجابات وبعض القرائن حدت بالفريق الثاني إلى ترجيح حدوث الطوفان في جانب من الأرض.

ومن المسائل الّتي ذُكرت لدعم القول بمحدودية الطوفان، هي أنّ طوفان نوح كان بمثابة العقاب لقومه، وليس هنا ـ كما يقولون ـ دليل على أنّ دعوة نوح شملت الأرض كلّها، وعادة فإنّ وصول دعوة نوح في مثل زمانه إلى جميع نقاط الأرض أمر بعيد.(الأمثل في تفيسر كتاب الله المنزل:٦/٥٠٢. وانظر تفسير المراغي:٢٣/٦٧(ط. دار إحياء التراث العربي).)

ونقول: إذا سلّمنا بافتقارنا إلى دليل يدلّ على شمول دعوة نوح(عليه السلام)، واستبعدنا وصول دعوته إلى جميع نقاط الأرض، فإنّ الدليل يعوزنا أيضاً في إثبات أنّ الأرض كلّها كانت مأهولة بالسكّان، خصوصاً إذا لاحظنا هذين الأمرين:

١. قرب العهد بين نوح وآدم أبي البشر(عليهما السلام). وإذا صحّ ما ذكره المؤرّخون والنسّابون من وجود ثمانية آباء بينهما،(قالوا: هو نوح بن لامك بن متوشلخ بن إدريس بن لود(أو يارد) بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم(عليه السلام).) أدركنا حجم المجتمع البشري آنذاك، وعدم تفرّقه في مناطق نائية جدّاً.

٢. ما اشتهر على ألسنة المؤرِّخين والمفسّرين بأنّ جميع البشر ـ بعد حادثة الطوفان ـ هم من ذرّية نوح(عليه السلام)، ولذا اعتبروه الأب الثاني للبشر ـ كما مرّ ـ، وثمة من يقول بأنّهم من ذرّيته(عليه السلام) ومن ذرّية من كان معه في السفينة. وهذان القولان يستلزمان عدم وجود أُمم (غير أُمّة نوح) في بعض الأقطار الشاسعة.

الرابعة: دروس وعبر في قصة نوح(عليه السلام)

قد سردنا لك قصة نوح مع قومه على ضوء الآيات الكريمة معرضين عمّا جاء حولها من القصص والحكايات الّتي ربما لا تنسجم

مع القرآن الكريم والعقل الحصيف، بقي الكلام في الوقفات الّتي يستفاد منها تعليمياً وتربوياً، والعبر الّتي يمكن استلالها من خلال تدبّر الآيات:

١. يظهر من كلام كثير من المفسرين أنّ نوحاً(عليه السلام) هو أوّل مرسل بشريعة شاملة لكلّ المجتمع البشري، وقد بُعث ومعه كتاب (سُمّي بصحيفة النور)، وهو أوّل الكتب السماوية المشتملة على شريعة. وممّا استدلّوا به على ذلك، قوله سبحانه:(شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ).(الشورى:١٣.)

قال العلاّمة الطباطبائي عند تفسيره لهذه الآية: إنّ المراد ممّا وصّى به نوحاً، شريعة نوح(عليه السلام)، وإنّ شريعته كانت محدودة بما هو الأهمّ من العقائد والأعمال، ولذا عبّر عنها بالتوصية دون الإيحاء (وَالذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) الّذي اختصّت به شريعة محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) لكونها جامعة لكلّ ما جلّ ودقّ، محتويةً على الأهمّ وغيره.(انظر الميزان في تفسير القرآن:٢٨/١٨، ولكن الظاهر أنّ المراد من (مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا) هو قوله:(أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا) وكأنّه بدل من الموصول في (مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا) ولعلّه ـ رضوان الله عليه ـ أراد بالشريعة ما ذكرناه.)

وقال أيضاً: إنّ الآية في مقام الامتنان على محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) وهذا يقضي بأنّ الشرائع الإلهية المنزّلة على البشر هي هذه الّتي ذُكرت لا غير، وأوّل ما ذُكر من الشرائع، شريعة نوح.(الميزان في تفسير القرآن:٢٦٣/١٠.)

وممّا يعزّز ذلك، ما ورد في تفسير قوله تعالى:(فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ)(الأحقاف:٣٥.) حيث جاء في كثير من التفاسير أنّ المراد بأُولي العزم: مَن أتى بشريعة مستأنفة نسخت شريعة مَن تقدّم من الأنبياء، وهم خمسة: أوّلهم نوح ثمّ إبراهيم ثمّ موسى ثمّ عيسى ثمّ خاتم الرُّسل محمّد(صلى الله عليه وآله وسلم). وهو المرويّ عن أبي جعفر الباقر وأبي عبد الله الصادق(عليهما السلام).(التبيان:٢٨٧/٩؛ مجمع البيان:٩٤/٥(طبعة صيدا)؛ تفسير البيضاوي:٣٩٨/٢.)

روى سماعة بن مهران قال: قلت لأبي عبد الله(عليه السلام): قول الله عزّ وجلّ:(فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ)فقال: «نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمّد صلّى الله عليه وآله وعليهم»، قلت: كيف صاروا أُولي العزم؟ قال:«لأنّ نوحاً بعث بكتاب وشريعة، وكلّ مَن جاء بعد نوح أخذ بكتاب نوح وشريعته ومنهاجه، حتّى جاء إبراهيم(عليه السلام) بالصحف وبعزيمة ترك كتاب نوح لا كفراً به فكلّ نبيّ جاء بعد إبراهيم(عليه السلام) أخذ بشريعة إبراهيم ومنهاجه وبالصحف، حتّى جاء موسى بالتّوراة وشريعته ومنهاجه، وبعزيمة ترك الصحف، وكلُّ نبيّ جاء بعد موسى(عليه السلام) أخذ بالتوراة وشريعته ومنهاجه، حتّى جاء المسيح(عليه السلام) بالإنجيل؛ وبعزيمة ترك شريعة موسى ومنهاجه، فكلُّ نبيّ جاء بعد المسيح أخذ بشريعته ومنهاجه، حتّى جاء محمّد(صلى الله عليه وآله وسلم) فجاء بالقرآن وبشريعته ومنهاجه فحلاله حلالٌ إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة، فهؤلاء أُولو العزم من الرسل(عليهم السلام)».(الكافي:١٧/٢ـ ١٨، برقم ٢.)

٢. قد اشتهر بين المفسّرين وغيرهم أنّ رسالات أُولي العزم من الرسل (وأوّلهم نوح)، كانت عالمية. ولعلّ ظاهر رواية سماعة بن مهران يؤيّد هذا الرأي، حيث عطفت رسالة نبيّنا محمّد(صلى الله عليه وآله وسلم) على رسالاتهم، ولا شكّ أنّ رسالة النبي الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) عالمية أوّلاً وخاتمة للرسالات ثانياً. فتكون رسالة مَن تقدّمه عالمية مثلها.

لكنّ الظاهر من بعض الآيات أنّه بعث إلى قومه، يقول سبحانه:(إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ)(نوح:١.)، وقال سبحانه مخاطباً نوحاً: (أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ)(هود:٣٦.)؛ وإرساله إلى قومه وإن كان لا ينافي إرساله إلى غيرهم، لكن الاقتصار على القوم دون أن يكون فيه خصوصية قد يدلّ على حصر رسالته بهداية قومه.

ومع ذلك يمكن أن يقال: إنّه لم يكن في الأرض ـ حين بُعث نوح ـ غير قومه وعشيرته، وعندئذ تكون رسالته عالمية بهذا المعنى. وقد تقدّم الحديث عن ذلك في مبحث (هل كان الطوفان عالمياً؟).

٣. إلغاء الامتيازات الناجمة عن التقديس الزائف للثروة والجاه، وخلقُ تصوّر جديد قائم على اعتبار الإيمان والتقوى ملاكاً للفضل والفضيلة، وتجسيده في الواقع باحتضان النبيّ نوح(عليه السلام) للمؤمنين المستضعفين والمحرومين والدفاع عنهم أمام دعوات المترفين الطغاة لطردهم وإبعادهم:

ما الفقرُ عارٌ وإنْ كشّفتَ عَوْرَتَهُ *** وإنّما العار مالٌ غيرُ محمودِ[٣]

[٣]البيت للشريف الرضي في ديوانه:١/٢٤٤.

٤. أنّ حياة النبيّ نوح على امتدادها كانت حياة حافلة بالجهاد والكفاح الدائبيْن، وقد واجه كلّ عناد قومه وجهلهم وتمرّدهم وسماجتهم بصبر عجيب، وعزم راسخ، واستقامة لا تعرف الزيغ والانحراف.

وتعتبر حياته(عليه السلام) دروساً بليغة في الإيمان بالله والتسليم له والثبات والمضيّ على الحقّ، حريّ بالعاملين من أجل تحقيق القيم والمبادئ الإلهية، أن يستذكروها كلّما ألمّ بهم ضعف أو ملل أو تعب من أهوال الطريق وشدائده.

٥. أنّ انتهاز فرص الخير واستثمار ما أُتيح من النعم وورود ينابيع الخير، هي ضمانة الفوز والنجاة وسلامة المسيرة، ولكنّ الركون إلى النفس، والانسياق وراء أهوائها، يودي بها ويوردها موارد الهلكة.

ألاترى ابن نوح مع قربه من منهل الخير ومصدر النور، قد زلّ وهلك، لمّا غفل عنهما، فلم يُصدر عن ذاك، ولم يستضئ بهذا:

وما انتفاعُ أخي الدنيا بناظره *** إذا استوتْ عنده الأنوار والظُّلَم

البيت للمتنبّي في ديوانه:٢٦٢.

٦. أنّ زمام القوى المادية كلّها بيد الله جلّت قدرته، وهي سرعان ما تنهار إذا شاءت إرادته، فلا تنفع من يعتصم بها. وليس هذا دعوةً إلى رفض الأسباب الطبيعية وعدم الأخذ بها، بل دعوة إلى التمسّك بها مع الإيمان بأنّها غير مستقلّة بذاتها، بل خاضعة لإرادة الله وتعمل بمشيئته، ولذا خاب ظنُّ ابن نوح في النجاة من الهلاك بارتقاء جبل من الجبال، لأنّ الله قضى بأن يقطع الأسباب جميعاً، غير سبب واحد (الفُلك)، وأن لا يعصم إلاّ مَن يعتصم به.

٧. أنّ الإصلاح والتغيير على نوعين: تدريجيّ وجذريّ، ولكلّ منهما مجال خاص، فإذا ظهر الفساد في بعض جوانب المجتمع بشكل جزئيّ وكانت الأركان سالمة عن دبيب الفساد، فالإصلاحات الجزئية التدريجية أفضل أُسلوب لإصلاح هذا المجتمع.

وأمّا إذا دبّ الفساد في أركان المجتمع وانتشر فيه بصورة وسيعة فالإصلاحات الجزئية دواء لا ينتج إلاّ الداء، فهذا المجتمع لا يصلح إلاّ بالتغيير الجذريّ الشامل. فإذا لم يوجد في المجتمع إلاّ الفساد ولم يكن هناك أي مُناد للإصلاح فآخر الدواء الكيّ، ولا يصلح إلاّ بإهلاكهم وإبادتهم. وهذا هو نظير مجتمع نوح(عليه السلام)فقد طهّر الله هذه الأرض من هذه العناصر الفاسدة الّتي لا تلد إلاّ الكفر والفجور، وهذه هي سيرة الله سبحانه الماضية في الأقوام الّتي تلتهم.

٨. أنّ مرافقة المؤمنين وصحبة الأولياء إنّما يظهر أثرها إذا صادفت قلباً زاكياً، وأمّا إذا اسودّ القلب وانسدّت نوافذه، فالصحبة لا تلد إلاّ وزراً ووبالاً، كما هو الحال في امرأة نوح الّتي لم تنفعها مصاحبة زوجها ليلاً ونهاراً في مسكنه ومضجعه.

٩. قد يبلغ التحجّر والجمود بالإنسان إلى درجة يرفض معها كلّ مناقشة وحوار، ويُغلق نوافذ عقله أمام كلّ منطق وحجّة وبرهان، فلا يقبل إلاّ ما يمليه عليه تفكيره واعتقاده، وإن كان نتاج جهل وهوىً وغرور، «فَإِنَّمَا الْبَصِيرُ مَنْ سَمِعَ فَتَفَكَّرَ، وَنَظَرَ فَأَبْصَرَ، وَانْتَفَعَ بِالْعِبَرِ، ثُمَّ سَلَكَ جَدَداً وَاضِحاً يَتَجَنَّبُ فِيهِ الصَّرْعَةَ فِي الْمَهَاوِي، وَالضَّلاَلَ فِي الْمَغَاوِي». نهج البلاغة: الخطبة ١٥٣.

والمغاوي: جمع مِغواة، وهي الشبهة يذهب معها الإنسان إلى ما يخالف الحقّ.)

١٠. أنّ القرآن الكريم قد عرض من قصة نوح (كما هو الشأن في سائر القصص) ما هو موضع العبرة والعظة والفائدة مع مراعاة مقام النبيّ وسموّه وعظمته انسجاماً مع دعوة القرآن إلى إعلاء شأن القيم والفضائل وأصحابها، على خلاف التوراة المتداولة(المحرّفة) الّتي أساءت لساحته المقدّسة، استجابة لنزعة الحقد لدى اليهود وسعيهم إلى تحقير الإنسان وإهدار كرامته ونشر الفساد في الأرض.

وممّا جاء في التوراة على سبيل المثال: وابتدأ نوح فلاّحاً وغرس كَرْماً، وشرب من الخمر فسكر، وتعرّى في خبائه، فأبصر حام... .(الإصحاح التاسع من سفر التكوين.)

وثمة أُمور في قصة نوح خالف القرآن فيها التوراة الّتي تحدّثت مثلاً عن نجاة امرأة نوح، ولم تتطرّق إلى قصة ابن نوح الّذي أبى أن يركب السفينة، فكان من المغرقين.

والحقّ أنّ هذا الاختلاف يُعد من الأدلّة على صدق النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)وارتباطه بالغيب (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ) (هود:٤٩.)، إذ لم تكن هذه المعلومات متداولة بين أبناء عصره، كما أنّها تثبت صدق القرآن وهيمنته على سائر الكتب السماوية (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ).(المائدة:٤٨.)

سورة هود: الآيات ٥٠ ـ٥٢ (وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ... وَلاَ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ).

الآيات: الخمسون إلى الثانية والخمسين

(وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَه غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ * يَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلاَ تَعْقِلُونَ * وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ).

المفردات

أخاهم: وُصِفَ هود بكونه أخا عاد لأنّه من نسبهم كما يقال: يا أخا العرب، بمعنى يا عربيّ، وفي المقام: يا عاديّ. ومنه يعلم معنى قول الإمام أمير المؤمنين(عليه السلام) حيث خاطب رجلاً بقوله: يا أخا كلب، عندما قال الرجل لعليّ: لقد أُعطيت علم الغيب يا أمير المؤمنين، فضحك(عليه السلام) وقال للرجل ـ وكان كلبيّاً ـ : «يَا أَخَا كَلْب، لَيْسَ هُوَ بِعِلْمِ غَيْب، وَإِنَّمَا هُوَ تَعَلُّمٌ مِنْ ذِي عِلْم»(نهج البلاغة: الخطبة ١٢٨.)، فهو بمعنى: يا كلبيّ، أي المنسوب إلى قبيلة بني كلاب.

فطرني: خلَقني، الفَطْر هو الشَّقّ، فكأنّ الإيجاد شَقٌّ للعدم، وإيجاد للوجود من بطنه وداخله.

مِدراراً: المِدرار: صيغة مبالغة كقوله: مِعْطار، ومِقْدام، وهو من الدُّرور أي الصبّ، فيكون المعنى: غزيراً، والمراد الدارّ الكثير، المتتابع على قدر الحاجة إليه دون الزائد المفسد المضرّ.

قوّة: أُريد بها هنا المال والولد.

التفسير

القصة الثانية: قصّة هود(عليه السلام)

تقدّمت قصّة هود في سورة الأعراف ضمن ثمان آيات، ووردت في سورتنا هذه ضمن إحدى عشرة آية، ولكلّ منهما سياق وأُسلوب ونظم خاص، وفي كلّ منهما من العلم والعبرة والموعظة ما ليس في الآخر. وستأتي قصّته في سورة الشعراء بأُسلوب ونظم

آخر، وكذا في سورة (المؤمنون)، و(الأحقاف) بدون ذكر اسمه(عليه السلام)، وذُكر عقاب قومه(عاد) في السور التالية: فُصّلت والذاريات والقمر والحاقّة والفجر.(تفسير المنار:١٢/١١٤.)

ثمّ إنّ ذكر قصة نبيّ من الأنبياء في سور مختلفة دون وجود أي اختلاف في المضمون هو أفضل دليل على أنّ القرآن وحي منزل من الله سبحانه، كما أنّ تكرار القصة في كلّ مورد لغاية خاصّة وغرض آخر، لا يُعدّ من الأُمور المُخلّة بالبلاغة.

لقد شاءت إرادة الله تعالى أن تستمر خلافة الإنسان في الأرض بعد أن أهلك قوم نوح بذنوبهم، إذ أنشأ من بعدهم أُمماً، كما وعد نوحاً بقوله: (يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِنَّا وَبَرَكَات عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَم مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ)(هود:٤٨.).

فكان قوم عاد ـ وهم من ذرية نوح ـ من الأُمم التي أخبر سبحانه أنّهم يُمتَّعون ثمّ يُعذَّبون بسبب طغيانهم، وقد بعث الله إليهم هوداً لأجل هدايتهم وتذكيرهم.

ولعلّ الله تبارك وتعالى قد بعث بعد الطوفان رسلاً قبل هود لم يقصص علينا قصصهم، كما قال (وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ).(النساء: ١٦٤.)

ويستفاد من الآيات التالية أنّ مضمون دعوته كان يتلخّص في أُمور ثلاثة:

١. الدعوة إلى عبادة الله وحده والتنزُّه عن عبادة غيره.

٢. عدم طلب الأجر على دعوته.

٣. أنّ الرجوع إلى الله يزيد في النِّعم.

وهذه الأُصول الثلاثة تستفاد من الآيات التالية.

أمّا الأوّل: أعني الدعوة إلى عبادة الله وحده، والتحذير من عبادة غيره تعالى، ففي قوله جلّ شأنه:

٥٠. (وَإِلَى عَاد أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَه غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ):

قوله:(وَإِلَى عَاد أَخَاهُمْ هُودًا) عطف على قوله: (وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ)(هود:٢٥.) فتقدير الآية: ولقد أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً، واعلم أنّه تعالى وصف هوداً بأنّه أخوهم. ومعلوم أنّ تلك الأُخوّة ما كانت في الدين، وإنّما كانت في النَّسب، لأنّ هوداً كان رجلاً من قبيلة عاد، وهي قبيلة من العرب، وكانوا يسكنون الأحقاف (بين بلاد الشام واليمن).

(قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَه غَيْرُهُ) الفقرة تدلّ على أنّهم كانوا مشركين في العبادة، وبما أنّ العبادة من خصائص مَن هو إله، علّل قوله: (اعْبُدُوا اللهَ) بقوله: (مَا لَكُمْ مِنْ إِلَه غَيْرُهُ) وبما أنّهم كانوا يعبدون غير الله، صاروا كاذبين في ادّعاء أُلوهيّة أصنامهم، كما يقول: (إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ): أي كاذبون في وصفهم آلهة. والآية بإيجازها اشتملت على أُمور:

١. إرسال هود إلى قوم عاد.

٢. أمرهم بعبادة الله تعالى.

٣. تعليل الأمر بحصر الألوهية في الله سبحانه.

٤. وصف القوم بكونهم كاذبين في وصف الأصنام آلهة. ويا لله من هذا الإيجاز وكثرة المعاني.

يقول الرازي: دخلت بلاد الهند فرأيت أُولئك الكفّار مطبقين على الاعتراف بوجود الإله، وأكثر بلاد الترك أيضاً كذلك، وإنّما الشأن في عبادة الأوثان، فإنّها آفة عمّت أكثر أطراف الأرض. وهكذا الأمر كان في ذلك الزمان، أعني: زمان نوح وهود وصالح (عليهم السلام)، فهؤلاء الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم كانوا يمنعونهم من عبادة الأصنام فكان قول (اعْبُدُوا اللهَ)معناه لا

تعبدوا غير الله. والدليل عليه أنّه قال عقيبه: (مَا لَكُمْ مِنْ إِلَه غَيْرُهُ)وذلك يدلّ على أنّ المقصود من هذا الكلام منعهم عن الاشتغال بعبادة الأصنام.(تفسير الرازي: ١٨ / ١٠.)

٥١. (يَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلاَ تَعْقِلُونَ):

الثاني: عدم طلب الأجر على دعوته

عقّب نبيُّ الله هود(عليه السلام) كلامه المتقدّم بأنّه لا يطلب منهم أجراً وقال: (يَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا) حتى تتّهموني بأنّي استدرّ به نفعاً. وقد اقتدى بكلامه هذا بالنبيّ نوح(عليه السلام) حيث قال: (وَيَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ) (هود:٢٩.)، وهنا قال هود(عليه السلام): (إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي) فإنّ الذي فطرني وأبدعني وخلقني هو الذي يرزقني (أَفَلاَ تَعْقِلُونَ): أي أفلا تتفكّرون فيما أدعوكم إليه وأنّي أُريد به صلاحكم؟

ثمّ إنّ تذكير النبيّين بعدم طلب الأجر يعرب عن وجود فكرة شيطانية عند القوم بأنّ دعوة الدعاة لأجل الاستدرار وكسب المال، والنبيّان العظيمان نفيا عن نفسيهما ذلك بتاتاً، ونسبا الأجر إلى الله غير أنّ نوحاً(عليه السلام) قال: (إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ) بينما قال هود(عليه السلام): (إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي). وفيه إشارة إلى وجه كون أجره عليه.

إنّ سيرة الأنبياء العظام وكلّ المصلحين جرت على الإخلاص في الدعوة والتبليغ وترفُّعهم عن طلب الأجر، إيماناً منهم بأهدافهم وتفانيهم من أجلها، فإنّ الأهداف عندهم أعزّ من النّفس والنّفيس.

٥٢. (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ):

الاستغفار يزيد في النعم

يخاطب النبيُّ هود(عليه السلام) قومه بقوله: (وَيَا قَوْمِ) مرّة بعد أُخرى استعطافاً، وأنّه منهم ولا يريد إلاّ خيرهم، فلو أمر بالتوحيد ونبذ الشِّرك فلأجل أنّ الإيمان بالله وعبادته والاستغفار يزيد في النّعم، كما يقول:(وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ) أمرهم بالاستغفار وهو طلب المغفرة للذّنب وعدم المؤاخذة على ما مضى منهم من الشّرك، ثمّ أمر بالتوبة وهو النّدم على ما مضى والعزم على عدم العود، فتكون النتيجة الاستمرار على خطّ التوحيد.

ثمّ إنّه(عليه السلام) يذكر جزاء هذا العمل (الاستغفار والتوبة) وهو أمران:

١. (يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا) وكأنّ بين الإقلاع عن الذّنب في المستقبل والتّدم على ما سلف، وكثرة النّعم، صلة. وقد سبقه إلى هذا الوعد النبيّ نوح، قال: (اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا)(نوح:١٠ـ ١١.).

ومن المحتمل أنّه أُريد من السماء هنا المطر، تسمية للشيء باسم مصدره، أي يرسل المطر مدراراً، فقد كانت قبيلة (عاد) أهل زرع وكُروم، وكانوا بحاجة إلى الماء.

ثمّ التركيز على كونه سبحانه يمطرهم مدراراً لأجل أنّ مساكنهم كان تُعرف بالأحقاف، جمع حِقْف وهو الرمل، ومثل هذه الأرض شديدة الحاجة إلى الماء لأنّ الرمل يسرع إليه الجفاف إذا قلّ المطر.

يظهر من بعض المأثورات أنّ الله أمسك عن (عاد) القطر ثلاث سنين، فقال لهم هود:(اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا) فأبوا إلاّ تمادياً.(الدر المنثور:٤/٤٤٢.) ويؤيّده قوله سبحانه في حقّ هؤلاء:(فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ).(الأحقاف:٢٤.)

٢. (وَ يَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ) التي جعلها فيكم. ويظهر من بعض الآيات أنّ القوم كانوا معجبين بقوة رجالهم كما يحكيه

سبحانه بقوله:(فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً)(فصّلت:١٥.).

قال الرازي: ذكر المفسّرون أنّ قوم عاد كانوا مخصوصين في الدنيا بنوعين من الكمال:

أحدهما: أنّ بساتينهم ومزارعهم كانت في غاية الطّيب والبهجة، والدليل عليه قوله:(إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ* التي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلاَدِ)(الفجر:٧ـ ٨.).

ثانيهما: أنّهم كانوا في غاية القوّة والبطش، ولذلك قالوا:(مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً)(فصّلت: ١٥.). ولمّا كان القوم مفتخرين على سائر الخلق بهذين الأمرين، وعدهم هود(عليه السلام) أنّهم لو تركوا عبادة الأصنام واشتغلوا بالاستغفار والتوبة، فإنّ الله تعالى يقوّي حالهم في هذين المطلوبين ويزيدهم فيهما درجات كثيرة، ولذلك قال: (يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا) والمدرار: الكثير الدّرّ، وهو من أبنية المبالغة (وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ) وفُسّر بالمال والولد، لأنّ كلّ ذلك ممّا يتقوّى به الإنسان.(تفسير الرازي:١٨/١١ـ ١٢. ولاحظ: تفسير المنار:١٢/١١٦.)

وذكر الزمخشري: عن الحسن بن علي (عليه السلام)أنّه وفد على معاوية فلمّا خرج تبعه بعض حجّابه فقال: إني رجل ذو مال ولا يولد لي فعلّمني شيئاً لعلّ الله يرزقني ولداً، فقال: عليك بالاستغفار، فكان يكثر الاستغفار حتّى ربّما استغفر في يوم واحد سبعمئة مرة، فولد له عشرة بنين، فبلغ ذلك معاوية فقال: هلا سألته ممّ قال ذلك؟ فوفد وفدة أُخرى فسأله الرجل فقال: ألم تسمع قول هود (عليه السلام): (وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ)وقول نوح (عليه السلام)(وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ).(تفسير الكشّاف: ٢ / ٢٢١ .)

ثمّ إنّه يظهر من قوله:(اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا) أنّ هناك علاقة بين الأُمور المعنوية والأُمور المادّية حيث إنّ الاستغفار والإقلاع عن الذنب صار سبباً لإمطار السماء وزيادة القوّة، وهذه الحقيقة قد نصّ عليها القرآن الكريم في غير واحدة من الآيات، كما مرّ عليك آنفاً، وأوضح آية تدلّ على تلك العلائق قوله سبحانه:(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَات مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ)(الأعراف:٩٦.). فهناك إذاً علاقة ورابطة تكوينية بين الإقلاع عن الذنوب والإيمان والتقوى، وبين نزول النّعم على الإنسان أو المجتمع وإن لم ندركها ولم نقف على سببها.

قال الطبرسي في تفسير سورة نوح: روى الرّبيع بن صَبيح أنّ رجلاً أتى الحسن فشكا إليه الجدوبة، فقال له الحسن: استغفر الله، وأتاه آخر فشكا إليه الفقر، فقال له: استغفر الله، وأتاه آخر فقال: أُدعُ الله أن يرزقني ابناً، فقال له استغفر الله، فقلنا: أتاك رجال يشكون أبواباً، ويسألون أنواعاً، فأمرتهم كلّهم بالاستغفار، فقال: ما قلت ذلك من ذات نفسي، إنّما اعتبرت فيه قول الله تعالى حكاية عن نبيّه نوح، أنّه قال لقومه:(اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا) إلى آخره.(مجمع البيان:١٠/١٤٧.)

أقول: المراد بالحسن هنا الحسن البصري(المتوفّى ١١٠هـ)، لا الإمام الحسن بن علي(عليهما السلام)، والرَّبيع هذا بصريّ، وهو من الرواة عن الحسن البصريّ(ميزان الاعتدال:٢/٤١ برقم ٢٧٤١.)، وقد توفّي سنة (١٦٠هـ).(تقريب التهذيب:١/٢٤٥ برقم ٤٤.)

تحذير هود قومه من التولّي

وفي نهاية المطاف حذّرهم من التولّي عن دعوته إلى التوحيد، فبعد أن أنجز النبيّ هود(عليه السلام) ما عليه من المسؤولية وأوضح لهم نهج الحقّ، حذّرهم من مخالفته بمعنى التولّي عن التوحيد إلى الشّرك، وقال: (وَلاَ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ): أي لا تُعرضوا عمّا دعوتكم إليه من التوحيد مُصرّين على إجرامكم وآثامكم، وقد أفاض الله سبحانه نعمه عليكم.

سورة هود: الآيات ٥٣ ـ ٥٧ (قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَة ... إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْء حَفِيظٌ).

الآيات: الثالثة والخمسون إلى السابعة والخمسين

(قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ).

المفردات

اعتراك: أصابك.

بناصيتها: الناصية: شَعر مقدَّم الرأس، والأخذ بالناصية تمثيل للتمكّن من الأمر، كما تقول في الدُّعاء: ناصيتي بيدك.

التفسير

٥٣. (قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ):

إجابة قوم هود دعوة نبيّهم(عليه السلام) بالرَّفض

واجه الكافرون دعوة هود بالرَّفض بأُمور ثلاثة، وهي:

١. ادّعاؤهم أنّه لم يجئ بالمعجزة التي تثبت صلته بالله تعالى.

٢. أنّهم ليسوا بتاركي عبادة آلهتهم لأجل قوله.

٣. أنّهم ليسوا بمصدّقين له.

أمّا الأمر الأوّل، فأُشير إليه بقوله:(قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ) ولعلّ مرادهم المعجزة التي اقترحوها والتي ربما لا تكون دليلاً على صلة الداعي بالله سبحانه، نظير اقتراح مشركي قريش على النبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم)أُموراً مستحيلة أو غير دالّة على صدق النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)(لاحظ: الإسراء:٩٠ـ ٩٤.)، وإلاّ فيمتنع أن يبعث الله نبيّاً إلى قوم عتاة معاندين بلا بيّنة تدلّ على صلته بالله سبحانه إلى حدِّ احتمل فيه بعض المفسّرين أنّهم كذبوا في قولهم هذا، وإلاّ فالنبيّ هود جاءهم بالبيّنة. والأفضل ما ذكرنا.

وأمّا الثاني، فهو ما أُشير إليه بقوله:(وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ): أي لا نتركها تركاً صادراً عن قولك بأن يكون كلامك سبباً لتركنا الآلهة. وهذا يدلّ على كبرهم وعنادهم، وأنّه لو أتى بما يطلبون من المعاجز لن يتركوا آلهتهم.

وأمّا الثالث، فهو ما أُشير إليه بقوله:(وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ). وبما أنّ نفي الإيمان بدعوة هود(عليه السلام) يثير سؤالاً، وهو أنّه لماذا لا يؤمنون بدعوته؟ جاء الجواب الذي حكاه عنهم سبحانه في الآية التالية.

٥٤ و ٥٥. (إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنْظِرُونِ):

اتّهام هود(عليه السلام) باختلال العقل

زعم قوم هود أنّ بعض آلهتهم قد مسّت هوداً بضُرّ لأجل سبّه إيّاها، فصار ذلك سبباً لاختلال عقله والدعوة على خلاف الرأي العام كما يقول: (إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ): أي أصابك (بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ) وهذه التُّهمة بنفسها تدلّ على أنّهم لم يجدوا في حياته وسلوكه شَيناً يصفونه به، وإلاّ لطبّلوا وزمّروا له وما كلّفوا أنفسهم هذا العناء في خلق هذه التُّهمة.

وهذه شنشنة نعرفها من كلّ جاهل يبرّر مناهضته لإصلاح المصلحين، أعني: إلصاق تُهمة الجنون بهم،ولذلك نرى أن النبيّ الخاتم(صلى الله عليه وآله وسلم)رُمِيَ بهذه التُّهمة أيضاً، يقول سبحانه: (وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ)(الحجر: ٦

(١) وقد وردت هذه التُّهمة في عدّة مواضع من القرآن الكريم.(انظر: الشعراء: ٢٧؛ الطور:٢٩؛ القلم:٢؛ التكوير:٢٢.)

موقف هود(عليه السلام) الحازم من قومه وآلهتهم المدّعاة

قد مرّ أنّه لا يمكن أن يبعث الله رسولاً بلا معجزة باهرة مقنعة لمَن يريد الهداية، وقد كانت لهود(عليه السلام)بيّنة، ولكنّ القوم لم يعتدّوا بها لكونها لا تنسجم مع مقترحاتهم، فعمد(عليه السلام)، في هذه الآية، إلى إقامة بيّنة عقلية تدلّ على أنّ هذه الآلهة فاقدة لكلّ قدرة على توجيه أي سوء وأذية له، وقد أكّد ذلك بالعبارات التالية:

١. (إِنِّي أُشْهِدُ اللّهَ)ووجه إشهاده الله على ما يقول لثقته بأنّه على بيّنة منه سبحانه في دعوته.

٢. (وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ) وجه إشهادهم عليه لإعلامهم بعدم مبالاته بهم وبما يزعمون من قدرة شركائهم على إيذائه، أي إن كنتم تزعمون أنّ آلهتكم أصابتني بسوء فإنّي أؤكد على البراءة منها، ولا اعتدّ بقولكم هذا.

٣. دعوة قومه إلى أن يكيدوه مجتمعين ما يستطيعون، كما قال: (فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ): أي قوموا أنتم وآلهتكم فصبّوا جهودكم على إيذائي وتدبير السُّوء لي.

وهذا الموقف الشجاع والحالة الروحية السامية من خصائص الأنبياء، حيث خاطبهم بأنّه لا يخشى أذاهم وجبروتهم ومكرهم بالرغم من شدّة بطشهم(ثُمَّ لاَ تُنْظِرُونِ): أي لا تمهلونِ إن استطعتم الكيد لي، فأنا لا أخافكم ولا أخاف آلهتكم.

قلنا: هذا هو منطق الأنبياء الذين لا يخافون لومة لائم، ونرى هذا المنطق نفسه يجهر به نوح(عليه السلام)ويقول:(وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلاَ تُنْظِرُونِ)(يونس:٧١.)، كما أنّه منطق النبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) ذاته، إذ خاطب قريشاً بقوله: (قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنْظِرُونِ)(الأعراف:١٩٥.).

يقول الرازي: واعلم أنّ هذا معجزة قاهرة، وذلك أنّ الرجل الواحد إذا أقبل على القوم العظيم وقال لهم: بالغوا في عداوتي وفي موجبات إيذائي ولا تؤجّلون، فإنّه لا يقول هذا إلاّ إذا كان واثقاً من عند الله تعالى بأنّه يحفظه ويصونه عن كيد الأعداء.(تفسير الرازي: ١٨ / ١٣.)

٥٦. (إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّة إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاط مُسْتَقِيم):

الآية تتضمّن أُموراً ثلاثة:

١. توكّل النبيّ هود على الله الذي هو ربّه وربّ قومه.

٢. أنّ كلّ دابة في قبضته وهو قاهر لها.

٣. أنّ ربّه على صراط مستقيم فيما يحكم ويقضي.

أمّا الأوّل، فأُشير إليه بقوله: (إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ) وكأنّه دليل واحتجاج على عدم خوفه منهم ومن آلهتهم لأنّه وَكَل أمر حفظه إلى ربّ العالمين، وهو ربّ الكلّ.

وأمّا الثاني، فأُشير إليه بقوله: (مَا مِنْ دَابَّة)تدبّ على الأرض (إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا). قد مرّ أنّ الناصية شَعر مقدَّم الرأس، وهو تمثيل للقهر والتمكّن من الأمر.

واعلم أنّ العرب إذا وصفوا إنساناً بالذلّة والخضوع قالوا: ما ناصية فلان إلاّ بيد فلان، أي إنّه مطيع له، لأنّ كلّ مَن أخذت بناصيته فقد قهرته، وكانوا إذا أسروا الأسير وأرادوا إطلاقه والمنّ عليه جزّوا ناصيته، ليكون ذلك علامة لقهره، فخوطبوا بالقرآن بما يعرفون(تفسير الرازي:١٨/١٣.)، فتكون الآية كناية عن كونه القاهر فوق عباده، ولا مهرب ولا مفرّ لأحد من قدرته،

وأنتم أيضاً تحت قدرته.

وأمّا الثالث، فأُشير إليه بقوله:(إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)، وليس كونه على صراط مستقيم إلاّ كون سُننه في الخليقة على منهاج العدل والحكمة، كما أنّ سُننه في التشريع والتقنين كذلك، فهو يُحقُّ الحقّ ويُبطل الباطل.

وعن علي (عليه السلام)في قوله: (إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) يعني أنّه على حق، يجزي بالإحسان إحساناً، وبالسيِّئ سيّئاً، ويعفو عمّن يشاء ويغفر، سبحانه وتعالى.(تفسير العياشي: ٢ /٣١٢ برقم ٢٠٢٩.)

٥٧. (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْء حَفِيظٌ):

كأنّ هذه الآية فصل الخطاب بأنّكم إن تولّيتم عمّا بلّغتكم ولم تنتهوا عن أعمالكم الإجرامية، فقد أتممت الحجّة عليكم، كما يقول:(فَإِنْ تَوَلَّوْا): أي فإن تُعرضوا عن الاستجابة لدعوتي (فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ): أي أبلغتكم رسالة ربّي التي أُمرت بتبليغها، فإن بقيتم على هذه الحالة فقد حقّت عليكم كلمة العذاب بأن يهلككم ويطهّر الأرض من وجودكم (وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ) كما كان الحال في الأُمّة السابقة، حيث أهلك قوم نوح واستخلفكم مكانهم، فإن تماديتم في الشِّرك فستجري عليكم السُّنّة نفسها فيستأصلكم ويأتي بخلق هو أطوع لله منكم (وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئًا)بإصراركم على الكفر، ومن ثمّ لا تضرّون رسوله (إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْء حَفِيظٌ): أي رقيب، فهو رقيب على أعمالكم وأعمال عامّة العباد لا يعزب عن علمه عازب ولا يفوت من قدرته فائت. وبما أنّه سبحانه أعلم بأحوالكم يُذهب بكم، وبما أنّ الأرض لا تخلو من خليفة لله يستخلف قوماً غيركم، وقد جرت عليه سنّته وتعلّقت به مشيئتُه.

سورة هود: الآيات ٥٨ ـ ٦٠ (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ... أَلاَ بُعْدًا لِعَاد قَوْمِ هُود).

الآيات: الثامنة والخمسون إلى الستين

(وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَة مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَاب غَلِيظ * وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّار عَنِيد * وَ أُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلاَ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِعَاد قَوْمِ هُود).

المفردات

جاء: اقترب.

أمرنا: الأمر: أُريد به الأمر التكوينيّ، أي العذاب، فيكون معنى قوله: (جَاءَ أَمْرُنَا): أي اقترب عذابنا. ويمكن أن يكون جاء بالمعنى اللُّغوي بتقدير الوقت، أي جاء وقت أمرنا. والأوّل أبلغ.

غليظ: شديد. وفي المجمع: الثقيل العظيم.(مجمع البيان:٥/٣٢٤.)

جحدوا: الجحد: الإنكار الشديد.

اتبّعوا: أطاعوا.

جبّار: الجبّار إذا وصف به غير الله سبحانه فهو بمعنى المتكبّر العاتي، وأمّا لو وصف به الله عزّ وجلّ فهو إمّا بمعنى كون إرادته نافذة، أو بمعنى كونه عالياً لا يُنال.

عنيد: مبالغة في المعاندة، وهي مخالفة الحقّ مع العلم به.

أُتبعوا: أي لحقتهم لعنتان في الدنيا والآخرة.

لعنة: اللّعن: الإبعاد من كلّ خير.

التفسير
هذه الآيات الثلاث تدلّ على أُمور ثلاثة: ١. إنجاء هود(عليه السلام) ومن آمن معه. ٢. بيان أوصاف القوم، التي استحقّوا بها العذاب. ٣. إبعادهم من رحمة الله في كلا الدّارين. وإليك بيان هذه الأُمور: ٥٨. (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ):
الأمر الأوّل: إنجاء هود(عليه السلام) ومن آمن معه
لمّا بلغ القوم من الجهل والعناد مبلغاً راحوا معه يصوّرون عبادة الآلهة أمراً حقّاً وعبادة الله وحده أمراً باطلاً، ويتّهمون نبيّهم بكونه مصاباً ببعض آلهتهم، ولم يكن يُرجى منهم أيّ صلاح وفلاح في الأرض، استحقّوا أن تُطهّر الأرض منهم، كما يقول:(وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا) التكوينيّ، فاقترب عذابنا أو جاء وقت أمرنا(نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا)الظاهر أنّ المراد من قوله: (بِرَحْمَةٍ) هي الرحمة الخاصّة بالمؤمنين، والتي هي مظهر لأحد أسمائه الحسنى، أعني: (الرحيم)، ثمّ (وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ): أي من عذاب شديد، وهو عذاب الاستئصال، وقد عبّر عنه سبحانه في آية بالرّيح العقيم، قال:(وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ)(الذاريات:٤١.)، وفي آية أُخرى:«بِرِيحٍ صَرْصَرٍ» قال تعالى:(وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ).(الحاقة:٦.) قال الشريف الرضيّ(رحمه الله): وهذه استعارة لأنّ العذاب في الحقيقة لا يوصف بالغلظ ولا بالدقّة، لأنّه الألم الذي يلحق الحيّ في قلبه أو جسمه، وإنّما وصفه سبحانه تعالى بالغلظ على طريقة كلام العرب لأنّهم يصفون الأمر الهيّن بالضؤولة والدقّة، كما يصفون الأمر الشاقّ بالغلظ والشدّة.(تلخيص البيان في مجازات القرآن:٦٢.) ٥٩. (وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ):
الأمر الثاني: بيان أوصاف القوم، التي استحقّوا بها العذاب
تذكر هذه الآية سبب نزول العذاب(وَتِلْكَ عَادٌ) التي تضمّنت الآيات السابقة ذكرهم، فسيروا في الأرض فانظروا إليها واعتبروا بما آل إليه أمرهم حينما بدت منهم مواقف ثلاثة: ١. (جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ): أي كفروا بالآيات التي تدلّ على أنّ الربّ واحد لا كثير، وما اتّخذوه من الآلهة ليس لهم من الأُلوهية إلاّ الاسم. ٢. (وَعَصَوْا رُسُلَهُ)وإنّما قال ذلك مع أنّهم عصوا رسوله هوداً، لأنّ عصيان الواحد عصيان للجميع لوحدة المنهج، وهو الدعوة إلى التوحيد في الربوبيّة والعبادة. ٣. (وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) وساروا تحت ركابهم، فكانوا عوناً لهم على الظلم والاستبداد والتمادي في الباطل، وخصماً للحقّ والعدل والإصلاح، فالقوم إذاً كانوا على طبقتين: قادة، وأتباع، وهؤلاء مكان أن يستضيئوا بنور عقولهم وينضمّوا إلى أهل الحقّ، كانوا يتّبعون (أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) من رؤسائهم الطغاة العتاة، الذين جحدوا البيّنات. ٦٠. (وَ أُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلاَ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ):
الأمر الثالث: إبعادهم من رحمة الله في كلا الدارين
الآية تحكي أنّه لحقت بهم لعنتان من الله تعالى:

لعنة في الدنيا كما في قوله:(وَ أُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً): أي إبعاداً من رحمة الله، وآية ذلك هلاكهم بالعذاب. ويحتمل أن يراد: أنّ كلّ مَنْ وقف على سيرتهم لعنهم.

ولعنة في الآخرة كما يقول:(وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ)ومظهرها يومذاك عذاب الجحيم. ولعلّ المراد أنّ الأشهاد يلعنونهم، وفي نهاية المطاف يُشهد على كفرهم بربّهم (أَلَا)أيّها الناس اشهدوا على (إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ)إمّا بربوبيّته سبحانه، حيث أسندوا بعض الظواهر الكونية إلى أصنامهم، أو في العبادة، حيث عبدوا أجساماً خاوية من الحسّ والشعور، فصارت نتيجة ذلك شهادة أُخرى (أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ)دعاء عليهم بالإبعاد من الرحمة، وقد كرّر ذلك تعظيماً لأمره.

كلمة في قوم هود(عليه السلام)

إنّ النبيّ هوداً هو النبيّ الثاني ـ على احتمال ـ من الله سبحانه إلى الناس، بُعث لتهديم الوثنية والدعوة إلى التوحيد في العبادة.

وذكر المؤرّخون نسبه إلى نوح بالنحو التالي: هود بن عبدالله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح.

وكان قومه يسكنون الأحقاف كما جاء في قوله تعالى:(وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ).(الأحقاف:٢١.)

وقد جاء تفصيل قصّتهم في سورة الأحقاف أبسط ممّا ذكر في المقام، كما أنّه سبحانه تحدّث عنهم في سور أُخرى.(لاحظ: الأعراف:٦٥، الفجر:٦ـ٨.)

يُذكر أنّ اسم النبيّ هود ورد في القرآن الكريم سبع مرات(لاحظ: الأعراف:٦٥، هود:٥٠ و ٥٣ و ٥٨ و٦٠ و٨٩، الشعراء:١٢٤.)

واسم الذين بُعث إليهم(عاد) أربعاً وعشرين مرّة(لاحظ: الأعراف:٤٥، ٧٤، التوبة:٧٠، هود:٥٠، ٥٩، ٦٠، ٨٩ ، إبراهيم:٩، الحج: ٤٢، الفرقان:٣٨، الشعراء:١٢٣، ١٢٤، العنكبوت:٣٨، ص:١٢، غافر:٣١، فصلت:١٣، ١٥، الأحقاف: ٢١، ق: ١٣، الذاريات: ٤١، القمر:١٨، النجم:٥٠، الحاقّة:٤، الفجر:٦.)، وأمّا التوراة فلم تذكر من قصّته شيئاً، فلولا القرآن الكريم لصارت أثراً بعد ما كانت عيناً.

والمعروف أنّ هوداً(عليه السلام) هو أوّل مَن تكلّم باللغة العربية فهو أوّل رسول عربيّ. ومن أراد الإحاطة بقصّة هود بتفاصيلها فعليه الرجوع إلى كتابنا القصص القرآنية.(لاحظ: القصص القرآنية:١/١٣٧ـ١٦١.) وسيوافيك تفصيل حياتهم في تفسيرنا لسورتي الشعراء والأحقاف.

سورة هود: الآية ٦١ (وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ ... إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ).

الآية: الحادية والستون

(وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَه غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ).

المفردات

أنشأكم: الإنشاء: الإيجاد ابتداء من غيراستعانة بشيء من الأسباب، كما يقال: أنشأ فلان حديثاً أو شعراً.

استعمركم: من العُمران، أي جعلكم قادرين على عمران الأرض.

التفسير

القصّة الثالثة: قصّة النبيّ صالح(عليه السلام)

تعلّقت مشيئته سبحانه بهداية البشر إلى الحياة الروحية بالإضافة إلى حياتهم المادّية، وذلك من خلال بعث الأنبياء إليهم، كما

شاءت إرادته تعالى أن يصبّ العذاب على الأُمم الغابرة ويهلكهم إذا دلّت الأمارات القطعيّة على أنّهم لا يؤمنون، بل يستكبرون، كما عرفنا ذلك في دراستنا لحياة قوم نوح وقوم هود.

لقد ورثت (ثمودُ) الأرضَ من بعد (عاد)، وأرسل الله إليهم نبيّهم صالحاً(عليه السلام)، وهو ثالث الأنبياء المذكورين في القرآن ممّن دعوا إلى التوحيد، وناهضوا الشِّرك، وقد ذكره تعالى بعد نوح وهود(عليهما السلام)، كما أنّه النبيّ الثاني من العرب، وقد سكن قومه (الحِجر) بين الحجاز والشام.

يُذكر أنّ قصّة ثمود ونبيِّهم صالحاً(عليه السلام) قد جاء ذكرها في سور أُخرى من القرآن الكريم، وهي: الأعراف، والحِجر، والشعراء، والنَّحل، وفصّلت، والذاريات، والنَّجم، والقمر، والحاقّة، والشمس، وورد اسم صالح فيها تسع مرّات.(لاحظ: الأعراف:٧٣ و ٧٥ و ٧٧، هود: ٦١، ٦٢، ٦٦، ٨٩ ، الشعراء:١٤٢، النحل:٤٥.)

وقد ذكر تعالى قصّتهم في هذه السورة ضمن ثمان عشرة آية، والآية التي نحن بصدد تفسيرها تُعرب عن محتوى رسالته، وهو الدعوة إلى التوحيد في العبادة، حيث كان القوم غارقين في الوثنية، فقال:

٦١. (وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَه غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ):

قوله:(وَإِلَى ثَمُودَ)عطف على قوله:(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ)وتقدير الآية: أرسلنا أخاهم صالحاً إلى ثمود (قَالَ يَا قَوْمِ) هي كلمة استعطاف وإخبار بأنّه منهم ولا يبتغي إلاّ خيرهم. ثم خاطبهم بأمرين: إيجابيّ وسلبيّ.

أمّا الأوّل فهو: (اعْبُدُوا اللهَ) فإنّ العبادة والخضوع من خصائص الموجود الجامع لكافّة صفات الجمال والكمال.

وأمّا الثاني، أي السلبيّ فهو قوله: (مَا لَكُمْ مِنْ إِلَه غَيْرُهُ). والعبارة هنا هي العبارة ذاتها التي نطق بها هود(عليه السلام) حيث قال: (يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَه غَيْرُهُ).(هود:٥٠.) وهو يدلّ على أنّ جميع الأنبياء بعثوا لأصل واحد وهو نشر التوحيد والمنع من عبادة غير الله.

ثم أشار إلى أمرين مستدِلاًّ بهما على لزوم اختصاص العبادة بالله سبحانه:

١. (هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ): أي ابتدأ خلقكم من الأرض لأنّه خلق آدم من تراب، وأمّا غيره فكلّ إنسان يتولّد من النطفة التي تتخلّق من نبات الأرض ومياهها.

٢. (وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا): أي جعلكم قادرين على عمارة الأرض، فأنتم بين زارع وصانع وبنّاء. أو طلب منكم عمارة الأرض، كما طلب من غيركم؛ فقد روي عن أمير المؤمنين أنّه قال: «مَن وجد ماءً وتراباً ثم افتقر فأبعده الله».(وسائل الشيعة: ١٢، الباب٩، من أبواب مقدّمات التجارة (باب استحباب العمل باليد)، الحديث ١٣.)

فمقتضى كونه منشئاً للإنسان من الأرض، وجعله قادراً على عمارتها، أن لا يعبد إلاّ إيّاه.

وتظهر حقيقة كونهم عمّاراً للأرض ممّا جاء في سائر السور، ففي سورة الأعراف قال تعالى:(وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَاد وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاَءَ اللهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ)(الأعراف:٧٤.)، وفي سورة الشعراء قال تعالى:(أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَا هُنَا آمِنِينَ * فِي جَنَّات وَعُيُون * وَزُرُوع وَ نَخْل طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ)(الشعراء:١٤٦ـ١٤٩.) والغاية من ذكر قوله سبحانه:(وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) هو الدعوة إلى عبادة الله لكونه المُنعم دون غيره.

وبما أنّ القوم قد صرفوا أعمارهم في عبادة الأوثان، كانت هنا مظنّة سؤال، وهو أنّهم إذا رفضوا الوثنية وعبدوا الله كيف يكون

حال ما سبق من أعمالهم، فلأجل الإجابة عن هذا السؤال قال:(فَاسْتَغْفِرُوهُ): أي اقلعوا عن الذنب وكونوا نادمين على ما سبق (ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ) جازمين على عدم الرجوع. وقد تقدّم نظير ذلك في قصّة هود حيث قال:(وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ)(هود: ٥٢.)، (إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ)لا يخفى عليه استغفاركم (مُجِيبٌ)لدعوة عباده.

الظلّ القاتم للفظ (الاستعمار)

من غريب الأمر أنّ لفظة (الاستعمار) الذي هو بمعنى طلب العمران وتحقيق الرفاه للأُمم، خرجت عن معناها الواقعي واستُعملت في استعباد الأُمم واستغلال خيراتهم وثرواتهم، والتحكّم في مقدّراتهم الاقتصادية والسياسية. لقد جاءت ـ مثلاً ـ القوى الغربيّة إلى الشرق وهي تتظاهر بنوايا صالحة وأنّها تُريد عمران الأراضي وتعمل على تطوير البلدان وازدهارها، ولكنّ ذلك لم يكن سوى واجهة لنواياها الفاسدة، فإنّ تلك القوى لمّا أنشبت مخالبها في البلدان المستعمَرة، كشفت عن غاياتها، وهي الاستعباد والاسترقاق لكن بصورة جديدة، ليّن ظاهرها، قاتل باطنها، وإلى الله المشتكى.

قال الوزير المغربيّ: قوله تعالى: (وَاسْتَعْمَرَكُمْ) فهذا دليل على أنّ الله يريد العمارة دون التخلّي والتبتُّل بالوحدة. وكانت ثمود قد أُطيلت أعمارهم حتى أنّ الرجل يبني البناء من المَدَر فتنهدم وهو حيّ، فاتّخذوا البيوت من الجبال.(المصابيح في تفسير القرآن:٥٧٣.)

سورة هود: الآيات ٦٢ ـ ٦٨ (قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ... أَلاَ بُعْدًا لِثمُودَ).

الآيات: الثانية والستون إلى الثامنة والستين

(قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَ إِنَّنَا لَفِي شَكّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيب * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَة مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِير * وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوء فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ * فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّام ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوب* فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَة مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ * وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِثمُودَ).

المفردات

مرجوّاً: نرجو منك الخير.

مريب:ما يورث التُّهمة والرِّيبة.

تخسير: خسران.

داركم: أُريد بالدار هنا البَلَد الذي كانوا يعيشون فيه، لا الدار بمعنى البيت .

جاثمين: ساقطين على وجوههم. يقول الرازي: الجثوم هو السكون: يقال للطير إذا باتت في أوكارها أنّها جثمت، ثم إنّ العرب أطلقوا هذا اللّفظ على ما لا يتحرّك من الموت، فوصف الله تعالى هؤلاء المهلَكين بأنّهم سكنوا عند الهلاك، حتّى كأنّهم ما كانوا أحياء.(تفسير الرازي: ١٨ / ٢٢.)

لم يَغنَوا فيها: لم يقيموا فيها، يقال: غَنيَ بالمكان إذا أقام فيه.

بُعداً:طرداً من الرحمة.

التفسير

٦٢. (قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَ إِنَّنَا لَفِي شَكّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيب):

اعتذار قوم صالح عن عدم قبول دعوته

اعتذر قوم صالح(عليه السلام) عن عدم قبولهم دعوته بقولهم:(يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا): أي كانت لك مكانة عالية عندنا لما لمسنا منك من العقل والرأي، فبَعد ما نهيتنا عن عبادة الأوثان خاب ظنُّنا فيك، لأنّك تخالف السِّيرة المستمرّة بين أجدادنا وآبائنا إلى يومنا هذا، قالوا: (أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا): أي أتنهانا عن السنّة المقدّسة العريقة في قومنا، والتي بها يتّحد قومنا؟! وفي التعبير عن سنّة عبادة الأوثان بقولهم: (أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا) دون أن يقولوا: أتنهانا أن نعبد ما كان يعبد آباؤنا، لأجل بيان استمرار السنّة إلى زمان الحوار، بخلاف التعبير الثاني فإنّه لا يحكي عن الاستمرار.(لاحظ : الميزان في تفسير القرآن: ١٠ / ٣١٢ .) ولأجل مخالفتك للرأي العام والسنّة المقدّسة (وَ إِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ): أي في شك من صحّة ما تدعونا إليه، وأمرك مريب يوجب التُّهمة.

وما اعتذر به قوم صالح(عليه السلام) هو منطق الوثنيّين في كلّ زمان ومكان، فإنّهم يعتمدون على التقاليد والعادات دون أن يعتمدوا على منطق العقل والفكر. وسيوافيك في ختام تفسير قصّة صالح(عليه السلام) الأُمور المشتركة بين قصّة هود وقصّة صالح.

٦٣. (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ):

يقين صالح(عليه السلام) بصدق بعثته وسلامة مسيرته

قد أشرنا غير مرّة أنّ بعث الأنبياء كان في كلّ زمان مقروناً بالمعجزة الباهرة التي تثبت صحّة دعوتهم واتّصالهم بعالم الوحي، ولذلك أجاب صالح(عليه السلام) ـ بهذا المنطق ـ على احتجاجهم ضمن بيان أُمور:

١. (إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي) فهل المراد من البيّنة في الآية البصيرة الإلهية، بمعنى أنّ النبيّ لا يشكّ أنّه مبعوث من الله سبحانه لهداية الناس؟ أو المراد المعجزة الّتي يستدلّ بها النبيّ على نبوته؟

الظاهر هو الأوّل ؛ لأنّ الأنبياء حينما يتحدّثون أو يتحدّث القرآن الكريم عن بيّناتهم تختلف تعابيرهم أو تعابيره في المقام، ففي عدد من الموارد تُستخدم معها كلمة المجيء، ومنها:

أ. (فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ).(الأنعام:١٥٧.)

ب. (قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ).(الأعراف: ٧٣ .)

ج. (قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ).(الأعراف: ٨٥ .)

د. (قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ).(الأعراف: ١٠٥.)

فالمراد بالبيّنة في الموارد المذكورة، المعجزة.

وفي موارد أُخرى يتغيّر التعبير، كما في الآيات التالية:

أ. (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ).(هود: ١٧ .)

ب. (أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ).(هود: ٢٨.)

ج. (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً).(هود: ٦٣.)

فاللازم حمل التعبير في هذه الموارد على معنى آخر، وهو البصيرة الإلهية.

ويشهد على ذلك في المقام أنّ النبيّ صالحاً استشهد بالمعجزة بالآية التالية وقال: (وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً)(هود: ٦٤ .)، وبذلك يُعلم أنّ تفسير البيّنة بالمعجزة ـ كما عليه السيد الطباطبائي ـ يخالف ما حقّقه(قدس سره) في غير هذا المقام.

ثمّ إنّ نبيّ الله صالحاً عبّر بقوله: (إِنْ كُنْتُ) مكان قوله:«إذا كنت»، مع أنّ الأوّل يُستعمل في مورد الشكّ، دون الثاني، وكان

هو(عليه السلام) على يقين من أمره، ولعلّ الوجه في ذلك، هو رعاية حال المخاطب المخالف، لئلاّ يثير حفيظته . ٢. أنّه قد شملته الرحمة الإلهية كما يقول: (وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً) وأُريد بها النبوّة. وقد تقدّم نظير ذلك في قصة نوح(عليه السلام)(هود:٢٨.) وهو دليل على أنّ منطق الأنبياء في تلقّي الدعوة واحد. ٣. أنّ هاتين الحجّتين تلزمانه(عليه السلام) بالاستمرار في الدعوة لما في تركها من عصيان الربّ، كما قال: (فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ) بكتمان الرسالة. ٤. أنّ إيثار ما عندهم على ما عند الله، واشتراء رضاهم بسخط الله لا يزيده(عليه السلام) إلاّ خسراناً، كما يقول:(فَمَا تَزِيدُونَنِي) بإصراركم عليّ بترك الدعوة والرجوع إليكم (غَيْرَ تَخْسِيرٍ): أي غير الخسران، فإنّ مخالفة الحقّ خسارة واضحة. ٦٤. (وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوء فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ):
إشارة صالح(عليه السلام) إلى معجزته الدالّة على صحّة رسالته
في هذه الآية يشير صالح(عليه السلام) إلى معجزته الدالّة على صحّة رسالته، ويحذّرهم من عصيان ما يأمرهم به في شأنها، ويقول:(وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ): أي إن شككتم في دعوتي فهذه الناقة معجزة لي، وإضافتها إلى الله تشريفاً لها، كما يقال: بيت الله، (لَكُمْ آيَةً): أي حجّة ظاهرة(فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ): أي فاتركوها ولا تتعرّضوا لها (وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوء) كالقتل والجرح وغيره، وإلاّ(فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ): أي عاجل لا يتأخّر عنكم. وهنا يثار سؤال: لماذا صارت حجّة صالح(عليه السلام) ومعجزته تلك الناقة؟ والجواب: أنّهم سألوه أن يخرج لهم من إحدى الصخور ـ وأشاروا إلى صخرة منفردة ـ ناقة مخترجة(المخترجة ما شابه البُخْت، وهي الإبل الخراسانية.) جوفاء وبراء، وقالوا: إن فعلت صدّقناك وآمنّا بك، فسأل صالح(عليه السلام) الله سبحانه ذلك فانصدعت الصخرة صدعاً كادت عقولهم تطير منه، ثمّ اضطربت كالمرأة يأخذها الطَّلْق، ثم انصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء.(مجمع البيان:٢/٤٤١.) وروي أيضاً أنّه(عليه السلام) قال لقومه: أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم عن الوجه الّذي طلبتم أتؤمنون بما جئتكم به وتصدّقون بما أُرسلت به؟ قالوا: نعم، فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك، ثمّ قام إلى مصلاّه فصلّى لله عزّ وجلّ ما قدر له، ثمّ دعا ربه عزّ وجلّ أن يجيبهم إلى ما طلبوا، فأمر الله عزّ وجلّ تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عُشَراء، على الوجه المطلوب الذي طلبوا، أو على الصفة التي نعتوا.(قصص الأنبياء لابن كثير:١٢٠.) ٦٥. (فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّام ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوب): أوحى الله تعالى إلى صالح(عليه السلام) أنّه سيرسل الناقة اختباراً لهم ليتميّز المطيع من العاصي والطيِّب من الخبيث، وأسفر الامتحان والاختبار عن النتيجة التي كان يتوقّعها ويحسّ بها نبيُّهم من خلال التأكيد عليهم بقوله: (وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوء) لكنّ الطغاة أقدموا على عقرها كما يقول:(فَعَقَرُوهَا)يقال: عقر الناقة بالسيف إذا ضرب قوائمها به أو نحرها، ولكن القوم قتلوا الناقة عقب الإنذار، غير مبالين بالوعيد، فضرب لهم صالح(عليه السلام)أجلاً للعذاب، بعد ثلاثة أيام (فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّام): أي استمتعوا بحياتكم في دار الدنيا ثلاثة أيام، وهذا الأجل الذي أُجِّلتم به وعد من الله وعَدكم (ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوب): أي وعدُ صدق لا كذبَ فيه.
تآمُر أشقيائهم على عقر الناقة
لقد أعمت قومَ صالح العصبية والتبعيّة للآباء والأجداد، فقاموا بعقر حيوان كان يدرّ عليهم باللَّبن في نفس اليوم الذي كان

يشرب منه الماء، وكان القوم ممنوعين من الشّرب، حيث روى الكلينيّ بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله[الصادق(عليه السلام) قال: قلت له: (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ * فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ)(القمر:٢٣ـ ٢٤) قال: هذا فيما كذّبوا صالحاً، وما أهلك الله عزّ وجلّ قوماً قطّ حتى يبعث قبل ذلك الرُّسل فيحتجُّوا عليهم.

فبعث الله إليهم صالحاً فلم يجيبوه وعَتَوا عليه، وقالوا: لن نؤمن لك حتى تُخرج إلينا من هذه الصخرة ناقة عُشَراء، وكانت الصخرة يعظّمونها ويعبدونها ويذبحون عندها في رأس كلّ سنة ويجتمعون عندها، فقالوا: إن كنت كما تزعم نبيّاً رسولاً فادع لنا إلهك حتى يُخرج لنا من هذه الصخرة الصمّاء ناقة عُشَراء، فأخرجها الله كما طلبوا منه.

ثمّ أوحى الله تبارك وتعالى إليه أن يا صالح قل لهم: إنّ الله قد جعل لهذه الناقة لها شِرب يوم ولكم شِرب يوم فكانت الناقة إذا كان يومها شربت الماء ذلك اليوم فيحبسونها فلا يبقى صغير وكبير إلاّ شرب من لبنها يومهم ذلك، فإذا كان الليل وأصبحوا غدَوا إلى مائهم فشربوا منه ذلك اليوم ولم تشرب الناقة ذلك اليوم فمكثوا بذلك ما شاء الله.

ثمّ إنّهم عَتَوا على الله ومشى بعضهم إلى بعض وقالوا: اعقروا هذه الناقة واستريحوا منها، لا نرضى أن يكون لنا شِرب يوم ولها شِرب يوم. ثم قالوا: مَن الذي يلي قتلها ونجعل له جُعْلاً ما أحبّ؟ فجاءهم رجل أحمر أشقر أزرق ولد زنا لا يُعرف له أب يقال له: قُدار، شقيٌّ من الأشقياء مشؤوم عليهم فجعلوا له جُعْلاً.

فلمّا توجّهت الناقة إلى الماء الذي كانت تَردُه تركها حتى شربت وأقبلت راجعة فقعد لها في طريقها فضربها بالسيف ضربة فلم يعمل شيئاً، فضربها ضربة أُخرى فقتلها وخرّت إلى الأرض على جنبها، وهرب فصيلها حتى صعد إلى الجبل فرغا ثلاث مرات إلى السماء، وأقبل قوم صالح فلم يبق منهم أحد إلاّ شركه في ضربته، واقتسموا لحمها فيما بينهم فلم يبق منهم صغير ولا كبير إلاّ أكل منها.

فلما رأى ذلك صالح أقبل إليهم وقال: يا قوم ما دعاكم إلى ما صنعتم؟ أعصيتم أمر ربّكم؟ فأوحى الله تبارك وتعالى إلى صالح (عليه السلام):إنّ قومك قد طغَوا وبغَوا وقتلوا ناقة بعثها الله إليهم حجّة عليهم ولم يكن لهم فيها ضرر وكان لهم أعظم المنفعة، فقل لهم: إنّي مرسل إليهم عذابي إلى ثلاثة أيام فإن هم تابوا ورجعوا قبلت توبتهم وصددت عنهم، وإن هم لم يتوبوا ولم يرجعوا بعثت إليهم عذابي في اليوم الثالث.(الكافي:٨/١٨٧، برقم ٢١٤.)

ثمّ إنّ هنا سؤالاً طرحه الرازي، قال: كيف يعقل أن تظهر فيهم هذه العلامات مطابقة لقول صالح(عليه السلام)ثم يبقون مصرّين على الكفر، ثم أجاب عنه بقوله: مادامت الأمارات غير بالغة إلى حدّ الجزم واليقين لم يمتنع بقاؤهم على الكفر وإذا صارت يقينية قطعية، فقد انتهى الأمر إلى حد الإلجاء، والإيمان في ذلك الوقت غير مقبول.(تفسير الرازي:١٨/٢٠.)

يلاحظ عليه: أن التعبير بالإلجاء يشعر بالجبر وسلب الاختيار عنهم وهوغير تامّ، والأولى أن يقال ما في ذيل كلامه من أنّ الإيمان في ذلك غير مقبول؛ لأنّ الإيمان لأجل الفرار من العذاب ليس إيماناً حقيقياً بل إيماناً عَرَضياً، بحيث إذا ارتفع العذاب رجعوا إلى ما كانوا عليه .

والقصّة بتمامها تكشف عن مدى شقاوتهم وعنادهم وعمى بصيرتهم.

٦٦. (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ):

نزول عذاب الاستئصال على قوم صالح(عليه السلام)

قد مرّ أنّ المراد من الأمر هو الأمر التكويني، أي عذاب الاستئصال، ومعنى قوله: (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا): أي جاء وقت العذاب، قمنا بأُمور ثلاثة:

١. (نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا): أي برحمة خاصّة بالمؤمنين.

٢. (وَ) نجّيناهم (مِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ): أي من خزي ذلك اليوم، وذلّته وفضيحته.

قوله:(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ): أي مقتدر لا يعجزه في إنجاز وعيده شيء، وغالب على أمره.

وصدر هذه الآية يماثل ما ورد في صدر الآية في قصّة هود، باستثناء أمر واحد، وهو الابتداء في المقام بالفاء، وبالواو هناك.

وسوف يوافيك وجهه.

٦٧. (وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ):

٣. هذا هو الأمر الثالث في هذا المشهد الرهيب، قال: (وَأَخَذَ): أي أصاب (الَّذِينَ ظَلَمُوا) وتجاوزوا الحدود، حيث استهانوا بالآية البيّنة، وهي الناقة التي أقدموا على عقرها(الصَّيْحَةُ): أي الصوت الذي تفزع له القلوب.(فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ): أي ساقطين على وجوههم.

ويستفاد من قوله سبحانه:(وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ) أنّهم أُهلكوا بها، ولكنّ المستفاد ممّا ورد في سورة الأعراف أنّهم هلكوا بالرجفة كما يقول:(فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ)(الأعراف:٧٨.) كما أنّ المستفاد من قوله سبحانه: (فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ)(الذاريات:٤٤.) أنّهم أُهلكوا بالصاعقة، فكيف يتمّ الجمع بينها؟

والجمع بينها، هو أنّ الصاعقة تُحدث رجفة في الأرض وصوتاً مهيباً في الهواء، والصّيحة العظيمة توجب تموّج الهواء تموّجاً شديداً، وإذا تعدّى إلى صماخ الإنسان يمزّق غشاء الدماغ ويؤدّي إلى الموت، وقد ذكر سبحانه في كلّ سورة شيئاً من هذه الأُمور الثلاثة.

٦٨. (كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ):

كانت الصيحة السماوية الشديدة على حدٍّ لم يبق منهم أي أثر يُلمس، وهذا هو الذي يعبّر عنه سبحانه بقوله: (كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا): أي كأن لم يقيموا فيها. ثم شهد سبحانه بأمرين:

١. (أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ): أي كفروا بآيات ربّهم وجحدوها.

٢. (أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ): أي أبعدهم الله من رحمته.

بقيت هنا نكتتان:

١. أنّه سبحانه يقول في قصّة صالح(عليه السلام): (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا)مفتتحاً بالفاء، وفي الوقت نفسه جاء هذا التعبير في قصّة هود مفتتحاً بالواو، قال: (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا)(هود:٥٨.) فما هو الفرق؟

ويجاب بأنّه ربما يكون للتنوّع في التعبير، وربما يكون المناسب لقصّة صالح(عليه السلام) هو الفاء لأنّ الفقرات المتقدّمة عليه جاءت كلّها بالفاء، كما في قوله:(فذروها)، وقوله:(فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ) وقوله: (فَعَقَرُوهَا)، وهذا خلاف ما مضى من قصة هود إذ ليس فيها هذا النوع من الترتيب.

وأمّا صاحب المنار فبعد ما ذكر ما تقدّم قال: فما كان المناسب في هذا إلاّ أن يكون بالفاء تعقيباً على ما قبله كما قال في آخر سورة الشمس:(فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا)(الشمس:١٣ـ١٤.)، ثم قال: وإنّما بيّنت هذا من نكت البلاغة لأنّني لم أره في التفاسير التي تُعنى بها.(تفسير المنار:١٢/١٢٥. ولكن ما ذكره منقوض، وذلك أنّه جاءت الفقرة نفسها في قصة لوط مفتتحة بالفاء كما في الآية ٨٢ ، وليس هناك فاء في الفقرات السابقة ولا التالية، فلاحظ.)

٢. ما يُستعظم من أنّه كيف يستأصل الله قوماً قتلوا حيواناً واحداً؟

أقول: إنّ عملهم هذا له ظاهر وله باطن، أمّا الأوّل فكما ورد في السؤال، وأمّا الثاني أي باطن هذا العمل، فإنّ الإقدام على عقر الناقة جرأة على الله واستهانة بآياته وبيّناته، وقد عبّروا عن شديد عداوتهم للحقّ وغوايتهم وغلظتهم بأن طلبوا من نبيّهم في تحدٍّ صلف أجوف أن يأتيهم بالعذاب الّذي توعّدهم به، قالوا: (يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)(الأعراف:٧٧).

إنّها لجريمة كبرى أن تُنال بسوء آية لله تتجلّى فيها عظمته سبحانه، فتُحرم الأُمّة من خيرها ونفعها. ومن هنا وُصف عاقر الناقة بأنّه أشقى الأوّلين، وكذلك وُصف مَن اغتال الآية الكبرى، ووصيّ المصطفى(عليه السلام)بأنّه أشقى الآخرين.

روى الثعلبي في تفسيره بإسناده مرفوعاً إلى النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) قال: «يا عليّ أتدري مَن أشقى الأوّلين؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: عاقر الناقة، ثم قال:أتدري من أشقى الآخرين؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: قاتلك...».

وفي رواية أُخرى قال: «أشقى الآخرين مَن يخضّب هذه من هذه» وأشار إلى لحيته ورأسه.(مجمع البيان:٢/٤٤٣).

الجهات المشتركة بين قصّتي هود وصالح(عليهما السلام)

التدبّر فيما يذكره القرآن الكريم من حجاج النبيَّين(عليهما السلام) مع قومهما، يُظهر أنّ بين القصّتين جهات مشتركة، نشير إليها:

١. الوحدة في الهدف والغاية

يقول النبيّ هود(عليه السلام):(يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَه غَيْرُهُ)(هود:٥١).

ويقول النبيّ صالح(عليه السلام): (يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَه غَيْرُهُ)(هود:٦١).

٢. ردّ الدعوة بمنطق واحد

اعتذر قوم هود(عليه السلام) بقولهم: (وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ)(هود:٥٣).

واعتذر قوم صالح(عليه السلام) بقولهم:(أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ابَاؤُنَا وَ إِنَّنَا لَفِي شَكّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيب)(هود:٦٢).

٣. نقد الردّ بكلامين متقاربين

ردَّ النبيّ هود على قومه مقالتَهم، بقوله:(إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ)(هود:٥٤).

وردّ النبي صالح على قومه مقالتهم، بقوله: (أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَة مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ).(هود:٦٣).

فنرى أنّ الألفاظ والتعابير وإن كانت مختلفة ولكن روح الحوار من الجانبين واحدة.

سورة هود: الآيات ٦٩ ـ ٧٦ (وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرى قَالُوا سَلاَمًا ... عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُود).

الآيات: التاسعة والستون إلى السادسة والسبعين

(وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرى قَالُوا سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْل حَنِيذ * فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوط * وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ * فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوط * إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ * يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُود).

المفردات

بالبشرى: البشرى: اسم للتبشير والبشارة، وأُريد بالبشارة ما تضمّنته الآية نفسها:(فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ)والباء في قوله:

(بِالْبُشْرى) للمصاحبة، أي كان مجيئهم مقروناً بالبشارة، وأمّا الإخبار بالتبشير ووقته فلا يدلّ على كونه مقروناً بالمجيء؛ بل كان متأخّراً عن عملية التكريم.

سلاماً: منصوب بفعل مقدّر هو: سلّمنا سلاماً.

سلام: مرفوع خبر لمبتدأ محذوف، أي: أمري سلام، نظير قوله:(فَصَبْرٌ جَمِيلٌ).(يوسف:١٨.)

لبث: اللَّبث: الإبطاء، ومعنى (فَمَا لَبِثَ) هنا: ما أبطأ.

حَنيذ: قال الراغب: حنيذ أي مشويّ بين حجرين، وإنّما يفعل ذلك لتتصبّب عنه اللُّزوجة التي فيه.(المفردات للراغب:١٣٣، مادة «حنذ».)وفي القاموس: حنذ الشاة يحنذها حنذاً وتحناذاً: شواها وجعل فوقها حجارة محمّاة لتُنضجها، فهي حنيذ، أو هو الحارّ الذي يقطر ماؤه بعد الشَّيّ.(القاموس المحيط:١/٣٥٢، مادّة«حنذ».)

أوجس: أحسّ، فيكون معنى:(وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً): أي أضمر ولم يُظهر.

يا ويلتى: أصلها يا ويلي كما يقال: يا عجباً بدل يا عجبي، وهي كلمة تقال عندما يواجه الإنسان أمراً مهمّاً من بليّة أو فجيعة أو فضيحة تعجُّباً منها، واستنكاراً لها، وهذه الصيغة تجري على لسان النساء غالباً. وعن الفرّاء: أصل الويل، «وي» وهو الخزي، يقال:«وي» لفلان، أي خزيٌ له، وقوله:«ويلك»: أي خزي لك» وعلى هذا فالألف في «يا ويلتا» مبدَّلة من ياء الإضافة «يا ويلتي».(تفسير الرازي:١٨/٢٧.)

بعلي: البعل: الزوج، وأصله: القائم بالأُمور.

الرَّوع: الخيفة.

يجادلنا: أي يسائلنا في قوم لوط، لما بينهم من المؤمنين.

لَحليم: الحِلْم: صفة تقتضي تحمّل الأذى والصفح عن الإساءة.

أوّاه: تأوّه تأوُّهاً: إذا توجّع، ومثله: أوّه تأويهاً. قال أبو عبيد:

الأوّاه: المتأوِّه شَفقاً وفَرَقاً، المتضرّع يقيناً ولزوماً للطاعة.(تهذيب اللغة للأزهري: مادة «أوه».) وقال الوزير المغربيّ: شديد التأوّه من خوف الله تعالى. قال عمرو القنا الخارجيّ:

معي كلُّ أوّاهٍ يرى الصوم حسبةً *** وفي الوجه منه نَهْكَةٌ وشحوبُ[٣]

[٣]تفسير المصابيح:٥٧٦.

منيب: راجع إلى الله سبحانه في جميع أُموره. ويلازمه كونه منقطعاً عن الناس وراجعاً إلى الله تعالى.

التفسير

القصّة الرابعة: قصّة إبراهيم (عليه السلام)

إنّ إبراهيم(عليه السلام) هو النبي الأعظم الذي أُوتي شريعة وكتاباً والمقامات الثلاثة: النبوّة والرسالة والإمامة، وقد ذكر الله سبحانه في كتابه المجيد اسم نبيه إبراهيم(عليه السلام)(٦٩) مرة في خمس وعشرين سورة.(البقرة:١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٣٠، ١٣٣، ١٣٥، ١٣٦، ١٤٠، ٢٥٨، ٢٦٠؛ آل عمران:٣٣، ٦٥، ٦٧، ٦٨، ٨٤، ٩٥، ٩٧؛ النساء:٥٤، ١٢٥، ١٦٣؛ التوبة:٧٠، ١١٤؛ هود:٦٩، ٧٤، ٧٥، ٧٦؛ يوسف:٦ و ٣٨؛ إبراهيم:٣٦؛ الحجر:٥١؛ النحل:١٢٠، ١٢٣؛ مريم:٤١، ٤٦، ٥٨؛ الأنبياء:٥١، ٦٠، ٦٢، ٦٩؛ الحج:٢٦، ٤٣، ٧٨؛ الشعراء:٦٩؛ العنكبوت:١٦ و ٣١؛ الأحزاب:٧؛ الصافات:٨٣ ، ١٠٤، ١٠٩؛ ص:٤٥؛ الشورى:١٣؛ الزخرف:٢٦؛ الذاريات:٢٤؛ النجم:٣٧؛ الحديد:٢٦؛ الممتحنة:٤؛ الأعلى:١٩.)

ولأجل إلقاء الضوء على أبرز مقاصد وأهداف قصّة إبراهيم(عليه السلام)، يجب دراستها من عدّة جوانب، أهمها:

١. فضائله(عليه السلام) وسماته ومنزلته الرفيعة.

٢. نشأته(عليه السلام).

٣. مناظراته وحواراته مع الوثنيّين، وعَبَدة الأجرام السماوية، وملك عصره المدّعي للربوبيّة.

٤. تحطيم الأصنام.

٥. إصدار الحكم بإحراقه(عليه السلام).

٦. هجرته(عليه السلام) من أرض قومه.

٧. مجيء الملائكة إليه وتبشيره بولادة إسحاق ويعقوب، وجداله مع الملائكة في أمر قوم لوط.

٨. بناء الكعبة.

٩. الابتلاء العظيم.

١٠. طلب إراءة إحياء الموتى.

١١. تنصيبه لمقام الإمامة.

١٢. مناجاته وأدعيته.

وفي المقام تشير هذه الآيات الثمان إلى جانب من جوانب حياته، وهو حواره مع الملائكة وتبشيرهم إيّاه بالإنجاب، وجداله معهم في أمر لوط، فلذلك نقتصر على تفسير هذا الجانب، تاركين بقية الجوانب إلى محلّها.

هاجر إبراهيم(عليه السلام) إلى أرض فلسطين وهو بعد لم يُرزق ولداً ـ لا ذكراً ولا أُنثى ـ ولمّا ألقى عصا التِّرحال في أرض فلسطين بشّره الله سبحانه بولادة ولدين هما: إسماعيل الحليم وإسحاق العليم، إذ أنجبت (هاجر) ولده إسماعيل أوّلاً، ثمّ بعد فترة أنجبت (سارة) ولده إسحاق.

وقد استجاب الله سبحانه دعاءه، الّذي رفعه إليه تعالى مبتهلاً: (رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ)(الصافات:١٠٠) فحباه الله سبحانه بهذين الولدين على كبر سنّه، فقال:(الْحَمْدُ للهِ الذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ)(إبراهيم:٣٩).

وكان (عليه السلام) قد تزوّج بـ(سارة) أوّلاً إلاّ أنّها كانت عاقراً فلم يُرزق منها بولد حتى تقدّمت بهما السنّ، ثمّ تزوّج بجارية مصرية اسمها (هاجر) فرزق منها بإسماعيل.

ثمّ شاء الله سبحانه أن يُبشّره (بواسطة ملائكته) بأنّه سيرزق ولداً من (سارة)، رحمة بأهل هذا البيت وإفاضةً لنعمه عليهم.

وهؤلاء الملائكة هم الرُّسل الذين أُرسلوا إلى إهلاك قوم لوط، وقد نزلوا ـ وهم في مسيرهم إليهم ـ بيت إبراهيم في هيئة الآدميين، فحيّوا إبراهيم بالسلام، فردّ عليهم بمثله.

٦٩. (وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرى قَالُوا سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْل حَنِيذ):

مجيء الرسل إلى إبراهيم(عليه السلام) مقروناً بالبشرى
قد أخبر تعالى عن مجيء الرُّسل بخبر مؤكّد بالقسم وقال:(وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ) تأكيداً لصحّة الخبر، وقد وردوا على بيت إبراهيم متمثّلين بصورة البشر، وتلقّاهم إبراهيم(عليه السلام) على أنّهم من جنس البشر، واختلف في عدد الملائكة، فقيل كانوا ثلاثة: جبرئيل وميكائيل وإسرافيل، وقيل غير ذلك. (بِالْبُشْرى): أي مصطحبين بالبشارة دون إظهارها عند الورود، بل أظهروها بعد حين (وهي قضية إنجابه إسحاق وثم منه يعقوب، وسيأتي قوله تعالى فيها)، وردوا على إبراهيم(عليه السلام) و

(قَالُوا سَلاَمًا) التعبير حكاية عمّا صدر عنهم أي:نسلّم سلاماً، وكأنّه دعاء للمخاطب، فأجاب إبراهيم (عليه السلام) بقوله: (سَلاَمٌ) وهو أبلغ في الترحيب من كلام الملائكة، فالخليل(عليه السلام)ـ كما نُقل عن بعضهم ـ حيّا بأحسن ممّا حُيّي به بالنظر إلى الأدب الإلهيّ الذي علّمنا إيّاه القرآن المجيد بقوله تعالى:(وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا)(النساء:٨٦.) فحكى ذلك بأوجز لفظ في العربية أداء لمعنى كلام إبراهيم. ولعلّ الأبلغية هو إيجاز جوابه بخلاف تحيّة الملائكة، حيث إنّ سلاماً مفعول لفعل مقدّر. ثمّ إنّ وقوع النكرة (سلام) مبتدأ لأجل تضمّنه معنى الكمال: سلام كامل تامّ عليكم.

وبما أنّ إبراهيم(عليه السلام) ظن أنّهم ضيوف قام بإكرامهم كما يقول:(فَمَا لَبِثَ): أي ما أبطأ (أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ)مشويّ. فقوله: (فَمَا لَبِثَ) دليل على أنّ العجل كان معدّاً لمن يجيء من الضّيوف، فقد كان(عليه السلام)معروفاً بالكرم وحسن الضيافة، وإلاّ فذبح العجل وتطهيره ثم نضجه على الحجارة المحميّة لا ينفكّ عن اللبث والتأخير.

٧٠. (فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوط):

لمّا قدّم إبراهيم (عليه السلام) الطّعامَ لهؤلاء المرسلين (الذين ظنّهم بشراً) ورأى أنّ أيديهم لا تمتدّ إلى الطعام، أنكرهم وأضمر منهم خوفاً كما يقول:(فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ) الملائكة (لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ): أي إلى الطّعام (نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً) دون أن يظهرها، فإنّ أهل ذلك الزمان كانوا إذا أكل بعضهم طعام بعض آمنه صاحب الطعام على نفسه وماله، وربما قيل في سبب خوفه منهم غير ذلك.(مجمع البيان:٥/٣٤١.). وفي هذا الحال التفت الملائكة إلى خوف إبراهيم منهم ونكرانه لهم فكشفوا له عن حقيقتهم (قَالُوا لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوط): أي لا تخف نحن لا نريد بك سوءاً وإنّما أُرسلنا لإهلاك قوم لوط.

وفي آية أُخرى:(إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ* لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً)(الذاريات:٣٢ـ٣٣.).

قيل: إنّ إبراهيم قدّم الطعام إلى الملائكة مع علمه بأنّهم ملائكة؛ وذلك لأنّهم بشّروه حين الورود كما مرّ في قوله سبحانه: (وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى)(هود: ٦٩ .) وعلى هذا فالعقل لم يكن مانعاً من أكل الملائكة الطّعام، وإنّما عُلم ذلك بالإجماع وبهذه الآية.(نقله الشيخ الطوسي في التبيان في تفسير القرآن:٦/٢٨.)

يلاحظ عليه: أنّ ما ذُكر إنّما يكون دليلاً لو كانت البشارة على وجه التفصيل كما في قوله: (لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ)(الحجر:٥٣.)، ولكنّه غير معلوم.

٧١. (وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ):

تبشير الرُّسل بأنّه يُرزق ولداً من زوجه العاقر

كانت امرأة إبراهيم(عليه السلام) تسمع ما يجري من حديث بين زوجها والملائكة والله يحكي ذلك بقوله: (وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ) واحتمل المفسّرون أنّ قيامها كان للخدمة (فَضَحِكَتْ): أي تعجبّا ممّا رأت وسمعت، أو سروراً بالأمن من الخوف، فلذلك رتّب عليه سبحانه البشارة فقال: (فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ) وعلى هذا التفسير يكون معنى الآية على النحو التالي:

١. (وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ) للخدمة.

٢. (فَضَحِكَتْ) ضحكاً لا يفارق التعجّب من البشارة .

٣. (فَبَشَّرْنَاهَا) بولدين.

ففي تفسير الآية وجهان:

١. في الآية تقديم وتأخير، وتقديرها: فبشّرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب فضحكت بعد البشارة، فعلى هذا فالضحك

يكون واقعاً في مورده بما قالت: (يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ).

ويؤيّد ما ذكرناه آية أُخرى: (قَالُوا لاَ تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلاَم عَلِيم * فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّة فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ).(الذاريات: ٢٨ ـ ٢٩.)

٢. أنّ «ضحكت» بمعنى حاضت، وأنّ الضَّحك ـ بفتح الضاد ـ هو الحيض، وعلى هذا فلا يحتاج الكلام إلى تقديم وتأخير، فإنّ ضحكها بمعنى رؤية دم الحيض، وصار ذلك دليلاً على قابليتها للحمل والإنجاب.

وعلى هذا يكون رؤية الدم مرفقة مع البشارة، لكنّه رهنُ ثبوت أنّ الضَّحك في لغة العرب بمعنى رؤية الدم .

٧٢. (قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ):

إنّ البشارة التي زفّتها الملائكة لامرأة إبراهيم(عليه السلام) بأن تلد إسحاق ويليه يعقوب وهي عجوز، أثارت عجبها ولذا(قَالَتْ) معربة عن تعجُّبها: (يَا وَيْلَتَى): أي واعجبا (أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ): أي امرأة مُسنّة (وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا): أي هَرِماً، والبَعْل: الزّوج. ولمّا كان مثلهما لا يُنجبان، وصفت البشارة بأن يأتيهما ولد بقولها: (إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ): أي يورث عجب الإنسان.

٧٣. (قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ):

لمّا سمعت الملائكة كلام المرأة ووقفوا على إعجابها نبّهوها بقولهم: (أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ) الذي لا يُعجزه شيء، والقادر على إجراء الأُمور على خلاف العادة إذا اقتضت الحكمة؟! هذا عموماً وأمّا بالخصوص فنبّهوا بقولهم: (رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ): أي شملت رحمة الله إبراهيم وأهل بيته بلطفه ورحمته وعنايته. وهذه البشارة هي من شآبيب رحمته وفضله وبركته عليكم(إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ)تعليل لما قبله من شمول رحمة الله وبركاته على أهل البيت، ببيان أنّه مصدر كلّ فعل محمود ومَنشأ كلّ كرم وجود يفيض من رحمته (حَمِيدٌ): أي محمود فعله (مَجِيدٌ): أي عظيم الشأن لا حدّ لنعمته.

٧٤ و ٧٥. (فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوط * إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ):

مجادلة إبراهيم(عليه السلام) مع الرُّسل في أمر لوط(عليه السلام)

كان إبراهيم(عليه السلام) تساوره نفسه خوفاً(فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ)وصار ذهابه مقروناً بالبشارة (وَجَاءَتْهُ الْبُشْرى) صار ذلك سبباً لأن يجادل الله في قوم لوط، وأمّا ما هي مجادلته، فلم تُذكر في الآية على وجه التفصيل وإنّما أُشير إليها في سورة العنكبوت، قال سبحانه: (وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ * قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ)(العنكبوت:٣١ـ ٣٢.)، ولكن الظاهر أنّ دائرة الجدال كانت أوسع من خوفه على لوط ابن أخيه، ففي رواية الصدوق عن أحدهما (عليهما السلام):«...فجادل إبراهيم عنهم وقال: (إِنَّ فِيهَا لُوطًا) قال جبرئيل (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا)فزاده إبراهيم فقال جبرئيل يا إبراهيم أعرض عن هذا».(نور الثقلين:٢/٣٨٥.)

وفي «الدر المنثور» قال: حين أخبروه أنّهم أُرسلوا إلى قوم لوط وأنّهم ليسوا إيّاه يُريدون، قال إبراهيم: أرأيتم إن كان فيهم خمسون من المسلمين؟ قالوا:إن كان فيهم خمسون لم نعذِّبهم. قال: أربعون؟ قالوا: وأربعون. قال: ثلاثون؟ قالوا: وثلاثون، حتى بلغ عشرة قالوا: وإن كان فيها عشرة؟ قال: ما قوم لا يكون فيهم عشرة فيهم خير.(الدر المنثور:٤/٤٥٤.)

والظاهر أنّ مورد الجدال كان في غير المسلمين، لأنّ إبراهيم(عليه السلام) أعلم من كلّ أحد بأنّ الله سبحانه لا يعذّب بريئاً بذنب المجرم، بل كان جداله في حقّ غير المسلمين، ويدلّ على ذلك وصف إبراهيم(عليه السلام)بقوله:(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ) وهذا مدح عظيم من الله تعالى لإبراهيم، حيث وصفه سبحانه بأوصاف ثلاثة لها صلة بمورد الآية:

١. لَحَلِيم: يدلّ على أنّ جداله كان في أمر يتعلّق بالحلم.

٢. أوّاه: فإنّ الحليم يتأوّه ويتوجّع إذا شاهد وصول الشدائد إلى الغير، فلمّا وقف أنّ نزول الملائكة لغاية إهلاك قوم لوط عظم حزنُه بسبب ذلك وأخذ يتأوّه.

٣. مُنيب: لأنّ مَن كان ذا شفقة عظيمة على الغير فإنّه يتوب ويرجع إلى الله في إزالة ذلك العذاب عنهم، أو تأخيره لعلّهم يتوبون عن عملهم.(لاحظ: تفسير الرازي:١٨/٣٠.)

يقول السيد الطباطبائي: إنّ قوله سبحانه: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ)مسوق لتعليل قوله في الآية السابقة: (يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوط) وفيه مدح بالغ لإبراهيم (عليه السلام)وبيان أنه إنّما كان يجادل فيهم لأنّه كان حليماً لا يعاجل نزول العذاب على الظالمين رجاء أن يأخذهم التوفيق فيصلحوا ويستقيموا، وكان كثير التأثّر من ضلال الناس وحلول الهلاك بهم مُراجعاً إلى الله في نجاتهم، لا أنّه (عليه السلام)كان يكره عذاب الظالمين وينتصر لهم بما هم ظالمون وحاشاه عن ذلك.(الميزان في تفسير القرآن: ١٠ / ٣٢٦ ـ ٣٢٧.)

٧٦. (يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُود):

لمّا استمرّ جدال إبراهيم النابع من كونه حليماً أوّاهاً، مع الملائكة، ولعلّه كان لأجل تأخير العذاب عن قوم لوط رجاء أن يؤمنوا، فتلحقهم رحمة الله، جاء الخطاب القاطع يأمره بالإعراض عن الجدال في أمرهم والاسترحام لهم، كما قال: (يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا) ثم علّل وجه ذلك بقوله: (إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ): أي نفذ القضاء بإهلاكهم بما لا مردّ له ولا تبديل. وقضاء الله على قسمين:

الأوّل: يكون معلّقاً على شرط. والثاني: إذا انتفى يكون المشروط منتفياً، كما هو الحال في رفع العذاب عن قوم يونس حيث كان القضاء بعذابهم مشروطاً بعدم إنابتهم، فلمّا انتفى الشرط انتفى المشروط.

والمورد من القسم الثاني، لأنّ القوم بلغوا من الفساد إلى حدّ لا يرجى معه أي صلاح أو فلاح منهم، كما يقول:(إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ) لا يُدفَع بدافع ولا يُبدَّل بمبدِّل (وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُود): أي غير مدفوع عنهم بدافع، كما قال تعالى: (وَاللهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)(الرعد:٤١.).

سورة هود: الآيات ٧٧ ـ ٨٠ (وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ ... أَوْ آوِي إِلَى رُكْن شَدِيد).

الآيات: السابعة والسبعون إلى الثمانين

(وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ * وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاَءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ * قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ * قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْن شَدِيد).

المفردات

سِيءَ بهم: وقع فيما ساءه وغمَّه بمجيئهم.

ذرعاً: أي طاقة، يقال: ضاق بالأمر ذرعاً، إذا صعب عليه احتماله. والذَّرْع: يوضع موضع الطاقة. والأصل فيه أن يذرع البعير بيديه في سيره ذَرْعاً على قَدْر سَعَة خَطوه، فإذا حملته على أكثر من طَوْقه، ضاق ذَرعه عن ذلك ومدّ عنقه ضعفاً عمّا حُمل عليه، ويقال: ما لي به ذَرْع ولا ذِراع، أي ما لي به طاقة.(انظر: تهذيب اللغة للأزهري: مادة «ذرع».)

عصيب: العصيب: الشّديد في الشَّرّ خاصّة. قال الشاعر:

فإنّك إن لم تُرضِ بَكْرَ بن وائل *** يكن لك يومٌ بالعراق عصيبُ

يُهرعون: يُسرعون. وعن مجاهد: هو مشيٌ بين الهرولة والعَدْو.

لا تخزون: لا تخجلوني.

رشيد: الرَّشيد: ذو الرُّشد والعقل.

التفسير

القصة الخامسة: قصة النبيّ لوط(عليه السلام)

مارس قوم لوط(عليه السلام) أقبح الأعمال وأشنعها بعد أن نضب ماء وجوههم إذ كانوا يقطعون الطريق على المارّة ويمارسون معهم عمليات السَّلب والشذوذ الجنسيّ، ويتعاطَون في مجالسهم كلَّ منكر ورذيلة وفساد.

وقد قام النبيّ لوط(عليه السلام) بمهمّته الرسالية على أتمّ وجه، حيث وعظ قومه ونهاهم عن ارتكاب الفواحش وخوّفهم من بأس الله تعالى وعذابه، ولكنّهم لم يأبهوا له ولم يرتدعوا، فقضت مشيئته سبحانه بتطهير الأرض من الفاسقين الذين أمعنوا في ارتكاب الفواحش ولم يبق بصيص من الأمل في انتشالهم من هذا الوحل، وهذا ما تذكره هذه المجموعة من الآيات.

٧٧. (وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ):

جرى القرآن في بيانه، لغرض الإيجاز، على حذف ما دلّ عليه المقام، والتقدير هنا: أنّ الملائكة فارقوا إبراهيم(عليه السلام) وتوجّهوا إلى قرية لوط(عليه السلام) (وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا): أي دخلوا بيته (سِيءَ بِهِمْ): أي وقع فيما ساءه وغمَّه بمجيئهم (وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا): أي ضاق ذرعاً بأضيافه، وهو كناية عمّن لم يجد حيلة في أمر يريده.

وعلى كلّ تقدير، فالآية تحكي عن تضايق لوط من ضيوفه، مع أنّ استقبال الضيف بوجه طلق وقلب مشروح، هي من شيَم الكرام وسيرتهم، وفي طليعتهم الأنبياء، ولكن لوطاً ساءه مجيء ضيوفه، وتبرّم بهم (وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ): أي شديد الشَّرّ. قاله في نفسه وتكلّم به في فكره، وما هذا إلاّ لخوفه من أن يعتدي قومه على ضيوفه، ويفضحوه فيهم باغتصابهم قهراً.

٧٨. (وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ):

كان هاجس اعتداء القوم على الضيوف يساور ذهن النبيّ لوط(عليه السلام)، وفي هذه الحال (وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ): أي يُسرعون في المشي كأنّما يساقون إلى أُمنيتهم، ولم تتعرّض الآية لذكر الغاية من إسراعهم ولكن أشارت إليها في قوله: (وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ): أي يعملون الفواحش مع الذكور، فصار ذلك قرينة على أنّهم أسرعوا إلى تلك الغاية الخبيثة. وأمّا من الذي أخبرهم بذلك، ففي «مجمع البيان»: لمّا رأتهم امرأة لوط صعدت فوق السطح فصفّقت، فلم يسمعوا، فدخّنت، فلمّا رأوا الدُّخان أقبلوا يُهرَعون.(مجمع البيان:٥/٣٥٠.)

استخدام أساليب لصرف القوم عن مقصدهم

لمّا واجه لوط(عليه السلام) بما عليه قومه، استخدم أساليب مختلفة في زجرهم عن التطاول على ضيوفه:

١. حاول أن يعيدهم إلى الفطرة السليمة ويرشدهم إلى الأسلوب الصحيح في إطفاء شهواتهم العارمة، فعرض عليهم نكاح بناته و(قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ). وقد اختلف المفسّرون في واقع هؤلاء البنات على وجهين:

الأوّل: أنّه عرض عليهم بناته لصلبه. والمراد أنّه دعاهم إلى التزوّج بهنّ، وفيه قولان: أحدهما: أنّه دعاهم إلى التزوّج بهنّ بشرط أن يقدموا الإيمان. والثاني: أنّه كان يجوز تزويج المؤمنة من الكافر في شريعته.(تفسير الرازي: ١٨ / ٣٣.)

لقد أراد مسّهن عن نكاح لا سِفاح، فحاشا نبيّ الله عن ذلك، لأنّ السِّفاح لا طهارة فيه أصلاً، وقد قال تعالى: (وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً)(الإسراء:٣٢.)، وهو يقول في المقام: (هُنَّ أَطْهَرُ)، وصيغة التفضيل مجرّدة عن التفضيل، لأنّ المراد أنّ النكاح طهر، دون غيره، مثل قول يوسف(عليه السلام):(السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ)(يوسف:٣٣.) أي هذا محبوب دون الآخر.

الثاني: أنّه أراد نساء أُمّته لأنهنّ كالبنات له، فإنّ كلّ نبيّ أب لأُمّته وأزواجه أُمّهاتهم. وهذا خيرة الرازي قائلاً بأنّ إقدام الإنسان على عرض بناته على الأوباش والفجّار أمر مستبعد لا يليق بأهل المروءة فكيف بأكابر الأنبياء؟!(تفسير الرازي: ١٨ / ٣٢ .) والله العالم.

٢. ألانَ كلامه معهم حتى ينصرفوا عن عزيمتهم فقال:(فَاتَّقُوا اللهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي) لأنّ التطاول عليهم على جانب الضدّ في التقوى أوّلاً، وإهانة لي واعتداء على كرامتي ثانياً .

يقول السيد الطباطبائي: قوله: (فَاتَّقُوا اللهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي)بيان للمطلوب، وقوله: (وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي)عطف تفسيري لقوله: (فَاتَّقُوا اللهَ)فإنّه (عليه السلام)إنّما كان يطلب منهم أن لا يتعرّضوا لضيفه لتقوى الله لا لهوى نفسه وعصبية جاهلية منه، ولم يكن عنده فرق بين ضيفه وغيرهم فيما كان يردعهم، وقد وعظهم بالرّدع عن هذا الذَّنب الشنيع، وألحّ على ذلك سنين متمادية.(الميزان في تفسير القرآن: ١٠ / ٣٤٠ .)

٣. حاول أن يستثير فيهم عقولهم إنْ بقي منها شيء، فقال: (أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ):أي ألا يوجد فيكم رجل ذو رُشد وعقل، فينهى عن المنكر ويزجر هؤلاء عن قبيح فعلهم ويردّ هؤلاء الخبثاء عن ضيوفي؟

وروي عن أحدهما (عليهما السلام): أنّ النبيّ لوطاً وضع يده على الباب ثم ناشدهم فقال: (فَاتَّقُوا اللهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي).(تفسير العياشي:٢/١٥٦ برقم ٥٤؛ البرهان في تفسير القرآن:٣/١٢٧.)

إلى هنا تمّت المحاولات الثلاث لحفظ ضيوفه عن تطاول القوم. وستوافيك المحاولة الرابعة بعد تفسير الآية التالية.

٧٩. (قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ):

تشير هذه الآية إلى جوابهم عمّا دعاهم إليه لوط(عليه السلام) من النكاح المباح، لذا (قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقّ): أي حاجة، وما ليس للإنسان فيه حاجة فكأنّه لا حقّ له فيه. ويحتمل أن يُراد بالحقّ الحظّ والنصيب دون الحقّ الشرعي أو العرفي، أي لا رغبة لنا فيهنّ لأنّهن نساء ولا ميل لنا إليهنّ.(الميزان في تفسير القرآن:١٠/٣٤٠.)

ثمّ أضافوا إلى ذلك قولهم:(وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ) وهذه الفقرة تكشف عن أنّ العمل المنكر كان متفشّياً فيهم ومألوفاً لديهم إلى درجة غدا واقعاً وينبغي أن تقام عليه موازين اجتماعية جديدة في مجتمعهم ولا ينكره أحد.

٨٠. (قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْن شَدِيد):

لوط(عليه السلام) يتمنّى أن يمتلك القدرة على دفع الفاسقين

هذه هي المحاولة الرابعة، حيث يتمنّى أن تكون له منعة وقدرة، أو جماعة وعشيرة، يَتقوّى بهما على هؤلاء المتجاوزين، فيدفعهم عن ضيوفه: (قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً): أي ليت لي قدرة أستطيع بها أن أدفع شرّكم عن ضيوفي (أَوْ آوِي إِلَى رُكْن شَدِيد) الرُّكن ما يُتقوّى به، والمعنى: لو كان لي مَن أستعين به في دفاعكم. وقيل: إنّ المراد بالرُّكن الشديد هنا، العشيرة. والتعبير بـ (لَوْ)الامتناعية لعلمه بعدم وجودها وأن القوم غارقون في المثليّة.

ومع هذه المحاولات المختلفة كان القوم مستمرين على غلوائهم ولم ينصرفوا عن فكرتهم الخبيثة.

بقي هنا سؤال، وهو: أنّ ظاهر قوله: (وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ) هو أنّ القوم أسرعوا إلى بيته والكلّ يأمل أن ينال حاجته منهم، فكيف يمكن لهؤلاء جميعاً نيل حاجتهم من ضيوفه، وهم قليلون بلا شكّ؟

الجواب: أُريد بقوله:(قَوْمُهُ) رؤساؤهم، وإنّما عبّر عنهم بذلك لمظاهرة القوم لهم، حتى يتمّ مرادهم، ويدلّ على ذلك أنّ لوطاً عرض بناته لنكاحهم وهن محدودات العدد، فكيف يقتنع بهنّ أهل القرية وهم جمع كثير. والحلّ هو أنّ الغاية نكاح الرؤساء المحدودي العدد لا كلّ من يعيش في القرية.

سورة هود: الآيات ٨١ ـ ٨٣ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ ... وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيد).

الآيات: الحادية والثمانون إلى الثالثة والثمانين

(قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيب * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيل مَنْضُود * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيد).

المفردات

فأسرِ: سِرْ بأهلك ليلاً.

بِقِطْع: بقسم من الليل. ويحتمل بعدما يمضي أكثر الليل وتبقى قطعة منه.

سجِّيل: طينٌ متحجّر.

منضود: صفة لسجّيل، أي نُضد بعضه على بعض، فيقع طائفة بعد طائفة.

مسوّمة: صفة لحجارة، أي مُعْلَمة، جعلت فيها علامات.

التفسير

لقد أتمّ النبيّ لوط(عليه السلام) الحجّة على المنحرفين الذين حاولوا أن يتطاولوا على ضيوفه، ولكنّهم لم يكترثوا له، وأصرّوا على القيام بأفعالهم المنكرة. ومن هنا استحقّوا العذاب الذي يطهّر الأرض من هذا الكيان المِسْخ، وهذه الآيات الثلاث ناظرة إلى إنجاء لوط(عليه السلام) وأهله، وإهلاك الآخرين من قومه.

٨١. (قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيب):

تبشير الضيوف لوطاً بإهلاك قومه لمّا رأى الملائكة ما لقيه لوط(عليه السلام) من قومه الفاسقين وما اعتراه من قلق وحزن من إصرارهم على فعل ما يريدون، بشّروه بما في هذه الآية، وأخبروه بالأمر الإلهي القاضي بإهلاكهم وقطع دابرهم، كما حكى سبحانه ذلك عنهم بقوله: (قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ) أُرسلنا لإهلاك قومك فلا تغتمّ، فإنّهم (لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ): أي لا ينالونك بسوء أبداً.

روي عن أبي جعفر]الباقر[(عليه السلام)أنّه قال:... وتدافعوا على الباب وكسروا باب لوط وطرحوا لوطاً ؛ فقال له جبرئيل: (إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ)فأخذ كفّاً من بطحاء فضرب بها وجوههم وقال: شاهت الوجوه، فعمي أهل المدينة كلهم.(الكافي: ٥ / ٥٤٦، برقم٥.)

ثمّ إنّهم أوصوا لوطاً بالأُمور التالية:

١. (فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ): أي أُخرج أنت وأهلك في ظلمة الليل كي لا يراكم أحد من القوم.

٢. (وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ): أي لا ينظر أحد منكم إلى ما وراءه من القرية. وهذا كما يقول القائل: امضِ لشأنك ولا تعرّج على شيء. وعلى هذا فيكون تأكيداً لما سبق.

والظاهر أنّ المراد به السُّرعة في المشي لقرب نزول العذاب، والالتفات إلى هذا الطرف وذاك يورث التأخير.

٣. (إِلَّا امْرَأَتَكَ) مستثناه من الأهل في قوله:(فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ)، فإنّ العذاب نازل بها وحالها في ذلك حال القوم، كما قال: (إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ). و التعبير بالماضي في قوله تعالى:(مَا أَصَابَهُمْ) لتأكيد وقوع العذاب.

ثمّ إنّ الملائكة حدّدوا وقت إهلاك القوم قائلين:(إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ): أي يبدأ العذاب من مطلع الفجر وينتهي بشروق الشمس، ويدلّ على امتداد العذاب بين الطلوعين قوله تعالى:(فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ)(الحجر:٧٣.)، وقوله تعالى:(وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ)(القمر:٣٨.).

قوله تعالى: (أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ) حكاية ما قاله الملائكة للنبيّ لوط. قيل: وفيه تسلية له (عليه السلام).

٨٢. (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ):

في بيان كيفية إهلاكهم

قوله تعالى:(فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا) أُريد من الأمر العذاب. ويحتمل أن يراد وقت عذابنا. وهذه الآية تستعرض شيئاً من هذا العذاب الذي حلّ بهؤلاء، وأنّهم كيف هلكوا به، وذلك ببيان أمرين:

١. قلب القرية أسفلها أعلاها، كما يقول:(جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا)ولعلّها كانت بحدوث خسف في أرضهم على نحو دفنت القرية فيها فصار أعلاها أسفلها.

٢. الإمطار بالحجارة، كما يقول:(وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ)ولعلّهم عندما كانوا يحاولون الخروج من بيوتهم يتبعهم الإمطار بالحجارة التي عبّر عنها سبحانه بقوله:(حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ): أي من طين متحجّر.

وبما أنّ الحجارة الصغيرة لا تقتل الإنسان وصفها سبحانه بقوله:(مَنْضُودٍ): أي نُضد وتراكب بعضه فوق بعض فينزل طائفة بعد طائفة، ولأجل هذا التراكب والتواتر عبّر عنه في موضع آخر بقوله:(وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ) (الشعراء:١٧٣.)

والحجارة إذا تقاطرت وترتبت وتراكمت تقتل الإنسان شرّ قتلة.

ويدلّ بعض الآيات على أنّ العذاب بُدئ بالصيحة كما يقول سبحانه: (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ * فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا).(الحجر: ٧٣ ـ ٧٤.)

٨٣. (مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ):

قوله تعالى:(مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ): أي الحجارة كانت مُعْلَمة، وأمّا ما هي العلامة وما هي الغاية منها، فالآية ساكتة عنهما، لكن قال بعضهم: كان في هذه الأحجار علامات تدلّ على أنّها ليست كسائر الأحجار العادية، بل هي خاصة لنزول العذاب الإلهيّ لئلاّ تختلط مع الأحجار الأُخرى. وقال آخرون: إنّ هذه الأحجار لم يكن لها شبه مع أحجار الأرض بل تدلّ مشاهدة وضعها على أنّها أحجار سماوية وقد نزلت إلى الأرض وكانت خارجة عنها.

قوله تعالى:(وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ) يتضمّن وعيداً لكفّار مكّة، فليحذروا من أن يُصيبهم مثلُ ما أصاب قوم لوط من الهلاك والدمار إن هم أصرّوا على تكذيب النبيّ محمد(صلى الله عليه وآله وسلم).

أقول: إنّ عذاب الله ليس ببعيد عن الظالمين في كلّ عصر وقرن، ونحن إذ نُجري القلم على هذه الصفحات، تتوارد إلى أسماعنا

أنباء المآسي والآثار الكارثية للحرب العدوانية الظالمة التي شنّها(التحالف السُّعودي) على شعب فقير أعزل (وهو الشعب اليمنيّ العزيز)، وصدر القرار بإشعال فتيلها من (واشنطن) في شهر آذار من شهور سنة (٢٠١٥م)، حيث إنّ الطائرات الحربية تقصف البيوت والمنشآت الحيوية والمرافق التعليمية والصحّية، ولم تسلم من حُممها حتى المعالم والآثار التاريخية في هذا البلد العريق في حضارته. ولم يكد يمضي يوم إلاّ وتؤلم ضمير كلّ إنسان حرّ، مناظر الدماء والدّمار، وأشلاء الضحايا من النساء والأطفال والشيوخ الأبرياء. دع عنك ما سبّبه الحصار الخانق على هذا البلد من معاناة الإصابة بمرض (الكوليرا) وانتشار المجاعة بين قطّاعات كبيرة من اليمنيين، الأمر الذي أنذرت الأُمم المتحدة من نتائجه الكارثية مرّة بعد مرّة، ولكن (خدّام الحرمين الشريفين!) قد صُمّت آذانهم، فلا يقدّرون لإنسان قيمة ولا لجار حرمة.

والحقّ أنّهم ما نقموا على الشعب اليمني، وصبّوا عليه هذه الأهوال، إلاّ لأنّه أراد الحرية والعيش بكرامة، واعتزم التحرّر من الهيمنة الأمريكية ومن تسلّط الحكام الظلمة، وسعى إلى تشكيل حكومة لبلاده نابعة عن إرادة الشعب، تتولّى إدارة البلد بلا ضغوط وتدخّل من الدول الخارجية.

كلام في الشذوذ الجنسي

لقد جرت سنّة الله سبحانه على استمرار وجود هذا الإنسان على وجه الأرض إلى يوم القيامة، وهذا لا يتأتّى إلاّ من خلال ميل الجنس البشري إلى الجنس الآخر، والارتباط معه بعقد الزواج المعروف. وهذا أمر فطريّ تعارف عليه البشر.

وأمّا إطفاء الغريزة الجنسية عن طريق الجنس الموافق، فهو يضادّ حكمة خلق الذكر والأُنثى، ويؤدّي بالنّسل البشري إلى الانقطاع، مضافاً إلى ما فيه من آثار نفسية وصحّية سيّئة، كشف عنها العلم، أخطرها مرض عوز أو نقص المناعة المكتسبة (الإيدز) الذي يهاجم فيه (فيروس) هذا المرض كريات الدم البيضاء، ممّا يؤدّي إلى تحطيم الوظيفة الطبيعية في جهاز المناعة. ويعتبر الاتصال الجنسي بصورة أساسية السبب الرئيسي لانتقال هذا الفيروس، ويكون احتمال الانتقال أكبر في اللّواط (الشذوذ الجنسي)، كما يؤدّي الزّنا دوراً كبيراً في انتقال (الفيروس)، وغالباً ما يقود هذا المرض في نهاية المطاف إلى الموت.(انظر: الموسوعة العربية العالمية:٣/٤٥٧.)

والعجب أنّ بعض المفكّرين في الدول الغربية ومجالس التشريع فيها (كمجلس العموم البريطاني)(أقرّ هذا المجلس في عام (١٩٦٧م) حق ممارسة هذه الرذيلة، الّتي تعبّر عن انحطاط النفوس، وانحراف الطبائع.)، قد أضفَوا على هذه الفاحشة النكراء الصبغة الشرعية والقانونية، ووضعوا لذلك حدوداً وقوانين، وهم في الوقت نفسه يدّعون التقدّمية، ويتّهمون الآخرين بالتأخّر والوحشية.

وعلى هذا يركّز لوط(عليه السلام) في خطابه لقومه:(أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ)،(الشعراء:١٦٥ـ ١٦٦.)فالغريزة الجنسية نعمة من الله سبحانه لكلّ إنسان، ليصون بها نسله ووجوده في المجتمع، وقد جعل الله هذه الغريزة في الزّوجين المتخالفين في الجنس، فإعمالها في الجنس الموافق، انحراف عن الفطرة وصرف للنعمة في غير موردها، والّتي يعبّر عنها بالإسراف، يقول سبحانه:(إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ).(الأعراف:٨١.)

ويظهر من قوله تعالى: (مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَد مِنَ الْعَالَمِينَ)(الأعراف:٨٠.) أنّه ما نزا ذكر على ذكر قبل قوم لوط، وربما يُفسَّر قوله بأنّهم كانوا يفعلون ذلك بالغرباء لا بغيرهم، وهؤلاء الذين كانوا يرتكبون تلك الجريمة من قوم لوط وصفهم نبيُّهم بقوله: (بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ): أي متجاوزون للحدود الّتي تقرّها العقول والشرائع، وقوله: (بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ) إلى غير ذلك من التنديدات الواردة في الكتاب العزيز.

إنّ عدم نجاح لوط(عليه السلام) في ردعهم عن اقتراف هذا العمل الشائن، يكشف عن تحوّله إلى ظاهرة اجتماعية خطيرة، وإلى مرض وبيل سرى في نفوسهم إلى حدٍّ، لم يَعُد يُجدي معه أيّ علاج سوى استئصال تلك الأنفس الخبيثة الملوّثة بهذه الأرجاس.

سورة هود: الآيات ٨٤ ـ ٨٦ (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ ... وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظ).

الآيات: الرابعة والثمانون إلى السادسة والثمانين

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَه غَيْرُهُ وَلاَ تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْر وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْم مُحِيط * وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ * بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظ).

المفردات

الميزان: أُريد ما يوزن به بقرينة (الْمِكْيَالَ)حيث إنّه بمعنى ما يُكال به .

تبخسوا: البَخْس نقص الشيء على سبيل الظلم. قال الخليل: البخس هو الظلم، كما تقول: تبخس أخاك حقّه، تنقصه.(كتاب العين:٤/٢٠٣، مادة «بخس».) وسيوافيك في تفسير الآية أنّه أعمّ من التطفيف.

تَعثَوا: تُفسدوا.

بقيّة اللّه:أي ما يبقى لكم بعد إيفاء الكيل والميزان من الرّزق الحلال.

التفسير

القصّة السادسة: قصّة نبيّ الله شعيب(عليه السلام)

يُعدّ النبيّ شعيب(عليه السلام) أحد أنبياء الله الذين أُرسلوا لنشر عقيدة التوحيد، ومكافحة الفساد، وقد تقدّم ذكره في سورة الأعراف في بضع آيات.(لاحظ: الأعراف:٨٥ ـ ٩٢.) وأمّا المقام فقد جاء ذكره ضمن اثنتي عشرة آية وفيها حواره مع قومه ببيانات مختلفة، كما سيوافيك.

ويظهر من قوله سبحانه:(وَمَا قَوْمُ لُوط مِنْكُمْ بِبَعِيد)(هود:٨٩.) أنّ مسكنهم كان قريباً من مسكن قوم لوط، وقد عبّر عنه سبحانه هنا وفي مواضع أُخرى بمدين وقال:(وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْم يَعْقِلُونَ * وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا)(العنكبوت:٣٥ـ٣٦.)، و«مَدْيَن» الآن قريبة من تبوك. وربما يقال: إنّه اسم للقبيلة، فيدلّ على أنّ قبيلته كانت من العرب، ولذا عُدّ(عليه السلام) من أنبياء العرب الذين بعثهم الله سبحانه لهداية الناس، وقد روي عن الإمام الصادق(عليه السلام) قوله:«لم يبعث الله عزّ وجلّ من العرب إلاّ خمسة: هوداً وصالحاً وإسماعيل وشعيباً ومحمداً خاتم النبيين(صلوات الله عليهم)، وكان شعيب بكّاءً».(بحار الأنوار:١٢/٣٣٥.)

ولعلّ هذا المقدار يكفي في التعرّف عليه، فلندخل في تفسير الآيات.

٨٤. (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَه غَيْرُهُ وَلاَ تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْر وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْم مُحِيط):

هذه الآية مع ما يليها تجمع أُصول دعوة النبيّ شعيب، وإليك توضيحها:

يشترك جميع الأنبياء في أُصول معيّنة كالدعوة إلى التوحيد ونبذ الشِّرك، والإيمان بيوم القيامة، ومع ذلك فإنّ كلّ نبيّ قد امتازت

دعوته بصفة تتعلّق بالفساد المستشري في مجتمعه، وإليك أُصول دعوة شعيب التي ذكرتها هذه المجموعة من الآيات:

١. الدعوة إلى التوحيد
قال سبحانه: (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا) عطف على ما سبق من قوله سبحانه:(وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ)﴿ هود:٢٥.﴾ والمعنى: أرسلنا شعيباً إلى أهل مدين، إذا كان اسماً للمحلّ، فيكون مثل قوله: (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ)﴿ يوسف: ٨٢ .﴾، دونما إذا كان للقبيلة فإنّه لا يحتاج إلى التقدير، ووصفه بالأخ لكونه منهم. ويكفي في الوصف به وجود صلة الرّحِم بينه وبينهم ـ وسيأتي قوله: (وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ)﴿ هود:٩١.﴾ ـ فدعاهم إلى نبذ الشِّرك، فـ(قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَه غَيْرُهُ)، وهذا الأصل يشترك فيه الأنبياء كافّة.
٢. حفظ الحقوق في المعاملات
إنّ حفظ حقوق الآخرين في التعامل من شُعَب القسط الذي أُمر الأنبياء بتقريره، قال سبحانه:(لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ)﴿ الحديد:٢٥.﴾، وقال في المقام: (وَلاَ تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ): أي لا تنقصوا ما تَكيلون وما تَزِنون. ويظهر من قوله سبحانه في سورة «المطفّفين» أنّ هذه الخصيصة السيّئة كانت متفشّية عند قريش، قال تعالى: (وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ).﴿ المطففين:١ـ٣.﴾ ثمّ إنّه علّل نهيه عن نقص المكيال والميزان بوجهين: أ. (إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْر) وأُريد (بِخَيْر) المال لقوله تعالى: (إِنْ تَرَكَ خَيْرًا)﴿ البقرة:١٨٠.﴾، والمعنى: أنا أشاهد فيكم المال والثروة والخصب فلا حاجة لتنقيص المكيال والميزان والاستيلاء على أموال الناس بحيلة رذيلة. ب. ارتقى في تعليل النهي بإخافتهم من عذاب الله، وقال: (وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْم مُحِيط)، والإحاطة صفة العذاب، أي محيط عذابه،لا ينجو منه أحد. ووَصْف اليوم به من باب المجاز. قال الشريف الرضيّ(رحمه الله): وهذه استعارة من وجهين: أحدهما: وصف اليوم بالإحاطة، وليس بجسم فيصحّ وصفه بذلك. والوجه الآخر: أنّ لفظ محيط هاهنا كان يجب أن يكون من نعت العذاب فيكون منصوباً فجعلَه سبحانه من نعت اليوم فجاء مجروراً... والوجه في نقل نعت العذاب إلى نعت اليوم أنّ العذاب لمّا كان واقعاً في ذلك اليوم كان ذلك اليوم كالمحيط به، لأنّه ظرفٌ لحلوله، ووقتٌ لنزوله.﴿ انظر: تلخيص البيان في مجازات القرآن:٦٤.﴾ ٨٥. (وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ):
الأمر بإيفاء المكيال والميزان
الفرق بين هذه الآية وسابقتها أنّ شعيباً(عليه السلام) نهاهم في السابقة عن نقص المكيال والميزان، وأمّا في هذه الآية فأمرهم بإيفاء المكيال والميزان بالقسط. والتحرّز عن النقص وإن كان ملازماً لإيفاء المكيال والميزان، لكن لمّا كانت هذه العادة الخبيثة عريقة فيهم فاحتاج إلى التكرار لكن بتفنّن، ولا يُعدّ مثله عيباً. ولذلك نرى أنّه سلك في هذه الآية مسلك التدرّج، فأمر أوّلاً بإيفاء المكيال والميزان بالعدل، وقال:(وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ). ثم ارتقى فنهاهم عن شيء أوسع من ذلك، وهو أكل أموال الناس ولو من غير هذا الطريق، وأشار إليه بقوله:(وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ) فإنّ البخس يشمل النقص والعيب، وربما يكون الرجل موفياً في الكيل والوزن، لكنّه ربما يبيع الرّديء مكان الجيّد، والمعيب مكان الصحيح.

ثم ارتقى إلى النهي عن الفساد على وجه الإطلاق وقال: (وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ) كقطع الطريق وتهديد الأمن وقطع الشجر وقتل الحيوان وغيره. وهذا النوع من البيان في آيتنا هذه من أساليب الحكمة التي تسبِّب التأثير في المخاطب، وهي تدلّ على أنّ النبيّ شعيباً(عليه السلام) قد بلغ الغاية في أمر التبليغ، ويتّضح ذلك بتفسير الآية التالية.

٨٦. (بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظ):

ما هو المراد من بقيّة الله؟

بعدما نهاهم(عليه السلام) عن التنقيص وأمرهم بإيفاء الكيل والوزن؛ بل نهاهم عن مطلق الإفساد، أخذ يُذكّرهم بأنّكم إذا كِلتم أو وزنتم حسب القسط والعدل، ما أبقى الله لكم من الحلال بعد إيفاء الكيل والوزن خير من الزيادة الحاصلة من التطفيف والبخس، فالربح الحلال الحاصل للبائع هو (بَقِيَّةُ اللهِ) وهو (خَيْرٌ لَكُمْ) من سرقة أموال الناس بحيلة رذيلة، وكأنّ هذا الربح بقية إلهية هداكم الله إليها من طريق فطرتكم، وهو أفضل بكثير من التطفيف(إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ): أي مصدّقين صحّة قولي.

قوله: (بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ)كلمة جامعة لكلّ ما ينتسب إلى الله سبحانه، وتطلق على الشيء النفيس المبارك ولذلك يوصف قائم آل محمد الإمام المهدي (عج) ببقية الله في أرضه. نقل أحمد بن علي الطبرسيّ في «الاحتجاج» عن أمير المؤمنين (عليه السلام)في حديث: «هم بقية الله ـ يعني المهدي (عليه السلام) ـ يأتي عند انقضاء هذه النظرة فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً».(الاحتجاج: ١ / ٢٥٢.)

وروى الصَّدوق بإسناده عن محمد بن مسلم الثّقفيّ، قال: سمعت أبا جعفر محمد بن علي الباقر(عليه السلام)يقول: «القائم منّا منصور بالرُّعب، مؤيّد بالنّصر... (إلى أن قال): فإذا خرج أسند ظهره إلى الكعبة، واجتمع إليه ثلاثمئة وثلاثة عشر رجلاً، وأوّل ما ينطق به هذه الآية: (بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)، ثم يقول: أنا بقيّة الله في أرضه وخليفته وحجّته عليكم، فلا يسلِّم عليه مسلِّم إلاّ قال: السلام عليك يا بقيّة الله في أرضه».(كمال الدين: ١ /٣٣٠ـ ٣٣١، برقم ١٦.)

قال السيد الشهيد محمد بن محمد صادق الصدر: والمراد من هذا اللقب، كون المهدي(عليه السلام) هو الباقي من خطّ الأنبياء والأولياء والصالحين، الذين مهّدوا لوجوده، وضحّوا من أجل تطبيق عدله، فأصبح هو النتيجة الطبيعية الكبرى لجهودهم، والقيمة العليا لأقوالهم وأعمالهم، وإنّما نُسبت البقيّة إلى الله مباشرة باعتبار كون هذا الخطّ المقدّس على طوله، خطّ ممثِّل لعدل الله ودعوته الحقّة، وهو ـ عزّ وجلّ ـ مؤسّسه ومخطّطه من أجل تربية البشرية، والسَّير بها نحو الكمال.(انظر: الجزء الثالث من موسوعة الإمام المهدي، تاريخ ما بعد الظهور:٢٥٨ـ٢٦٠.)

ثم قال تعالى: (وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظ): أي ما يرجع إليّ هو تبليغ الرسالة وإرشادكم، لا إكراهكم على ما أقول، أو لا قدرة لي على منعكم من هذا العمل القبيح.

وهذا هو منطق سائر الأنبياء، قال تعالى: (فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظ)(الأنعام:١٠٤.) فليس عندي قدرة أحفظكم بها عن الرذائل أو أعاقبكم عليها.

روى الكليني بإسناده عن جابر] الجعفي[عن أبي جعفر]الباقر[(عليه السلام)قال: «كان أمير المؤمنين (عليه السلام)بالكوفة عندكم يغتدي كلّ يوم بكرةً من القصر فيطوف في أسواق الكوفة سوقاً سوقاً ومعه الدرّة على عاتقه، وكان لها طرفان وكانت تسمّى «السَّبيبة» فيقف على أهل كلّ سوق فينادي: يا معشر التجّار! اتقوا الله عزّوجلّ. فإذا سمعوا صوته (عليه السلام)ألقوا ما بأيديهم وارعوا إليه بقلوبهم وسمعوا بآذانهم، فيقول (عليه السلام): قدّموا الاستخارة وتبرّكوا بالسهولة واقتربوا من المبتاعين

وتزيّنوا بالحلم وتناهَوا عن اليمين وجانبوا الكذب وتجافوا عن الظلم وأنصفوا المظلومين ولا تقربوا الرِّبا وأوفوا الكيل والميزان: (وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ)فيطوف في جميع أسواق الكوفة، ثمّ يرجع فيقعد للناس».(الكافي: ٥ / ١٥١، باب آداب التجارة، برقم٣.)

إلى هنا تمّ تبليغ شعيب قومه إلى أُصول دعوته، وفي الآيات التالية سندرس جواب قومه له وردّة فعلهم على ذلك.

سورة هود: الآيات ٨٧ ـ ٩٠ (قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ... إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ).

الآيات: السابعة والثمانون إلى التسعين

(قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لاَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَة مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ * وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوح أَوْ قَوْمَ هُود أَوْ قَوْمَ صَالِح وَمَا قَوْمُ لُوط مِنْكُمْ بِبَعِيد * وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ).

المفردات

الحليم: الحِلم: صفة تقتضي تحمّل الأذى والصفح عن الإساءة، وبعبارة أُخرى: الحليم، هو الشخص الذي لا يتعجّل.

الرَّشيد: العاقل الذي لا يقدم إلاّ إذا استبان له الرُّشد.

أُخالفكم: أعمل خلاف ما نهيتكم عنه.

أُنيب: الإنابة: الرجوع إلى الله تعالى.

لا يجرمنّكم:لا يكسبنّكم، قال الراغب: الجَرْم: قطع الثمرة من الشجرة، ثم استُعير لكلّ اكتساب مكروه.

شِقاقي: خلافي ومعاداتي

التفسير

٨٧. (قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لاَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ):

جواب قوم شعيب له وردّه عليهم

كان قوم شعيب متوغّلين في العقيدة الفاسدة المنحرفة، كما كانوا غارقين في الظلم والفساد الاقتصادي، وقد أشار النبيّ شعيب إلى كلا الأمرين:

١. الفساد العَقَدي

٢. الفساد الاقتصادي

ولمّا كان القوم متمسّكين بأهداب تقاليد الآباء، رفضوا دعوة شعيب في كلا المجالين، ولذلك (قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ) بهذين الأمرين:

١. (أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا) مع أنّ عبادة الآلهة من التقاليد الموروثة، فرفضُها رفضٌ لأصالتنا وقوميّتنا.

٢. (أَوْ) تصدّنا عن(أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ) من التنمية والاستغلال بحذق وحيلة. ونهيك يخالف حرّيتنا، كما يشير إليه قولهم: (مَا نَشَاءُ) .

وأمّا أنّه كيف صارت صلاته سبباً لهذين الأمرين، فسيوافيك بيانه.

ثمّ إنّهم حاولوا صرفه عن الدعوة بشيء من المداهنة وذلك بإثبات وصفين له، قائلين: (إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ): أي أنّه يقبح بك وأنت الحليم الرشيد أن تندفع إلى إبداء مثل هذا الأمر الذي يدلّ على السَّفَه والطيش. وكيف تأمرنا بترك تقاليدنا التي ورثناها عن الآباء؟ وكيف تسلبنا حريتنا في التصرّف بأموالنا كيف نشاء، وقد رسخ حلمك وتكامل رشدك؟(مجمع البيان: ٥ / ٣٥٨.)

وأمّا ما هو السبب لنسبة دعوة شعيب إلى الصلاة (أَصَلاَتُكَ) مع أنّ النبيّ شعيباً قد نسب دعوته في كلا الأمرين إلى الله سبحانه، فيمكن بيانه بأحد وجهين:

الأوّل: أنّ نسبتهم ذلك إلى الصلاة من باب السخرية والتهكُّم؛ لأنّ الصلاة كانت عملاً بارزاً في حياة شعيب(عليه السلام)، فقد روي أنّه كان أكثر الأنبياء صلاة، وكانت صلاته عند قومه أشبه بأفعال المجانين، فلأجل هذا نسبوا دعوته إلى صلاته، تهكُّماً وسخرية، أي أنّ عملك هذا الذي تمتاز به، يأمرك ويجعلك مأموراً لأن تحملنا على أمرين هما: ترك عبادة الآلهة، وترك تنمية أموالنا كما نشاء.

الثاني: أنّ دأب شعيب(عليه السلام) واستمراره على الصلاة والتوجُّه إلى عبادة الله تعالى طول حياته وما يتضمّن ما يتلوه المصلّي في صلاته، كان يجسّد ـ عمله هذاـ في ذهن هؤلاء هذين الأمرين، وأنّه يجب رفض عبادة غير الله أوّلاً، والانتهاء عن الظلم والغشّ والاحتيال في تنمية الأموال ثانياً، ولذلك ورد في الشريعة الإسلامية قوله تعالى:(إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)(العنكبوت:٤٥.). وربّما يفسَّر: أدينك يأمرك بترك دين السلف؟(مجمع البيان: ٥ / ٣٥٨.)

ثمّ إنّ محتوى دعوته يدلّ على أنّ رسالة الأنبياء لا تنحصر بالدعوة إلى إقامة الشعائر، بل تشمل أيضاً الحياة الاجتماعية، فهي تحدّ من حرية الإنسان في تصرّفاته، وتقيّدها بعدم الاعتداء على غيره، وتحجُر عليه كلّ عمل يستلزم الإضرار بالفرد أو الجماعة، وأوضح دليل على ذلك قوله تعالى: (وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ).

كما أنّ هذه الآية دلّت على أنّ أشدّ الناس عداوة للأنبياء والمصلّين هم الذين يجمعون المال بالخديعة والاحتيال، ويتصرّفون في مقدّرات الناس على أهوائهم، تماماً كما تفعل شركات الاستغلال والاحتكار.(التفسير الكاشف:٤/٢٦٠، بتصرّف.)

٨٨. (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَة مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ):

احتجاج شعيب (عليه السلام) على قومه بوجوه ستة

لمّا نسب القوم دعوة النبي شعيب(عليه السلام) إلى عمله وهي صلاته، جاء البيان القرآني ليردّ عليهم تلك المزعمة بأنّه مأمور من ربّه سبحانه، واحتجّ عليهم بوجوه ستة:

الأوّل: (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَة مِنْ رَبِّي): أي على بصيرة منه تعالى ـ كما مرّ بيانه ـ فالآية تثبت أنّ دعوته دعوة إلهية لا تمتّ إلى غير الله تعالى بصلة.

الثاني:(وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا) أراد بذلك أنّه نال الرزق الحسن عن طريق الحلال، بدون تطفيف مكيال ولا تنقيص ميزان، ولا بخس لحقّ أحد من الناس. وجواب قوله: (إِنْ كُنْتُ) محذوف وهو «لا يسعني مع هذه النِّعم أن أخون في وحيه وأُخالفه في أمره ونهيه».

الثالث:(وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ) بما أنّ القوم قد ذهب بهم الوهم إلى أنّ النبيّ شعيباً إنّما ينهاهم عن سلوكهم المنحرف بتنقيص المكيال والميزان لغاية أن يصدّ الناسَ عنه حتّى يرتكبه هو خفاء، دفع عنه هذا الوهم، وقال: (وَمَا

أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ) مائلاً (إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ).

قال الزّمخشريّ: يقال: خالفني فلان إلى كذا إذا قصده وأنت مولّ عنه، يعني أن أسبقكم إلى أعمالكم التي نهيتكم عنها لأستبدّ بها دونكم.(تفسير الكشّاف:٢/٢٣٠.)

وبعبارة أُخرى: ما أُريد بما نهيتكم عنه أن أمنعكم عنه، وفي الوقت نفسه أن أفعله، فلم أكن لأنهاكم عن شيء وأنا فاعله.

وفي معناه قال الشاعر:

لا تَنهَ عن خُلُق وتأتِيَ مثلَهُ *** عارٌ عليك ـ إذا فعلتَ ـ عظيم

(أورده عبد القادر البغدادي في «خزانة الأدب:٨/٥٦٧» ضمن قصيدة حكمية لأبي الأسود الدؤلي، ونسبه غيره كالأصفهاني في «الأغاني:١٢/١٨٨» إلى المتوكّل اللّيثيّ الكنانيّ.)

الرابع: (إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ): أي لا أُريد في دعوتي هذه إلاّ إنقاذ المجتمع من الوثنية والفساد الاقتصادي، دون النفع الشخصيّ، وكأنّه تأكيد للمقطع السابق أي لا أنهاكم عن شيء وأنا فاعله، وإنّما أُريد صلاح المجتمع. والفقرة أفضل دليل على أنّ من أهمّ أهداف الأنبياء، إصلاح المجتمع، ليس في مجال العقيدة وحسب، بل في مجال السلوك وطريقة التعامل، من خلال مراعاة موازين الحقّ والعدل وتطبيقها على جميع أفراده، ومكافحة عوامل الاستئثار والاستغلال، وأمّا أنّهم هل وُفّقوا لذلك أو لا؟ فهو موكول إلى توفيق الله سبحانه كما يقول:(وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ) في تبليغ رسالتي لا على حولي وقوّتي (وَإِلَيْهِ أُنِيبُ): أي أرجع في أُموري كلّها إليه تعالى.

فإن قلت: أليس ما ذكره النبيّ شعيب (عليه السلام)من قوله: (إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ)من باب تزكية المرء نفسه، وقد قال سبحانه: (فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى)؟(النجم: ٣٢.)

قلت: إن تزكية المرء نفسه لأجل الافتخار والتقدّم على الغير، أمر قبيح، وأمّا إذا كان الإنسان ذا مسؤولية كبيرة كهداية الناس وصدّهم عن المنكر، فاللازم التعريف بنفسه حتّى يقف المخاطب على مقامه ومنصبه حتّى يتبعه فالإخفاء هنا يوجب عدم تحقّق الغاية الّتي لأجلها صار ذا مسؤولية، يقول الإمام أمير المؤمنين علي (عليه السلام): «وَلَوْلاَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ مِنْ تَزْكِيَةِ الْمَرْءِ نَفْسَهُ، لَذَكَرَ ذَاكِرٌ فَضَائِلَ جَمَّةً، تَعْرِفُهَا قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلاَ تَمُجُّهَا آذَانُ السَّامِعِينَ».(نهج البلاغة: الرسائل برقم ٢٨.)

٨٩. (وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوح أَوْ قَوْمَ هُود أَوْ قَوْمَ صَالِح وَمَا قَوْمُ لُوط مِنْكُمْ بِبَعِيد):

الخامس: لمّا خالف شعيب (عليه السلام)الرأي العام وندّد بقومه لعبادتهم الأوثان، ونهاهم عن تنمية الأموال عن طريق الغشّ والحيلة، صار ذلك سبباً لتأجيج نار العداء بينه وبين القوم. ومن المعلوم أنّ العداء يصنع حجاباً بين عقل الإنسان ومنطق العدوّ، فربما يرفض منطق العقل الصحيح، للعداء الموجود في ذهنه، فهنا يذكّر شعيب(عليه السلام) قومه بقوله: (وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ): أي لا يكسبنّكم (شِقَاقِي) خلافي وعداوتي المركوزة في نفوسكم بسبب ما أدعوكم إليه (أَنْ يُصِيبَكُمْ) عذاب الاستئصال(مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوح أَوْ قَوْمَ هُود أَوْ قَوْمَ صَالِح): أي كما أصاب قوم نوح بالغرق، وقوم هود بالرّيح العقيم، وقوم صالح بالصّيحة (وَمَا قَوْمُ لُوط)الذين أُهلكوا بالخسف (مِنْكُمْ بِبَعِيد)فديارهم قريبة من دياركم، فاعتبروا بما جرى عليهم. ويحتمل أن يكون المقصود البُعد الزّماني، أي أنّهم قريبون منكم زماناً، لأنّ إهلاك قوم لوط أقرب الإهلاكات التي عرفوها، إلى زمان شعيب.

٩٠. (وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ):

السادس: لمّا هدّدهم النبيّ شعيب (عليه السلام)بعذاب الاستئصال الذي حلّ بالأقوام الغابرة، فتح لهم باب الرحمة إذا أرادوا

دخوله، وهو يحصل بأمرين:

١. قال لهم: (وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ) بالإقلاع عمّا كانوا غارقين فيه.

٢. (ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ) بالعزم على تركه في المستقبل.

واعلموا أنّه سبحانه يقبل توبتكم، والسّبب (إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ) بعباده، فيعفو عن معاصيهم، (وَدُودٌ): أي شديد المحبّة لهم.

سورة هود: الآيات ٩١ ـ ٩٥ (قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ ... أَلاَ بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ).

الآيات: الحادية والتسعون إلى الخامسة والتسعين

(قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيز * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ * وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ * وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَة مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلاَ بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ).

المفردات

نَفْقَهُ: من الفقه، بمعنى الفهم الدقيق.

رهطك:الرَّهط: عشيرة الرجل وقومه.

لرجمناك:الرَّجْم: الرمي بالحجارة.

أعزّ:أقوى، نقيض الأذلّ.

ظِهْرِيًا:جَعْل الشيء وراء الظهر حتى يُنسى.

مكانتكم: المكانة: من مكُنَ مكانة، إذا تمكّن كلَّ التمكُّن، وأُريد هنا منتهى تمكُّنكم. ويحتمل أن يكون من المكان، أي مكانكم الذي أنتم فيه وموقعكم.

جاثمين: قد مرّ تفسير الجثوم، وأُريد به هنا كونهم مكبّين على وجوههم في ديارهم.

لم يغنَوا فيها: لم يُقيموا بها وقتاً من الأوقات.

التفسير

هذه المجموعة من الآيات تتضمّن جدال قوم شعيب معه واحتجاجهم على عدم قبول دعوته، كما تتضمّن ردّ شعيب على حِجاجهم، حتى انتهى الأمر بالإنذار وجاء أمر الله تعالى فاستأصلهم كأن لم يقيموا ببلادهم، وصاروا خبراً بعد عين.

حِجاج قوم شعيب(عليه السلام)

٩١. (قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيز):

احتجّ قوم شعيب بوجوه واهية:

الأوّل: روي أنّ شعيباً(عليه السلام) كان خطيب الأنبياء ومع ذلك نرى أنّ قومه يخاطبونه بقولهم:(قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ): أي لا نفهم لبّ دعوتك من رفض عبادة الآلهة، واجتناب تنمية الأموال بالطرق الحرام.

ويمكن تفسير ذلك بوجوه:

أمّا أنّ رغبتهم عنه وكراهيتهم له وتعصّبهم لمسلك الآباء وحرصهم على تنمية الأموال بأيّة وسيلة، صارت سبباً لعدم التأمُّل

والتفكّر في محتوى دعوته، وعلى ذلك فقولهم:(مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ) تعبير حقيقي نابع عن تقصيرهم في التفكّر فيه.

أو أنّهم فهموا مغزى دعوته ومفاد كلامه فهماً واقعياً، ولكنّه لمّا كان على خلاف عاداتهم وميولهم وجشعهم الماديّ، تظاهروا ـ عناداً ولجاجاً ـ بأنّهم لا يفهمون كلامه، وهو تعبير عن رفضهم له، وهذا كما إذا قال أحد المدَّعيَين للآخر: ما أدري ما تقول.

أو أنّهم جعلوا كلامه هَذَياناً وتخليطاً لا ينفهم كثير منه.(تفسير الكشّاف:٢/١١٢.) والوجه الثاني أنسب.

الثاني: منطق القوة، وذلك أنّه لما أحسّ القوم من أنفسهم الضعف في مواجهة قوة منطق نبيّهم، انتقلوا إلى منطق القوّة فقالوا:(وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا): أي لا قوة ولا قدرة لك، وقد زلّ مَن فسّر الضعف بكونه أعمى؛ لأنّ من شروط بعث الأنبياء أن لا تكون فيهم جهة منفّرة حتى يتمّوا الحجّة على الناس.

واستدلّ صاحب «الكشّاف» على ردّ هذا القول بوجه آخر وقال: لأن(فِينَا) يأباه، ألاترى أنّه لو قيل: إنّا لنراك فينا أعمى، لم يكن كلاماً، لأنّ الأعمى فيهم وفي غيرهم.(تفسير الكشّاف:٢/١١٢.)

الثالث: (وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ): أي لولا أقاربك الأدنَون وهم نفر قليل (كما تدلّ على ذلك كلمة الرَّهط) لقتلناك شرّ قتلة. ومعلوم أنّ امتناعهم من رجمه إنّما هو تكريم لرهطه لا خشية من قوّتهم. والتعبير يُشعر بأنّ رهطه كانوا على دين القوم وإلاّ لما نالوا كرامة ومكرمة لديهم. ثمّ أتمّوا كلامهم بقولهم: (وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ): أي لستَ عندنا بمكرَّم حتى نمتنع من رجمك، وإنّما نمتنع من ذلك رعاية لموقع رهطك.

٩٢. (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ):

النبيّ شعيب(عليه السلام) يدحض حجّتهم

اعتمد قوم شعيب في حِجاجهم على أمرين:

١. ادّعاء عدم فهم ما يقوله شعيب(عليه السلام) ويدعو له.

٢. الاستهانة به(عليه السلام) ولولا أنّهم يراعون جانب رهطه لقتلوه.

ولكنّ النبيّ شعيباً(عليه السلام) لم يعتدّ بالأمر الأوّل لعلمه بأنّه مغالطة وادّعاء كاذب، وأنّهم قد فهموا ما يقول وشرع في الردّ على الأمر الثاني لتصحيح مقاييسهم الخاطئة وإثبات صلابته في موقفه، ولذلك (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي)الذين صار وجودهم مانعاً لكم عن قتلي (أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللهِ)؟ مع أنّ أمره سبحانه أَولى أن يُتّبع (وَ)الحال أنّكم (اتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا): أي نسيتموه وجعلتموه كالشيء المنبوذ وراء الظهر لا يُعبأ به، والإنسان إذا لم يعتدّ بشيء طرحه وراء ظهره. و«الظِّهري» منسوب إلى الظَّهر والكسر من لوازم النِّسبة، نظير قولهم في النسبة لأمس«إمسيّ» بكسر الهمزة.(تفسير الكشّاف:٢/٢٣٢.)

واستدلّ الوزير المغربيّ بقول القائل:

تميم بني قيس لا تكوننّ حاجتي *** بظهر ولا يعيا عليّ جوابُها

ثمّ أضاف: ويقال: حدّثته الحديث ظِهريّاً، أي لم اهتمّ به فاكتمه.(المصابيح في تفسير القرآن:٥٧٩.)

قال الشريف الرضيّ(رحمه الله) حول هذه الفقرة: هذه استعارة لأنّ الله سبحانه لا يجوز أن يُجعل ظِهريّاً على الحقيقة، فالمراد أنّكم جعلتم أمر الله سبحانه وراء ظهوركم، وهذا معروف في لسان العرب، أن يقول الرجل منهم لمن أغفل قضاء حاجته: جعلتَ حاجتي وراء ظهرك، أو تركتَ مقالي دَبرَ أُذُنك. أي لم تعنَ بحاجتي، ولم تُصغِ إلى معاتبتي.(تلخيص البيان في مجازات القرآن:٦٥.)

ثمّ إنّ النبيّ شعيباً(عليه السلام) هدّدهم بقوله:(إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ) فهو عالم بأحوالكم لا يَخفَى عليه شيء.

هذا، وقد فسّر عدد من المفسّرين الإحاطة بالإحاطة العلمية، مع أنّ ظاهر الآية فوق ذلك، فالله سبحانه حاضر في كلّ الأزمنة والأمكنة وفي جميع الأحوال لا حضوراً حلوليّاً بل حضوراً قيّوميّاً، لأنّ العالَم الإمكاني لا يتقوّم إلاّ بوجود واجب يقوم به، قيامَ المعنى الحرفيّ بالاسميّ.

وعلى كلّ تقدير، واصل النبيّ شعيب الردّ عليهم كاشفاً عن ثباته على موقفه وعدم مبالاته بتهديدهم، كما قال:

٩٣. (وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ):

النبيّ شعيب(عليه السلام) يهدّد قومه بعذاب الاستئصال

قد وردت لفظة «مكانة» مضافةً إلى الضمير «هم، و كم» في مواضع أُخرى من القرآن الكريم(لاحظ: الأنعام:١٣٥، هود:١٢١، الزمر:٣٩، يس:٦٧.)، وهي لا تخلو من أحد وجهين:

١. أنّها مؤنث مكان، فيقال: مكان ومكانة كمقام ومقامة، ويؤيّده قوله تعالى: (أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا)(يوسف:٧٧.).

٢. أن تكون مصدراً من «مَكُن» فهو «مَكين».

فعلى الأوّل يكون المعنى: اعملوا قادرين على جهتكم التي أنتم عليها من الشِّرك والشَّنَآن لي.

وعلى الثاني اعملوا متمكّنين من عداوتي.(تفسير الكشاف:٢/١١٣.)

والظاهر أنّه أُريد من المكانة، المُكنة والقدرة، والمعنى: اعملوا حال كونكم موصوفين بغاية المُكنة والقدرة وكلّ ما في وُسعكم وطاقتكم من إيصال الشرور إليّ(إِنِّي) أيضاً (عَامِلٌ) بقدر ما آتاني الله من القدرة.(تفسير الرازي:١٨/٨١.)

وبتعبير أوضح إنّه يقول: ابذلوا كلّ ما في وسعكم من القدرة فيما ترومون، كما أنا أبذل كلَّ قدرتي فيما أُريد، فكونوا أنتم على حالتكم وأنا على حالتي (سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ): أي سوف تميّزون الصادق من الكاذب والمُحقّ من المُبطل، فنزول عذاب الخزي والهوان بشخص يكشف عن كونه كاذباً، وأمّا نجاة آخر منه فيكشف عن كونه صادقاً.

ثمّ إنّ مقتضى القياس أن يقول: مَن يأتيه عذاب يخزيه ومن هو صادق، فالفقرة الأُولى تنطبق على القوم، والثانية على النبيّ شعيب نفسه، غير أنّه عدل عن ذلك لأنّ القوم وصفوه بأنّه كاذب، أي الكاذب في زعمكم وادّعائكم.

فإن قلت: لماذا لم يقل «فسوف تعلمون مَن يأتيه...».

قلت: كأنّه جواب عن سؤال مقدّر فكأنّ القوم قالوا: ماذا يكون بعد ذلك؟ فقال: (سَوْفَ تَعْلَمُونَ).

لقد ألقى النبيّ شعيب(عليه السلام) بكلامه هذا بصورة كليّة، دون أن يعيّن الصادق والكاذب، غير أنّ المستقبل سوف يميط السِّتر عن وجه الحقيقة والمصداق، ولذلك قال: (وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ): أي منتظر. والرقيب بمعنى المنتظر، من رَقَبَه إذا انتظره، والصفة المشبهة هنا بمعنى فاعل، أي معكم راقب.

روى الصدوق عن أبي الحسن الرّضا (عليه السلام) أنّه قال: «ما أحسن الصبر وانتظار الفرج، أما سمعت قول الله عزّوجلّ: (وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ)، (فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ)(يونس: ١٠٢ .) فعليكم بالصبر، فإنّه إنّما يجيء الفرج على اليأس، فقد كان الّذين من قبلكم أصبر منكم».(كمال الدين: ٢ / ٦٤٥ .)

٩٤. (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ):

نزول عذاب الاستئصال على قوم شعيب(عليه السلام)

لقد هدّد النبيّ شعيب قومه بعذاب الاستئصال لكن هؤلاء المغفَّلين لم ينتبهوا من نومتهم وغفلتهم واستمرّوا على مسلكهم وأصرّوا على تكذيبه والسُّخرية منه حتى أنّهم طلبوا منه(عليه السلام) أن يُنزل عليهم العذاب وقالوا: (فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ

السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) (الشعراء:١٨٧.)، فلما تمّت الحجة عليهم ولم يبق بصيص أمل في هدايتهم جرت مشيئة الله على تطهير الأرض من هذه العناصر الفاسدة، كما جرت مشيئته الحكيمة عند إهلاك قوم على إنقاذ نبيّهم والمؤمنين معه، وهذه هي إحدى الأُمور الخارقة للعادة.

وقوله تعالى في آيتنا هذه يحكي عن كلا الأمرين، ولكن قدّم الثاني على الأوّل، وقال: (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا)أُريد بالأمر الأمر التكوينيّ، أي العذاب (نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ) مصحوبين (بِرَحْمَةٍ مِنَّا).

وأمّا الأوّل، فأشار إليه بقوله: (وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ): أي منكبّين على وجوههم. وبذلك تحقّق الوعد الإلهيّ وأنّ للباطل جولة وللحقّ دولة، وهؤلاء المكذّبون لأنبياء الله ورسله كانت لهم جولة وصخب وهياج.

٩٥. (كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ):

إنّ حال الباطل حال الزَّبد يعلو وجه الماء ولكنّه سوف يتلاشى ولا يبقى له أثر، وهذا حال قوم شعيب كما يقول:(كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا): أي كأن لم يُقيموا من قبل في ديارهم فصاروا خبراً بعد عين (أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ)بُعداً منصوب على كونه مفعولاً مطلقاً كـ«تبّاً له» أو «سُحقاً»، والبُعد كناية عن التحقير الملازم لكراهية الشيء كأنّه يُريد أن لا يراه، وقد شُبّه بُعدهم ببعد ثمود خاصّة، لأنّهم أُهلكوا بالصَّيحة كما أُهلكت ثمود بمثل ذلك مع الرجفة.(التبيان في تفسير القرآن:٦/٥٧.)

وقد روي أنّ جبرئيل (عليه السلام)صاح بهم صيحة، فزهق روح كلّ واحد منهم حيث هو.(تفسير جوامع الجامع: ٢ / ١٦٤.)

الدروس والعبر في قصة شعيب(عليه السلام)

١. إنّ الرسالات السماوية كما تهتمّ بالجانب الروحيّ، فإنّها تهتم أيضاً بالجانب الاجتماعيّ، وتضع الحدود والضوابط التي تحكمه، وتؤكّد على الترابط الوثيق بينهما، وتأثير كلّ منهما على الآخر.

وفي قصّتنا هذه (قصة شعيب(عليه السلام)) نرى الدعوة إلى عقيدة التوحيد وتقوى الله تعالى تسير جنباً إلى جنب مع الدعوة إلى ترك الغشّ في الكيل والوزن، وإيفائهما بالقسط، وإعطاء كلّ ذي حقّ حقّه، وتجنّب الفساد في الأرض.

وتبرز هذه العلاقة بين الجانبين في الخطاب الموجّه من قوم شعيب إلى نبيّهم، حيث (قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ).

ولا شكّ في أنّ الرسالة الخاتمة، هي أشمل الرسالات الإلهية، إذ تناولت كافّة المجالات الّتي تخصّ الإنسان، وعالجت جميع شؤونه وحاجاته.

٢. إنّ الحرص على تكثير الأموال وحيازتها لا يقف عند حدّ، وإنّ حاجة الإنسان ليست هي الدافع الوحيد وراء ذلك، بل البُعد عن القيم الروحية والمسؤولية الأخلاقية، هو الّذي يفتح طموحاتها المجنّحة، وعندئذ يسترقّها الطمع، وتطلب ما تجد وما لا تجد، وتقتحم الموانع والحواجز في سبيل اصطياد المزيد من الفرص الّتي تتيح لها الثراء والغنى الفاحش، دون أن تكترث لزفرات الفقراء وآهاتهم بما يصيبهم من ظلم وحرمان، ودون أن تعبأ بما تتركه أساليبهم الماكرة في الكسب من آثار سلبية على المجتمع وأمنه وصفائه، وعلى قيم العدل والخير والإنصاف.

وقد تجلّى هذا الحرص، والغشّ والاحتيال في التعامل في قوم شعيب(عليه السلام)، فعلى الرغم من غضارة عيشهم، فإنّ نفوسهم الطامعة سوّلت لهم التلاعب بالمكاييل والأوزان، والاعتداء على حقوق الناس، والإفساد في الأرض، الأمر الذي عرّضهم لسخط العزيز الجبار وغضبه، فأصبحوا في ديارهم جاثمين، كأن لم يقيموا فيها ولم يكنزوا الثروات والأموال.

٣. إنّ الأنبياء(عليهم السلام) هم الأُسوة والقدوة في الاستقامة ومَزْج القول بالعمل، فلا ينكرون منكراً إلاّ وقد تناهَوا عنه، ولا

يأمرون بمعروف إلاّ وقد سبقوا إليه، منطلقين في ذلك من دوافع ذاتية وفطرية، صقلها عمق الإيمان بالله تعالى والإخلاص له والذوبان فيه والخشية منه والثقة بما وعد عباده المؤمنين.

وهذا هو النبيّ شعيب(عليه السلام) يضرب المثل الأعلى في الالتزام برسالته الإصلاحية الداعية إلى الإنصاف في التعامل والتنزّه عن الغشّ في المكاييل والأوزان واحترام حقوق الناس. ومن هنا صارح قومه بسلامة مسيرته ومواقفه، ووضوح أهدافه الّتي لا يشوبها هوىً ولا مصلحة ذاتية، قائلاً لهم: (وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ).

وهذا الدرس ينبغي أن يتمثّله المصلحون والرساليون، وأن يضعوا نصب أعينهم قول أمير المؤمنين علي(عليه السلام):«الدَّاعِي بِلاَ عَمَل كَالرَّامِي بِلاَ وَتَر»(نهج البلاغة:٤/٧٩، برقم ٣٣٧.)، وقوله: «الْعِلْمُ مَقْرُونٌ بِالْعَمَلِ: فَمَنْ عَلِمَ عَمِلَ؛ وَالْعِلْمُ يَهْتِفُ بِالْعَمَلِ، فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلاَّ ارْتَحَلَ عَنْهُ»(نهج البلاغة:٤/٨٥، برقم ٣٦٦.)، فالمفاهيم والأفكار والنظريات مهما كانت صائبة وصادقة، فإنّها لا تؤثّر التأثير المرجوّ لها ما لم تُقرن بالتجسيد والتطبيق والممارسة.

٤. إنّ دعوة شعيب(عليه السلام) قومه إلى أن يزنوا بالقسطاس المستقيم، وإن كانت تتعلّق بوجوب تحرّي العدل عند تقويم الموزونات، إلاّ أنّه يمكن الاستفادة من هذه الضابطة وتعميمها على مجال أوسع وأُفق أرحب، يتمثّل في السعي إلى أن نزن ونقوّم كلّ عمل وكلّ جهد يبذله الإنسان وفي كافّة مجالات الحياة، وفق مقاييس العدل والإنصاف، لأنّ ذلك يعتبر الضمانة الأكيدة لتجنُّب الظلم، ووضع الأشياء في غير موضعها، وما يبعثه ذلك من آثار سلبية ومشاعر سيئة تُخمد المواهب والطاقات الفاعلة، وتصدّ عن العطاء، وتهدّد العلاقات الاجتماعية والأواصر الإنسانية بالصميم.

٥. إنّ التهديد بالنفي الّذي تعرّض له شعيب(عليه السلام) من مستكبري قومه، هو نتيجة طبيعية لشعورهم بالعجز عن مقارعة الحجّة بالحجّة، والمنطق بالمنطق.

ولا ريب في أنّ المستكبرين في كلّ زمان ومكان يخشَون تأثير الدعوة الخيِّرة والكلمة الصادقة الّتي يطلقها المصلحون والخيّرون، وعندما تتعثّر أساليبهم الماكرة في ثنيهم عن مواصلة مسيرتهم، لم يجدوا بدّاً من استعمال القوة لإبعادهم عن الساحة، وخنق أصواتهم، حفاظاً على مصالحهم غير المشروعة، ووجاهتهم المزيفة.

سورة هود: الآيات ٩٦ ـ ٩٩ (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَان مُبِين ... بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ).

الآيات: السادسة والتسعون إلى التاسعة والتسعين

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَان مُبِين * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيد * يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ * وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ).

المفردات

برشيد: الأمر الرشيد: الذي فيه رُشد، في مقابل الأمر الغيّ الذي فيه ضلال.

يَقدُم قومَه: يتقدّم أمامهم ويقودهم.

الوِرد: هو ما يُراد ويطلب، وغلب استعماله في الماء.

المورود: ما وُرد عليه. والوارد: الّذي يتقدّم القوم فيسقي لهم، قال تعالى: (فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ)(يوسف: ١٩ .): أي ساقيهم من الماء المورود.

ويقال لكلّ من يَرِد الماء، وارد.

الرِّفد: العطاء.

المرفود: المُعطى.

التفسير

القصة السابعة: قصّة موسى(عليه السلام) مع فرعون

جاء في هذه الآيات الأربع قصّة موسى(عليه السلام) مع فرعون على وجه الإيجاز، وقد ورد تفصيل قصّته مع فرعون في كثير من السور حتى لقد ذُكر باسمه(عليه السلام) في مئة وواحد وثلاثين موضعاً في أربع وثلاثين سورة، وإنّما جاءت قصّته مع فرعون في المقام لوجود المناسبة بين قصّته وقصّة مَن تقدّم ذكرهم من الأنبياء، وهي نزول عذاب الاستئصال على أقوامهم. وببيان قصته يتمّ بيان القصص في هذه السورة.

٩٦ و ٩٧. (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَان مُبِين * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيد):

قوله: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى) هذا عطف قصّة على قصص المتقدّمين (بِآيَاتِنَا) التسع التي جاء تفصيلها في سورة الإسراء في قوله تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَات بَيِّنَات فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ)(الإسراء:١٠١)، وأمّا تفاصيل الآيات فقد ذكرت في سور أُخرى.

قوله: (وَسُلْطَان مُبِين): أي الحجّة الباهرة في سبيل دعوته، حيث استدلّ على فرعون بقوة المنطق في غير مورد من الموارد، وسُميّت الحجّة سلطاناً؛ لأنّ صاحبها يقهر من لا حجّة معه كما يقهر السلطان غيره، قال سبحانه:(إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى * قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْء خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى* قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى * قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَاب لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنْسَى * الذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَات شَتَّى * كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَات لاِوْلِي النُّهَى * مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرى).(طه:٤٨ـ ٥٥).

ويحتمل أن يراد به العصا، فيكون من قبيل ذكر الخاصّ بعد العام.

قوله: (إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ) خصّ بالذكر أشراف القوم وزعماءهم، لأنّهم القادة، والرعايا أتباعهم (فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ): أي اتّبع الملأ أمر فرعون، وأظهر اسم فرعون للتشهير به (وَ) لكن (مَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيد): أي بسديد ولا بهاد إلى الحقّ والصّواب، يستحسنه العقل ويصدّقه، بل هو الغواية والضلال.

٩٨. (يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ):

تصوّر لنا هذه الآية حياتهم الأُخروية، فبما أنّ فرعون قد ضلّ وأضلّ، وصار قدوة للملأ ثمّ للأتباع في الحياة الدنيا، فيكون كذلك في الحياة الأُخروية كما يقول:(يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ): أي يتقدّم أمامهم والملأ والأتباع وراءه، فبما أنّ الاقتداء به في الحياة الدنيا كان سبباً لورودهم وحل الضلالة، فيكون أيضاً سبباً لورودهم النّار في الحياة الأُخروية، كما يقول: (فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ) ويدخلهم إيّاها. ويظهر من بعض الآيات أنّهم يعذّبون في البرزخ بعرضهم على النار، وأمّا يوم القيامة فيدخلون النار، قال سبحانه: (وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ* النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ)(غافر:٤٥ـ ٤٦).

قوله تعالى: (وَبِئْسَ الْوِرْدُ) والورد هو الماء، واستعمل هنا في النّار مجازاً (الْمَوْرُودُ) الذي يردونه. وإنّما أطلق سبحانه على النّار اسم الورد ليطابق ما يرد عليه أهل الجنة من الأنهار والعيون، فشبّه الله تعالى فرعون بمن يتقدّم الواردة إلى الماء، وشبَّه أتباعه

بالواردين إلى الماء فقال: الورد الذي يورَدون (أتباعه) النّار مكان الماء، لأنّ الورد إنّما يُراد لتسكين العطش وتبريد الأكباد، والنّار ضدّه.

٩٩. (وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ):

قوله:(وَأُتْبِعُوا): أي أُلحقوا (فِي هَذِهِ) الدنيا(لَعْنَةً) لتماديهم في الكفر والطُّغيان فأبعدهم الله عن رحمته(وَ)أُتبعوا (يَوْمَ الْقِيَامَةِ) لعنة أُخرى:(بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ): أي بئس العطاء المُعطى، وهو اللّعنة في الدّارين. وإنّما سمّيت اللّعنة رفداً وهو العطاء والعَون على الأمر تهكّماً بهم، ولأنّه في مقابلة ما يُعطى أهل الجنّة من أنواع النّعيم. سأل نافع بن الأزرق ابن عباس عن قوله: (بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ) قال: هو اللّعنة بعد اللعنة، لعنة في الدنيا، ولعنة في الآخرة.(تفسير الرازي:١٨/٥٥).

قال الشريف الرضي(رحمه الله) حول هذه الفقرات: فقوله تعالى:(وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ) وقوله تعالى:(بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ) استعارتان لأنّه تعالى جعل فرعون في تقدمه قومه إلى النار بمنزلة الفارط المتقدّم للوارد إلى المورود، كما كان في الدنيا متقدّمهم إلى الضلالة وقائدهم إلى الغواية. وجعل النار بمنزلة الماء الذي يورد، ثم قال تعالى: (وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ) لأنّه لا يجيز الغصّة ولا ينقع الغُلّة.(تلخيص البيان في مجازات القرآن:٦٦).

سورة هود: الآيات ١٠٠ ـ ١٠٤ (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ... وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لِاَجَل مَعْدُود).

الآيات: المئة إلى الرابعة بعد المئة

(ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ شَيْء لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيب * وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لاَيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الاْخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ * وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لاَِجَل مَعْدُود).

المفردات

ذلك: إشارة إلى ما سبق من القصص، وهو مبتدأ، وقوله: (مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرى) خبره، وقوله:(نَقُصُّهُ) خبر بعد خبر.

أنباء: جمع نبأ: الخبر المهمّ.

قائم: الزرع المستقلّ على سُوقه، أو الأثر القائم من آثار القرى.

حصيد: المحصود من الزرع، أو ما عُفي من الآثار.

تَتبيب:مصدر (تَبَّبَ)، يقال: تَبَّبَه، إذا أوقعه في التَّباب، أي الخسارة. وفي الرواية عن أبي بصير عن أبي عبدالله (عليه السلام): «وما زادوهم غير تتبيب: أي غير تخسير».(البرهان في تفسير القرآن: ٣ / ١٣١).

أخْذ ربِّك: كناية عن التعذيب والاستئصال.

التفسير

ما هو الهدف من سرد القصص

ذكر سبحانه من الآية الخامسة والعشرين إلى هنا قصص الأقوام الهالكة، ابتداء من قوم نوح وانتهاء بقوم فرعون، والغاية من ذكر مصير هؤلاء وما دار بينهم وبين أنبيائهم من الجدال والحِجاج، هي أن تعتبر بهم المجتمعات التي يصلها الخطاب القرآني، وتتّعظ بما حلّ بهم.

١٠٠. (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ):

الآية تصنّف ما بقي من آثار القرى أو من أهلها إلى صنفين، وتشبّه ما بقي من الآثار أو الأنسال بالزّرع القائم على سوقه، وأمّا المدّمر من الآثار أو الأنسال فشبّهته بالزرع المحصود، كما يقول:(ذَلِكَ) إشارة إلى ما سبق من القصص، ويفسّره قولُه: (مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرى): أي بعضها، بناءً على أنّ (مِنْ)تبعيضية، فهذا القصص (نَقُصُّهُ عَلَيْكَ): أي نذكره لك ونخبرك به تزكية وتسلية لك (مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ) لعلّه أُشير بـ (قَائِمٌ) إلى ما بقي من آثارها كالأهرام في مصر، وبـ(حَصِيدٌ) إلى ما باد منها كديار «عاد» التي انمحت آثارها. هذا كلّه إذا كان المراد من القرى هو الدّيار والأبنية، وأمّا إذا أريد أهلها فلعلّ «القائم» هو ما بقي من نسل المؤمنين الذين نجَوا مع صالح وشعيب(عليهما السلام)، والحصيد هم الذين استؤصلوا عن آخرهم كقوم فرعون وقوم لوط(عليه السلام).

١٠١. (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيب):

ما حلّ بهم هو نتيجة تلبُّسهم بالظُّلم

جاءت هذه الآية معقّبة على الأنباء التي مرّ ذكرها، وأشارت إلى أمرين:

١. إنّ استئصال هؤلاء بالعذاب الإلهيّ كان نتيجة تلبُّسهم بالظُّلم، كما قال: (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ) بالشرك والبغي والفساد، فالله سبحانه عادل لا يجور، ولا يظلم أحداً.

٢. أنّهم كانوا يعبدون آلهتهم المكذوبة رجاء عونهم وإنقاذهم عند نزول البلاء، ويحفظونهم من طوارق الحدثان، ولكن خاب سعيهم وانقطع رجاؤهم إذ لم تُفِدهم شيئاً حينما نزل بهم عذاب الله كما يقول:(فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ). ثمّ أشار إلى ما هو أزيد من ذلك، وهو أنّ الآلهة ليس فقط لم تنصرهم عند حلول العذاب بهم، بل أوقعتهم في التّباب والخسارة، كما يقول: (وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيب). ولعلّ المراد أنّهم لما أحسّوا بالعذاب التجأوا إلى الأصنام ودعوها لكشفه فصار ذلك سبباً لتشديد العذاب وتغليظ العقاب فصدق (وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيب).

ويحتمل أن يقال: إنّ اعتقادهم بشفاعة الآلهة عند الله سبحانه حال بينهم وبين التوبة عند سماع الوعيد بالعذاب، فصار ذلك سبباً للخسارة. وعلى كلّ تقدير، فنسبة التتبيب إلى الآلهة لا يخلو من نوع مجاز.

١٠٢. (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ):

الآية بصدد تهديد مشركي عصر الرسالة من قريش وما حولها وأنّ سنّة الله لا تتغيّر ولا تتبدّل، فمن أخَذ القرى السابقة وأهلكهم واستأصلهم، يأخذ كلّ قرية ظالمة بالاستئصال، فما تقدّم من القصص من مصاديق سنّة الله الحكيمة الجارية في القرى الظالمة، من غير فرق بين قرية دون قرية، فليحذر مشركو قريش من أن يشملهم عذاب الله سبحانه.

هذا هو مفاد الآية، وبما أنّ مضمونها هو تشبيه السنّة الحكيمة الكلّية على المصاديق الجزئية فالأمر يحتاج إلى تفسير الآية بالنحو التالي:(وَكَذَلِكَ): أي مثل ما مرّ من إهلاك الأُمم وأخْذهم بالعذاب (أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرى وَهِيَ ظَالِمَةٌ)وفي وصفها بالظالمة إشعار بسبب أخْذها، يقول سبحانه: (وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً)(الأنبياء:١١). وأُريد من ظلم القرية، ظلم أهلها، يقول سبحانه حاكياً عن المستضعفين: (رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا)(النساء: ٧٥ .) وظلم الأهل، مجاوزتهم للحقّ، وأعظمه الكفر والشّرك بالله سبحانه، ومنه العدوان على عباده. قال أمير المؤمنين(عليه السلام):«بِئْسَ الزَّادُ إِلَى الْمَعَادِ، الْعُدْوَانُ عَلَى الْعِبَادِ».(نهج البلاغة، قصار الحكم، برقم ٢٢١.)

قوله:(إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ): أي مؤلم موجِع، صعب على المأخوذ. والآية ـ كما سبق ـ تحذير من سوء عاقبة الظلم لكلّ قرية ظالمة،

من غير فرق بين مكّة وغيرها.

روي عن النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال: «إنّ الله لَيُملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يُفلِتْه»، ثمّ قرأ هذه الآية.(صحيح البخاري:٢١١/٣، كتاب التفسير، برقم ٤٦٨٦.)

١٠٣. (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ):

قوله تعالى:(إِنَّ فِي ذَلِكَ): أي ما سبق من القصص وما أُشير إليه من السنّة الإلهية الحكيمة الكلّية (لآيَةً): أي عبرة وتبصرة (لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ) وخشي عقوبة الله يوم القيامة. وخصّ الخائف بالذكر لأنّه المنتفع بهذه القصص والسنّة الحكيمة.

وبما أنّ كلمة عذاب الآخرة تتضمّن معنى اليوم، جاء البيان القرآني لشرح وصف هذا اليوم، فوصفه بوصفين:

١. (ذَلِكَ): أي يوم الآخرة (يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ): أي يُجمع له الناس كلّهم، ليُجزى كلّ إنسان بعمله.

٢. (وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ): أي يشهده الخلائق كلّهم من الجنّ والإنس.

١٠٤. (وَ مَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لاِجَلٍ مَعْدُود):

الآية جواب لما يتبادر في بعض الأذهان عن سبب تأخير ذلك اليوم الذي وُصف بالوصفين المتقدّمين، فأجيب (وَ مَا نُؤَخِّرُهُ): أي ذلك اليوم (وهو يوم القيامة) (إِلاَّ لاِجَلٍ مَعْدُود): أي لوقت محدَّد معيَّن. وفي هذا صلاح الخلق في إدامة التكليف والإنابة والتوبة، فإنّ الله سبحانه حدّد النظام السائد بآجال فإذا انتهت تلك الآجال جاء وقت القيامة.

سورة هود: الآيات ١٠٥ ـ ١٠٩ (يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ... نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوص).

الآيات: الخامسة بعد المئة إلى التاسعة بعد المئة

(يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ * فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذ* فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَة مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاَءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوص).

المفردات

نفسٌ:اسم جنس يعمّ جميع النفوس، لأنّ النّكرة في سياق النفي تفيد العموم.

شقيّ: صفة مشبّهة من شَقِيَ، وهو المتلبّس بالشقاء، أي سوء الحال.

سعيد: صفة مشبهة من سَعِدَ (ضدّ شقِيَ)، وهو المتلبّس بحسن الحال.

زفير وشهيق: قال ابن فارس: الزفير إخراج النَّفَس، والشهيق ردّه.

مجذوذ:مقطوع.

التفسير

هذه الآيات بصدد بيان جزاء الناس من شقيّ وسعيد، ليكون عبرة للآخرين.

١٠٥. (يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ):

الآية تخبر عن أحوال الناس الذين اجتمعوا على صعيد واحد يوم القيامة، وهي كالتالي:

١. (لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ): أي لا يملك أحدٌ فيه قولاً إلاّ بإذنه، وقد جاء هذا المضمون في غير واحدة من الآيات، قال

تعالى:(يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلاَئِكَةُ صَفًّا لاَ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا)(النبأ:٣٨).

نقل الطبرسي عن الجُبّائي في تفسير قوله: (لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ) أنّه قال: «أنّه لا يتكلّم فيه إلاّ بالكلام الحسن المأذون فيه، لأنّ الخلق مُلجأون هناك إلى ترك القبائح، فلا يقع منهم فعل القبيح، وأما ما هو غير قبيح فإنّه مأذون فيه».

وفسّره الطبرسي بوجه آخر فقال: والأظهر أن يقال: أنّه لا يتكلّم أحد في الآخرة بكلام نافع من شفاعة ووسيلة إلاّ بإذنه .(مجمع البيان: ٥ / ٣٦٩.)

فإن قلت: إن الظاهر من قوله سبحانه: (لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ) هو وجود التكلُّم يوم القيامة بإذن الله سبحانه، لكنّ الظاهر من بعض الآيات عدم التكلُّم مطلقاً، كقوله سبحانه: (هَذَا يَوْمُ لاَ يَنْطِقُونَ * وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ)(المرسلات: ٣٥ ـ ٣٦.)، وقوله سبحانه: (الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ).(يس: ٦٥.)

قلت: إن المنفي هو التكلُّم بلا إذن، والمثبت هو التكلُّم عن إذن.

وربّما يجاب بأن يوم القيامة يشتمل على مواقف مختلفة، قد يؤذن لهم بالكلام في بعضها دون بعض. والأَولى أن يقال: المراد نفي تكلّمهم بمثل كلامهم في الدنيا حيث كانوا يتكلّمون بالحق والباطل، فيسلب منهم ذلك الاختيار.

٢. إنّ الناس في ذلك اليوم على قسمين، كما يقول:(فَمِنْهُمْ): أي من أهل الموقف(شَقِيٌّ)بسوء اختياره، حيث تمرّد على الله تعالى، وتولّى عن دعوة الحقّ والهدى(وَ) منهم (سَعِيدٌ) بحسن اختياره، حيث أقبل على الإيمان بالله ووحدانيته وامتثل أمره ونهيه. ثمّ إنّ السعادة والشقاء من المقولات ذات المراتب، فلأجل ذلك يختلف جزاؤهم حسب اختلاف درجاتهم في السعادة والشقاء.

مشكلة اتحاد الظرف والمظروف

بقي الكلام في قوله تعالى: (يَوْمَ يَأْتِ) في صدر الآية، فقد قرأ ابن عامر وأهل الكوفة غير الكسائي بحذف الياء: يأت، والباقون بإثباتها:يأتي. ثمّ إنّ الضمير في (يَأْتِ) يرجع إلى:(يَوْمَ) فيكون المعنى: يوم يأت يوم لا تكلّم نفس، فعندئذ يتحد الظرف والمظروف، وقد أجاب عنه صاحب المنار بقوله: فسّرت كلمة (يَوْمَ) في الآية بالوقت المطلق أي غير المحدود لأنّه ظرف لليوم المحدود الموصوف بما ذكر، الذي هو فاعل يأت.(تفسير المنار:١٥٨/١٢.)

وحاصله: أنّه أُريد من (يَوْمَ) الواقع في صدر الآية مطلق الزمان، ومن الضمير تحته أريد زمان مقيّد بأوصاف منها: (لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ).

وأورد عليه مؤلف الميزان بأنّه خطأ لاستلزامه ظرفية اليوم لليوم، لعَود المعنى حقيقة إلى قولنا: في الوقت الذي يجيء فيه ذلك الوقت المعيّن أو اليوم الذي يجيء فيه ذلك اليوم المعيّن. والتفرقة بين اليومين بجعل أحدهما خاصّاً ومعيَّناً، والآخر عامّاً ومرسلاً، لا ينفع في دفع محذور ظرفية الشيء لنفسه ومظروفية الزمان، وهو ظرف بذاته لزمان آخر، وهو محال لا ينقلب ممكناً بتغيير اللَّفظ.

وما ذكره من التفرقة بين اليومين بالإطلاق والتحديد مجرّد تصوير لا يغني شيئاً، فإنّ اليوم الذي يأتي فيه ذلك اليوم الموصوف وذلك اليوم الموصوف متساويان إطلاقاً وتحديداً وسعة وضيقاً.(الميزان في تفسير القرآن:٩/١١ـ١٠.)

وممّا ذُكر يظهر أنّ ما ذكره ابن عاشور قريب ممّا ذكره صاحب المنار، حيث قال: وضمير (يَأْتِ)عائد إلى (يَوْمٌ مَشْهُودٌ) وهو يوم القيامة، والمراد بإتيانه وقوعه وحلوله.(التحرير والتنوير:٣٣٠/١١.)

ومن المعلوم أنّ لازمه أن يكون لليوم ظرف.

واختار صاحب الميزان بأنّ الضمير في (يَأْتِ) يرجع إلى الأجل الوارد في قوله:(وَ مَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لِاَجَل مَعْدُود) والمعنى: يوم يأت

الأجل الذي تؤخَّر القيامة إليه، لا تكلّم نفس إلاّ بإذنه.

ولا يخفى أنّ الإشكال غير مندفع لأنّ الأجل عبارة عن الزمان، وهو نفس اليوم الوارد في الآية، والأَولى أن يقال: إنّ التعبير تعبير عُرفي، فربما يتصوّر للزمان زمان، فيقال:(يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ)(الروم:١٢؛ الجاثية:٢٧) فإنّ الساعة تعبّر عن يوم القيامة، وكما يقال: يوم يأتي العيد، وأُريد من العيد الزمان الخاص، والمحادثات العُرفية لا تبتني على الدقائق الفلسفية.

وأضعف الوجوه ما ذكره صاحب الكشّاف، حيث قال: فاعل (يَأْتِي)هو الله تعالى، كقوله: (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَل مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلاَئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ)(البقرة:٢١٠.).(تفسير الكشّاف:٢/٢٣٥.) وهذا عجيب من صاحب الكشّاف لأنّ القائل به هم اليهود، فكيف يفسّر كلامَ الله بمقالة اليهود؟!

١٠٦. (فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ):

للشقيّ زفير وشهيق

لمّا تقدّم تقسيم الناس إلى قسمين، بدأ البيان القرآني بذكر مصيرهما يوم القيامة فقال:

(فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا): أي تلبّسوا بالشقاء وسوء الحال، فلهم شؤون وحالات :

١. (فَفِي النَّارِ): أي مستقرّهم ومثواهم فيها.

٢. و (لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ): أي ترتفع أصوات أنفاسهم إخراجاً وردّاً، وهو يلازم شدّة الكرب والحزن.

١٠٧. (خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ):

هذا هو الوصف الثالث للأشقياء، وهو أنّهم (خَالِدِينَ فِيهَا): أي ماكثين في النّار (مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ) .

وهنا سؤالان :

الأوّل: إنّه سبحانه كيف يعلّق خلودهم في الجنّة بدوام السماوات والأرض مع أنّ النظام الموجود ينهدم يوم القيامة وأنّ هذه الأرض تُبدَّل إلى غيرها وكذلك السماوات، قال سبحانه:(يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)(إبراهيم:٤٨.).

أقول: هاهنا جوابان:

الأوّل: هو أنّ هذا التعبير كناية عن الدّوام والخلود.

وإن شئت قلت: أُريد بالإرادة الاستعمالية دوام السماوات والأرض، وأريد بالإرادة الجدّية خلود هؤلاء سواء أدامت السماوات والأرض أم لم تدوما. وبعبارة أُخرى: لا يُشترط في الكناية وجود المكنّى به فضلاً عن دوامه، يقال: زيد كثير الرَّماد، فصدقُ القضية يدور مدار سخائه وعطاياه سواء أكان في بيته رماد أم لا، فضلاً عن الكثرة، والذي يدلّ على أنّ هذا التعبير كناية عن الخلود هو تنوّع التعبير عن الدوام بصور قريبة ممّا في الآية، قال الإمام علي(عليه السلام):«أَتَأْمُرُونِّي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ فِيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْهِ! وَاللهِ لاَ أَطُورُ بِهِ مَا سَمَرَ سَمِيرٌ، وَمَا أَمَّ نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ نَجْماً!».(نهج البلاغة، الخطبة ١٢٦.)

وقال دعبل الخزاعي في قصيدته التي أنشدها بحضور الإمام الرضا(عليه السلام):

سأبكيهمُ ما ذرّ في الأُفق شارقٌ *** ونادى منادي الخير في الصلواتِ[٢]

[٢] نور الأبصار للشبلنجي:١٤٠.

ومن الأمثلة الرائجة قولهم:«ما اختلف المَلَوان أو كرّ الجديدان»، كلّ ذلك تعبير عن الدّوام.

الثاني: أُريد من السماوات والأرض ما يحدث يوم القيامة، ويمكن أن يُستظهر ذلك من قوله تعالى: (يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ

الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ)﴿ إبراهيم:٤٨.﴾ وقوله: (وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ)﴿ الزمر:٧٤.﴾، فيدلّ على وجود أرض وسموات بهيئة وصورة غير التي عليهما في الدُّنيا. ولكنّ الجواب الأوّل أَولى.

السؤال الثاني: كيف استثنى تعالى ممّن هم في النّار بقوله:(إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)مع أنّ الكفّار خالدون في النار؟

والجواب: أنّ غير واحد من المفسرين قد حمل ذلك على من دخل فيها من أهل التوحيد الذين ضمّوا إلى إيمانهم وطاعتهم، ارتكابَ المعاصي، فقال سبحانه:«إنّهم معاقبون بالنّار إلاّ ما شاء ربك من إخراجهم إلى الجنّة وإيصال ثواب طاعاتهم إليهم.﴿ انظر: مجمع البيان:٥/٣٧٣.﴾

وهذا هو الذي أيّده السيد الطباطبائي، حيث قال: والمعنى: هم جميعاً خالدون فيها إلاّ من شاء الله أن يخرج منها ويدخل في الجنّة، فيكون تصديقاً لما في الأخبار أنّ المذنبين والعصاة من المؤمنين لا يدومون في النار بل يخرجون منها ويدخلون الجنّة بالآخرة للشّفاعة، فإنّ خروج البعض من النّار كاف في انتقاض العموم وصحّة الاستثناء.﴿ الميزان في تفسير القرآن:١١/٢٨ـ ٢٩.﴾

ولا يخفى أنّ نفس الاستثناء جاء في حق السُّعداء ـ كما سيأتي في الآية التالية ـ ولا يصحّ هذا الوجه (الخروج من الجنّة) في حقّهم، ولابدّ من تفسيره في كلا الموردين بوجه واحد.

وذكر الطبرسي وجوهاً أُخرى في الاستثناء ناهزت خمسة وجوه.

والأَولى أن يقال: إنّ الآية بصدد بيان أنّ الحكم عليهم بالخلود لا يلازم خروج هذا الأمر عن يده، بل أنّ القدرة كانت ومازالت في يده سبحانه في تبديل الأمر، ويؤيّد ذلك قوله تعالى في ذيل الآية:(إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ). وسنعود إلى توضيحه في الآية التالية.

١٠٨. (وَ أَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذ):

جاء البيان القرآني لبيان وصف السُّعداء فلو حُكم على الأشقياء بالخلود في النار، فقد حُكم على السُّعداء بالخلود في الجنّة، قال: (وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا) فحكم عليهم بالخلود (مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ) والكلام في ما هو المراد من السماوات والأرض قد مرّ في الآية المتقدّمة، فهي إمّا كناية عن الخلود، وإمّا أن يراد بها الأرض والسماوات في هيئتها الحادثة يومئذ. أمّا الاستثناء في قوله: (إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ)فلا يجري فيه ما ذكر من الوجه الأول في الآية المتقدمة، فإنّ من يدخل الجنّة لا يخرج منها أبداً، لإجماع الأُمّة على أنّ من استحقّ الثّواب ودخل الجنّة لا يخرج منها بعد دخوله فيها.

والأَولى هو ما ذكرناه من الجواب، وهو أنّ الاستثناء مسوق لإثبات قدرة الله المطلقة، وأنّ قدرة الله سبحانه لا تنقطع عنهم بإدخالهم الجنة الخالدة، وسلطنته لا تنفد، وملكه لا يزول ولا يبطل، وأنّ الزمام بيده، وقدرته وإحاطته باقية على ما كانت عليه]من[قبل، فله تعالى أن يخرجهم من الجنّة، وإن وعدهم البقاء فيها دائماً، لكنّه تعالى لا يُخرجهم لمكان وعده، والله لا يخلف الميعاد.﴿ الميزان في تفسير القرآن:١١/٢٩.﴾ وهؤلاء السُّعداء يعطيهم النَّعيم في الجنّة (عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذ): أي غير مقطوع، بل ممتدّ إلى غير نهاية.

زلّة لا تُستقال

قال الرّازي في تفسير هذه الفقرة من الآية:(فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ): «اعلم أنّه تعالى حكم الآن على بعض أهل القيامة بأنّه سعيد، وعلى بعضهم بأنّه شقيّ، ومن حكم الله عليه بحُكم وعلم فيه ذلك الأمر، امتنع كونه بخلافه، وإلاّ لزم أن يصير خبر الله تعالى كذباً، وعلمه جهلاً، وذلك محال. فثبت أنّ السعيد لا ينقلب شقيّاً، وأنّ الشقيّ لا ينقلب سعيداً». ثم استشهد على كلامه بما روي

عن عمر أنّه قال:«لمّا نزل قوله تعالى: (فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ) قلت: يا رسول الله فعلى ماذا نعمل؟ على شيء قد فُرغ منه، أم على شيء لم يُفرَغ منه؟ فقال: على شيء قد فُرغ منه يا عُمر، وجفّت به الأقلام، وجرت به الأقدار، ولكن كلٌّ ميسَّر لما خُلق له».(تفسير الرازي:١٨/٦١.)

يلاحظ عليه: أوّلاً: لا شكّ أنّ الآيات والروايات تدلّ بوضوح على أنّ الإنسان خُلق على فطرة سليمة بعيدة عن كلّ ما يشين، وليس الشقاء والضلالة من ذاتياته، فلا هي جنس له ولا فصل ولا هي من الأُمور التي لا تنفكّ عن الإنسان، كالزوجية بالنسبة إلى الأربعة، وإنّما يَكْتسبُ كلاًّ بفعله وعمله، يقول سبحانه:(إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَة أَمْشَاج نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا).(الإنسان:٢ـ٣.)وقال سبحانه: (مِنْ نُطْفَة خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ)،(عبس:١٩ـ٢٠.) أي يسّر سبيل الهداية والسعادة لكلّ إنسان، ومع ذلك فلا معنى لكون الشقاء أمراً ذاتيّاً لصنف من الأصناف، قال تعالى: (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)(الكهف:٢٩.).

وثانياً: إنّ ما اعتمد عليه الرازي في قوله:«إنّه تعالى حكم الآن على بعض أهل القيامة بأنّه سعيد وعلى بعضهم بأنّه شقيّ» وأسماه دليلاً قاطعاً، فهو بالمغالطة أشبه منه بالدليل، فالحكم منه سبحانه وإن كان في زمن نزول الآية لكنّ زمان الاتّصاف به هو يوم القيامة، فكيف يقول:«إنّه تعالى حكم الآن على بعض أهل القيامة بأنّه سعيد» فعلاً «وعلى بعضهم بأنّه شقيّ» كذلك؟ فالله تعالى إنّما حكم في زمن النزول بأنّ الناس يوصفون في المستقبل بأحدهما لا أنّهم يوصفون بأحدهما في زمان الحكم القائم بالحاكم، فاستفادة كون الأشخاص سعداء أو أشقياء بالفعل وفي زمن نزول الآية نابع عن الخلط بين زمانَي الحكم والاتّصاف، فالحُكم فعليّ، والاتّصاف استقباليّ، وعندئذ لا تدلّ الفقرة على ما يتبنّاه من كون السعادة أو الشقاوة لازمة للإنسان في الدنيا ولا تنفكّ عنه، وأنّه بالفعل من زمان طفولته إلى كهولته وهرمه محكوم بأحد الحُكمين.

وأمّا الرواية التي استشهد بها الرازي فهي بالإسرائيليات أشبه منها بالإسلاميات، والقرآن ينصّ على عدم الفراغ من العمل، قال سبحانه:(كُلَّ يَوْم هُوَ فِي شَأْن)(الرحمن:٢٩.) وقال سبحانه: (يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ)(الرعد:٣٩.).

أضف إلى ذلك بأنّه يمكن توجيه قوله:«اعملوا فكلٌّ ميسَّر لما خُلق له» بأنّ المراد من الموصول(ما) في قوله:«لما خلق له» هو معرفة الله وعبادته لا الكفر به وإنكاره، قال تعالى:(وَ مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ)(الذاريات:٥٦.)، فإذا كانت الغاية من الخلقة هي العبادة أو المعرفة يكون كلام الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم):«اعملوا فكلٌّ ميسَّر لما خُلق له» ناظراً إلى هذه الغاية لا السعادة والشقاء. ويؤيّد ذلك ما ورد في بعض الروايات أنّه(صلى الله عليه وآله وسلم)قرأ قوله: (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى)(الليل:٥ـ٧.)، وقد ورد هذا التفسير في كلام مرويّ عن الإمام موسى بن جعفر(عليهما السلام) حيث يقول ـ بعدما سئل عن معنى قوله(صلى الله عليه وآله وسلم):«اعملوا فكلٌّ ميسّر لما خلق له» ـ : إنّ الله عزّ وجلّ خلق الجنّ والإنس ليعبدوه ولم يخلقهم ليعصوه، وذلك قوله عزّ وجلّ:(وَ مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ)فيسّر كلاًّ لما خُلِقَ له، فالويل لمن استحبّ العمى على الهدى».(التوحيد للصدوق:٣٥٦، باب السعادة والشقاوة(٥٨)، الحديث٣.)

سؤال وإجابة

لو صحّ ما ذكر من أنّ السعادة والشقاء من الأُمور المكتسبة، فما معنى الحديث المرويّ عن النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)أنّه قال: «الشَّقيّ من شَقيَ في بطن أُمّه، والسَّعيد من سَعدَ في بطن أُمّه»؟(التوحيد:٣٥٦، باب السعادة والشقاوة(٥٨)، الحديث٣.)

والجواب: إنّ السعادة والشقاء من المفاهيم الواضحة ولا يحتاجان إلى التفسير ولكنّهما يتشعبّان ويختلفان حسب اختلاف متعلّقهما، فسعادة كلّ شيء أن ينال ما لوجوده من الخير الذي يكمل بسببه، فهي في الإنسان ـ وهو مركّب من روح وبدن ـ أن

ينال الخير حسب قواه الجسمانية والروحية فيتنعّم به ويلتذّ، وشقاؤه أن يفقد ذلك ويُحرم منه. وعلى ضوء ذلك، فالإنسان من حيث الصحّة والسُّقم ينقسم إلى سعيد وشقيّ، ومن حيث الغنى والفقر في حاجات الحياة يتّصف بأحدهما، كما هو كذلك إذا قيس إلى الزوجة والرفيق وغير ذلك من ملابسات الإنسان، فيوصف بأنّه سعيد من هذه الجهة، أو شقيّ.

وعلى ذلك، فليس معنى السعيد على الإطلاق المؤمن التقيّ الخالد في الجنّة، والشقيّ الطاغي الخالد في النّار، وإنّما هما من أقسامهما ومصاديقهما. نعم، المراد منهما في الآية المتقدِّمة هو ذاك، بشهادة قوله سبحانه:(فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ) و(وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ)، ولكنّه معلوم من سياق الآية، لا أنّهما موضوعان للسعيد والشقيّ في الآخرة ليس غير.

وعلى ضوء ذلك، فالخبر المرويّ عن النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) ليس إلاّ قوله:«الشقيّ من شقيَ في بطن أُمّه، والسعيد من سعد في بطن أُمّه»، وهو كلام مطلق لا قرينة فيه على أنّ المراد منه هو القسم الوارد في الآية الكريمة، بل يمكن أن يقال: المراد منهما هو السعادة والشقاء من حيث الخلقة والمزاج بقرينة قوله:«في بطن أُمّه»، فمن المحتمل ـ إذا صحّ سند الحديث وثبت صدوره عن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) ـ أن يكون المراد أنّ الإنسان في بطن أُمّه على صنفين: شقيّ وسعيد. فالجنين المتكوّن من نطفة وبويضة لأبوين سالمين روحاً وجسماً يتصف بالسعادة في بطن أُمّه وترافقه في حياته الدنيوية، وهذا بخلاف الجنين المتكوّن من نطفة وبويضة لأبوين عليلين ومريضين جسماً وروحاً، فهو من هذا الآن محكوم بالشّقاء، وإذا وُلد رافقه إلى آخر عمره(إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ)، فالرواية لا صلة لها بالسّعادة والشّقاء الأُخرويين. وبالنتيجة لا ترتبط ببحث الجبر والاختيار، وإنّما حملوها على ذلك لأجل كون السّعادة والشّقاوة في الآية راجعتين إلى الحياة الأخروية، ولكنّه ليس بدليل.

فإن قلت: ما ذكرت من التفسير لا يناسب النصّ الذي نقله ابن أبي حاتم بهذه الصيغة: أيها الناس إنّكم مجموعون في صعيد واحد يسمعكم الداعي وينفذكم البصر، والشّقيّ من شقي في بطن أُمّه...(تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم:٦/٢٠٨٤ برقم ١١٢٢٢.)

قلت: لو صحّ الحديث فلا محيص من تفسيره بما رواه الصّدوق بإسناده عن محمد بن أبي عمير قال: سألت أبا الحسن موسى بن جعفر(عليهما السلام)عن معنى قول رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم):«الشقيّ مَن شقيَ في بطن أُمّه، والسعيد مَنْ سعد في بطن أُمّه». فقال: «الشقيّ من علم الله وهو في بطن أُمّه أنّه سيعمل أعمال الأشقياء، والسعيد من علم الله وهو في بطن أُمّه أنّه سيعمل أعمال السُّعداء».(التوحيد: ٣٥٦، باب السعادة والشقاوة(٥٨)، الحديث٣.)

١٠٩. (فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَة مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاَءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوص):

الآية تتضمّن أمرين:

١. أنّه سبحانه أشار إلى مصير عبدة الأوثان ثمّ أتبع ذكرهم بأحوال الأشقياء وأحوال السعداء، فصار ذلك سبباً لأن يشير إلى مصائر كفّار قومه في هذه الآية. ثمّ إنّ ظاهر الخطاب موجّه للنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) أو لجميع الناس بأنّ أمر هؤلاء في العبادة ليس إلاّ استمراراً لما عليه آباؤهم، فهم مقلّدون للآباء، كما يقول:(فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَة مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاَءِ): أي مشركو عصر الرسالة (مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ)لتحجّر عقولهم، فلا يفكّرون فيما يُعرض أمامهم من البيّنات والآيات الدالّة على الوحدانية، فكأنّ الوثنية عبادة بدعيّة بدأت من عصر نوح وامتدّت إلى زمن النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم). وهذه الآية تسلية للنبيّ وتقوية لروحه.

ويحتمل أن يراد بالآباء عمرو بن لُحَيّ وأولاده الّذين سنّوا الوثنية في مكّة المكرّمة، يقول ابن هشام: إنّ عمرو بن لُحَيّ خرج من مكّة إلى الشام في بعض أُموره، فلمّا قدم مآب(كذا يسمّيها العرب، ويسمّيها الأقدمون«موآب» وهي في وادي الأردن، بالبلقاء. الأعلام للزّركلي:٥/٨٤.)، من أرض البلقاء، وبها يومئذ العماليق ـ وهم ولد عِمْلاق، ويقال: عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح ـ رآهم يعبدون

الأصنام، فقال لهم: ما هذه الأصنام الّتي أراكم تعبدون؟ قالوا له: هذه أصنام نعبدها، فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا، فقال لهم: أفلا تعطوني منها صنماً، فأسيرَ به إلى أرض العرب، فيعبدوه؟ فأعطوه صنماً يُقال له هُبَل، فقدم به مكّة، فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه.(السيرة النبوية لابن هشام: ١ / ٧٧ .)

٢. (وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوص): أي لَنؤتيهم جزاء أعمالهم وافياً غير منقوص عن مقدار ما استحقّوه، فتكون الفقرة مشيرة إلى إيفاء الجزاء يوم القيامة. وفي «الكشّاف»: أي حظّهم من العذاب كما وفّينا آباءهم أنصباءهم.(تفسير الكشّاف:١١٧/٢.) ولو أُريد خصوص العذاب يكون التعبير من باب التهكّم، لأنّ توفية النصيب يناسب مطلق العمل أو خصوص العمل الحسن، دون خصوص العمل السيّئ.

وحمَله صاحب المنار على أعمالهم الخيرية في هذه الدنيا كبرّ الوالدين وصلة الأرحام وإغاثة الملهوف وعمل المعروف، وأنّه سبحانه يوفّيهم جزاءهم عليه في الدنيا بسعة الرِّزق وكشف الضُّرّ جزاءً تامّاً وافياً لا ينقصه شيء،]ولا[يجزون عليه في الآخرة .(تفسير المنار:١٦٢/١٢.) غير أن سياق الآية ـ وأعني: صدرها ـ لا يناسب ما ذكره.

سورة هود: الآيتان ١١٠ ـ ١١١ (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ... إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ).

الآيتان: العاشرة والحادية عشرة بعد المئة

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكّ مِنْهُ مُرِيب * وَإِنَّ كُلاًّ لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ).

المفردات

مُريب: ذو رَيب، والرَّيب أقوى من الشكّ.

لَيُوفّينّهم: يعطيهم جزاء أعمالهم وافياً تامّاً، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ.

التفسير

وجه صلة الآية بما قبلها هو أنّ الآية بصدد تطييب نفس النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)وتسليته ببيان أنّ أهل الكتاب قد أوتوا الكتاب ومع ذلك اختلفوا فيه، فلا تأسَ لاختلاف قومك عليك، ولا تغتمّ لذلك، فهذه شيمة مستمرة وقد أشار سبحانه إلى اختلاف أهل الكتاب في غير واحدة من الآيات: قال سبحانه: (وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَات مِنَ الأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ)».(الجاثية: ١٦ ـ ١٧.)

١١٠. (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكّ مِنْهُ مُرِيب):

تفسير الآية رهن إيضاح أُمور:

١. ما هو المراد من قوله تعالى: (فَاخْتُلِفَ فِيهِ)؟

٢. ما هو المراد من قوله: (كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ)؟

٣. ما هو مرجع الضمير في قوله: (لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ)، وما عطف عليه من قوله: (وَإِنَّهُمْ)؟

وإليك إيضاح هذه الأُمور:

١. ما هو المراد من الاختلاف ؟
قال سبحانه: (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ). الاختلاف على قسمين: ١. الاختلاف قبل العلم، وهو دراسة الموضوع بتضارب الآراء، وقد قيل: (الحقيقة بنت البحث)، فهذا النوع من الاختلاف يشقّ الطريق إلى الحقيقة، ويرفع حواجز الشكّ عن وجهها. ٢. الاختلاف بعد العلم وظهور الدلائل والبيّنات، وهذا يُعدّ عناداً ولجاجاً. والمراد من اختلافهم في الكتاب من هذا القبيل، أي اختلفوا اختلافاً عظيماً، فمنهم من آمن ومنهم من زاغ عن الحقّ واتّبع هواه. وهكذا كلّ أُمّة قديماً وحديثاً لم تتّفق كلمتها على نبيّها ومرشدها الناصح الأمين، ولم يشذّ عن ذلك قوم موسى (عليه السلام)فقد أُحرقت التوراة في فترة من حياة بني إسرائيل عندما هاجم نُبوخذ نُصَّر (ملك بابل)مدينة القدس عام (٥٨٧ أو ٥٨٦ق. م)، ثمّ جدّدها رجل من كهنتهم يُسمّى (عزرا) من حفظه، عندما أرادوا أن يرجعوا من بابل ـ بعد إنقضاء السَّبي ـ إلى الأرض المقدّسة، وما تلاه هذا الرجل أُصيب ـ أيضاً ـ بالاختلاف بإخفاء بعض وإظهار بعض آخر، كما تدلّ عليه الآيات. وقد عبّر سبحانه عن الاختلاف في آية أُخرى بإخفاء بعض الكتاب، قال سبحانه: (قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ).(المائدة: ١٥.)
٢. ما هو المراد من سبق الكلمة؟
هنا سؤال مقدّر وهو أنّه سبحانه لماذا لم يستأصلهم بعذاب الدنيا، فأُجيب عنه بقوله: (وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ): أي لولا أن سبق قضاؤه بتأخير العذاب. إنّما الكلام: ما هو السرّ في هذا القضاء؟ يقول الطبرسي: لما عَلِم في ذلك من المصلحة(مجمع البيان: ٥ / ٣٨٠.) وقد أُشير إلى ذلك الإنظار في قوله سبحانه: (إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ).(يونس:٩٣.) ويمكن أن يقال: إن التفريق بين الطائفتين لأجل الأمر التالي، وهو وجود الفرق بين من ردّ دعوة الرسل جحوداً وعناداً كقوم عاد وثمود، والفراعنة، فهذا يشمله عذاب الاستئصال، وبين من قِبَل دعوة الرُّسل لكن اختلفوا في كتابه بين إخفاء بعض وإظهار بعض آخر، فهذا ما يمهلهم فيه إلى يوم القيامة، ولولا ذلك (لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ).
٣. ما هو مرجع الضمير في (بَيْنَهُمْ)؟
الضمير يرجع إلى المختلفين في الكتاب، المفهوم من قوله: (فَاخْتُلِفَ فِيهِ) وأنّه لولا كلمة الله السابقة لقضى بينهم في هذا الاختلاف بتعجيل العذاب وإهلاك البغاة المثيرين للاختلاف فيه بأهوائهم... ثم إنّه سبحانه ختم الآية بقوله: (وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكّ مِنْهُ مُرِيب) الضمير المنصوب أيضاً يرجع إلى المختلفين أيضاً، والضمير المجرور في (مِنْهُ) يرجع إلى الكتاب، أي إنّهم لفي شكّ عظيم من أمر كتابهم. وربما يقال بإرجاع الضمير الأوّل إلى مشركي مكة، ورجوع ضمير (مِنْهُ) إلى القرآن، ولكن سياق الآية لا يوافقه . ١١١. (وَإِنَّ كُلاًّ لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ): أخبر سبحانه في هذه الآية بأنّ كلَّ المختلفين سيُجزون ما يستحقّونه على أعمالهم، كما يقول:(وَإِنَّ كُلاًّ)من الجاحدين والمخالفين أو من المصدّقين والمكذِّبين (لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ): أي يعطيهم جزاء أعمالهم وافياً تامّاً. وقد مرّ أن استعمال كلمة (التوفية) في المقام من باب التهكُّم إذا أُريد أعمالهم السيّئة. نعم لو أُريد أعمالهم الحسنة أو المختلطة بين السيّئة والحسنة كان استعمالاً حقيقياً.

قال الرازي: سمعت بعض الأفاضل قال: إنّه تعالى لمّا أخبر عن توفية الأجزية على المستحقّين في هذه الآية ذكر فيها سبعة أنواع من التوكيدات: أوّلها: كلمة «إنّ» وهي للتأكيد. وثانيها: كلمة «كلّ» وهي أيضاً للتأكيد. وثالثها: اللاّم الداخلة على خبر «إنّ» وهي تفيد التأكيد أيضاً. ورابعها: حرف «ما» إذا جعلناه على قول الفرّاء موصولاً. وخامسها: القَسم المضمر، فإنّ تقدير الكلام: «وان جميعهم والله ليوفّينّهم» وسادسها: اللاّم الثانية الداخلة على جواب القسم. وسابعها: النون المؤكّدة في قوله:(لَيُوَفِّيَنَّهُمْ)، فجميع هذه الألفاظ السبعة الدالّة على التوكيد في هذه الكلمة الواحدة تدلّ على أنّ أمرالربوبية والعبودية لا يتمّ إلاّ بالبعث والقيامة وأمر الحشر والنشر، ثمّ أردفه بقوله:(إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)وهو من أعظم المؤكّدات.(تفسير الرازي:١٨/٧٠.)

ثمّ إنّه سبحانه علّل توفية الجزاء بقوله:(إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) ولذلك لا يُتصوَّر في حقّه سبحانه التميز والتفريق في الإيتاء في حقّ بعضهم دون الآخرين.

سورة هود: الآيات ١١٢ ـ ١١٥ (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ ... فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ).

الآيات: الثانية عشرة بعد المئة إلى الخامسة عشرة بعد المئة

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لاَ تُنْصَرُونَ * وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ * وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ).

المفردات

فاستقم: الاستقامة: الدوام والثبات على جهة واحدة.

تركنوا: قال الخليل: ركن إلى الدنيا: مال إليها واطمأنّ، والرُّكن: ناحية قوية من جبل أو دار.(. العين:٥/٣٥٤، مادة «ركن».) وقال الجوهريّ: ركن إليه يركُن: مالَ إليه وسكن،

ورُكن الشيء: جانبه الأقوى(صحاح الجوهري:٥/٢١٢، مادة «ركن».). ونحو هذا قال الفيروزآبادي.(القاموس المحيط:٤/٢٢٩.) أمّا صاحب الكشّاف ففسّره بالميل اليسير.(تفسير الكشّاف:٢/٢٩٦.)

طرفي النهار: الغُدوة والعشيّة.

زُلَفاً: جمع زُلفى كالظُّلَم جمع ظُلمة، وهي الطائفة من اللّيل. والزُّلفى من أَزْلَفه إذا قرّبه.

التفسير

اشتملت هذه المجموعة من الآيات على عدد من الأوامر والنواهي. أمّا الأوامر، فهي:

١. (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ).

٢. (وَأَقِمِ الصَّلاَةَ).

٣. (وَاصْبِرْ).

وأمّا النواهي ، فهي:

١. (وَلاَ تَطْغَوْا).

٢. (وَلاَ تَرْكَنُوا).

إذا عرفت ذلك فلندخل في تفسير الآيات:

١١٢. (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ):

أمر سبحانه نبيّه الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) بالثبات والدوام على ما أُمر وقال:(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ): أي كن ثابتاً على ما أُمرت، في غير واحدة من الآيات، حيث أمره سبحانه بالثبات على الدين الحنيف في قوله: (وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)(يونس:١٠٥.)، وقوله تعالى:(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ التي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ)(الروم:٣٠.)، فالاستقامة على الدين الحنيف هي عدم العدول عنه، وبما أنّ الأمر بها ورد بعد ذكر قصص المشركين واستئصالهم حيث عدلوا عن خطّ التوحيد إلى الشّرك، يكون المراد من الأمر بالاستقامة هو الثبات على الدين الحنيف أي التوحيد الخالص من دون خروج عنه.

روي عن ابن عباس أنّه قال: ما نزلت على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)في جميع القرآن آية أشدّ ولا أشقّ عليه من هذه الآية.

ولذلك قال لأصحابه حين قالوا له: لقد أسرع إليك الشَّيب: «شيّبتني هود وأخواتها».(التحرير والتنوير:١١/٣٤٠؛ المعجم الكبير للطبراني:١٧/٢٨٧ و ج٢٢/١٢٣.)

ثم بقي ذكر أمرين:

١. قد عرفت أنّه أُريد بقوله: (كَمَا أُمِرْتَ) ما ورد في سورتي يونس والروم، وقد اشتهر بين المفسّرين أنّ سورة يونس نزلت قبل سورة هود،فما جاء في «روح المعاني» في تفسير قوله:(كَمَا أُمِرْتَ):«لمّا بيّن أمر المختلفين في التوحيد والنبوة وأطنب سبحانه في شرح الوعد والوعيد أمر رسوله بالاستقامة مثل الاستقامة التي أُمر بها، وهذا يقتضي أنّه أمر بوحي آخر ولو غير متلوّ كما قاله غير واحد»(روح المعاني:١٢/١٥٢.)، في غير محلّه، وقد عرفت أنّه أُمر به بوحي متلوّ وهو ما جاء في سورتي يونس والروم .

٢. لمّا عرفت أنّ مصبّ الاستقامة هو الثبات على خطّ التوحيد بشهادة الآيتين وبشهادة قوله: (وَلاَ تَطْغَوْا) الذي هو بمعنى العدول عن خطّ التوحيد إلى خطّ الشِّرك، يُعلم ضعف ما ذكره البيضاوي في تعميم مصبّ الاستقامة حيث قال: لما بيّن أمر المختلفين في التوحيد والنبوة، وأطنب في شرح الوعد والوعيد، أمر رسوله(صلى الله عليه وآله وسلم) بالاستقامة مثل ما أمر بها، وهي شاملة للاستقامة في العقائد كالتوسُّط بين التشبيه والتعطيل بحيث يبقى العقل مصوناً من الطرفين والأعمال من تبليغ الوحي وبيان الشرائع كما أُنزلت، والقيام بوظائف العبادات من غير تفريط وإفراط مفوّت للحقوق ونحوها وهي في غاية العسر.(تفسير البيضاوي:١/٤٧٢.)

إنّ ما ذكره من التعميم لا يناسب سياق الآية لِما عرفت من أنّ الأمر بالاستقامة جاء بعد ذكر قصص الأنبياء مع أُممهم الهالكة التي زاغت عن الدين الحنيف وتوغّلت في الوثنية، ولا صلة للآية بالمباحث الكلامية كصفات الله تعالى حتى تفسَّر الاستقامة في العقائد بمعنى التوسُّط بين التشبيه والتعطيل، فما ذكره لا يمتّ للآية بصلة. ومنه يظهر أنّ ما أطنب به صاحب «المنار» حيث ذكر تعقيباً على كلامه حول التوسّط في صفات الله تعالى، كلّه خارج عن مساق الآية، وتطويل للكلام.

ثمّ إنّ البيضاوي لمّا أدخل في تفسير قوله تعالى:(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ)موضوع الصفات الخبرية، ككونه سبحانه ذا يد ووجه وغير ذلك، وقال: الطريق الصحيح في تفسير تلك الصفات هو التوسُّط بين التشبيه والتعطيل حتى يبقى العقل مصوناً من الطرفين (تفسير البيضاوي:١/٤٧٢.)، أثار ذلك حفيظة صاحب «المنار»، وقال: سقط بعضهم في خيال التعطيل وبعضهم في خيال التشبيه، وبعضهم في حيرة النفي المحض هرباً من الأمرين، وبعضهم في الذبذبة بتأويل بعض النُّصوص دون بعض وهو ما سمّاه البيضاوي وسطاً، فهم يتأوّلون علوّ الربّ على جميع خلقه واستوائه على عرشه ورحمته بعباده، وحبّه للمحسنين والمتوكّلين، وأمثال هذه

الصفات المرغّبة في الحق والعدل والمنفّرة من الظلم والبغي يتأوّلونها هرباً من التشبيه بزعمهم، لأنّها مستعملة في صفات البشر.(تفسير المنار:١٢/١٦٧.)

أقول: إنّ صاحب «المنار» لم يخرج عن هذه الأصناف التي ذكرها، بشهادة قوله: فأحقّ النُّصوص بالاتّباع من غير تصرّف، نصوص العقائد من صفات الله تعالى، وعالم الغيب، إذ لا مجال للعقل والرأي فيها... إلى أن قال: فالواجب إذاً أن نؤمن بأنّ كلّ ما وصف الله تعالى به نفسه فهو حقّ وكمال، إلاّ أنّه أعلى وأكمل من صفات خلقه التي وضعت لها تلك الأسماء وكذلك الأفعال، وقد قالوا في رؤيته تعالى أنّها حقٌّ بلا كيف.(تفسير المنار:١٢/١٦٦ـ ١٦٨.)

يلاحظ عليه: بأنّ إجراء الصفات الخبرية بمعانيها اللُّغوية هو التشبيه والتجسيم بعينه، وإجراءها على الله سبحانه مقيّدة بلا كيف هو التأويل، إذ لم يَرِد في النصوص قوله:(بلا كيف)، فصاحب «المنار» من جانب يريد إحياء ما عليه ابن تيمية ومشايخه من إجراء الصفات الخبرية بنفس معانيها، ولذلك يردّ على أمثال البيضاوي في كلامه، ومن جانب آخر يريد أن يفرّ من التشبيه والتجسيم الذي هو وصمة في جبين المحدّثين، فيلجأ إلى قوله: «بلا كيف» ولا نعلم من أين أتى بهذا القول.

قال ابن تيمية (مثير الدعوة السلفية): إنّ لله يدَين مختصّتين به، ذاتيّتين له كما يليق بجماله، وإنّه سبحانه خلق آدم بيده دون الملائكة وإبليس، وإنّه سبحانه يقبض الأرض ويطوي السماء بيده اليمنى.(علاقة الإثبات والتفويض:٥٩.)

ثمّ إنّه سبحانه عطف على النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) المؤمنين معه وقال:(وَمَنْ تَابَ مَعَكَ): أي وليستقم معك مَن تاب من الشِّرك وآمن بك واتّبعك. وعلى هذا فأُريد من التوبة العدول عن الشّرك إلى التوحيد، وهذا ليس ببعيد، قال سبحانه:(وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْء رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ)(غافر:٧.). أمّا تخصيص النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بالذكر فلغاية تكريمه كما هو الحال في قوله سبحانه: (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ)(البقرة:٢٨٥.). ثم نهى سبحانه بصورة العموم عن الطغيان وقال: (وَلاَ تَطْغَوْا): أي الخروج عن فطرة التوحيد، أو تجاوز الحدّ في كلّ شيء، فإنّ الإفراط فيه ـ كالتفريط ـ زيغ عن الصراط المستقيم، فالمفرط والمفرّط كلاهما زائغان عن الطريق السويّ، قال الإمام علي(عليه السلام): «وَسَيَهْلِكُ فِيَّ صِنْفَانِ: مُحِبٌّ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْحُبُّ إِلَى غَيْرِ الْحَقِّ، وَمُبْغِضٌ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْبُغْضُ إِلَى غَيْرِ الْحَقِّ، وَخَيْرُ النَّاسِ فِيَّ حَالا النَّمَطُ الأَوْسَطُ فَالْزَمُوهُ».(نهج البلاغة: الخطبة ١٢٧.)

وقال(عليه السلام):«الْيَمِينُ وَالشِّمَالُ مَضَلَّةٌ، وَالطَّرِيقُ الْوُسْطَى هِيَ الْجَادَّةُ»(نهج البلاغة: الخطبة ١٦.)، وقال (عليه السلام):«نَحْنُ النُّمْرُقَةُ الْوُسْطَى، بِهَا يَلْحَقُ التَّالِي، وَإِلَيْهَا يَرْجِعُ الْغَالِي»(نهج البلاغة: الكلمات القصار، برقم ١٠٩.).

ثم علّل سبحانه ذلك بقوله:(إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ): أي فاستقم أنت والمؤمنون معك، فالله سبحانه عالم بما تعملون فيجزي كلّ إنسان حسب عمله.

وقد ورد مثل هذا المضمون في سورة الشورى، قال تعالى:(فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَاب وَأُمِرْتُ لاِعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)(الشورى:١٥.).

وقد أشار سبحانه إلى أثر الإستقامة في آية أُخرى، قال: (وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لاَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا).(الجنّ: ١٦.)

١١٣. (وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لاَ تُنْصَرُونَ):

تفسير الآية يحتاج إلى تبيين أمرين:

١. ما هو المراد من الرُّكون المنهيّ عنه بقوله: (وَلاَ تَرْكَنُوا)؟

٢. ما هو المراد بالذين ظلموا؟ هل هم المشركون أو أعمّ منهم؟

أمّا الأمر الأوّل، فقد مضى في المفردات قول أهل اللغة أنّ الركون هو الميل مع السُّكون والاطمئنان. أمّا المفسّرون فقد اختلفت كلمتهم في معنى الرُّكون على أقوال:

١. الميل مع السُّكون ـ كما عليه أرباب اللُّغة ـ قال الطبري في تفسير قوله تعالى:(وَلَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ).(الإسراء:٧٤.): لقد كدت تميل إليهم وتطمئنّ (شَيْئًا قَلِيلاً) وذلك ما كان(صلى الله عليه وآله وسلم) همّ به من أن يفعل بعض الذي كانوا سألوه فعله.(. تفسير الطبري:٨/١٢٠.)

وقال الشيخ الطوسي في تفسير الآية: امتنّ الله تعالى على نبيّه محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) بأنّه لولا أنّه ثبّته بلطفه وكثرة زواجره وتواتر نهيه، لقد كان يركن أي يسكن ويميل إلى المشركين قليلاً، على ما يريدون.(التبيان في تفسير القرآن:٦/٥٠٦.)

وأنت ترى نظير هاتين الكلمتين في غير واحد من التفاسير.

٢. مجرّد المَيل، قال الزّمخشريّ: فإن الرُّكون هو الميل اليسير، كما فسّر قوله: (وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا)بهذا النحو: الّذين وُجد منهم الظلم، ولم يقل إلى الظالمين. ثم استشهد بما روي أن الموفَّق صلّى خلف الإمام فقرأ بهذه الآية، فغشُي عليه، فلما أفاق قيل له، قال: هذا فيمن ركن إلى من ظلَم، فكيف بالظالم؟!(تفسير الكشّاف: ٢ / ٢٣٧ .)

٣. ما عليه السيد الطباطبائي من أنّ المراد من الركون إلى من اتّسم بسمة الظلم ليس مجرّد الميل؛ بل الميل المقرون بالاعتماد على ظلمهم في أمر دينهم أو حياتهم الدينية(الميزان في تفسير القرآن:١١/٥٥.)، بمعنى أخذ الظالم عماداً يعتمد عليه عن ميل ورغبة، بحيث يبني عقيدته الدينية أو سلوكه على عقيدته وسلوكه فتكون عقيدة الظالم وسلوكه ركناً تنبني عليه عقيدة المؤمن وسلوكه.

هذا هو مفاد الآية، وكون الآية خطاباً للمؤمنين لا ينافي ذلك ودخول النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)فيهم غير ثابت، وعلى فرض ثبوته فالغرض هو تأديب الأُمّة، ونرى نظير ذلك في غير واحدة من الآيات، قال سبحانه:(يَا أَيُّهَا النَّبِي اتَّقِ اللهَ وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا)(الأحزاب:١.) وقال تعالى: (وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)(الزمر:٦٥.)، إلى غير ذلك من الآيات.

والذي يبعث إلى تفسير الآية بهذا الشكل أنّ الآية وردت بعد ذكر قصص الأنبياء وجهادهم مع أقوامهم المشركين كقوم نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب، فإنّ الأتباع من أقوامهم ركنوا إلى الظالمين في الأُمور الدينية وسلوكياتهم العرفية فاتّخذوهم سناداً في كلّ ما مرّ، فظهر أنّ الميزان ليس مجرد الميل، بل الميل المقترن بالاعتماد في مجالي العقيدة والسلوك.

وعلى ما تقدّم، فإنّ أعوان الظلمة غير داخلين في الآية، لأن الموضوع هو الاعتماد على الظالمين في العقيدة والسلوك، وأخذ عقيدتهم وسلوكهم قدوة في كلا المجالين، وأمّا الدخول في زمرة الظالمين وإعانتهم بفعل، صغيراً كان أو كبيراً، فهو وإن كان أمراً محرّماً لكنّ الآية لا تعمّه، فإنّ إعانة الظالمين وقبول الولاية منهم شيء، والركون والاعتماد على الظالم دون أن يكون تحت حمايته ومظلّته شيء آخر.

٤. أن المراد هو الرُّكون إلى الظالم والاعتماد عليه بمعنى أخذه سناداً وعماداً في حياته الفردية والاجتماعية، سواء أوافقه في العقيدة أم لا. وهذا يشمل كلّ ظالم سواء أكان مشركاً أو كتابياً أو مسلماً، فالميزان هو الاعتماد عليه، وكون الرجل من أتباعه ودائراً في فلكه. وعلى هذا فقبول الولاية من الظالم داخل في الآية، وهو لا يجوز إلاّ بعنوان ثانوي.

وأمّا الأمر الثاني، أعني المراد بالذين ظلموا في الآية، ففيه قولان:

١. أنّهم الذين صدر منهم ظُلم ما. وبحسب تعبير الزّمخشريّ الذي مرّ آنفاً: الذين وُجد منهم الظُّلم.

وعقّب محمد رشيد رضا في تفسيره «المنار» على قول الزّمخشريّ هذا، بقوله: ومعنى هذا أنّ الوعيد في الآية يشمل من مال ميلاً يسيراً إلى من وقع منه ظلم قليل، أيّ ظلم كان، وهذا غلط.(تفسير المنار:١٢/١٧٠)

ويلاحظ على قول الزّمخشريّ في تفسيره للذين ظلموا بالذين وُجد منهم الظُّلم، بأنّه ربّما يُطلق الفعل ويراد به الوصف، أي كونهم ظالمين، نظير قوله سبحانه:(فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)(. النازعات:٣٧ـ٤١)،حيث عبّر عن الوصف بالفعل.

٢. أنّهم المشركون، قال صاحب«المنار»: المراد بالذين ظلموا في الآية، فريق الظالمين من أعداء المؤمنين الذين يؤذونهم ويفتنونهم عن دينهم من المشركين ليردّوهم عنه، فهم كالذين كفروا في الآيات الكثيرة التي يراد بها فريق الكافرين، لا كلّ فرد من النّاس وقع منه كفر في الماضي، وحسبك منه قوله تعالى:(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ)(البقرة:٦.).(تفسير المنار:١٢/١٧٠ـ ١٧١.)

ويُردّ على صاحب «المنار» من تخصيص الظالمين بالمشركين، هوأنّ ما ذكره خلاف إطلاق الآية، فأيّ دليل يدلّ على قصور الآية عن الشمول للظالمين من أهل الكتاب، وقد ذكرهم الله أخيراً في زمرة الظالمين باختلافهم في كتاب الله بغياً؟ وقد نهى الله عن ولايتهم وشدّد فيه حتى قال: (وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ)(المائدة:٥١.)، وقال في ولاية مطلق الكافرين: (وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْء)(آل عمران:٢٨.).(الميزان في تفسير القرآن:١١/٥٤.)

وعلى كلّ تقدير فقد أوعد الله سبحانه الذين يركنون إلى الظَّلَمة بقوله: (فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ): أي تصيبكم النّار لركونكم إليهم (وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ): أي مناصرون يقدرون على منعكم من عذابه (ثُمَّ لاَ تُنْصَرُونَ): أي ثم لا تجدون من ينصركم ويدفع عنكم ذلك البلاء.

بحث استطرادي

هل تجوز إطاعة السلطان الجائر؟

الظاهر من جمهور فقهاء السنّة جواز طاعة السلطان حتى وإن كان ظالماً فاسقاً. وقد استدلوا على ذلك بروايات نذكرها تالياً، كما نذكر كلام بعضهم .

روى مسلم عن حذيفة بن اليمان، قلت: يا رسول الله... ـ إلى أن قال:ـ قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهداي ولا يستنّون بسنّتي، وسيقوم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس، قال: قلت: كيف أصنع يا رسول الله إن أدركت ذلك؟ قال: «تسمع وتطيع للأمير وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك، فاسمع وأطع».

وروى عن أبي هريرة، عن النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال: «من خرج من الطاعة وفارق الجماعة مات ميتة الجاهلية... إلى أن قال: ومن خرج على أُمّتي يضرب برّها وفاجرها، ولا يتحاشى مؤمنها، ولا يفي لذي عهد عهده، فليس منّي ولست منه».(صحيح مسلم:٦/٢٠ـ ٢٤، باب الأمر بلزوم الجماعة، باب حكم من فارق أمر المسلمين.)

ترى أنّ هاتين الروايتين لا تختلفان عن الركون إلى الظالمين قيد شعرة وقد تأثر بهما قسم من متكلّمي السنّة، ونذكر شاهدين على ذلك:

١. قول أبي بكر محمد بن الطيّب الباقلاني(المتوفّى٤٠٣هـ) في «التمهيد»:إن قال قائل: ما الذي يوجب خلع الإمام عندكم؟ قيل له: يوجب ذلك أُمور: منها: كفر بعد إيمان، ومنها: تركه الصلاة والدعاء إلى ذلك، ومنها: عند كثير من الناس فسقه وظلمه

بغصب الأموال وضرب الأبشار وتناول النفوس المحرّمة وتضييع الحقوق وتعطيل الحدود، وقال الجمهور من أهل الإثبات وأصحاب الحديث: لا ينخلع بهذه الأُمور ولا يجب الخروج عليه، بل يجب وعظه وتخويفه وترك طاعته في شيء ممّا يدعو إليه من معاصي الله، إذ احتجّوا في ذلك بأخبار كثيرة متضافرة عن النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) وعن الصحابة في وجوب طاعة الأئمّة وإنْ جاروا واستأثروا بالأموال وأنّه قال(عليه السلام):واسمعوا وأطيعوا ولو لعبد أجدع، ولو لعبد حبشي، وصلّوا وراء كلّ برّ وفاجر. وروي أنّه قال: وإن أكلوا مالك وضربوا ظهرك وأطيعوهم ما أقاموا الصلاة.(التمهيد:١٨٦.)

٢. قول الشيخ نجم الدين أبي حفص عمر بن محمد النَّسَفي(المتوفّى٥٣٧هـ) في «العقائد النسفية»: ولا ينعزل الإمام بالفسق والجور... ويجوز الصلاة خلف كلّ برّ وفاجر.

وعلّله التفتازاني(شارح الكتاب) بقوله: لأنّه قد ظهر الفسق واشتهر الجور من الأئمّة والأُمراء بعد الخلفاء الراشدين، والسّلف كانوا ينقادون لهم، ويقيمون الجُمع والأعياد بإذنهم، ولا يرون الخروج عليهم.(. شرح العقائد النسفية:١٨٥ و ١٨٦.)

أقول: ما أتفه هذا الدليل!! والعجب أنّ الشيخ أبو زهرة ارتضى هذا التوجيه، قال: إنّ التابعين الذين عاشوا في العصر النبويّ إلى أكثر من ثلثي زمانه، فقد رأوا مظالم كثيرة ومع ذلك نَهوا عن الخروج ولم يسيروا مع الخارجين، وكانوا ينصحون الخلفاء والولاة إن وجدوا آذاناً تسمع وقلوباً تفقه، وعلى كلّ حال لا يخرجون ولا يؤيّدون خارجه.(تاريخ المذاهب الإسلامية:٢/٣٢٢.)

ثمّ إنّ صاحب «المنار» وقف على التعارض بين مسألة طاعة الملوك والسلاطين والأُمراء الظالمين، وإن تفاقم ظلمهم فسلبوا الأموال وضربوا ظهور الرجال ماداموا لا يُظهرون الكفر البَواح، وحرمة الركون إلى الظالمين، فأراد أن يرفع التعارض بقوله: الحق أنّه لا تعارض بين وجوب طاعة الأئمة والأمراء فيما لا معصية فيه لله تعالى من المعروف، وبين النهي عن الركون إلى الظالمين.(تفسير المنار:١٢/١٨٢.)

ثمّ إنّه لم يأت بشيء يرفع التعارض إلاّ بنقل جمل من الفقهاء والمحدّثين. وأوضح دليل على وجود التعارض هو أنّ قبول ولايتهم وتولّيهم وإشغالهم منصة الخلافة وإطاعتهم في المباح نوع ركون إليهم، فإنّ وصفهم بإمرة المؤمنين في خطب الجمعة والدعاء لهم، أفضل دليل على الركون، فلنقتصر على ما ذكرنا فإنّ الحديث ذو شجون.

والعجب أنّهم يستندون في ذلك إلى أحاديث هي من موضوعات الأُمويين ووعّاظ السّلاطين لدعم خلافة الأمويين والتي منها ما روي عن عبادة بن الصامت، قال: بايعنا رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، إلاّ أن تروا كفراً بواحاً، عندكم فيه من الله برهان.(تفسير المنار:١٢/١٨٣ـ ١٨٤.)

هذا إجمال القول في وجود التناقض بين سلوك القوم مع الظالمين، وقبول الولاية والقضاء عنهم، وبين ظاهر الآية التي تقول:(وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا).

١١٤. (وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرى لِلذَّاكِرِينَ):

لمّا أمر سبحانه نبيّه الأعظم بالاستقامة ونهى المؤمنين عن الطغيان، أمر النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بأعظم العبادات التي يستعان بها على الاستقامة في أمرالدين، ولذلك عطف على قوله: (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ) قوله: (وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ).

وقد اختلفت كلمة المفسرين في تفسير الآية، والّذي يمكن أن يقال: إنّ الآية ذكرت للنّهار طَرَفين، ولمّا كان طرف الشيء داخل في الشيء، فطَرَفا النّهار إذاً يجب أن يكونا منه. ومن المعلوم أن النهار يبتدئ بطلوع الفجر وينتهي بغروب الشمس، وهذا يعني أنّ الطرف الأوّل يتحقّق بطلوع الفجر، والطرف الثاني يتحقّق قُبيل غروب الشمس. وعلى هذا تنطبق الآية على ثلاث صلوات: صلاة الفجر، وصلاتي الظهر والعصر، وبين الحدّين أوقات لها، غير أن الدليل حدّد صلاة الفجر بين الطلوعين: طلوع

الفجر وطلوع الشمس، كما حدّد وقت صلاة الظهرين بدلوك الشمس إلى غروبها.

فالآية تدلّ على دخول وقت صلاة الظهرين بدلوك الشمس، غير أن الظهر تتقدّم وقتاً وفعلاً على العصر بمقدار أربع ركعات، وأما الباقي فوقت مشترك بينهما.

وبذلك يظهر معنى قوله سبحانه: (وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ). وأمّا قوله: (وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ): أي أَقم الصلاة في قطعات من اللّيل، فهو يشير إلى وقت صلاتي المغرب والعشاء، والزُّلف من اللّيل هو الساعات الأُولى منه سمّيت بذلك لقربها من النهار، فيكون مفاد الآية هو نفس مفاد قوله سبحانه: (أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِكَانَ مَشْهُودًا)(الإسراء: ٧٨ .)، فالفقرة الأُولى، أعني: (لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ)تشير إلى أوقات أربع صلوات، كما أن قرآن الفجر يشير إلى وقت صلاة الصبح.

هذا هو ما يتبادر من الآية، نعم هنا وقت الفضيلة ووقت الإجزاء، فلكلّ من الظهر والعصر وقت للفضيلة، فوقت فضيلة صلاة الظهر من الزّوال إلى أن يبلغ ظل الشاخص (العمود) مثله، ووقت فضيلة العصر من المِثل إلى المِثلين(أي كون الظلّ بطول الشاخص مرّتين)، وأمّا غير هذين الوقتين فهو وقت الإجزاء لكلتا الصلاتين، والتفصيل في محلّه.

هذا، وللمفسرين في تفسير الطرفين والزُّلف أقوال أُخرى، فمن أراد التفصيل فليرجع إلى «كنز العرفان» للفاضل المقداد.(لاحظ: كنز العرفان:١/٧٢ ـ ٧٣.)

ثمّ إنّه سبحانه يعلّل إقامة الصلاة في أوقات خاصّة بقوله: (إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ) فكأنّ الصلوات الخمس تكفِّر السيّئات. ولعلّه أُريد بالسيّئات، السيّئات الصغيرة فهي تُكفَّر بأمرين:

إحداهما: إقامة الصلوات في أوقاتها.

الثاني: اجتناب الكبائر، كما يقول:(إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ)(النساء:٣١.).

وقد تضافرت الروايات على أنّ التوضّؤ بأحسن وجه، ثمّ إقامة الصلوات الخمس تحطّ الخطايا، ولنذكر منها حديثين:

١. روى أبو داود الطّيالسيّ بإسناده عن أبي عثمان]النَّهْديّ[قال: كنت مع سلمان تحت شجرة، فأخذ غصناً منها يابساً فهزّه فتحاتّ ورقه، فقال: ألا تسألني لِمَ أفعل هذا؟ قلت: ولِمَ تفعله؟ قال: هكذا فعله رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)ثم قال: يا سلمان ألا تسألني لِمَ أفعل هذا؟ قلت: ولم تفعل هذا يا رسول الله؟ قال: «إنّ المسلم إذا توضّأ فأحسن الوضوء، ثم صلّى الصلوات الخمس ـ قال أحسبه قال في جماعة ـ ، تحاتّت خطاياه كما يتحاتّ ورق هذه الشجرة، وتلا رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم):(وَأَقِمِ الصَّلاَةَ)إلى آخرها».(مسند أبي داود الطيالسي:٩٠ـ٩١ برقم ٦٥٢. وانظر: مسند أحمد بن حنبل:٥/٤٣٧.)

٢. روى العيّاشي عن أبي حمزة الثُّمالي قال: سمعت أحدهما(عليهما السلام)(يعني أبا جعفر الباقر، أو أبا عبد الله الصادق(عليهما السلام).)يقول:«إنّ عليّاً(عليه السلام) أقبل على الناس فقال: أيّ آية في كتاب الله أرجى عندكم؟ فقال بعضهم: (إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ)(النساء:٤٨.) الآية، فقال: حسنةٌ وليست إياها، وقال بعضهم: (وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ)(النساء:١١٠.) قال: حسنةٌ وليست إياها، وقال بعضهم:(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ)(الزمر:٥٣.) قال: حسنة وليست إياها، وقال بعضهم:(وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً)(آل عمران:١٣٥.) الآية، قال: حسنة وليست إياها، قال: ثم أحجم الناس فقال: ما لكم يا معشر المسلمين؟ فقالوا: لا والله ما عندنا شيء، قال: سمعت حبيبي رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: أرجى آية في كتاب الله: (وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ)

وقرأ الآية كلّها، قال: يا علي، والذي بعثني بالحقّ بشيراً ونذيراً إنّ أحدكم ليقوم من وضوئه فتساقط عن جوارحه الذنوب، فإذا

استقبل الله بوجهه وقلبه لم ينفتل وعليه من ذنوبه شيء، كما ولدته أمه، فإن أصاب شيئاً بين الصلاتين كان له مثل ذلك حتى عدّ الصلوات الخمس، ثم قال: يا عليّ، إنّما منزلة الصلوات الخمس لأُمّتي كنهر جار على باب أحدكم، فما يظنّ أحدكم لو كان في جسده دَرَن ثم اغتسل في ذلك النهر خمس مرّات؟ أكان يبقى في جسده درن؟ فكذلك والله الصلوات الخمس لأُمّتي.(أورده الطّبرسي في «مجمع البيان»:٥/٣٨٥ـ٣٨٦. وأورده أيضاً محمد متولّي الشّعراوي في «قصص الصحابة والصالحين»:٣٤١ـ٣٤٢.)

ثم إنّه سبحانه أتمّ الآية بقوله: (ذَلِكَ ذِكْرى لِلذَّاكِرِينَ): أي هذا الّذي ذُكر ـ وهو أن الحسنات يُذهبنَ السيّئات ـ على رفعة قدره، فيه تذكرة وموعظة لعباده الذين هم في ذكر دائم لله تعالى.

١١٥. (وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ):

أمر الله سبحانه نبيّه بتحمل المشقة في سبيل تبليغ رسالته والقيام بالوظائف العملية حتى الصلاة، قال سبحانه:(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا).(طه:١٣٢.) ويظهر من بعض الآيات انّ الإنسان يستعين بالصلاة أيضاً في طريق طاعة الله، قال سبحانه:(وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ)(البقرة:٤٥.) ثم علّل وجه الصبر بقوله:(فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) بل يكافئهم عليه بأعظم الأجر.

سورة هود: الآيات ١١٦ ـ ١١٩ فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ ... مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ).
الآيات: السادسة عشرة بعد المئة إلى التاسعة عشرة بعد المئة
فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّة يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْم وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ * وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لاَمْلاَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ).
المفردات

لَولا: تحضيضية بمعنى هلاّ، يقول ابن مالك:

و بهما التَّحضيضَ مِزْ و هَلاّ *** ألاّ ألا و أوْلِيَنْهَا الْفِعْلا

وتفترق التحضيضية عن (لَوْلا) الامتناعية باختصاص الأُولى بالفعل، والثانية بالجملة الاسمية، مثل قوله: لولا عليٌّ لهلك عمر.

حُكي عن الخليل أنّه قال: كلّ ما كان في القرآن من كلمة «لولا» فمعناه: هلاّ، إلاّ التي في الصافّات.(لاحظ: تفسير الكشّاف:٢/٢٩٧.) ثم إنّ صاحب الكشّاف نقد تلك القاعدة وذكر موارد جاءت فيها كلمة «لولا» وهي ليست بمعنى هلاّ، قال:

وما صحّت هذه الحكاية في غير الصافّات:

١. (لَوْلاَ أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ)(القلم:٤٩.).

٢. (وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ)(الفتح:٢٥.).

٣. (وَلَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ)(الإسراء:٧٤.).(تفسير الكشّاف:٢/٢٣٨.)

القرون: جمع قرن، وهو أهل كلّ عصر.

أُولو بقيّة: البقيّة ما يبقى من الشيء بعد ذهاب أكثره، ويستعمل في الخيار والأصلح انطلاقاً من أنّ كثيراً من الناس يستبقي ممّا ينفقه الأجود والأفضل، ولذا يكون المعنى: أولو فضل وخير.

أُترفوا: نعّموا، وتَرِف: تنعّم، وأترفَتْه النّعمة: أبطرَتْه وأطغَتْه.

بظلم: الباء للملابسة، أي موصوفاً ومتلبساً بظلم.

التفسير

١١٦. (فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّة يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ):

ما هو السبب لهلاك الأُمم؟

الآية تشير إلى سنّة تاريخية إلهية بأنّه لو كان بين الأُمم والأقوام جماعة من أصحاب النُّهى والرأي ينهَون الطغاة العتاة عن ارتكاب الظلم والفساد لما حلَّ بهم الدّمار والهلاك، ولَحالت ممارسة دورهم في مواجهة الفساد دون استئصالهم، ولكن ـ يا للأسف ـ لم يكن بين تلك الأقوام من ينهض بذلك الدَّور. وعلى هذا، فآيتنا هذه لها صلة بما تقدّم في السُّورة نفسها، أعني قوله:(وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرى وَهِيَ ظَالِمَةٌ)(هود:١٠٢)، ففرّع على هذه قوله هذا بصورة التحضيض الذي يفيد التعجيب، وقال: (فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ): أي هلاّ كان من الأُمم الماضية قبلكم (أُولُوا بَقِيَّة): أي أصحاب خير وفضل (يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ)حتى لا يحلّ بهم ما حلّ. والآية تشير إلى أنّه لو قامت، في الأُمم الماضية، جماعة من أهل الصلاح والفلاح بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكان مصيرها غير ما سبق.

وبما أنّ ظاهر الآية عدم وجود مثل تلك الجماعة بين الأقوام الماضية كما هو المتبادر من (لولا) التحضيضية استثنى سبحانه فئة قليلة منهم وقال: (إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ) والمراد بهم الصالحون الذين آمنوا بالرُّسل وكانوا ينهون عن الفساد فأنجاهم الله مع رسلهم من العذاب الذي حلّ بأقوامهم. ثمّ أشار سبحانه إلى الكثرة الكاثرة منهم، وقال: (وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا): أي الذين تجاوزوا الحدود واعتدوا (مَا أُتْرِفُوا فِيهِ): أي ما نُعِّموا به من صنوف النِّعم، فقادهم الانقطاع إليها والاغترار بها إلى الترف والبطر (وَ)بذلك (كَانُوا مُجْرِمِينَ): أي مصرّين على الإجرام.

١١٧. (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْم وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ):

انتشار الفساد في المجتمع رهن أمرين

لمّا دلّ مضمون قوله سبحانه: (وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا) على إهلاكهم واستئصالهم، بيّن في هذه الآية أنّهم لو كانوا مصلحين لما حلّ بهم العذاب، بل أُهلكوا لظلمهم وإفسادهم، كما قال: (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى): أي ليس من شأنه سبحانه(لِيُهْلِكَ) أهل (الْقُرى بِظُلْم): أي إهلاكاً متلبّساً بظلم ومقروناً به (وَ)الحال (أَهْلُهَا مُصْلِحُونَ): أي قائمون بالإصلاح، وهو فِعل الصّلاح، وإنّما يُهلكهم لأنّهم متلبّسون بالفساد، قال تعالى: (وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ)(القصص:٥٩).

إن دراسة الآيتين، أعني قوله سبحانه: (فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ...)وقوله تعالى: (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْم...) ترشدنا إلى أن شيوع الفساد في المجتمع بأنواعه المختلفة رهن أمرين:

١. وجود المترفين الّذين لا يهمّهم إلاّ إشباع غرائزهم الحيوانية، ولا يقيمون لأحد حقاً على أنفسهم، فالحقّ عندهم، هو ما يلبّي حاجاتهم وشهواتهم، وإلى هذا أشار سبحانه بقوله: (وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ) .

٢. عدم وجود علماء ربّانيّين يُرشدونهم إلى وظائفهم قبال الله سبحانه وقبال الناس، ويكبحون أطماعهم، وإلى ذلك يشير قوله سبحانه: (فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّة)، وقد مرّ أنّ المراد بقوله: (أُولُوا بَقِيَّة)أهل الفضل والخير. وفي كلام الإمام علي (عليه السلام)الذي رواه الصَّدوق إشارة إلى ما ذُكر، قال (عليه السلام): «قوام الدّين بأربعة: بعالم ناطق مستعمل له، وبغنيٍّ لا يبخل بفضله على أهل دين الله، وبفقير لا يبيع آخرته بدنياه، وبجاهل لا يتكبّر عن طلب العلم، فإذا كتم العالم

علمَه، وبخل الغنيُّ بماله، وباع الفقير آخرتَه بدنياه، واستكبر الجاهلُ عن طلب العلم، رجعت الدنيا إلى ورائها القهقرى، فلا تغرّنّكم كثرة المساجد وأجساد قوم مختلفة».(الخصال: ١٩٧، باب الأربعة، برقم٥.)

١١٨. (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ):

الإيمان عن اختيار يعدّ كمالاً

لعلّ الآية ناظرة إلى حرص النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) على إيمان جميع من حوله، فجاءت لبيان ذلك، وأنّه سبحانه قادر على أن يخضعهم ويجبرهم على الإيمان، ولكنّه لا يفعل ذلك كما يقول:(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً) بالإلجاء والإجبار بأن يكون حالهم كالملائكة المفطورين على الإيمان، وما ذلك إلاّ لأنّ انتهاج طريق الحقّ يعدّ كمالاً وفخراً إذا سلكه الإنسان باختياره، وبه يستحقّ الجزاء الأوفى في الآخرة، وقد قضت مشيئته جلّت حكمته أن يجعل فيه الاستعداد لاتّباع الحقّ والباطل فأيّهما اختار فبحسَبه يُجازى، يقول سبحانه: (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)(الإنسان:٣.). وبما أنّه سبحانه خلقهم مختارين صاروا (وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ) في أمر الدّين، فمن غلب عقله على هوى نفسه، آمن بالرُّسل وكُتبهم ونهج طريقهم، ومن غلب هواه على عقله، أعرض عن رسله وبيّناتهم وضلَّ عن نهجهم.

١١٩. (إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لاَمْلاَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ):

شمول الرحمة هو الغاية من الخلق

لمّا دلّت الآية السابقة على اختلاف الناس في أمر الدين نتيجة اختيارهم في قبول الحقّ والباطل، استثنى طائفة اختاروا طريق الهدى واجتمعوا على الحقّ ولم يختلفوا فيه، وذلك لشمول رحمة الله لهم، كما قال: (إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ)فتمسّكوا بأهداب الحقّ، واجتنبوا الهوى.

ولمّا دلّ قوله سبحانه:(إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ) على اختصاص الرحمة بفريق خاصّ وذلك لا ينسجم مع ما سمّى به تعالى نفسه، أعني الرحمن الذي يفيد الرحمة العامّة الشاملة لكلّ عباده، ذكر سبحانه أنّه تعالى خلق الجميع للرحمة وقال:(وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ): أي خلق النّاس للرحمة، فهي الغاية من خلقه لينالوا بذلك سعادتهم الأبدية غير أنّ منهم من يُعرّض نفسه لنفحاتها فينتفع بها، ومنهم من حاد عنها ولم ينتفع بها.

ويحتمل أن يكون قوله: (لِذَلِكَ) إشارة إلى ما دلّ عليه الكلام من التمكّن والاختيار الذي كان عنه الاختلاف، فخلقهم ليثيب مختار الحق بحسن اختياره، ويعاقب مختار من يختار الباطل.(تفسير الكشّاف:٢/٢٣٩.)

روى أبو بصير عن أبي عبدالله (عليه السلام)قال: سألته عن قول الله عزوجل: (وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)؟ قال: خلقهم ليفعلوا ما استوجبوا به رحمته فيرحمهم.(التوحيد، للصدوق: ٤٠٣ .)

وأمّا ما يقال بأنّ اسم الإشارة في قوله: (لِذَلِكَ) إشارة إلى الاختلاف، أي خلقهم للاختلاف، فبعيد عن سياق الآية لأنّ الظاهر أنّه إشارة إلى القريب أي الرحمة المستفادة من قوله:(إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ)والإشارة إلى الرحمة باسم الإشارة بما يشار إلى المذكَّر لأجل أنّ المصدر يجوز فيه الوجهان قال سبحانه:(إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)(الأعراف:٥٦.)، (وَ) لمّا كان كثير من عباده سبحانه يخرج عن طاعة الله بإرادة واختيار منهم ولم يستظلّوا برحمته (تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ): أي أُحكم أمره وقضاؤه سبحانه في حقّ هؤلاء، فلا تبديل فيه ولا تغيير (لاَمْلاَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) جزاءً لأعمالهم. وقد جاء مضمون هذه الآية في آية أُخرى، قال سبحانه:(وَلَوْ شِئْنَا لاَتَيْنَا كُلَّ نَفْس هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لاَمْلاَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا).(السجدة:١٣ـ ١٤.)

ثمّ إنّ الرازي احتجّ بقوله: (إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ) على مقالة الجبر، وقال: احتجّ أصحابنا بهذه الآية على أنّ الهداية والإيمان لا تحصل إلاّ بتخليق الله تعالى لأنّ الرحمة ليست عبارة عن إعطاء القدرة والعقل وإرسال الرُّسل وإنزال الكتب وإزاحة العذر، فإنّ كلّ ذلك حاصل في حقّ الكفّار]يعني ولم يهتدوا[، فلم يبق إلاّ أن يقال: تلك الرحمة هو أنّه سبحانه خلق فيه تلك الهداية والمعرفة.(انظر: تفسير الرازي:١٨/٧٧ـ٧٨.)

يلاحظ عليه: أنّ المراد من الرحمة، هو الهداية الإلهية، كما يشهد له قوله سبحانه: (فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ)(البقرة:٢١٣.). ومن المعلوم أنّ هذه الهداية هداية ثانوية لا ينتفع بها إلاّ من كان مستعدّاً للهداية الأُولى والانفتاح على كلام الرسول وعدم الجمود على الآراء والمواقف المسبقة، فعندئذ تشمله التوفيقات الربّانية ويثبّت الله بها أقدامه، قال سبحانه في حقّ أصحاب الكهف:(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى)(الكهف:١٣.)، وعلى هذا فكفر الكافر وإيمان المؤمن نابع عن اختيارهما، بمعنى أنّ إيمان المؤمن نتيجة هداية الله الثانوية النابعة عن الهداية الأُولى التي يُقبِل عليها المؤمن باختياره.

فتلّخص ممّا ذكرنا عدة أُمور:

١. الإنسان المكلّف مقيّد حسب التشريع، فقد فرضت عليه الواجبات الّتي ليس له تركها، كما حرّمت عليه المحرّمات الّتي ليس له فعلها، ورخّص له في أُمور من المستحبّات والمكروهات والمباحات، كلّ ذلك حسب مصالحه ومفاسده.

هذا حاله بالنسبة إلى التشريع، وأما التكوين فهو مختار في عامّة أعماله، قادر على كلّ ما شاء من الممكنات فعلاً أو تركاً.

ووجه ذلك أن التقيّد حسب التشريع يلازم صلاحه وكماله، فلو خُلّيَ ونفسه لم يصل إلى ما خُلق له من الكمال الممكن بخلاف عالم التكوين، فبلوغه الكمال فرع كونه حرّاً قادراً على ترك الواجبات وفعل المحرّمات، ولو كان أُحاديَّ التعلّق فلا يُعدّ فعله كمالاً ولا تركه جمالاً، وبهذا اقتضت المصلحة أن يكون مقيّداً حسب التشريع، وحرّاً في مقام التكوين.

٢. أنّ اختلاف الناس في الدين ليس نابعاً عن عجز الله سبحانه على جعلهم على أمر واحد ولو شاء لجعل الناس أُمّة واحدة لا يختلفون في الدين، ولكنّه لم يشأ لأنّ الإيمان النابع عن تعقّل واختيار هو وسام الفضل والفضيلة، دون الإيمان النابع عن الإلجاء إليه.

٣. لمّا خُلق الإنسان على استعداد خاصّ لأن يتّبع طريق الحق أو طريق الباطل، دبّ الاختلاف بينهم في أمر الدّين، من أصل الخلقة إلى يومنا هذا، وإليه أشار بقوله:(وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ).

٤. لمّا كان هناك مظنّة توهّم شمول الاختلاف لعامّة الناس، استثنى سبحانه طائفة خاصّة بقوله:(إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ) فعصمهم من الاختلاف لأنّهم استناروا بنور العقل وبيان الرُّسل.

ولمّا كان هنا مظنة توهّم اختصاص رحمته بطائفة معيّنة أشار إلى سعة رحمته بقوله:(وَلِذَلِكَ): أي للرحمة (خَلَقَهُمْ)لكنّ التقصير من المختلفين حيث لم يستظلّوا بظلال رحمته سبحانه.

٥. وفي نهاية الأمر بعدما ثبت استحقاق الذين اختلفوا في الحقّ وتفرّقوا عنه للعذاب، حكى ما قضاه سبحانه في بدء الخلقة بأنّه تمّت كلمته على المتمرّدين من الجنّ والإنس بإدخالهم جهنّم.

سورة هود: الآيات ١٢٠ ـ ١٢٣ (وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ... وَمَا رَبُّكَ بِغَافِل عَمَّا تَعْمَلُونَ).

الآيات: العشرون بعد المئة إلى الثالثة والعشرين بعد المئة

(وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * وَقُلْ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ * وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ * وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ).

المفردات

وكلاًّ: التنوين فيه عوضاً عن المضاف إليه، كأنّه قيل: وكلَّ نبأ.

أنباء الرسل: قصصهم مع أُممهم.

نثبّت: التثبيت: أُريد في المقام حفظ القلب عن الاضطراب والتزلزل.

مكانتكم: المكانة: من مَكُن مكانة إذا تمكّن كلَّ التمكُّن. والمعنى: بما تملكون من قوّة واستعداد لمحاربة الأنبياء.

التفسير

لما تضمّنت السورة قصص أنبياء ستة، وهم: نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وموسى(عليهم السلام)، ذكر سبحانه في ختامها السبب لبيان قصصهم مع أقوامهم الذين كذّبوهم وعصَوهم، فحلّ بهم عذاب الاستئصال، والسبب هو ما ذكرته الآية:

١٢٠. (وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ):

الغاية من سرد قصص الرُّسل

قوله تعالى: (وَكُلاًّ): أي كلّ نبأ (نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ) على الأساليب المختلفة لأجل الغايات التالية:

١. (مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ): أي نقوّي روحك في طريق التبليغ، حيث تقف على جهود من سبقك من الأنبياء في طريق دعوتهم، وتقف على أنّ السُّنن في الماضي والحال سواء، فطريق الدعوة إلى الله ليس طريقاً مذلّلاً سهلاً، بل يواجه الداعية أشواكاً ومصاعب، فإنّ تكاثر الأدلة أثبت للقلب وأرسخ للعلم.

٢. (وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ) الأنباء التي قصّها الله عليك (الْحَقُّ) فقد كانت أنباء من سبق من الرُّسل معروفة بين الناس، لكن اختلط فيها الحق بالباطل، فما ورد في القرآن كلّه حقّ لا باطل فيه.

٣. (وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) فلو كان ذكر أنباء من سبق سبباً لتثبيت فؤاد النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) فهو بالنسبة للمؤمنين تذكير وعظة حتى يعتبروا بأحوالهم.

١٢١ و ١٢٢. (وَقُلْ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ * وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ):

لمّا كان إيراد أنباء الرُّسل سبباً لتذكّر المؤمنين واتّعاظهم بها، في وقت كان يقف منها المشركون موقف العناد والتكذيب، جاء البيان القرآني ليهدّدهم في مرحلتين:

أوّلاً: الدعوة إلى جمع القوى من كلا الجانبين كما يقول:(وَقُلْ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ): أي قوموا بمحاربتي بكلّ ما تتمكّنون من قوّة واستعداد، فاعملوا ما شئتم من إيذائي وإيذاء من آمن بي، أي اعملوا أنتم (إِنَّا عَامِلُونَ) فسوف ترَون من ينتصر.

ثانياً: تهديدهم بالعذاب، وأنّ المنتصر هو الداعي والمؤمنون، كما قال:(وَ انْتَظِرُوا) ما وعد الله سبحانه بتعذيبكم (إِنَّا مُنْتَظِرُونَ) ما وعدنا من النّصر والعلوّ.

وعلى هذا فالآية تبشّر المؤمنين تلويحاً، وتهدّد الكافرين تصريحاً.

وكأنّ الآية ختام للجدال والخصام بين النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) والمشركين، فالنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) ينتظر انتصاره كما ينتظر خذلان القوم، وقد سبق أن جاء هذا البيان في حوار شعيب(عليه السلام) مع قومه، حيث قال:(وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ)(هود:٩٣).

١٢٣. (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ):

لمّا تقدّم تبشير المؤمنين بالانتصار وتهديد الكافرين بانتظار ما يحلّ بهم، جاء البيان القرآني ليقرّر أنّه سبحانه قادر على ذلك، لأنّ كلّ ما في الوجود قائم به وقادر عليه وخالق له، فمن كانت له هذه المكانة يقدر على الوفاء بما وعد وأوعد.

وبعبارة أُخرى: لمّا وعد سبحانه المؤمنين بالخير المغيَّب كما أنذر المشركين بالشرّ المغيَّب، وكلٌّ منهما يُعدّ من غيب السماوات والأرض، جاء البيان القرآني ليقرّر أنّه سبحانه يملك غيب السماوات والأرض، كما قال: (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)ولا يشاركه فيه أحد، وعلى هذا فيفي بوعده ووعيده المغيَّبين، (وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ)لا إلى غيره، فبيده الإنعام على من يستحقّه، وبيده تعذيب من يستحقّه. ثم أمر نبيّه بأمرين:

١. (فَاعْبُدْهُ) رتّب التوحيد في العبادة على ما سبق، فإنّ مالك الملك ومن بيده أزمّة الأُمور هو الأَولى بالعبادة دون الآلهة المصطنعة، التي ليست لها من الأُلوهية إلاّ الاسم.

٢. (وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ): أي كن متوكّلا على الله سبحانه واثقاً بوعده. وختم سبحانه الآية بقوله : (وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ): أي لا يخفى عليه شيء من أعمال عباده، فهو يجازي كلاًّ حسب عمله.

تذييل

بعد أن فرغ الشيخ محمد رشيد رضا من تفسير هذه السورة بدأ ببيان خلاصة إجمالية لها، وبما أنّ بعض ما استنتجه كان غير صحيح، أحببنا هنا أن نشير إلى بعض ما ذكر:

١. عطف عمل المسلمين على عمل الوثنيّين

قال: إنّ الله سبحانه نهى المشركين عن عبادتهم الوثنية التقليدية وهي دعاء غير الله لجلب النَّفع، وكشف الضُّرّ، والذبح لغير الله، وشدّ الرحال لتعظيم غير الله تعظيماً تعبُّدياً يتقرّبون به إلى غير الله ليقرِّبهم إلى الله، ويشفع لهم عنده، ويظنّون أنّ المراد بغير الله من هذه المعبودات خاص بالأصنام، كما يرون تفسيرها في مثل «الجلالين»، وأنّ دعاء الأنبياء والأولياء لدفع الضُّرّ وجلب النَّفع والنُّذور وتقريب القرابين لهم لا ينافي دين الله وتوحيده على هذا التفسير.(. تفسير المنار:١٢/١٩٩.)

أقول: إنّ عطف عمل المسلمين على عمل المشركين من مقولة عطف المباين على المباين، إذ ثمّة فرق شاسع بين دعاء الفريقين، فالمشركون يدعون آلهتهم المزعومة بما أنّ بيدها مصائرهم في الدنيا والآخرة ولذلك يتقرّبون إليها بذبح القرابين، بينما يدعو المسلمون أنبياء الله وأولياءه دون أن يعتقدوا أنّ بيدهم كشف الضُّرّ وجلب النَّفع لهم.

وبعبارة أُخرى: إنّ المشركين يعتقدون بربوبية الأوثان والأصنام وأنّ بيدها النَّفع والضُّرّ والصحّة والمرض والجدب والخصب، وهم يتوسّلون بها بهذا الاعتقاد، وأين هذا من عمل الموحِّدين في الحرم النبويّ مثلاً، فإنّهم يتوسّلون برسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) بما أنّه عبد من عباد الله الصالحين وأنّه أشرف الخلائق أجمعين، فهم يتوجّهون إليه بهذه العقيدة حتى يشفع لهم عند الله سبحانه بقضاء حوائجهم؟!

ثمّ إنّ عمل المسلمين بعد رحيل النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) هو عملهم ذاته في حياته، وقد أمر الله سبحانه المؤمنين بالرجوع إليه وطلب الدعاء منه وقال:(وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا).(

النساء:٦٤.)

والعجب أنّه يسوّي بين عمل المسلمين وعمل الوثنيّين ويقول: ولا فرق في هذا التوجّه بين تسميته عبادة كما كانت العرب تقول وهي أعلم بلغتها، وبين تسميته توسّلاً أو استشفاعاً كما فعل بعض المتأخّرين، فالمعنى واحد لا يختلف حكمه باختلاف أسمائه.(تفسير المنار:١٢/١٩٩.)

كيف يقول المعنى واحد والاختلاف إنّما هو في الأسماء؟! إذ كيف يكون عمل المسلمين الذين يوحّدون الله تبارك وتعالى خالقاً وربّاً وعبادة، ولا يرَون له نداً ولا يساوونه بشيء من المخلوقات، مساوياً لعمل المشركين الذين يجعلون لله أنداداً(فصلت:٩.)، ويسوّون آلهتهم المزعومة بربِّ العالمين؟! قال سبحانه حاكياً عن المشركين يوم القيامة:(تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)(الشعراء:٩٧ـ ٩٨.) فهل يصحّ في منطق العقل أن نقول في حقهم أنّ الاختلاف في الأسماء دون الحقيقة؟!

إنّ القضاء الصحيح في الأعمال المشتركة بين المشرك والموحِّد هو النّيّات والضمائر دون الصور والظواهر وإلاّ فعمل المسلمين في فريضة الحجّ لا يفترق عن عمل المشركين فإنّ الطّواف حول الكعبة واستلام الحجر الأسود وذبح الهَدْي هو العمل نفسه الصادر من المشركين، فمن لم يقف على نيّات الحجّاج وضمائرهم لا يفرّق بين العملين، فالذي يفرّق أحد العملين عن الآخر إنّما هو النّيّات والضمائر.

٢. تفسير الربّ بالخالق

قال في بيان توحيد الرُّبوبية: الربّ هو الخالق المربّي والمدبِّر لعباده والمتصرّف فيهم بذاته....(تفسير المنار:١٢/٩٩.)

أقول: إنّ تفسير الربّ بالخالق خلطٌ بين مفهوميهما، فالخالق هو الموجِد للأشياء، والربّ هو المدبِّر والمدير، يقال: ربّ الدار، وربّ الضيعة، وربّ الإبل، فمشركو عصر الرسالة كانوا موحّدين في الخالقية بشهادة آيات كثيرة، منها قوله تعالى:(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ)(الزخرف:٩.)، وكانوا مشركين في الرُّبوبية إذ كانوا يرَون أنّ النّصر بأيدي الآلهة، كما يحكي عنهم سبحانه:(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ)(يس:٧٤.)، كما يرَون أنّ العزّة بأيدي الآلهة، قال تعالى:(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا)(مريم:٨١.).

وقد ثبت أنّ قريشاً كانوا يستمطرون بالأصنام والأوثان، وذلك هو الهدف الذي أراده (عمرو بن لُحَيّ) الذي أدخل الوثنية إلى مكة ونواحيها، فقد ذكرنا في الصفحات المتقدّمة أنّه رأى في سفره إلى البلقاء من أراضي الشام أناساً يعبدون الأوثان وعندما سألهم عن شؤونها قالوا: «هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا» فقال لهم: أفلا تعطوني منها فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه، فاستصحب معه صنماً كبيراً باسم «هبل»، ووضعه على سطح الكعبة المشرّفة ودعا الناس إلى عبادته.(السيرة النبوية لابن هشام:١/٧٩.)

والذي يدلّ بوضوح على أنّ الربّ غير الخالق قوله سبحانه:(بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الذِي فَطَرَهُنَّ)(الأنبياء:٥٦.)، فلو كان المقصود من الربّ هنا هو الخالق والموجِد، لكانت جملة (الذِي فَطَرَهُنَّ) زائدة، بدليل أنّنا لو وضعنا لفظة الخالق مكان الربّ في الآية للمسنا عدم الحاجة حينئذ إلى الجملة المذكورة، أعني قوله: (الذِي فَطَرَهُنَّ).

وكذا الحال في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ)(البقرة:٢١.)، فإنّ لفظة الربّ في هذه الآية ليست بمعنى «خالقكم»، إذ لو كان الربّ بمعنى الخالق لما كان لذكر جملة: (الَّذِي خَلَقَكُمْ)وجه، بخلاف ما لو قلنا بأنّ الربّ يعني المدبّر فتكون جملة: (الَّذِي خَلَقَكُمْ) علّة للتوحيد في الرُّبوبية، إذ يكون المعنى حينئذ: إنّ الذي خلقكم هو مدبّركم.

٣.تفسير عدم طلب الأجر بصلة الأرحام

ذكر تحت عنوان عدم طلب الأجر، قوله سبحانه:(قُل لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى)(الشورى:٢٣.) وقال: الاستثناء في هذه الآية منقطع، والمعنى لا أسألكم عليه أجراً ألبتة، سنّة الله في النبيّين والمرسلين، ولكن أسألكم المودّة في أولي القربى لكم وصلة أرحامكم، وكانت هذه الوصية بما يحمدونه من هدى الإسلام لتعصّبهم لأنسابهم، ويفسّرها قوله تعالى: (قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ)(سبأ:٤٧؛ تفسير المنار:١٢/٢١٠.).

يلاحظ عليه: كيف يفسِّر المودّة في القربى بصلة الأرحام مع أنّ مودّة القربى ليست مندوبة على إطلاقها ولذلك قال تعالى: (لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ).(المجادلة:٢٢.)

أضف إلى ذلك أنّ القرآن بلغ من الفصاحة والبلاغة ما عجز فصحاء العرب وبلغاؤهم عن مقابلته، أفهل يصحّ أن تكون المودّة في القربى هنا كناية عن صلة الأرحام والإحسان إليهم مع أنّ الأمر بذلك قد ورد بأفضل العبارات في مواضع أُخرى؟ قال سبحانه:(وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ)(الرعد:٢١.) وقال: (وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ).(الإسراء:٢٦.)

كما أنّ مودّة كلّ إنسان قريبه أمر ممدوح، لكن لا يعدّ أجراً للنبيّ بأيّ وجه فُسّر الاستثناء.

وأمّا ما هو المراد من القربى وكيف تكون مودّة القربى أجراً للرسالة مع أنّ شعار الأنبياء هو عدم طلب الأجر، فسيوافيك تفصيله في تفسيرنا لسورة الشورى بإذن الله سبحانه. ونذكر هنا شيئاً موجزاً وهو أنّ طلب هذا الأجر هو أمر صوري ويرجع نفعه إلى المسلمين، فإنّ حبّ أهل الخير والكمال يسبّب في المحبّ كمالاً لأجل أنّ الحبَّ لا ينفكّ عن الاقتداء بهم في الحياة الدنيوية.

وبعبارة أُخرى: حبُّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) وأهل بيته(عليهم السلام) الذي هو أجر الرسالة لا ينتفع به النبيّ والآل وإنّما ينتفع به المؤمنون، إذ لا ينفك الحبُّ الواقعي عن الاقتداء بهم واتّباعهم وطاعتهم.

ونِعمَ ما روي عن الإمام الصادق(عليه السلام) حيث قال: ما عرف الله من عصاه، وأنشد:

تعصي الإله وأنت تُظهر حبَّهُ *** هذا لعمرك في الفعال بديعُ لو كان حبّك صادقاً لأطعتهُ *** إنّ المحبَّ لمن أحبَّ مطيعُ

وقد بقيت هناك أُمور أُخرى أوردها صاحب المنار في المقام، ضربنا عنها صفحاً، غفر الله لنا وله يوم الجزاء.

تمّ تفسير سورة هود(عليه السلام)

١٢سورة يوسف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣) إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤) قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٥) وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦) لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ (٧) إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٨) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (١٠) قَالُوا يَا أَبَانَا مَا

لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢) قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ
وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ (١٤) فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا
أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٥) وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا
إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ
كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (١٨) وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى
دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ
الزَّاهِدِينَ (٢٠) وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ
وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا
وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢) وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي
أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ
إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ
سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ
وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ
كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩) وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي
الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ
وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا
هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ
لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنْ مِنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ
مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤) ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ
لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ (٣٥) وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا
تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا
ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ
وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٣٨) يَا
صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا
أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠) يَا
صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١)
وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢) وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي
أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا
تَعْبُرُونَ (٤٣) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (٤٤) وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ
بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ
لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧)

ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ
وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩) وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ
رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ
الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي
كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٣) وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ
أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) وَكَذَلِكَ
مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ
آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧) وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٥٨) وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ
لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٥٩) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ (٦٠) قَالُوا
سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦١) وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ (٦٢) فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦٣) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ
عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤) وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ
إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥) قَالَ لَنْ
أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦) وَقَالَ يَا
بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ
وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ
يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦٨) وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا
أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩) فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ
لَسَارِقُونَ (٧٠) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢) قَالُوا
تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي
رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ
مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ
أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧) قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ
أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا
لَظَالِمُونَ (٧٩) فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا
فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠) ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا
إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا
لَصَادِقُونَ (٨٢) قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣)
وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ
حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦) يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا
فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا

يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) قَالَ هَلْ
عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ
مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لَا تَثْرِيبَ
عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ
أَجْمَعِينَ (٩٣) وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ (٩٤) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥)
فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩٦) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا
ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ
وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ
جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي
لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١) ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا
أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ
(١٠٤) وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ
(١٠٦) أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٠٧) قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى
بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ
يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠٩) حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ
الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠) لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ
لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١)

خصائص السورة

تسمية السورة

سُمّيت هذه السورة بسورة «يوسف» لأنّها اشتملت على قصته كاملة، ولم تتكرّر القصة في سورة أُخرى، وقد ورد اسم يوسف(عليه السلام) في القرآن الكريم سبعاً وعشرين مرّة، كلّها في هذه السورة باستثناء مرّتين، حيث وردتا في سورتي: الأنعام، وغافر.(لاحظ: الأنعام:٨٤، و غافر:٣٤.)

نعم ربّما تُسمّى بأحسن القصص لما جاء في صدرها من قوله تعالى:(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ) لأنّها جزء من القرآن وهو كجميعه أحسن القصص، قال الإمام علي(عليه السلام) من كلام له في فضل القرآن:«وَأَحْسِنُوا تِلاَوَتَهُ فَإِنَّهُ أَنْفَعُ الْقَصَصِ»(نهج البلاغة: الخطبة ١١٠.)، وعن أبي جعفر]الباقر[(عليه السلام)من خطبة له:«إنّ كتاب الله أصدق الحديث وأحسن القصص»(الكافي:٣/٤٢٣، رقم الرواية٦.)، فلا منافاة بين كون السورة أحسن القصص والقرآن كلّه أحسنها، لأنّها جزء من الكلّ.

ومن خصائص هذه السورة أنّها عرضت قصّة يوسف(عليه السلام) في القرآن مرّة واحدة مكتملة، وما ذلك إلاّ لأنّ الغرض الذي سيقت له القصّة رهن الاطّلاع عليها وقراءتها كاملة في وقت واحد، وليست هي مثل سائر القصص التي يترتّب عليها الغرض ولو بذكر قسم منها دون آخر.

عدد آياتها ومحلّ نزولها

عدد آياتها مئة وإحدى عشرة آية، ولم يختلف فيه اثنان، كما أنّه لا خلاف في أنّ السورة نزلت في مكة قبل هجرة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)إلى يثرب، و ما روي عن ابن عباس استثناء أربع آيات نزلن بالمدينة: ثلاث من أوّلها والرابعة: (لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ)(يوسف:٧.).(مجمع البيان:٥/٣٩٥.) غير تامّ لمخالفته لوحدة السياق. والظاهر أنّ الجميع نزل دفعة واحدة في مكّة، وحيث لم يكن في مكّة يهود ولا نصارى حتى يدّعي المغرضون أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) قد تعلّم تلك القصة منهم، إذ أنّ معقل اليهود كان يثرب وما والاها، فهذا الأمر صار بنفسه دليلاً وبرهاناً على نبوّته، إذ أنّ سرد قصة يوسف كاملة نقية وسالمة من كلّ شين، ممّا لا يصحّ نسبته إلاّ إلى رجل موصول بربّه، ويتلقّى من وحيه الأمين، آيات كتابه المبين.

ومن غرر آيات هذه السورة قوله سبحانه: (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ)(يوسف:٢٤.)، وقوله سبحانه: (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَة أَنَا وَ مَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ).(يوسف:١٠٨.)

أغراض السورة

للسورة أكثر من غرض واحد، ولها مقاصد وعبر يقف عليها الإنسان عند قراءة السورة بأكملها، وربما نشير إليها بعد الفراغ من تفسيرها، ولكنّ الغرض الأسمى ـ كما بيّنه السيد الطباطبائي ـ هو بيان ولاية الله لعبده الذي أخلص إيمانه له تعالى إخلاصاً، وامتلأ بمحبته تعالى، لا يبتغي له بدَلاً، ولم يلوِ إلى غيره تعالى من شيء، وأنّ الله تعالى يتولّى أمره فيربّيه أحسن تربية فيورده مورد القرب، ويسقيه فيرويه من مشرعة الزلفى، فيخلصه لنفسه ويحييه حياة إلهية، وإن كانت الأسباب الظاهرة أجمعت على هلاكه، ويرفعه وإن توفّرت الحوادث على ضعته، ويعزّه وإن دعت النوائب ورزايا الدهر إلى ذلته وحطّ قدره.(الميزان في تفسير القرآن:١١/٧٣.)

لقد كان(عليه السلام) عبداً مخلصاً في عبوديته فأخلصه الله لنفسه، وأعزّه بعزّته، وقد تجمّعت الأسباب على إذلاله وضعته فكلّما ألقته في إحدى المهالك أحياه الله تعالى من نفس السبيل التي كانت تسوقه إلى الهلكة: حسده إخوته فألقوه في غيابة الجُبّ، ثمّ شرَوه(الظاهر أنّ الذين شروه، هم السيّارة لا إخوة يوسف، كما يأتي بيانه عند تفسير الآية.) بثمن بخس دراهم معدودة فذهب به ذلك إلى مصر وأدخله في بيت الملك والعزّة، فراودته التي هو في بيتها عن نفسه واتّهمته عند العزيز، ولم تلبث أن اعترفت عند النسوة ببراءته، ثم اتّهمته وأدخلته السِّجن فكان ذلك سبب قربه عند الملك.

وكان قميصه الملطّخ بالدَّم الذي جاءوا به إلى أبيه يعقوب أوّل يوم، هو السَّبب الوحيد في ذهاب بصره، فصار قميصه بعينه وقد أرسله بيد إخوته من مصر إلى أبيه آخر يوم، هو السبب في عود بصره إليه، وعلى هذا القياس.

وبالجملة كلّما نازعه شيء من الأسباب المخالفة أو اعترضه في طريق كماله جعل الله تعالى ذلك هو السبب في رشد أمره ونجاح طلبته، ولم يزل سبحانه يحوّله من حال إلى حال حتى آتاه الحكم والملك، واجتباه وعلّمه من تأويل الأحاديث، وأتمّ نعمته عليه، كما وعد أبوه.(الميزان في تفسير القرآن:١١/٧٣ـ٧٤.)

ومن أغراض هذه السُّورة: أنّها تسلية للنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) عمّا يلقاه من أذىً وتكذيب من خلال ذكر المصائب والشدائد التي مرّت على يوسف(عليه السلام)، والتي لم تؤثّر على عزيمته وثباته بل قاومها بإيمان وثيق، وصبر جميل، وإرادة لا تلين حتى نال الخير، كلّ الخير، وهذا هو الخط السائد في حياة جميع الأنبياء.

هذا، وقد روى المفسّرون: أنّ قريشاً عمدت إلى النضر بن الحارث الذي قضى شطراً من حياته في الحيرة بالعراق، وتعلّم فيها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث «رستم» و «اسفنديار» وقصصهم فطلبوا منه أن يجمع الناس ويقصّ عليهم من تلكم الأساطير حتى يلهي بها الناس عن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، فكان يحدّثهم عن ملوك الفرس ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثاً منّي؟ وقد كانت هذه الخطة حمقاء إلى درجة لم تدم إلاّ عدّة أيام، حتى أنّ قريشاً سئمت من أحاديث النضر، وسرعان ما تفرّقت عنه، فنزلت هذه السورة على أُسلوب استيعاب القصّة تحدّياً للمعارضة، فأين هذه السورة وما فيها من روعة التعبير وسموّ المعنى والإيجاز في البيان من أقاصيص هؤلاء المشتملة على التطويل والخرافات؟

إنّ الله سبحانه قد وصف قصّة يوسف بكونها أحسن القصص، غير أنّ الذي يجب علينا أن نشير إليه، هو الفرق بين القصص التاريخية التي دونها المؤرّخون، والقصص القرآنية التي نزل بها الوحي، وهذا ما سندرسه تالياً:

١. موضوع القصص القرآنية

يتّخذ القرآن الكريم من حياة الأُمم السابقة وحركة أنبيائهم(عليهم السلام)، محوراً لدراساته، وهذا يفترق عن منهج جلّ المؤرّخين الذين يتناولون حياة الملوك وأصحاب السلطة موضوعاً للبحث والدراسة، وربّما يغالون في نشاطاتهم وعطاءاتهم، بل يغالون في إضفاء الطابَع الأخلاقي على تصرّفاتهم على نحو لا يصدّقه العقل، ولا تؤيّده الشواهد.

ولذلك عاد التاريخ عند الشرقيّين تاريخ الملوك والحكّام، مع أنّه كان يُفترض بهم ـ بعد أن أشرقت الأرض بنور القرآن الكريم ـ التوفّر على دراسة حياة الأُمم والتاريخ الإنساني على ضوء حياة الأنبياء وحياة أقوامهم منذ أن نزلت الهداية الإلهية على الإنسان، وهذا ما نتمنّاه. ولعل الله يقيّض بعض الغيارى للقيام بهذا العبء الجليل.

إنّ القرآن لم يذكر إلاّ القليل من الأنبياء، إذ بلغ عدد من تعرّض لذكرحياتهم ودورهم في أُممهم الّتي بُعثوا لهدايتها نحو (٢٥) نبيّاً، وإلى هذه الحقيقة، أشار سبحانه بقوله:(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ)(غافر:٧٨.)، ومع ذلك فإنّ فيما ورد في قصصهم غنىً وكفاية لما فيها من عبر وعظات ودروس تُستجلى من مواقفهم، وأهم محطّات حياتهم، ومآل أقوامهم وما أصابها من بأساء وضرّاء، جزاءً لما اقترفوا من أعمال.

ولم يقتصر القرآن الكريم على بيان الأحداث الّتي جاد بها الزمان في بيئات محدودة، بل تعرّض للأحداث الّتي جرت في العواصم الكبيرة والمدن البعيدة، ولذلك عبّر عنها بـ«أنباء القرى» قال تعالى:(ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ).(هود:١٠٠.)

وممّا يحسن ذكره أنّ القرية في مصطلح القرآن الكريم هي النقطة المعمورة، سواء أكانت صغيرة أم كبيرة حتّى أنّه عبّر عن مصر الفراعنة بالقرية، قال تعالى:(وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا)(يوسف:٨٢.)، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على امتداد دائرة التبليغ السماوية للأنبياء وشمولها لكافّة أرجاء المعمورة، قال سبحانه: (وَإِنْ مِنْ أُمَّة إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ).(فاطر:٢٤.)

وكان الأنبياء يتّخذون من أُمّ القرى ـ الّتي هي العاصمة ـ مركزاً لتبليغهم حتّى تتمّ الحجّة على أهل القرى المحيطة بها من مختلف المدائن والأمصار، يقول سبحانه: (وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً)(القصص:٥٩.)، لوجود الصلة بين أُمّ القرى، وفروعها.

٢. غايات القصَص القرآنية

إنّ الاطّلاع على حياة الماضين والوقوف على آثارهم ومعرفة ما ألمّ بهم من الحوادث والكوارث، مثار العظات ومصدر العلم بالسنن الإلهية في تكوين الأُمم وإصعادها وإهباطها. ولذلك تجد كلّ إنسان يميل إلى التاريخ، وكلّ يتحرّى منه غاية تناسبه

ومقصداً يخصّه.

والغاية الّتي تستهدفها القصص القرآنية تأتي في سياق الهدف القرآني العام الّذي يتمثّل في الدعوة إلى الله تعالى وإلى اتّباع منهجه الّذي اختطّه للإنسان وسعادته ورقيّه، والتحذير من العصيان وتنكّب طريق الإيمان. وتكريساً لهذا الهدف، جاءت القصص القرآنية من أجل إيقاف الإنسان على حياة الأُمم السالفة وعوامل عزّتها ومنعتها، أو هبوطها وسقوطها، ومن ثمّ الوقوف على سنن الله سبحانه في تاريخ الأُمم، والّتي تُفضي إمّا إلى تكريم وإعزاز، أو إبادة وإهلاك.

أمّا القصص الّتي ينسجها الخيال البشري والقصّاصون المحترفون فلها غايات تباين غاية القصص القرآنية، إمّا في نمط الغاية أو في سعتها وشمولها، فالكثير من القصص ينشد تحريك المشاعر باتّجاه أغراض محدودة حتّى وإن كانت خيّرة أو مؤقتة كاللذائذ المادية، وقد ترمي إلى تأجيج الغرائز الحيوانية عند الإنسان، إلى غير ذلك من الغايات المتدنّية.

فهذا أبو القاسم الفردوسي صاحب الملحمة الفارسية الكبيرة والمسمّاة بـ «الشاهنامه» قد أمضى ثلاثين سنة في نظمها واشتملت على ستين ألف بيت، وكانت الغاية التي يقصدها هي المفاخرة بالآباء والأجداد، وذكر ما خاضوا من معارك دامية مع أعدائهم، وهذه الملحمة وإن كانت تحمل جوانب أدبية ممتازة لكنّها كانت مهتمة بجانب ضئيل من الحياة.

وأمّا الغايات الّتي يريدها القرآن الكريم في قصصه، فهي على طرف النقيض من أهداف القصص الخيالية.

ويمكن تبيين غاياتها كما يلي:

أ. الدروس والعبر

تحدّث القرآن الكريم عن حياة الأُمم بألوانها المختلفة وأشار إليها وهي في أوج رقيّها، وذروة قوّتها وعظمتها، ثم لفت الأنظار إليها وهي تأخذ بالانحدار إلى قعر الذُّلّ والهوان. ومن خلال هذا السرد التاريخي لحياة الأُمم، تتجلّى لنا الأسباب الكامنة وراء النصر والظفر، أو الهزيمة والفشل، والعوامل الّتي أدّت بهم إلى هذا المصير، وبذلك يقتطف المتدبِّر النصائح والعبرَ النافعة.

ومن هنا صارت القصص القرآنية خير ذكرى للمؤمنين، كما قال تعالى:(وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ).(هود:١٢٠.)

أو سبباً لتحريك التفكير الإنساني (فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)(الأعراف:١٧٦.)، أي يتّخذون القصص عبرة في حياتهم حتّى يتحرّزوا عن المزالق والمهالك.

ب. وحدة هدف الأنبياء

تشهد الآيات القرآنية على أنّ الهدف الوحيد من بعث الأنبياء هو نشر التوحيد في العبادة بين الناس، لأنّه ليس في صحيفة الوجود من هو أهل للعبادة غير الله تعالى، فكان لزاماً على الإنسان أن يعبده، ويجتنب الطاغوت، قال سبحانه:(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّة رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ).(النحل:٣٦.)

وأمّا سائر مراحل التوحيد من التوحيد الذاتي والتوحيد الربوبيّ، فإنّها وإن كانت ذات أهمية بالغة، بيْدَ أنّنا نرى الأنبياء قد ركّزوا على التوحيد في العبادة، وما ذاك إلاّ لأنّ الانحراف عنه، كان هو الأمر الغالب دون المراتب الأُخرى.

فإذا تمعّن الإنسان في قراءة الآيات الكريمة الواردة حول حوار الأنبياء ودعوتهم يجد أنّهم كانوا ذوي مشروع واحد ودعوة مشتركة حيث كانوا يركّزون على أمر واحد، وهو التوحيد في العبادة كما قلنا، كما أنّ طواغيت أعصارهم كانوا يركّزون على الشِّرك فيها، وهذا يدلّ على أنّ الجميع ينطلقون من مصدر واحد إلى هدف فارد.

ومن أجل هذا أمر سبحانه المؤمنين بعدم التفريق بين الرسل بقوله:(لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَد مِنْ رُسُلِهِ).(البقرة:٢٨٥.)

ج. تثبيت فؤاد النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)
تعرّض الأنبياء والرسل لأنواع الشدائد، وصنوف الأذى والتنكيل من أقوامهم، حتّى لقد سُفكت دماء فريق منهم على مذبح الهداية والدعوة إلى الحقّ والخير. وقد اقتضت حكمته تعالى إيراد أنباء هؤلاء الرسل وذكرَ قصصهم لتثبيت قلب النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) وحثّه على المضيّ في درب الدعوة والتبليغ، وتقوية عزمه على ما يلقاه من إعراض وجحود واستهزاء وأذىً كبير من قومه، وتذكيره بسنّته تعالى في أنبيائه الذين لم يظفروا بثمرة النصر إلاّ بصبرهم على أشواك الطريق ومصاعبه. وإلى هذه الغاية يشير قوله سبحانه:(وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ).(هود:١٢٠.) هذه غايات ثلاث تستهدفها القصص القرآنية، وهناك غايات أُخرى نوكل بيانها إلى محلّ آخر. فلنرجع إلى الأمر الثالث وهو بيان خصائص قصص القرآن وميزاتها.
٣. خصائص القصص القرآنية
القصص الرائجة بين الأُمم(من غير فرق بين شعب وآخر) لها خصائص وميزات يتفرّد كلّ بها، فبعضها يغلب عليه إثارة القوى الحيوانية الشهوية والغضبية وتهدف إلى المجون والخلاعة، وأُخرى تدعو إلى العنصرية والتعالي وتفضيل شعب على آخر، وثالثة إلى غرس فضيلة من الفضائل في النفوس، إلى غير ذلك من الميزات. إنّما المهمّ أن نقف على ميزات القصص القرآنية وخصائصها، ونذكر منها ما يلي:
أ. الموضوعية والواقعية
تمتاز القصص القرآنية بالموضوعية والواقعية، خلافاً لأكثر ما يكتب باسم القصة، فإنّها وليدة خيال الكاتب الّذي يحلّق في سماء الوهم فيأتي بحوادث يصوّرها من عنده بما ينسجم والجوّ الّذي يريد أن يخلقه في قصّته. وعندما يحسّ القارئ أن لا واقعية للقصّة يقلُّ تأثّره بها في مجال العبرة والاتّعاظ، وهذا بخلاف ما لو كانت القصّة حاكية لظاهرة واقعية برزت على سطح الحياة وظهرت آثارها الإيجابية والسّلبية، فعندئذ يتّخذ القارئ منها دروساً وعظات وافرة، ويتأثّر بمعطياتها. إنّ الذكر الحكيم يشير إلى هذه الميزة في غير واحدة من آياته ويقول:(إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ)(آل عمران:٦٢.). فهذه الآية ـ كما نرى ـ تشير إلى أنّ ما في هذا القصص، هو أُمور واقعية وليست خيالية.
ب. تصحيح التحريف
ما يقصّه القرآن الكريم من أنباء الرُّسل والأنبياء مع أُممهم، ممّا لم ينفرد به القرآن الكريم، بل سجّلته أيضاً الكتب السماوية السالفة، ولكن المائز بينهما أنّ القرآن الكريم حينما يذكر هذه القصص يسردها على ما هي عليه منزَّهةً عن الترّهات والأباطيل والخرافات، في حين ترى الكتب السماوية الأُخرى المتداولة مشحونة بها. ومن هنا أصبح القرآن الكريم مهيمناً على الكتب السماوية، أي ميزاناً لتمييز الحقّ عن الباطل الوارد في الكتب المعروفة بالسماوية. قال تعالى:(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ).(المائدة:٤٨.) فالكتاب العزيز بما أنّه مصدّق لما ورد فيما سبقه من الكتب ومسيطر عليها، فهو يقصّ ما ورد فيها على نهج صحيح، ويبيّن ما هو الحقّ من القصّة عمّا أُلصق بها من زيادات، أو وقع فيها من تحريف. فلو رغب كتابيّ في الوقوف على التوراة أو الإنجيل الصحيحين، فعليه أن يرجع إلى القرآن الكريم وبخاصّة في المواضع المشتركة،

فإنّه سوف يجد الحقّ الّذي لا مرية فيه.

ج. الإيجاز في سرد القصّة

يحلم أغلب القصّاص في كتاباتهم وكلماتهم بالتسلية والفكاهة والإثارة وإبراز قدراتهم في الوصف والبيان، وهذا ما يدعوهم إلى الإطناب، والإشارة إلى كلّ جوانب القصّة سواء أكان مهمّاً أم لا، مؤثّراً كان أم غير مؤثّر، لأنّ الهدف عنده هو التفكّه والإلهاء والإثارة، ولكنّ القرآن الكريم لا يستهدف سوى الإشارة إلى الآثار الإيجابية في قصصه، ولذا يوردُ شيئاً ويُعرض عن شيء، وما هذا إلاّ لأنّه يذكر المؤثّر في كلامه، وبيت القصيد في بيانه.

وقلّما يتّفق أن يذكر القصّة من أوّلها إلى آخرها وفي عامّة خصوصيّاتها، إلاّ في مورد واحد وهو قصّة يوسف، لأنّ الإيفاء بالغرض فيها رهن ذكرها جميعاً في موضع واحد، بخلاف سائر القصص، الّتي تكرّر عرض كثير منها في القرآن الكريم، موزّعة حلقاتها على أكثر من سورة منه، مع التأكيد على (أنّه ما من قصّة، أو حلقة من قصّة قد تكرّرت في سورة واحدة، من ناحية القَدْر الّذي يُساق، وطريقة الأداء في السياق، وأنّه حيثما تكرّرت حلقة كان هنالك جديد تؤدّيه، ينفي حقيقة التكرار).(في ظلال القرآن:١/٦٤.)

ولهذا نجد أنّ قصة أبينا آدم وغيره قد توزّعت على أكثر من سورة واحدة، لأنّ الغرض الّذي يرمي إليه القرآن، هو تجلية الأبعاد التربوية والخلقية من القصّة، وإبراز مواضع العبرة منها، فيذكر منها ما يكون مؤثّراً في الغاية الّتي سبق لأجلها الكلام.

وكأنّ القرآن الكريم واعظ متحرّق، ومربّ شفيق يريد تربية المجتمع الإسلامي على الخلق العالي، والقيم السامية، ولذلك يستشهد بما جرى في حياة الأنبياء من حوادث، ويعطف نظر القارئ إلى هذا الجانب ولا يبتغي الإلهاء والتطويل.

***

الآيات الست الأُولى(الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ *.... إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ).

(الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ * إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ * قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ).

المفردات

المبين: الظاهر بنفسه أو المظهر لحقائق الدين وأحكام الشريعة وأسرار النشأتين.

عربياً: أي باللّغة العربية.

القصص: يمكن أن يكون مصدراً، من قصّ يقصّ قصصاً بمعنى الاقتصاص، تقول: قصّ الحديث يقصّه قصصاً. ويمكن أن يكون فَعْلاً بمعنى المفعول أي المقصوص كالنقض بمعنى المنقوض، ومنه النّبأ بمعنى المنبأ به، والخبر بمعنى المخبر به.(تفسير الكشاف:٢/١٢١.) والثاني أنسب لسياق الآية كما سيوافيك.

أبتِ: تاء التأنيث عوض عن الياء، والأصل يا أبي .

لا تقصص رؤياك:أُريد به الإخبار بها على وجه الدقّة والإحاطة.والرؤيا مختصّة بما كان منها في المنام، وأمّا في اليقظة فيطلق عليها الرؤية.

الأحاديث: أُريد بها الرؤى المنامية. قيل: وسمّيت بها باعتبار حكايتها والتحدّث بها. وقيل: الأحاديث هنا جمع حديث بمعنى

الشيء الحادث.

آل: أصلها أهل، وهو خاصّ بمن لهم شرف وخطر في الناس، كآل النبيّ وآل البيت.

التفسير

١. (الـر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ):

قوله تعالى: (الر) من الحروف الواقعة في فواتح بعض السور، ويعبّر عنها بالحروف المقطّعة، وسوف يوافيك الكلام حولها مفصّلاً في تفسير سورة الأحقاف. ونُجمل القول فيها هنا بأنّها إشارة إلى أنّ القرآن الكريم مؤلّف من هذه الحروف التي هي في متناولكم، فلو كان القرآن تأليفاً بشرياً غير مستند إلى الوحي فليَقم فصحاؤكم وبلغاؤكم بتأليف سورة تضاهي ما في القرآن الكريم(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ).(البقرة:٢٤.)

قوله تعالى:(تِلْكَ) والإشارة بالبعيد لأجل التعظيم، نظير قوله سبحانه: (ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ)(البقرة:٢.).

ذكر الطبرسي في معنى الإشارة في قوله:(تِلْكَ) وجوهاً أوضحها أنّه إشارة إلى الآيات التي نزلت على رسول الله قبل هذه السُّورة وكانت في أذهان المؤمنين وغيرهم، ويتلوه الوجه الثاني، وهو أنّه إشارة للآيات الواردة في السُّورة نفسها.(لاحظ: مجمع البيان:٥/٣٩٦.)

ومهما يكن، فقد أُشير به إلى قوله تعالى: (آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ).

والظاهر أنّ وصف الكتاب هنا بالمبين لأجل أنّه يبيّن في هذه السُّورة قصّة ما جرى ليوسف وأبيه (عليهما السلام)وإخوته، بعد أن كانت مجهولة عند قريش وغيرهم. أمّا في أوّل سورة يونس فجاء الكتاب موصوفاً بـ(الْحَكِيمِ)حيث قال:(الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ)(يونس:١.) مشيراً إلى أنّ السورة تشتمل على الحكمة في مجالي العلم والعمل، كما وُصف به في أوّل سورة يس قال: (يَس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ)(يس:١و٢.).

وعلى كلّ تقدير، فالاختلاف بالوصف نتيجة اختلاف مضامين السُّور.

٢. (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ):

الضمير في (أَنْزَلْنَاهُ) يعود على (الْكِتَاب) في الآية السابقة، وقوله:(قُرْآنًا) حال من الهاء في قوله:(أَنْزَلْنَاهُ). ولعلّ المصدر(القرآن) بمعنى المفعول، أي كتاباً مقروءاً على نظم وسياق خاص وكون الموحى به(مقروءاً) دالّ على أنّ اللّفظ والمعنى وحيٌ من الله سبحانه، نظير قوله سبحانه: (وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ)(النمل:٦.) خلافاً للحديث فإنّه وحيٌ بالمعنى دون اللفظ.

قوله:(عَرَبِيًّا) صفة لـ(قُرْآنًا) وأُريد به أنّ هذا الكتاب نزل بلغتكم، لماذا؟ (لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) ما فيه من الحقائق أو تعقلون أنّه كتاب من عند الله سبحانه، إلى غير ذلك ممّا يمكن أن يكون متعلّقاً للتعقّل. وكون الكتاب عربيّاً لا يلازم كون رسالته للعرب خاصّة، إذ ليس هناك ما يمنع من أن تكون رسالته (صلى الله عليه وآله وسلم) عالمية، وكتابه بلسان قومه ليتيسّر لهم إدراك معانيه وفهم معارفه وأحكامه، وأمّا مَن كان على غير لسانهم فيمكنهم الوقوف على ذلك من خلال ترجمته. وقد شاء سبحانه ـ كما اقتضت حكمته ـ أن لا يرسل رسله إلى أقوامهم إلاّ بلغاتهم لتتحقّق الغاية من الرسالة، كما يقول:(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ)(إبراهيم:٤.). هذا وبوسع قوم النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) الذين فهموا عنه رسالته أن يحملوها إلى البشر كافّة.

ثمّ إنّ الترجّي في قوله: (لَعَلَّكُمْ) ليس باعتبار المتكلّم لأنّه عالم بمَن يعقل ومَن لا يعقل، بل باعتبار المخاطب فإنّه لمّا كان بين صنفين: ينتفع، ولا ينتفع، عبّر بالترجّي. وهذه ضابطة كلّية في سائر الآيات التي جاء الترجّي في كلامه سبحانه.

٣. (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ):

قوله تعالى:(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ): أي نحن نخبرك يا محمد الأخبار الماضية، وقد خُصّ(صلى الله عليه وآله وسلم)بالخطاب ليكون مقدّمة لما في ذيل الآية، كما سيأتي (أَحْسَنَ الْقَصَصِ). القصص مصدر فلو أُريد به المعنى المصدري، يكون المعنى نقصّ عليك أحسن الاقتصاص؛ ولو كان بمعنى المفعول كالخلق بمعنى المخلوق، يكون المعنى: نحن نقصّ عليك أحسن الأخبار المقصوصة، و الثاني هو الأنسب بسياق الآية، كما ذكرنا.

ومعنى الآية: نحن نقصّ عليك أحسن ما يُقصّ من الأحاديث؛ وذلك لأنّه يتضمّن من العبر والنكت والحِكم والعجائب ما ليس في غيرها (بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) متعلّق بـ(نَقُصُّ): أي نقصّ بوحينا، والباء سببية، وما مصدرية، أي بإيحائنا (إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ): أي هذه السورة أو كلّ القرآن (وَ إِنْ) مخفّفة من الثقيلة بشهادة اللاّم في خبرها (كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ) الضمير يرجع إلى الإيحاء، أي من قبل الإيحاء (لَمِنَ الْغَافِلِينَ) غير العالمين بالقصّة، أي ما كان لك فيها علم قطّ، ولا طرَق سمعَك شيء منها.

وإنّما عبّر عن عدم العلم بالغفلة لأجل أنّها تُستعمل فيما إذا كان الشيء المغفول عنه موجوداً، ولمّا كانت قصة يوسف(عليه السلام) مذكورة في التوراة وكان النبيّ أُمّياً غير عارف بها، عبّر عن عدم علمه بالقصّة بالغفلة عنها.

رؤيا يوسف(عليه السلام) في صباه

٤. (إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ):

بدأت الآية ببيان القصة قائلة: (إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ) وهو بدل من أحسن القصص، أي اذكر قول يوسف لأبيه (يَا أَبَتِ)قد مرّ أنّ التاء هنا وقعت عوضاً من ياء الإضافة، فالأصل: يا أبي(إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ). إنّ هذه الرؤيا تعرب عن شخصية يوسف(عليه السلام) حيث رأى وهو في صغر سنّه رؤياً عجيبة، وهي أنّ أحد عشر كوكباً مع الشمس والقمر (رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ) الضمير في رأيتهم يرجع إلى الكواكب والشّمس والقمر، واستخدام الضمير الذي يختصّ بالعقلاء لغير العقلاء لغاية تصويرها من العقلاء، بشهادة أنّها سجدت ليوسف، وهذا الفعل (السجود) حاك عن الشعور والإرادة المختصّين بالعقلاء.

وإلى ما ذكرنا يرجع قول الواحدي: إنّه تعالى لمّا وصفها بالسجود صارت كأنّها تعقل، فأخبر عنها كما يخبر عمّن يعقل كما قال في صفة الأصنام:(وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ)(الأعراف:١٩٨.)، وكما في قوله: (يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ)(النمل:١٨.).(تفسير الرازي:١٨/٨٧.)

٥. (قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ):

أدرك الأب المؤمن الحنون مغزى هذه الرُّؤيا، وما سيكون لهذا الصبيّ من شأن خطير، وما ينتظره من مستقبل زاهر في ظلال العناية الربّانية والألطاف الإلهية، وأنّها تؤذن برفعة ينالها يوسف على إخوته فتثير حسدهم، ولهذا بادر إلى نُصح ابنه بأن لا يحدّث إخوته برؤياه، فيؤجّج بذلك مشاعر الحقد في قلوبهم أكثر، ويسوّل لهم الشيطان المكر به .

وعلى هذا الأساس أجابه أبوه بقوله الذي حكاه عنه سبحانه: (يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ)لأنّ الرُّؤيا تحكي أنّك ستبلغ مبلغاً من الحكمة، ويصطفيك للنبوة، وينعم عليك بشرف الدارين كما فعل بآبائك، فأخاف عليك حسد الأخوة، فاجتنب ذكر رؤياك لهم، فإنّك إن قصصت عليهم ذلك كادوك واحتالوا عليك، كما قال:(فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا)، والكيد إخفاء عمل يضرّ المكيد، ولذلك عقّبه بقوله:(إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ): أي ظاهر العداوة للإنسان، فيغريهم بالكيد لك، وإلاّ فمقتضى وشيجة الرَّحِم أن يفرحوا بمقامك وفضلك، لكنّ الشيطان لا يتركهم، بل سيدفعهم للتآمر عليك.

بقي هنا أمران:

الأوّل: من أين علم يعقوب(عليه السلام) أنّه لو قصّ يوسف(عليه السلام) رؤياه على إخوته، فإنّهم سيكيدون له؟
الثاني: أنّ تحذير يوسف من إخوته يثير في نفسه كراهة لهم، فكيف حذّره أبوه منهم؟
أمّا الأوّل: فيمكن أن يقال: إنّ يعقوب هو الأب الذي ربّاهم في بيته وقد لمس ذلك من كيفية تعاملهم مع يوسف، خصوصاً أنّ يوسف وأخاه «بنيامين» من أُمّ واحدة والآخرون من غيرها، والاختلاف في الأُمومة يؤثّر في أُسلوب التعامل والمعاشرة.
وأمّا الثاني: فيمكن أن يقال: إنّ النبيّ يعقوب كان عالماً بسجايا وخصال يوسف الرفيعة ـ وإن كان صبيّاً ـ من تألُّق الإيمان، وسمّو النفس، وكرم الأخلاق، وكلّ ذلك يصدّه عن أن يحمل ضغينة وكرهاً لإخوانه. على أنّ المورد من قبيل المتزاحمَين، إذ لولا تحذيره من الشرّ الذي سيُلحقه به إخوته عندما يحدّثهم برؤياه، فإنّ العواقب السلبية سوف تكون أشدّ فيما لو حدّثهم بها، ولم يحذّره أبوه من ذلك.
٦. (وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ).
روي عن أبي جعفر]الباقر[(عليه السلام) أنّه قال:«تأويل هذه الرؤيا أنّه سيملك مصر ويدخل عليه أبواه وإخوته؛ أمّا الشمس فأُمّ يوسف راحيل، والقمر يعقوب، وأمّا أحد عشر كوكباً فإخوته؛ فلمّا دخلوا عليه سجدوا شكراً لله وحده حين نظروا إليه، وكان ذلك السجود لله تعالى».(تفسير القمي:١/٣٣٩.)
وربّما يستظهر من قوله سبحانه: (وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا) أنّهم سجدوا ليوسف تعظيماً وتكريماً، وليس كلّ سجود عبادة للمسجود له. وسيوافيك تفصيله في محلّه.
وفي نهاية الأمر قال الواحدي: الرُّؤيا مصدر كالبُشرى والسُّقيا والبُقيا والشُّورى، إلاّ أنّه لمّا صار اسماً لهذا المتخيّل في المنام، جرى مجرى الأسماء.(لاحظ: عمدة القاري:١٥/١٨٠.)
قال صاحب الكشّاف: الرؤيا بمعنى الرؤية إلاّ أنّها مختصّة بما كان منها في المنام دون اليقظة. فلا جرَم فرّق بينهما بحرفَي التأنيث، كما قيل: القربة والقربى.(تفسير الكشّاف:٢/٣٠٣.)
دلّت الرؤيا التي رآها يوسف(عليه السلام) في منامه على أنّه سبحانه اصطفاه واختاره وجعله موضع عنايته، فقوله:(وَكَذَلِكَ): أي مثل هذا الاجتباء الذي دلّت عليه الرؤيا، فالله سبحانه يختارك لأُمور ثلاثة كلّها تدلّ على مزيد عنايته بك:
١. (يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ) من بين إخوتك أو من بين عباده، فاجتباه سبحانه عبداً من عباده، وخصّه بمزيد كرامته، وتولّى أمره فلم يكن للشيطان عليه سبيل، كما قال تعالى:(إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ)(يوسف:٢٤.).
٢. (وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ) الظاهر أنّه أُريد من الأحاديث الرؤى المنامية التي تتحدّث عن الماضي أو المستقبل، وإن كان الثاني أكثر.
ويقال: المراد بالأحاديث جمع حديث، والحديث هو: الشيء الحادث، وتأويلها: مآلها، فيكون(عليه السلام)عالماً بعواقب الحوادث الكونية، مدركاً لحقائقها بإذن الله سبحانه.
يقول السيد الطباطبائي: الظاهر المتحصّل من قصّته(عليه السلام) المسرودة في هذه السورة أنّ الأحاديث التي علّمه الله تعالى تأويلها أعمّ من أحاديث الرؤيا، وإنّما هي الأحاديث، أعني: الحوادث والوقائع التي تتصوّر للإنسان أعمّ من أن تتصوّر له في يقظة أو منام، فإنّ بين الحوادث والأُصول التي تنشأ هي منها والغايات التي تنتهي إليها اتّصالاً لا يسع إنكاره، وبذلك يرتبط بعضها ببعض، فمن الممكن أن يهتدي عبد بإذن الله تعالى إلى هذه الروابط فينكشف له تأويل الأحاديث والحقائق التي تنتهي هي

إليها.(الميزان في تفسير القرآن:١١/٨٠.)

إنّ التأويل مصدر باب التفعيل، أي إرجاع الشيء إلى واقعه وحقيقته وهو يختلف حسب اختلاف موارده، فإن كان موضعُ الإبهام هو الكلام فيراد به إرجاع الكلام المبهم إلى ما قُصد منه برفع الإبهام من خلال القرائن الحافّة به، نظير قوله سبحانه: (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)(الذاريات:٤٧.)، فهذا كلام يكتنفه الإبهام ويثبت ظاهره أنّ لله سبحانه أيدياً بنى بها السماء، فرفع الإبهام عن الآية بالإمعان في القرائن الحافّة بها، تأويلٌ لها، أي إرجاع لها إلى ما قصد منه حقيقة، وهذا النوع من التأويل ناظر إلى الآيات المتشابهة.

وإن كان موضعُ الإبهام الفعل فتأويله عبارة عن ذكر مصالحه والدواعي التي حملت الفاعل على القيام به، كما هو الحال في الأعمال التي قام بها مصاحب موسى(عليه السلام) من خرق السفينة وقتل الصبيّ وبناء الجدار، فبما أنّها كانت مبهمة رَفَعَ المصاحبُ الإبهامَ وقال في آخر كلامه:(ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا)(الكهف:٨٢ .).

وإن كان مصبّ الإبهام الرؤيا الصادقة التي يكتنفها الإبهام، فتأويلها عبارة عن إرجاعها إلى الأصل الذي تبدّل إلى غيره، فإنّ الرؤيا الصادقة عبارة عن اتّصال نفس النائم بالواقع، غير أنّ النفس تتصرّف فيما تراه قبل أن تستيقظ من نومها، فعندئذ تختلف الرؤيا عن واقعها، والتأويل عبارة عن إرجاع الرؤيا إلى الأصل الذي اشتُقّت منه، وهذا هو المراد من التأويل المذكور في آيتنا. والتأويل الوارد في هذه السورة في عدّة مواضع عبارة عن إرجاع الرؤيا الصادقة المتصرّفة فيها من قبل النفس إلى واقعها الذي تحوّلت عنه، كما هو الحال في الموارد التالية:

١. رؤيا يوسف سجود أحد عشر كوكباً مع الشمس والقمر له.

٢. رؤيا أحد صاحبَيه في السجن أنّه يعصر خمراً.

٣. رؤيا صاحبه الآخر أنّه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل منه الطير.

٤. رؤيا الملك سبع بقرات سمان وسبع عجاف... إلخ.

فالتأويل في هذه الموارد تأويلُ عمل تكوينيّ وإرجاعٌ له إلى واقعه.

ما هي الرؤيا الصادقة؟

لا شكّ أنّ قسماً من الرؤى والمنامات من نسج الخيال، فللآمال التي يفكّر بها الإنسان أو الأعمال التي يمارسها في ليله ونهاره، لها تأثير في الرؤى التي يراها، كما أنّ لمزاج النائم من حرارة وبرودة لا يخلو من تأثير في كيفية الرؤيا، فهذا القسم من الرؤيا لا يعبِّر عن الواقع، وإنّما هو صنيعة القوّة المتخيّلة في عالم الرؤيا.

وهناك قسم آخر من الرؤيا يوصف بالرؤيا الصادقة أو المنامات الحقّة التي لا تتأثّر بالآمال والأُمنيات التي تدور في ذهن الرائي، أو الأفعال التي يباشرها كلّ يوم، بل عبارة عن ارتقاء النفس إلى درجة سامية يرى فيها صورة ما يقع في المستقبل، أو ما وقع قبل زمان منقطع هو عنه، وهذا يدلّ على أنّ الحقائق الخارجية الماضية والمستقبلية لها صور واقعية خارج هذا العالم المادّيّ على نحو تتّصل به نفس الإنسان، فيرى الأشياء على واقعها. يقول السيد الطباطبائي: النفس الإنسانية لتجرّدها لها مسانخة مع العالَمين: عالَم المثال، وعالم العقل، فإذا نام الإنسان وتعطّلت الحواسّ انقطعت النَّفس طبعاً عن الأُمور الطبيعية الخارجية ورجعت إلى عالمها المسانخ لها، وشاهدت بعض ما فيها من الحقائق بحسب ما لها من الاستعداد والإمكان.(الميزان في تفسير القرآن:١١/٢٧١.)

ثمّ إنّ هذا النوع من المنامات على قسمين:

تارة لا تتصرّف فيه نفس النائم وينطبق على ما يقابله في حياته من غير مؤونة إلى التأويل، وأُخرى ما تتصرّف فيه النفس من جهة الحكاية بالأمثال والانتقال من معنى إلى ما يناسبه أو يضادّه، فهذا هو الذي يحتاج إلى التأويل.

نعم إنّ بعض المادّيّين لا يرى للرؤى والمنامات حقيقة ولا للبحث عن شأنها وزناً علمياً، فكلّ المنامات عندهم أضغاث أحلام ونسيج النفس عند النوم، لكن التجارب القطعية المتواترة في كلّ عصر وقرن تبطل ذلك، ولعلّ كلّ إنسان عبر حياته رأى رؤيا صادقة، وقد احتفلت بذكرها الكتب والرسائل، وقد ذكر منها القرآن الكريم نماذج، هي:

١. رؤيا إبراهيم ذبح ولده.

٢. رؤيا النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه وأصحابه دخلوا المسجد الحرام.

ولكاتب هذه السطور تجارب في هذا الموضوع نذكر منها أُنموذجاً واحداً، وهو أنّا كنّا ندرس عند السيد الأُستاذ الإمام الخميني(قدس سره) خلال سنوات، وفي إحدى السنوات كان الجوّ في قم شديد الحرارة، فعزمت على مغادرة قم إلى موطني ومولدي، ولأجل الاستفادة من الوقت طلبت من السيد الأُستاذ شيئاً ممّا كتبه حول الأُصول، فأعطاني(رحمه الله) جزءاً منه، وبعد شهر رجعت إلى قم ونسيت أن أجلب معي ما كتبه السيد الأُستاذ، وفي أحد الأيام كنت أتحدّث مع أحد أصدقائي وقلت له: رأيت في المنام أنّ والدي قد ورد قم، ومعه هذه المذكّرات، ولم أختم كلامي هذا، فإذا بوالدي يدخل علينا مسلّماً ومبشّراً بأنّه أتى بما نسيته من هذه الأوراق المهمّة. أفيمكن أن يفسّر ذلك بالصدفة؟! كلا ولا.

وكم لهذا النوع من المنامات الصادقة شواهد ونظائر يطول بذكرها المقام.

الأمر الثالث:(وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ)، ولعلّ المراد من إتمام النعمة على يوسف هو إيتاؤه الحكم والنبوّة في المستقبل، ويجوز أن يضاف إليهما المُلك والعزّة في مصر. ولعلّ المراد من إتمام نعمته على آل يعقوب هو أنّهم سوف ينالون الخير في مستقبل حياتهم خصوصاً في أعوام القحط، وبعد ارتحالهم إلى مصر وعيشهم متنعّمين في ظلّ العزة والاستقرار، وإليه يشير قول يوسف لأبيه كما حكاه الذّكر الحكيم:(وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ)(يوسف:١٠٠) إذ لا شكّ أنّ الحياة البدَوية حياة مقرونة بالمصاعب والعناء.

وفي قوله سبحانه: (كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْحَاقَ)دليل على أنّه سبحانه كما آتاهما خير الدنيا والآخرة سيعطي يوسف(عليه السلام)خير الدنيا والآخرة.

ثمّ إنّ يعقوب (عليه السلام) يخاطب ابنه يوسف(عليه السلام) بقوله:(إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) ويعني بذلك أنّ ما فعله بآبائك من إتمام النعمة وما يفعل بك وبآل يعقوب كلّه صدر ويصدر عن علم وحكمة، فعلمه بالنفوس الصالحة صار سبباً لرفع مقامها واجتبائها الذي هو مقتضى الحكمة.

إلى هنا تمّت الحلقة الأُولى من حياة يوسف(عليه السلام) وملخَّص هذه الحلقة هو أنّه(عليه السلام) رأى في المنام رؤيا حدّث بها أباه، وعلم يعقوب(عليه السلام)بمدى عناية الله بابنه وما له من مستقبل زاهر، فنهى ابنه عن التحدّث برؤياه لإخوته.

الآيات: السابعة إلى العاشرة(لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ.... إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ).

(لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ * إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَل مُبِين * اُقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ * قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لاَ تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ).

المفردات

آيات: عِبَر ومواعظ.

للسائلين: يحتمل أن يُراد به الراغبون في معرفة الحقائق والاعتباربها، ومَن يُتوقّع منه السؤال عن المواعظ والحكم وإن لم يكونوا سائلين باللّفظ. ويحتمل أنّ في قصة يوسف آيات للذين سألوا عن خبر يوسف، فسألوا النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) وهو بمكة فقالوا: أخبرنا عن رجل من الأنبياء كان بالشام أُخرج ابنه إلى مصر، فبكى عليه حتى عمي؟ وزاد القرطبي: أنّه لم يكن بمكة أحد من أهل الكتاب ولا من يعرف خبر الأنبياء وإنّما وجّه اليهود]إليهم[من المدينة يسألونه عن هذا فأنزل الله عزّ وجلّ سورة يوسف جملة واحدة، فيها كلّ ما في التوراة من خبر وزيادة، فكان ذلك آية للنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بمنزلة إحياء عيسى بن مريم(عليه السلام) الميّت.(تفسير القرطبي:٩/١٣٠.)

عصبة: جماعة متعاضدة.

ضلال: خطأ في محبّة يوسف وأخيه، ولم يريدوا به الضَّلال في العقيدة، لأنّ القصّة تدلّ على أنّهم كانوا على دين آبائهم ومعتقدين بنبوّة أبيهم.

يَخْلُ لكم وجه أبيكم: يخل: مجزوم لكونه جواباً للأمر، وإنّما ذكر الوجه لأنّ الرجل إذا أقبل على شيء، أقبل عليه بوجهه، فعبّر عن الإقبال وعدم الالتفات إلى غيره بالوجه، وخلوّ الوجه كناية عن فقده.

غَيابة الجُبّ: غَوره وما غاب منه عن عين الناظر. والجُبّ: البئر التي لم تُطوَ ولم تنضد بالحجارة. ولعلّ أغلب آبار الصحراء من هذا القبيل.

السيّارة: جمع سيّار، وهو المبالغ في السَّير. وربّما يُفسّر بالقافلة.

التفسير
الحلقة الثانية من قصة يوسف(عليه السلام)

٧. (لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ):

هذه المجموعة تمثّل الحلقة الثانية من قصة يوسف بالنحو التالي:

كان إخوة يوسف(عليه السلام)يرَون أنّ أباهم يؤثِر يوسف وشقيقه عليهم في حبّه وعطفه، الأمر الذي أثار غيظهم وحَنقهم. ثم جاش الحقد في صدورهم، فخطّطوا لمؤامرة دنيئة يستهدفون بها حياة يوسف(عليه السلام)، وقد شرع القرآن الكريم في عرضها بأسلوب قصصي رائع، مستهلاً ذلك بقوله:(لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ)، فبدأ كلامه بلام القسم، والمقسم به محذوف، وبما أنّ هذه القصة غنيّة بالعبر والدلائل والآيات لمَن يريد الانتفاع بها والاستنارة بأضوائها في سيرة حياته، يقول تعالى:(آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ) وأمّا المؤامرة الدنيئة فترفع عنها السِّتار، الآيات التالية:

٨. (إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ):

نشاهد هنا اجتماع الإخوة لتناول قضية يوسف وأخيه التي شغلت قلوبهم وأسهرت عيونهم، وافتتحوا كلامهم بالإفصاح عن منشأ هذه القضية، وهو أنّ أباهم يحبّ هذين الأخوين أكثر منهم كما يقول: (إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا) وهذا الأمر ـ كما يتصوّرون ـ يبعث على العجب، إذ كيف يؤثِر علينا هذين الصغيرين غير القادرين على أداء الأعمال وتدبير شؤون الحياة بينما (نَحْنُ عُصْبَةٌ) قويّة ونافعة تضطلع بهذه المسؤوليات والواجبات (إِنَّ أَبَانَا) ـ حسب نظرهم المحدود بالمصالح الدنيوية الضيّقة ـ (لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ): أي لفي خطأ واضح، حيث يقدّم مَن لا يقوم بعمل على العصبة الذين بهم قوام حياته.

ولكنّ مقاييسهم وتقديراتهم هذه كانت خاطئة، لوجهين:

١. كان يوسف وأخوه أصغر أولاده، وبالطبع فهما يحتاجان إلى العناية والرعاية والمحبّة أكثر من الكبار، مضافاً إلى أنّ أُمّهما قد توفّيت ـ حسب ما في بعض الروايات ـ وهذا يستدعي الاهتمام بهما أكثر.

وما ذكرناه صحيح ولكن لازمه أن يكون يوسف وأخوه متساويين في الحب؛ لأنّ فقد الأُمّ أمر مشترك بينهما، والظاهر من الآية أنّ حبّ الأب ليوسف كان أكثر من حبّه لأخيه.

٢. أنّ الإخوة ما كانوا يدركون سرّ هذا الحبّ والاهتمام والرعاية والإكرام الذي يوليه يعقوب لولده يوسف(عليه السلام) وأنّه يعود إلى ما كان يتحلّى به(عليه السلام) من سجايا وخصال سامية، ومواهب فريدة، ولم ينكشف ذلك إلاّ بعد أحداث كثيرة وقعت ليوسف فيما بعد. كما أنّ الأحداث والوقائع أثبتت أنّ الإخوة هم الذين كانوا في ضلال مبين، وقد اعترفوا بذلك وأشاروا إليه بقولهم ليوسف: (تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا)(يوسف:٩١).

٩. (اُقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ):

ثمّ إنّ الإخوة الذين كانت نار الحسد تغلي في صدورهم تجاه يوسف(عليه السلام)، طرحوا رأيين يستهدفان إبعاد يوسف عن أبيه حتى يخلو لهم وجهه، وهذان الرأيان هما:

١. قتل يوسف وسفك دمه.

٢. إلقاؤه في أرض نائية يموت فيها أو يضلّ فيها بعيداً، فلا يهتدي إلى بيته.

وقد أشارت الآية إلى كلا القولين:(اُقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ) الذي كان يصرفه عنهم وجه يوسف، وعندئذ تستأثرون بمحبته وعطفه.

وهذا الرأيان يكشفان عن أنّ الإخوة بلغوا في الحسد درجة سلبت عن قلوبهم الرحمة والرأفة حتى صمّموا على قتل الأخ الصغير، أو طرحه في أرض بعيدة لا ناصر له فيها ولا معين، أو في أرض مَسْبَعَة.

قاتل الله الحسد يصل به الإنسان إلى هذه الدرجة من القسوة، ولذلك نجد في الروايات تعابير مؤثّرة تدعو إلى مكافحة هذه الخصلة الرذيلة.

روى الكليني في «الكافي» عن النبي الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال: «إنّ الله نهى موسى عن الحسد وقال: إنّ الحاسد ساخط لنعمي، صادّ لقَسْمي الذي قسمت بين عبادي، ومَن يك كذلك فلست منه وليس منّي».(الكافي:٢/٣٠٧).

وقال الإمام علي(عليه السلام):«وَلاَ تَحَاسَدُوا، فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الاْيمانَ، كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ».(نهج البلاغة: الخطبة ٨٦).

وقال(عليه السلام)أيضاً في خصومه الذين تألّبوا عليه في أيام خلافته: «إِنَّ هؤُلاَءِ قَدْ تَمَالَؤُوا عَلَى سَخْطَةِ إِمَارَتِي، وَسَأَصْبِرُ مَا لَمْ أَخَفْ عَلَى جَمَاعَتِكُمْ: فَإِنَّهُمْ إِنْ تَمَّمُوا عَلَى فَيَالَةِ هذَا الرَّأْيِ انْقَطَعَ نِظَامُ الْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّمَا طَلَبُوا هذِهِ الدُّنْيَا حَسَداً لِمَنْ أَفَاءَهَا اللهُ عَلَيْهِ، فَأَرَادُوا رَدَّ الاْمُورِ عَلَى أَدْبَارِهَا».(نهج البلاغة: الخطبة ١٦٩.(تمالؤوا: اجتمعوا. فيالة الرأي: ضَعفه. أفاءها عليه: أرجعها إليه).)

ثم رتّب الإخوة على كلا الاقتراحين أنّهم يكونون سعداء بأحد الاقتراحين، كما يقول: (وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ): أي يكون كلّ توجّه إليكم، وكلّ إقباله عليكم بعد أن تخلو الدار ممّن يشغله.

الظاهر أنّ المراد بالصلاح في الآية صلاح الأمر من حيث سعادة الحياة الدنيا وانتظام الأُمور فيها، والمعنى: تكونوا من بعده قوماً صالحين بصلاح أمركم مع أبيكم.

وذهب عدد من المفسّرين إلى أنّ المراد هو الصلاح الدينيّ، بمعنى: وتكونوا قوماً صالحين تائبين من هذه المعصية.

قال السيد الطباطبائي معقّباً على هذا التأويل: وفي هذا دليل على أنّهم كانوا يرونه ذنباً وإثماً، وكانوا يحترمون أمر الدين ويقدّسونه

لكن غلب عليهم الحسد وسوّلت لهم أنفسهم اقتراف الذنب وارتكاب المظلمة وآمنهم من عقوبة الذنب بتلقين طريق يمكّنهم من الاقتراف من غير لزوم العقوبة الإلهية، وهو أن يقترفوا الذنب ثم يتوبوا.(الميزان في تفسير القرآن:١١/٩٦.)

١٠. (قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لاَ تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ):

يظهر من مضمون الآية أنّه كان من بين الإخوة أخ أعقل من غيرهم، أو كان عاقلاً دون غيره، فطرح اقتراحاً ثالثاً حفظ به حياة يوسف مع حصول الغرض من دون إفراط، وهو إلقاؤه في غور بئر كما قال: (قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لاَ تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ) الواقع على طريق القوافل لكي يلتقطه بعض السيّارة، أي ليأخذه بعض المسافرين ويذهبوا به إلى بلد بعيد، وعندئذ يخلو لكم وجه أبيكم، وختم كلامه بقوله: (إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ): أي إن كنتم قاصدين لما ترومون. ولعلّ الشرط كاشف عن عدم رغبته في المشاركة في جريمتهم هذه. ويظهر ممّا يأتي أنّهم أجمعوا واتّفقوا على الاقتراح الثالث.

ثمّ إنّ قائل هذا الاقتراح عبّر بقوله: (وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ) وبما أنّه أراد به حفظ حياته يكون مراده من الإلقاء وضع يوسف في غيابة الجبّ. ويؤيّد ذلك أنّ غيابة الجبّ عبارة عن طاق في البئر فوق الماء وهو لا يتحقّق إلاّ بالوضع لا بالإلقاء، والذي يدلّ على أنّه حفظ بذلك حياته هو قوله:(يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ).

ويمكن أن يقال: إنّ صاحب هذا الاقتراح الأخير هو الأخ الأكبر وذلك أنّه ذيّل اقتراحه بقوله:(إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ): أي إن كنتم مصمّمين على تغييب يوسف عن أبيه، وهو يدلّ على أنّه لم يكن طالباً لهذا الأمر عن جدٍّ وإنّما تجاوب مع إخوانه وجاراهم بسبب وشيجة الأُخوّة. ويشهد لذلك قوله:(فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ)(يوسف:٨٠.) حيث نسب التفريط لسائر الإخوة واستثنى نفسه.

والعجب ممّا نقله القرطبي عن بعضهم أنّ أبناء يعقوب كانوا أنبياء، ولا يستحيل في العقل زلّة نبيّ، وقد كانت هذه زلّة منهم(لاحظ: تفسير القرطبي:٩/١٣٣.)، لكن غفل القائل عن أنّه لم تصدر عنهم زلّة واحدة بل زلاّت:

١. التشاور في قتله أو طرحه أرضاً، ثم الاتّفاق على إلقائه في غور البئر.

٢. الكذب على أبيهم يعقوب، حيث زعموا أنّ الذئب أكل يوسف.

٣. اتّهام يوسف بالسرقة ظلماً، حيث قالوا:(إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ).(يوسف:٧٦.)

٤. الفَظاظة في مخاطبة أبيهم، حيث قالوا له:(إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ).(يوسف:٩٥.)

فلو كان هذا شأن الأنبياء فما هو شأن العُصاة الجناة؟!

الآيات: الحادية عشرة إلى الرابعة عشرة(قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ... إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ).

(قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ * أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ * قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ * قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ).

المفردات

تأمنّا: بالنون المشدّدة المدغمة من نون أصلية، ونون جماعة المتكلّمين، فصارت اللّفظة: لا تأمنّا.

لناصحون: جمع ناصح، وهو المُشفِق المحبّ للخير الخالص عن كلّ غشّ، يقال: العسل الناصح، أي الخالص عن أيّ غش.

يرتع: أُريد به هنا الاتّساع في الملاذ. قال الراغب: الرَّتْع أصله أكل البهائم.(المفردات للراغب:١٨٧، مادّة «رتع».) ومنه المَرتَع لها، وإطلاقه على الإنسان من باب المجاز.

لَيَحزُنني: الحُزن: ألم النَّفس من فقد محبوب أو وقوع مكروه.

أن تذهبوا به: فاعل (لَيَحْزُنُنِي)بتأويله بالمصدر ذهابكم به.

أخاف: الخوف: ألم النَّفس من توقّع مكروه قبل وقوعه.

لَخاسرون: الخسران: انتفاء النّفع.

التفسير

تنفيذ المؤامرة

اتّفق الإخوة على تنفيذ المؤامرة وأخذوا برأي الأخ الكبير وهو جعل يوسف في غيابة الجُبّ، فأخذوا يفكّرون في إقناع الأب ليوافق على اصطحاب يوسف معهم وهم يعلمون تعلقّه به، فأجمعوا على خطة ماكرة تتيح لهم تحقيق بغيتهم، فبدأوا يسألون أباهم لماذا لا تطمئنّ إلينا في اصطحاب يوسف(عليه السلام)معنا، كما يقول:

١١. (قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ):

تدلّ الآية على أنّ يعقوب(عليه السلام) لم يكن يأذن ليوسف بالخروج مع إخوته للرعي أو للسباق خوفاً عليه من أن يصيبه سوء من كيدهم أو من غيرهم، ولم يكن يصرّح بذلك لكنّ سلوكه يكشف عن عدم اطمئنانه إليهم، ولذلك بدأ إخوة يوسف(عليه السلام) كلامهم بمعاتبة أبيهم قائلين:(قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ) ثم بادروا إلى إزالة شكوكه فيهم وعدم اطمئنانه إليهم، بإظهار النصح له، قائلين: (وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ) وأنّهم لا يريدون له إلاّ الخير والفلاح.

١٢. (أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ):

قدّم الإخوة اقتراحاً للأب قائلين: (أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ)وليس شيء أقرّ لعيني يعقوب من أن يتنعّم ولده ويلعب ويسرّ قلبه، ولمّا أحسّوا خشية الأب على الولد قالوا: (وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ): أي نحن نتعهّد بحمايته وحراسته.

ثمّ إنّ يعقوب فرح بقولهم:(وَيَلْعَبْ) وهذا ممّا يدلّ على أنّ المراد من اللَّعِب هو اللَّعِب الممدوح لا المذموم الذي هو ليس من شأن الأنبياء وأولادهم. ويشهد لما ذكرنا أنّ الإخوة لمّا جاءوا عشاء إلى أبيهم اعتذروا عمّا جرى بقولهم:(إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ)(يوسف:١٧.) والاستباق أمر ممدوح.

وبهذين الأمرين: أحدهما يرجع إلى تنعُّم يوسف ولعبه في جو هادئ، والآخر تضمينهم للحماية والصيانة.. بهذين الأمرين تصوّروا أنّهم قد أقنعوا الأب بإرسال يوسف معهم.

١٣. (قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ):

يظهر من جواب يعقوب(عليه السلام) أنّهم لم يقنعوه، بل كان الخوف مسيطراً عليه، ولكنّه لم يصرّح بأنّه لا يأمنهم عليه، ولذلك لم يجب على قولهم: (مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا) لأنّ الإجابة عن عدم اطمئنانه إليهم يوجب استياءهم وتذمّرهم وعدم رضاهم، بل اعتذر بأمرين و(قَالَ):

١. (إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ): أي أنّ فراقه يثير حزني حيث إنّه يؤنسني ليل نهار، فقوله: (أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ)بمنزلة الفاعل للفعل (لَيَحْزُنُنِي)والتقدير: ليحزنني ذهابكم به.

وقد يسأل سائل: كيف ينسجم قول يعقوب: (إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ) فإنّ معناه أنّ ذهاب يوسف مع الإخوة يوجب حزناً في نفس يعقوب، ويدلّ على ذلك أيضاً قوله: (إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ)(يوسف:٨٦.)، كيف ينسجم ذلك مع قوله سبحانه: (أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)(يونس:٦٢.)؟!

والجواب: الظاهر عدم المنافاة فالآية ناظرة إلى عدم حزن الأولياء على ما فاتهم من المصالح، وأمّا حزن يعقوب فإنّما كان على ولده

البارّ الذي تؤكّد سجاياه ومخايل النّجابة فيه على أنّ له مستقبلاً زاهراً.

٢. (وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ) الظاهر أنّ ما اعتذر به يعقوب كان عذراً موجّهاً، فإنّ الصحاري ذوات المراتع التي تأوي إليها المواشي وترتع فيها الأغنام لا تخلو طبعاً من ذئاب أو سباع تقصدها وتكمن فيها للافتراس والاصطياد، فقد احتمل الأب أن يُقبل الإخوة على بعض شأنهم، ويغفلوا عنه فيأكله الذئب. وبذلك يُعلم أنّ ما روي: «لاتلقّنوا الكذب فيكذبوا، فإنّ بني يعقوب لم يعلموا أنّ الذئب يأكل الإنسان حتى لقّنهم أبوهم»(مجمع البيان:٥/٤١٦.)، أمر غير ثابت، وذلك لما عرفت من أنّ يعقوب لم يكن بصدد تلقين أبنائه الكذب، وإنّما أظهر عذراً موجّهاً.

وأضعف من ذلك: أنّ بني يعقوب لم يعلموا أنّ الذئب يأكل الإنسان، إذ هو أمر بعيد ممّن يعيش وحوله مراتع وفيها ذئاب، تفترس الراعي والغنم مرّة بعد أُخرى.

١٤. (قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ):

أمّا الأمر الأوّل فلم يجب عنه الإخوة لارتباطه بالنفس ومشاعرها العاطفية، وهل يقدر أحد على تجريد النفس من مشاعرها؟ ولكنّهم أجابوا عن الأمر الثاني بالتأكيد بأنّه أمر محال حيث:(قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ) والحال نحن جماعة قويّة نحمي أخانا من كلّ بلاء، ولو فرضنا أنّ الذئب أكله (إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ)فلا جدوى فينا ولا فائدة ولا نصلح لشيء، وهو خلاف الواقع إذ نحن عصبة أقوياء.

بقي هنا أمر وهو: هل الرّتع واللعب أمر مطلوب للطفل حتى وإن كان نبياً؟

والجواب: يظهر من غير واحدة من الروايات أنّه من خصائص الطفل في مرحلة من مراحل عمره؛ روى الكليني عن يعقوب بن سالم عن أبي عبد الله[الصادق](عليه السلام) قال:«الغلام يلعب سبع سنين، ويتعلّم الكتاب سبع سنين، ويتعلّم الحلال والحرام سبع سنين».(وسائل الشيعة:١٥، الباب ٨٣ من أبواب أحكام الأولاد، الحديث١.)

وروى أيضاً عن يعقوب بن سالم رفعه قال: قال أمير المؤمنين(عليه السلام):«قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم):علّموا أولادكم السِّباحة والرِّماية».(وسائل الشيعة:١٥، الباب ٨٣ من أبواب أحكام الأولاد، الحديث٢.)

وروى الصدوق عن الإمام الصادق(عليه السلام) قال:«دع ابنك يلعب سبع سنين، ويؤدَّب سبع سنين، والزمه نفسك سبع سنين، فإن أفلح وإلاّ فلا خير فيه».(وسائل الشيعة:١٥، الباب٨٣ من أبواب أحكام الأولاد، الحديث٤.)

كما أنّ الإنسان الكبير يحتاج إلى الترفيه عن النفس، كما قال الإمام علي(عليه السلام):«لِلْمُؤْمِنِ ثَلاَثُ سَاعَات: فَسَاعَةٌ يُنَاجِي فِيهَا رَبَّهُ، وَسَاعَةٌ يَرُمُّ مَعَاشَهُ، وَسَاعَةٌ يُخَلِّي بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ لَذَّتِهَا فِيمَا يَحِلُّ وَيَجْمُلُ».(نهج البلاغة: قصار الحكم، برقم ٣٩٠.)

بقي هنا أمر آخر، وهو أنّ العياشي في تفسيره روى عن أبي حمزة الثمالي قال: صلّيت مع علي بن الحسين(عليهما السلام) الفجر في المدينة بيوم جمعة، فدعا مولاة له يقال لها سكينة وقال لها: «لا يقفنّ على بابي اليوم سائل إلاّ أعطيتموه فإنّ اليوم الجمعة» فقلت: ليس كلّ من يسأل مُحقّاً، جعلت فداك؟ فقال(عليه السلام):«يا ثابت، أخاف أن يكون بعض من يسألنا مُحِقّاً فلا نطعمه ونردّه، فينزل بنا أهل البيت ما نزل بيعقوب وآله، أطعموهم، أطعموهم».إلى أن قال: «إنّ يعقوب كان كلّ يوم يذبح كبشاً يتصدّق منه ويأكل هو وعياله، وإنّ سائلاً مؤمناً صوّاماً قوّاماً، له عند الله منزلة، مجتازاً غريباً اعترّ بباب يعقوب عشيّة جمعة عند أوان إفطاره، فهتف ببابه: أطعموا السائل المجتاز الغريب الجائع من فضل طعامكم، يهتف بذلك على بابه مراراً وهم يسمعونه، جَهلوا حقّه ولم يُصدّقوا قوله، فلمّا آيس منهم أن يُطعَم وتغشّاه اللّيل استرجع واستعبر وشكا جوعه إلى الله، وبات طاوياً، وأصبح صائماً جائعاً صابراً، حامداً لله، وبات يعقوب وأولاده شِباعاً بطاناً، وأصبحوا وعندهم فضلةٌ من طعامهم». قال:«فأوحى الله إلى يعقوب

في صبيحة تلك الليلة: لقد أذللت عبدي ذلّة، استجررت بها غضبي واستوجبت بها أدبي، ونزول عقوبتي وبلواي عليك وعلى ولدك يا يعقوب...» إلى آخر الرواية وهي طويلة.(تفسير العياشي:٢/١٦٧، برقم ٥.)

أقول: الرواية بعيدة من وجوه ثلاثة:

١. أنّ النبيّ يعقوب(عليه السلام) كان إنساناً حنوناً عطوفاً كما يظهر من تعامله مع يوسف وأخيه، فمن البعيد أن يسمع كلام السائل المجتاز الغريب الجائع، ومع ذلك يجهل حقّه ولم يصدّقه، مع أنّه كان يذبح كل يوم كبشاً يتصدّق منه.

٢. لو افترضنا أنّ النبيّ يعقوب جهل حقّ السائل وهو رئيس العائلة وكفيلها، فما هو ذنب يوسف الصغير الذي كان غير مكلَّف بشيء، قال سبحانه:(أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى)(النجم:٣٨.)؟

٣. في منطق العقل يجب أن تكون العقوبة على مقدار الذنب، فهل جزاء من جهل حقّ السائل هو ابتلاؤه بفراق ابنه هذه السنوات الطويلة، أو يُزجّ ولده في السجن سنين؟

إنّ الكثير من الروايات الواردة حول قصة يوسف، لا تخلو من هنات، فلابدّ من دراسة الأسانيد أوّلاً، والمضامين ثانياً، ومقدار موافقتها للأُصول المسلّمة في الكتاب والسنّة ثالثاً. والرواية المذكورة مرسلة في تفسير العياشي كسائر رواياته في التفسير.

الآيات: الخامسة عشرة إلى الثامنة عشرة(فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا.. وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ).

(فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ * وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ * قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ * وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ).

المفردات

أجمعوا: عزموا عزماً لا تردُّد فيه.

أوحينا إليه: ألهمناه.

عشاءً: من الغروب إلى العَتَمة.

نستبق: الاستباق: التسابق في الرمي أو في العَدْو.

متاعنا: المَتاع ما يحمله المسافر من زاد ولباس.

بمؤمن: بمصدّق.

دم كذب: أي ذي كذب.

سوّلت: زيّنت وسهّلت.

فصبر جميل: هو الصبر المجرّد عن الشكوى. روي عن النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال: «من بثّ، لم يصبر صبراً جميلاً».(المحرر الوجيز:٢/٢٢٨.)

التفسير

١٥. (فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ):

انطلق الإخوة ومعهم يوسف وهم عازمون على الغدر به كما يحكي عنه قوله تعالى: (فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ)وجواب «لمّا» محذوف، والتقدير: جعلوه في الجبّ، ويدلّ عليه قوله: (وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ)ونفّذوا ما اتّفقوا عليه، ووضعوه في أسفل البئر، ولكن اللطف الإلهي رافقه في ذلك الموقف العصيب، إذ ألقى الله في رُوعه أنّه سينجو وينبّئهم بخيانتهم هذه في المستقبل، كما

يقول:(وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ): أي إلى يوسف (لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا): أي بخيانتهم، قوله: (وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ) يحتمل وجهين:

١. هذه الفقرة حال من قوله:(وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ): أي ألهمنا يوسف، والإخوة الخونة لا يشعرون أنّنا أوحينا إليه شيئاً.

٢. أنّ الفقرة حال من قوله:(لَتُنَبِّئَنَّهُمْ): أي سوف تخبرهم بهذا الأمر دون شعورهم بأنّ الذي يحدّثهم هو يوسف نفسه، الذي غدروا به وهو صبيّ. وقد تحقّق هذا الوعد الإلهي بعد سنين متطاولة إذ قال لهم يوسف في مصر حين دخلوا عليه يطلبون الميرة: (هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ)(يوسف:٨٩).

ثمّ إنّ المراد من الوحي الإلهام، وهو نظير الإلهام لأُمّ موسى(عليه السلام) كما يقول سبحانه:(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ)(القصص:٧)، خلافاً للسيد الطباطبائي حيث يقول: إنّ ظاهر الوحي أنّه من وحي النبوّة(الميزان في تفسير القرآن:١١/١٠٠)، وهو غير تامّ، لأنّه لم يكن يومذاك نبيّاً، وإنّما اجتباه للنبوّة بعد ذلك بسنين، كما يقول سبحانه: (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)(يوسف:٢٢).

١٦. (وَ جَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ):

تمثيلية مفضوحة

اتّفق الإخوة ـ بعد تنفيذ مؤامرتهم ـ على أن يختلقوا قصّة كاذبة يبرّرون بها لأبيهم عدم عودتهم بيوسف، ومهّدوا لذلك بأن تأخّروا إلى أن حلّ الظلام، ثم اصطنعوا هذه الحالة إمعاناً في التمويه، كما يقول:(وَ جَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً): أي وقت غيبوبة الشفق الباقي من بقايا شعاع الشمس بعد غروبها (يَبْكُونَ)ولعلّ المراد يتباكون. والفرق بينهما أنّ البكاء عبارة عن سيلان الدموع عند الحزن والأسى، أمّا التباكي فهو التظاهر بالبكاء دون أن يكون نابعاً من الحزن والأسى، وأمّا تناثر الدموع فإنّ بعض الناس يستطيع إخراج دموعه إرادياً. وعلى كلّ تقدير، جاءوا في ظلام الليل، وبعد أن ذرفوا الدموع الكاذبة على فقد أخيهم:

١٧. (قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ):

قوله: (قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ): أي ذهبنا للتسابق، وفي «الكشاف»: والافتعال والتفاعل يشتركان كالانتضال والتناضل، والارتماء والترامي، والمعنى: نتسابق في العَدْو أو في الرمي.(تفسير الكشّاف:٢/٣٠٧).

يقول الرازي: فإن قيل: كيف جاز أن يستبقوا وهم رجال بالغون وهذا من فعل الصبيان؟ قلنا: الاستباق منهم كان مثل الاستباق في الخيل وكانوا يجرّبون بذلك أنفسهم ويدرّبونها على العَدْو، ولأنّه كالآلة لهم في محاربة العدوّ، ومدافعة الذئب إذا اختلس الشاة.(تفسير الرازي:١٨/١٠١).

(وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا)ليحرسه. والمراد بالمتاع ما يحمله المسافر من زاد ولباس (فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ)ونحن بعيدون عنه.

إنّ هذا العذر الواهي قد فضحهم وأبان كذبهم، لأنّ كلمة أبيهم لازالت ترنّ في آذانهم، وهو يحذّرهم من خطر الذّئب، وهم كانوا يفتخرون بقوّتهم وأكدوا قدرتهم على حماية يوسف. وبما أنّهم يعلمون أنّ أباهم لا يقتنع بهذا العذر الواهي خاطبوا أباهم بقولهم: (وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا) لسوء ظنّك بنا في شأن يوسف (وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ) في الواقع، فالإيمان إذا عُدّي باللاّم إلى المصدَّق يكون بمعنى التصديق، كما في قوله: (فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ)(العنكبوت:٢٦).

١٨. (وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ):

إنّ الإخوة الخونة أرادوا أن يقيموا شاهداً على ادّعائهم، فجاءوا بقميص يوسف وهو ملطّخ بدم مكذوب فيه، كما يقول: (وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ) ووصف الدم بالمصدر يحتاج إلى عناية وهو كون المصدر بمعنى المفعول كالخَلق بمعنى المخلوق، أي مكذوب كونه دم يوسف.

قال الشريف الرضيّ(رحمه الله)حول الآية: وهذه استعارة لأنّ الدم لا يوصف بالكذب على الحقيقة، والمراد بذلك ـ والله أعلم ـ بدم مكذوب فيه، والتقدير: بدم ذي كذب، وإنّما وصف الدم بالمصدر الذي هو الكذب على طريق المبالغة، وقيل إنّهم لطّخوا قميص يوسف بدم جَدْي ذبحوه.(تلخيص البيان في مجازات القرآن:٦٩.)

ويمكن أن يقال: إنّ النبيّ يعقوب(عليه السلام) وقف على كذبهم لوجود فلتات في ألسنتهم وصفحات وجوههم. قال عليّ(عليه السلام): «مَا أَضْمَرَ أَحَدٌ شَيْئاً إِلاَّ ظَهَرَ فِي فَلَتَاتِ لِسَانِهِ، وَصَفَحَاتِ وَجْهِهِ».(نهج البلاغة: قصار الحكم برقم:٢٦.)

وهناك احتمال آخر، وهو أنّه وقف على كذبهم من طبيعة الدّم، فالفرق بين دم الجَدي ودم الإنسان واضح لا يخفى على مثل يعقوب (عليه السلام)ولهذا وصف الدم بقوله: (بِدَمٍ كَذِبٍ).

فإن قيل: لماذا لم يطلب النبيّ يعقوب(عليه السلام) ما بقي من جسد ولده ليتبيّن كذب أولاده؟

قلت: إذا كان الكذب ملكة للإنسان فإنّه يكذب الكذبة بعد الأُخرى، ولذلك يمكن لهم أن يزعموا أنّه لم يبق من جسده شيء. أعرض يعقوب(عليه السلام) عن هذا وغيره، وصرّح باتّهامهم، كما حكاه عنه سبحانه بقوله: (قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا).

قال الشريف الرضيّ(رحمه الله) حول هذه الفقرة: هذه استعارة وحقيقة التسويل تزيين الإنسان لغيره أمراً غير جميل، فجعل تعالى أنفسَهم، لمّا قوي فيهم الإقدام على ذلك الأمر المذموم، بمنزلة الغير الذي يحسّن لهم فعل القبيح ويحملهم على ركوبهم العظيم.(تلخيص البيان في مجازات القرآن:٧٠.)

لقد أدرك النبيّ يعقوب(عليه السلام) أنّهم يكذبون، وأنّ حكاية الذئب حكاية مختلقة، وأنّ أنفسهم قد زيّنت لهم ارتكاب فعل عظيم في مسألة فقدان يوسف(عليه السلام). ونظير هذا المعنى قوله سبحانه: (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا).(الكهف:١٠٣ـ ١٠٤.)

وعلى هذا فلفظة (بَلْ) لإبطال دعواهم بافتراس الذئب له، معرباً(عليه السلام)عن أنّ فقدانه يرجع إلى صُنع هوّنت لهم أنفسهم الإقدام عليه دون أن يكون لِما وصفوا واقع. لم يتزلزل يعقوب(عليه السلام)أمام هذا الخبر الصاعق ولم يُسلَب وقارُه، بل فوّض أمره إلى الله تعالى قائلاً: (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ): أي أمري صبر جميل، فأستعين بالصبر، كما قال سبحانه: (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ)(البقرة:٤٥.).

وقد فُسّر الصبر الجميل بالصبر الذي لا يخالطه جزع، فاتّخذ الصبرَ الجميل درعاً له طالباً من الله تعالى أن يعينه على ما يصفون كما قال: (وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) وفي لفظة (تَصِفُونَ) إشارة إلى أنّ الخبر مختلق ولا واقعية له، ولو كان صادقاً لقال: والله المستعان على ما وقع. ومن جميل الأمر أنّ النبيّ يعقوب(عليه السلام)بهذه الجمل الحكيمة حفظ مكانة العائلة وموقف الإخوة، فقد كان بوسعه تأديبهم وعقابهم بأشدّ الوجوه غير أنّ ذلك يوجب تفكّك الأواصر الأُسرية، والذهاب بمكانة عائلته بين الناس.

جاء في «الدر المنثور»: أنّ يعقوب(عليه السلام) أخذ القميص وطرحه على وجهه ثم بكى حتى خضّب وجهه بدم القميص، ثم قال: إنّ هذا الذئب يا بَنيّ لرحيم، فكيف أكل لحمه ولم يخرق قميصه؟(تفسير الدر المنثور:٤/٥٠١.)

أظن أنّ القصّاصين أضافوا إلى قصة يوسف(عليه السلام) أُموراً أشبه بالخيال، فإنّ الإخوة أعقل من أن يأتوا بقميص سالم لم يُخرَق ولم يُمزَّق.

والذي يؤكّد هذا الظنّ فيما ذكره القصّاصون أنّ الإخوة كانوا أذكياء وكانوا يتشاورون بينهم فيما يدبّرون ليوسف(عليه

(السلام) من شرّ أياماً وأسابيع حتى انتهى أمرهم إلى ما ذكره الأخ الكبير، فمن البعيد أن يغفلوا عن هذا الموضوع حتى يأتوا بقميص غير مخروق!!

ثمّ إنّ كلام يعقوب(عليه السلام)، لو حُمل على الحقيقة، لا يليق بمقام الأنبياء، وإن كان على وجه التفكّه، فالمقام ليس مقام تفكّه.

الآيتان: التاسعة عشرة والعشرون(وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ.... وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ).

(وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرى هَذَا غُلاَمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ * وَشَرَوْهُ بِثَمَن بَخْس دَرَاهِمَ مَعْدُودَة وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ).

المفردات

واردهم: الوارد: الذي يَرِد الماء ليستقي للقوم.

أَسرُّوه: أخفوه.

بضاعة: سلعة يُتَّجر فيها.

شَرَوه: باعوه.

بثمن بَخْس:أي منخوس ناقص عن القيمة نقصاناً ظاهراً.

معدودة: قليلة.

الزاهدين: الزاهد في الشيء: الراغب عنه والراضي منه بالزّهيد، أي القليل.

التفسير

١٩.(وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرى هَذَا غُلاَمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ):

تمرّ إحدى القوافل فتحطّ رحالها في المنطقة وتبعث مَن يبحث لها عن الماء ويدلّهم عليه، وينطلق الوارد باحثاً عن الماء فيقف عند أحد الآبار فيدلي فيه دلوه، فيفاجأ بوجود غلام في البئر، كما يقول:(وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ): أي قافلة (فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ) ليبحث عن مكان الماء، فوقف الوارد على ذلك البئر (فَأَدْلَى دَلْوَهُ): أي أرسل دلوه إلى أعماق البئر ليستخرج الماء منه، ولعلّ يوسف تعلّق بالحبل، فلمّا أخرج الدّلو إذا هو بغلام أحسن ما يكون وجهاً، فاستبشر به أو بشّر به القافلة كما يقول: (يَا بُشْرى هَذَا غُلاَمٌ) قوله: (وَأَسَرُّوهُ): أي أخفوه. قال الزمخشري:أخفوه من الرفقة، والظاهر أنّهم أخفوا التقاطه خشية أن يكون من ولدان بعض الأحياء القريبة من الماء قد تردّى في البئر. وعلى كلّ تقدير التقطوه (بِضَاعَةً): أي سلعة تعرض للبيع . (وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ): أي والله عليم بما يعمل السيّارة من إخفاء أمرهم حيث استبضعوا ما ليس لهم.

٢٠. (وَشَرَوْهُ بِثَمَن بَخْس دَرَاهِمَ مَعْدُودَة وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ):

أُخرج الغلام من البئر وضُمّ إلى القافلة وجعلوه من جملة بضائعهم التجارية كاتمين بذلك حقيقة أمره، فغادروا المكان متّجهين إلى مصر، وهناك عرضوه للبيع باعتباره رقيقاً، فباعوه بثمن رخيص كما يقول: (وَشَرَوْهُ): أي باعوه (بِثَمَن بَخْس دَرَاهِمَ مَعْدُودَة): أي قليلة.

روي عن الإمام عليّ الرضا(عليه السلام) في قول الله عزّ وجلّ:(وَشَرَوْهُ بِثَمَن بَخْس دَرَاهِمَ مَعْدُودَة) قال: «كانت عشرين درهماً، والبخس النقص وهي قيمة كلب الصيد إذا قُتل، كان قيمته عشرين درهماً».(تفسير العياشي:٢/١٧٢)

قوله: (وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ) الضمير في (فِيهِ) يرجع إلى ما في يدهم وهو يوسف(عليه السلام)، وكانوا راغبين عنه، إمّا خوفاً من أن يظهر سرّهم أو أنّهم كانوا غير عارفين بقيمة ما في أيديهم، حيث كانوا من البسطاء الذين لا يقدّرون نفائس الأُمور.

ثمّ إنّ الظاهر أنّ الضمائر الثلاثة في قوله: (وَشَرَوْهُ) و (وَكَانُوا) و (مِنَ الزَّاهِدِينَ) تعود على السيّارة. والظاهر أنّهم باعوه في غير المحطّة التي التقطوه فيها، بل باعوه في مصر، كما سيأتي في الآية التالية.

وأمّا ما روي من أنّه بعد ما صاح الوارد بقوله: (يَا بُشْرى هَذَا غُلَامٌ)فسمعه إخوة يوسف فجاءوا فقالوا هذا عبد لنا آبق، ورطنوا له بلسانهم فقالوا: لأن أنكرت أنّك عبد لنا لنقتلنّك...إلى آخر ما جاء(تفسير الدر المنثور:٤/٥.)، فهو يخالف سياق الآية.

وعلى كلّ تقدير، فسياق الآيتين يدلّ على أنّ يوسف بيع على غفلة من الإخوة وأنّهم غير عارفين بمكانه ومصيره إلى الوقت الذي جاءوا فيه إلى مصر في الرحلة الثالثة لطلب الميرة.

أضف إلى ذلك: أنّه لو كانت الغاية عند إخوة يوسف بيعه للسيّارة فما الداعي إلى طرحه في البئر؟ بل كان في وسعهم الوقوف في نفس المكان حتى تمرّ بهم القافلة فيبيعونه لهم، فما ذُكر موافق للتوراة(انظر: الكتاب المقدّس(العهد القديم)، سفر التكوين، الإصحاح٣٧، الفقرة: ٢٦ـ٢٨.)، غير أنّ السياق يأباه. والذي يدلّ على أنّ السيّارة هم الذين باعوا يوسف لا إخوته هو الآية التالية حيث يأتي بعد ذلك: (وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ).

وجه الدلالة: أنّ المتبادر من هذه الآية أنّ المشتري هو رجل مصريّ، اشتراه في مصر، وهو لا ينسجم مع كون البائعين (إخوة يوسف) موجودين في أرض كنعان، فأين هم من المشتري في مصر؟!

وبعبارة أُخرى: الظاهر أنّ هنا بيعاً وشراء واحداً وهو فرع كون البيع والشراء متحقّقين في أرض مصر، وإلاّ يلزم أن يكون في الحادثة شراءان، وهو خلاف ظاهر الآية.

إلى هنا تمّت الحلقة الثانية من حياة يوسف(عليه السلام).

الآيتان: الحادية والعشرون والثانية والعشرون(وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ... وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ).

(وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ * وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ).

المفردات

مثواه: المثوى: المَقام، من ثوى في المكان: إذا أقام به. ويحتمل أن يراد المكانة والمنزلة، كما سيأتي في قوله:(أَحْسَنَ مَثْوَايَ).(يوسف:٢٣.)

مكّنّا: جعلناه متمكّناً، من التمكين، وهو الإقدار بما يتيسّر به التصرّف في الشيء.

أمرِه: ما قدّره وأراده.

أشُدّه: الأشُدّ واحدها شِدّة، وبلوغ الأشُد: استكمال القوّة الجسمانية والعقلية .

حُكماً: القدرة على القضاء الصحيح والإصابة في معرفة الحقائق في باب المعارف والوقائع.

التفسير

الحلقة الثالثة: يوسف في بيت عزيز مصر

٢١. (وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ):

تتضمّن هذه المجموعة الحلقة الثالثة من حياة يوسف(عليه السلام) وتبدأ بقول من اشتراه من أهل مصر، وكان ذا منصب رفيع

ويلقّب بالعزيز، فقد اشتراه وحمله إلى قصره مبدياً اهتمامه به وأتى به إلى امرأته ودعاها إلى أن تكرمه كما يحكي عنه سبحانه ذلك:(وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ): أي أوصاها أن تحسن معاملته وتكرم إقامته عندها، لما لاح عليه من صفات كريمة أحيت الأمل في قلبه بأحد الوجهين:

١. (عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا) في تحقيق مصالحنا وتدبير شؤوننا.

٢. (أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا) أو نتبنّاه، لأنّ العزيز كان عقيماً.

وهكذا قدّر الله ليوسف الذي نُبذ في البئر واعتبر عبداً رقيقاً وزُهد فيه فبيع بثمن بخس، قُدّر له أن يعيش في قصر منيف محفوفاً بالرعاية والإكرام، وأن يصبح مقتدراً على ما يُريد من أرض مصر. هذا ما يرجع إلى عناية العزيز بيوسف، وأمّا ما هي عنايته سبحانه به، فقد تضمّنت الآية أُموراً ثلاثة:

١. (وَكَذَلِكَ)إشارة إلى إخراجه من الجُبّ واستقراره في بيت عزيز مصر بأهنأ عيش، حيث أوصى العزيز زوجه بأن تكرم مثواه (مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ): أي أرض مصر، فقد استقرّ(عليه السلام) في بيت عزيز مصر الذي أنزله منه منزلة الولد، محاطاً بالعناية والتكريم، متنعّماً بنعم وافرة.

٢. (وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ): أي تأويل الرؤى. وقد مضى في تفسير الآية(٦) أنّه يجوز أن يكون المراد بتأويل الأحاديث هو العلم بالحوادث الكونيّة، وإدراك حقائقها بإذن الله تعالى. ومهما يكن فإنّ تلك المنزلة قد حصلت له بإرادة الله التي لا يردّها شيء، فهو المالك لأزمّة الأُمور، والمتصرّف فيها وفق إرادته.

٣. (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ) إذا أراد أمراً خضع له وانقاد. هذا هو حال يوسف، قد كاد له إخوته وأرادوا به شرّاً، ولكنّ الله تعالى أراد له الحياة وسموّ المنزلة، فكان ما أراد الله (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ): أي جاهلون بأنّ الأمر كلّه لله تعالى، وأنّ التدبير بيده.

٢٢. (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ):

توالت النّعم على يوسف(عليه السلام) فقد منّ الله عليه بعدما (بَلَغَ أَشُدَّهُ)بأمرين:

١. (آتَيْنَاهُ حُكْمًا): أي القدرة على القضاء الصحيح. ويحتمل أن يُراد به النبوّة.

٢. (وَعِلْمًا) لَدُنيّاً يصيب به حقائق الأشياء. وهذه المواهب الإلهية التي منحت ليوسف (عليه السلام) إنّما هي جزاء لإحسانه، المتمثّل في انقياده لله في قوله وفعله، وصبره على المحن والنوائب، وعن المعاصي، وصبره على الطاعة (وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ).

قال السيد الطباطبائي: وليس من البعيد أن يستفاد من قوله: (وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) أنّ الله تعالى يجزي كلّ محسن ـ على اختلاف صفات الإحسان ـ شيئاً من الحكم والعلم يناسب موقعه في الإحسان، وقد قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ)(الحديد:٢٨؛ الميزان في تفسير القرآن:١١/١١٩).

الآيات: الثالثة والعشرون إلى التاسعة والعشرين(وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا...نَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ).

(وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ * وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ * يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا

وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ).

المفردات

راودته: المراودة: مشتقة من راد، يرود إذا جاء وذهب. وفي «المفردات»: الرَّوْد هو التردّد في طلب الشيء برفق، والمراودة أن تنازع غيرك في الإرادة فتريد غير ما يُريد.(المفردات للراغب:٢٠٦ـ٢٠٧، مادّة «رود».)

عن نفسه: قلنا: إنّ المراودة هو أن تنازع غيرك فتريد منه غير ما يريد، ولذا فمعنى (عَنْ نَفْسِهِ): أي راودته لتصرفه عن نفسه فيطيعها.وبهذا يظهر معنى الفقرات التالية:

١. قوله تعالى: (هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي).(يوسف:٢٦.)

٢. قوله تعالى: (تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ).(يوسف:٣٠.)

٣. قوله تعالى:(وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ).(يوسف:٣٢.)

٤. قوله تعالى:(سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ).

والظاهر أنّ هذا التعبير(المراودة) من مبتكرات القرآن الكريم، وهو غاية في الاحتشام.

هَيتَ: قال الراغب: قريب من هلمّ.(المفردات للراغب: ٥٤٧، مادّة «هيت».)

وهذا اللّفظ يستعمل بمعنى «هلمّ» كما في قول الشاعر يخاطب أمير المؤمنين عليّاً(عليه السلام):

أبلغ أمير المؤمنيـ *** ـنَ أخا العراق إذا أتينا

أنّ العراق وأهلَه *** عُنقٌ إليك فهَيتَ هيتا

(جامع البيان(تفسير الطبري):١٢/٢٢٢ برقم ١٨٩٧٨.)أي هلمّ هلمّ.

واللاّم في (لَكَ) لزيادة بيان المقصود بالخطاب، كما يقولون: سقياً لك.

معاذ: مصدر من أعوذ بالله معاذاً، أي أعتصم به ممّا تحاولين، نظير قوله في هذه السورة:(قَالَ مَعَاذَ اللهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلاَّ مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ).(يوسف:٧٩.)

ربّي: بمعنى صاحبي، يقال: ربّ الدار، وربّ الضيعة.

همّت به: الهمّ: العزم على الفعل.

المخلَصين: الذين أخلصوا أعمالهم لله سبحانه.

قدّت: شقّت طولاً.

ألفيا: وجدا.

التفسير

صراع الإيمان والغريزة

تُعدّ هذه المرحلة من حياة يوسف(عليه السلام) من ألمع مراحلها، حيث تجلّت فيها قوّة إيمانه ونزاهته وعفّته، فقد حاكت امرأة العزيز له مصيدة، قلّما يتفق لإنسان أن يقع في مثلها ثمّ يخرج منها مرفوع الرأس ولا ينزل طائعاً لرغباته النفسية. وإليك هذا المشهد قبل الدخول في بيان القصّة:

تربّى يوسف(عليه السلام) ـ كما نعلم ـ في قصر عزيز مصر، وتفتّحت زهرة شبابه في أجوائه المتحرِّرة، الزاخرة باللّهو والمرح، وبين أهله المنعَّمين المُترَفين... وفي كنف امرأة، هي سيّدة القصر، وقد عشقته وهامت في حبّه، وظلّت تبعث إليه باستمرار برسائل

حبّها وغرامها، وتتفنّن في إغرائه، وتتحيّل في اصطياد قلبه.

ولكنّه(عليه السلام) كان في شغل شاغل عنها، مستمسكاً بإيمانه الوثيق، مقتصّاً أثر آبائه الكرام في التقوى والورع، مراقباً لله تعالى في حركاته وسكناته، فلم يتأثّر بتلك الأجواء، ولم يضعف أمام الفتنة أو يستسلم للإغراء والإغواء.

لم تتحمّل هذه العاشقة الوالهة، العُزوف والإعراض من محبوبها، فعزمت على إيقاعه في شباكها، مهما كلّفها ذلك من ثمن، وخطَت في هذا الاتجاه ثلاث خطوات جريئة، كما في قوله تعالى:

٢٣. (وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ):

تقدّم أنّ امرأة العزيز هيّأت لإيقاع يوسف في شباكها خطوات تشير إليها هذه الآية، وهي كما يلي:

الخطوة الأُولى: المراودة
قال تعالى:(وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ). الرَّوْد: هو التردّد في طلب الشيء برفق، مشبّهاً حالها بحال مَن يجيء ويذهب لمطلوبه. وهذا يدلّ على أنّها كانت تغريه وتخادعه وهي تدعوه إلى نفسها، مرّة بعد أُخرى. ولعلّ في قوله: (الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا) إشعاراً بتسلّط صاحبة البيت عليه، لأنّها سيّدته الآمرة الناهية المُنعِمة عليه، وكلّ ذلك يدفع يوسف لأن يستجيب لها، ويخضع لطلبها.
الخطوة الثانية: تغليق الأبواب
وهي ما أشار إليها سبحانه بقوله:(وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ). وفي تشديد الفعل في قوله:(غَلَّقَتِ) دلالة على إغلاق الأبواب إغلاقاً محكماً لا يمكن ليوسف معه الفرار. ثمّ إنّ هذا يعني أنّ المرأة استدرجت يوسف(عليه السلام) إلى مكان من القصر المتشكّل من غرف متداخلة، فغلّقتها عليه جميعاً لئلاّ يجد يوسف(عليه السلام) أيّ طريق للفرار. وهذا دليل على أنّها كانت تلمس أنّ يوسف(عليه السلام)ربّما يأبى الخضوع لما تريد.
الخطوة الثالثة: الأمر بالمبادرة
ويدلّ عليها قولها الذي حكاه عنها سبحانه: (هَيْتَ لَكَ) وهو اسم فعل بمعنى «بادرْ وأقبلْ إلى ما هو مهيَّأ لك». قال صاحب «تفسير المنار»: واقتصر على هذا في التنزيل، وهو منتهى النزاهة في التعبير، والله أعلم بما زادته من الإغراء والتهييج الذي تقتضيه الحال.(تفسير المنار:١٢/٢٧٦.) وبهذا أتمّت صاحبة البيت خطّتها بإحكام لقضاء وطرها من يوسف على كلّ تقدير. وأمّا يوسف(عليه السلام) فقد وقف من هذه الدعوة السافرة موقفاً حازماً، وانتفض انتفاضة المؤمن الصادق الّذي يخشى الله كأنّه يراه، وتفجّرت كلّ طاقته الروحية المكنونة فيه، لتجعل منه كياناً شامخاً، يستعلي على كلّ مغريات هذه الحياة الفانية.
اللجوء إلى الله
في هذه اللحظات العصيبة جدّاً، تجسّد إيمانه العميق بالله وحبّه الخالص له بهاتين الكلمتين:(مَعَاذَ اللهِ). لقد استمسك بعروة التوحيد وتعوّذ بالله فحسب، لأنّ عشقه لله وذوبانه فيه، أنساه كلّ شيء من حوله حتّى نفسه، ولذا لم يقل: إنّي أعوذ منكِ بالله، بل قال: (مَعَاذَ اللهِ). ثمّ أردف قائلاً، وهو يستذكر نعمة ربّه: (إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ).

وهل الضمير في قوله:(إِنَّهُ) هو ضمير الشأن، وأُريد من الربّ صاحب البيت، كما يقال: ربّ الدار، وربّ الضيعة، أو أنّ الضمير يرجع إلى (اللهِ) في قوله:(مَعَاذَ اللهِ) والمراد من (رَبِّي) الله تبارك وتعالى، الذي هو خالقه وربّه؟ وجهان.

وممّا يؤيد الوجه الأوّل، قوله: (أَحْسَنَ مَثْوَايَ)، ولعلّه إشارة إلى قول العزيز لامرأته، حينما أتى بيوسف(عليه السلام) إليها: (أَكْرِمِي مَثْوَاهُ).

ويؤيّد الوجه الثاني: أنّ السياق يرجّح رجوع الضمير إلى لفظ الجلالة لقربه منه في قوله:(مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي) ويعضده أمران:

١. أنّ الدافع لامتناعه عنها هو الخوف من الله تعالى، وليس مجرّد الوفاء للعزيز؛ وعلى هذا يكون المعنى: إنّ الله ربّي أحسن مثواي إذ هيّأ لي هذا المقام الكريم في بيت العزيز، فكيف أعصيه باقتراف هذا المنكر؟ فذلك ظلم للنفس بعصيانها للمنعم المدبّر أو تجاوز لحقوق الله سبحانه كما يقول: (إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ).

٢. لو كان يوسف(عليه السلام) يقصد العزيز كان الأنسب أن يقول: إنّه لا يفلح الخائنون، كما قال(عليه السلام) للرّسول وهو في السِّجن: (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)(يوسف:٥٢.)، ولم يقل: إنّي لم أظلمه بالغيب.(أُنظر: التفسير الكاشف:٤/٣٠١؛ الميزان في تفسير القرآن:١١/١٢٥.)

ومع كلّ هذا، فالوجه الأوّل ليس ببعيد، وذلك لأنّه استعاذ بالله وذكّرها بالله، غير أنّ الذي صار سبباً لهذا هو تذكير المرأة بزوجها والذي أحسن له وأكرمه، فليس من الإنصاف خيانة المنعم والمحسن، والخيانة من أقسام الظلم، والظالم لا يُفلح أبداً.

ويستمرّ القرآن الكريم في عرض مشهد الصراع بين الإيمان والغريزة، بين يوسف(عليه السلام) والّتي هو في بيتها ويقول:

٢٤. (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ):

إنّ تفسير الآية بحاجة إلى دراسة الفقرات التالية:

١. (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ).

٢. (وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أَنْ رَأَى).

٣. (بُرْهَانَ رَبِّهِ).

٤. (كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ).

تحدّثت الآية السابقة عن الحوار بين امرأة العزيز ويوسف(عليه السلام)، فظهر أنّها أصرّت على ما تريد، وامتنع هو عن الاستسلام لرغبتها الجامحة، معتصماً بالله سبحانه من أن يرتكب ما يعدّ ظلماً أو خيانة.

وأمّا هذه الآية فتريد بيان مقدار إصرار المرأة على ما تريد، ومقدار امتناع يوسف(عليه السلام) عن الاستجابة لها، فلندرس فقراتها الأربع:

الفقرة الأُولى:قوله: (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ): أي همّت امرأة العزيز بيوسف(عليه السلام)وقصدته بلا قيد وشرط، وأنّها ما هيّأت تلك الأسباب إلاّ من أجل أن يلبّي دعوتها الآثمة.

الفقرة الثانية:قوله: (وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) فيه تقديم وتأخير، والتقدير: ولولا أن رأى برهان ربّه لهمّ بها، لكنّه لم يهمّ بها إطلاقاً لمكانة البرهان.

فإن قلت: لازم هذا تقديم جواب لولا عليها وهو قبيح ـ كما قالوا ـ لأنّه في حُكم الشَّرط، وللشَّرط صدر الكلام.

قلت: قوله: (وَهَمَّ بِهَا) ليس جواباً حتى يرد عليه ما قيل، بل الجواب ما يأتي بعد قوله: (بُرْهَانَ رَبِّهِ)والتقدير: لولا أن رأى برهان ربّه لهمّ بها، فالجزاء متأخّر، وأمّا قوله: (وَهَمَّ بِهَا) متقدّماً فهو قرينة على حذف الجواب. وعلى هذا رأى يوسف(عليه السلام)

البرهان ولم يهمّ بها، فامتنع الجزاء لامتناع الشرط كما هو مقتضى «لولا» الامتناعية كما في قوله(صلى الله عليه وآله وسلم): «لولا أن أشقّ على أُمّتي لأمرتهم بالسِّواك عند كلّ صلاة».(الكافي:٣/٢٢، باب السواك، الحديث١.)

وبذلك ظهر أنّ امرأة العزيز همّت بيوسف، وأمّا هو(عليه السلام) فلم يخالطه أيّ همّ بها.

وما ذكرنا من التفسير هو خيرة جمع من المحقّقين، وما أُشكل عليه من أن لازمه تقدّم الجزاء على الشرط، قد عرفت جوابه، وأنّ قوله: (وَهَمَّ بِهَا) ليس جزاء بل دليل على حذف الجزاء، كقولك: قد كنت قمت لولا كذا وكذا، وقد كنت قصدتك لولا أنّ فلاناً صدّني، ولم يقع قيام ولا قصد، ونحو منه قول الشاعر:

فلا يَدْعني قومي صريحاً لحرّة *** لئن لَمْ أُعجِّل ضربة(طعنة) أو أُعجَّل[1]

[1] المصابيح في تفسير القرآن للوزير المغربي:١٩١.

قال أبو حاتم: كنت أقرأ غريب القرآن على أبي عبيدة، فلمّا أتيت على قوله: (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمّ بها)الآية، قال أبو عبيدة: هذا على التقديم والتأخير، أي تقديم الجواب وتأخير الشرط، كأنّه قال: ولقد همّت به ولولا أن رأى برهان ربّه لهمّ بها.(التحرير والتنوير:١٢/٤٨.)

ويؤيّد هذا التفسير، قوله سبحانه: (لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ)حيث جعل السُّوء والفحشاء مصروفين عنه، لا هو مصروفاً عنهما!! وهذا يدلّ على أنّ يوسف(عليه السلام) لم يهمّ بالسُّوء والفحشاء، وإلاّ لقال: لنصرفه عن السُّوء والفحشاء.

نعم اعترض على هذا التفسير ابن جرير الطبري بأنّ جواب «لولا» لا يتقدّم عليها(لاحظ: جامع البيان (تفسير الطبري):١٢/٢٣١.)، وقد عرفت أنّ الجواب لم يتقدّم بل الجواب محذوف لوجود الجملة المتقدّمة، فهي دليل على الجواب وليست جواباً لـ«لولا».

كما أنّ هذا التفسير هو المروي عن أئمّة أهل البيت(عليهم السلام)، فقد روى الصدوق عن علي بن محمد بن الجهم قال: حضرت مجلس المأمون وعنده الرّضا علي بن موسى(عليهما السلام) فقال له المأمون: يابن رسول الله، أليس من قولك: إنّ الأنبياء معصومون؟ قال: «بلى»، وذكر الحديث، إلى أن قال فيه: فأخبرني عن قول الله عزّ وجلّ: (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ). فقال الرّضا(عليه السلام):«لقد همّت به، ولولا أن رأى بُرهان ربّه لهمّ بها كما همّت به، لكنّه كان معصوماً، والمعصوم لا يهمّ بذنب ولا يأتيه».(عيون أخبار الرضا(عليه السلام):١/١٧٤، الباب١٥، برقم ١؛ البرهان في تفسير القرآن:٥/٢٢٣.)

تفسير آخر للفقرة

ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ كلاًّ من المرأة ويوسف قد همّا بلا شرط ولا قيد، فعلى هذا فقوله تعالى:(وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا) جملة تامّة، ثمّ ابتدأ سبحانه بقوله: (لَوْلاَ أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) شرط والجواب محذوف، وهو قوله: لفعل، ومعنى ذلك: أنّه تمّ الهمّ من يوسف بامرأة العزيز تماماً كما تمّ منها أيضاً، لكنّه لولا أن رأى برهان ربّه لفعل وأطاعها لما تريده المرأة.(مجمع البيان:٥/٤٣٣.)وأساس هذا التفسير هو قطع صلة (لَوْلاَ أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) عمّا تقدّمها، أعني: (وَهَمَّ بِهَا).

ثمّ إنّ مَن يقول بهذا التفسير يأتي بعده بجمل مخجلة يندى لها الجبين، ذكرها الزمخشري قائلاً: وقد فُسّر (همّ) يوسف بأنّه حلَّ الهميان وجلس منها مجلس المجامع، إلى غير ذلك ممّا يخجل القلم من إيراده.(لاحظ: تفسير الكشاف:٢/١٣٠.)

إنّ هذا التفسير ينافي عصمة الأنبياء كما ينافي وصف يوسف(عليه السلام) بأنّه من المخلَصين. ويكفي في ذمّ القائلين به ما ذكره بعض المفسّرين: كيف يتّهمونه بما ذكروه، وقد شهد ببراءته وطهارته كلّ مَن له تعلّق بتلك الواقعة، فالله سبحانه يشهد بذلك، إذ يقول: (إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) والشاهد الذي يشهد له من أهلها إذ قال: (إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُل) إلى آخر الآيتين، والعزيز إذ قال لأمرأته: (إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ) وامرأة العزيز إذ قالت:(وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ)، وقالت أيضاً:

(الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ) والنسوة إذ قلن:(حَاشَ للهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوء)ويوسف ينفي ذلك عن نفسه، وقد سمّاه الله صدّيقاً إذ قال: (أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ).(انظر: تفسير الرازي:١٨/١١٦.)

قال السيد الطباطبائي: وعمدة السبب في تعاطيهم هذا القول أمران: أحدهما: إفراطهم في الركون إلى الآثار وقبول الحديث كيفما كان وإن خالف صريح العقل ومحكم الكتاب، فلعبت بأحلامهم الإسرائيليات وما يلحق بها من الأخبار الموضوعة المدسوسة، وأنستْهم كلَّ حق وحقيقة، وصرفتهم عن المعارف الحقيقية.

ولذلك تراهم لا يرون لمعارف الدين محتداً وراء الحسّ، ولا للمقامات المعنوية الإنسانية كالنبوّة والولاية والعصمة والإخلاص أصلاً إلاّ الوضع والاعتبار، نظائر المقامات الوهمية الاعتبارية الدائرة في مجتمع الانسان الاعتباري التي ليست لها وراء التسمية والمواضعة حقيقة تتّكئ عليها وتطمئن إليها، فيقيسون نفوس الأنبياء الكرام على سائر النفوس العاميّة التي تنقلب بين الأهواء وبلغت بها الجهالة والخساسة، فإن ارتقت فإنّما ترتقي إلى منزلة التقوى ورجاء الثواب وخوف العقاب، تصيب كثيراً وتخطئ، وإن لحقت بها عصمة إلهية في مورد أو موارد فإنّما هي قوّة حاجزة بين الإنسان والمعصية لا تعمل عملها إلاّ بإبطال سائر الأسباب والقوى التي جُهِّز بها الإنسان، وإلجاء الإنسان واضطراره إلى فعل الجميل واقتراف الحسنة، ولا جمال لفعل ولا حسن لعمل ولا مدح لإنسان مع الإلجاء والإضطرار.

الثاني: ظاهر قوله تعالى: (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أَنْ رَأى بُرْهَانَ رَبِّهِ)بناء على ما ذكره النُّحاة أنّ جزاء «لولا» لا يتقدّم عليها قياساً على إن الشرطية، وعلى هذا يصير قوله: (وَهَمَّ بِهَا) جملة تامّة غير متعلّقة بالشرط، وجواب «لولا» قولنا: «لفعل» أو ما يشبه ذلك، والتقدير: ولقد همّت امرأة العزيز بيوسف، وهمّ يوسف بها لولا أن رأى برهان ربّه لفعل، وهو المطلوب.

وقد عرفت فساد ذلك، وأنّ الجملتين معاً أعني قوله:(وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ)وقوله: (وَهَمَّ بِهَا) قَسَميتان، وأنّ جزاء لولا في معنى الجملة الثانية حذف لدلالتها عليه، والكلام على تقدير: وأُقسم لقد همّت به وأُقسم لولا أن رأى برهان ربّه لهمَّ بها، نظير قولهم: والله لأضربنّه إن ضربني.(الميزان في تفسير القرآن:١١/١٣٤.)

تفسير الهمّ بالضرب والانتقام في كلا الموردين

وهناك تفسير ثالث: وهو جعل متعلّق الهمّ الضَّرب والانتقام، فإنّ امرأة العزيز لمّا رأت نفسها على عتبة الهزيمة من غرضها ثارت ثائرتها فأرادت الانتقام، ولذلك همّ يوسف بضربها، فيكون الهمّ في كلا الفقرتين إرادة الضرب، وهذا ما ذكره صاحب المنار في كلام مبسوط، قال: أجمع أهل اللغة أنّ الهمّ إنّما يكون بالأعمال لا بالشخوص والأعيان، ويشهد على ذلك الآيات التالية:

١. قوله سبحانه حكاية عن المشركين في سورتي: الأنفال والتوبة أنّهم همّوا بإخراج الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)من بلده مكّة، لكنّهم لم يفعلوا، لأنّهم خافوا أن يستجيب له غيرهم من العرب فيقوى أمره.

٢. حكى عن المنافقين أنّهم همّوا بما لم ينالوا، إذ حاولوا أن يشرّدوا به بعيره في العقبة، منصرفاً من غزوة تبوك، فلم ينالوا مرادهم عجزاً منهم وحفظاً من ربّه له.

٣. قوله تعالى: (وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ)(النساء:١١٣.) ولكنّه قدّم هنا (لولا) فكان دليلاً على أنّهم فكّروا في ذلك، أي إضلال النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) وما قاربوه.

٤. وقال تعالى في بعض المؤمنين: (إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلاَ)(آل عمران:١٢٢.): أي تتركا المُضيّ مع الرسول للقتال يوم أُحد.

ففي هذه الآيات تعلّق الهمّ بالفعل لا بالشخص، فمنه قوله: (هَمّت بِهِ): أي وتالله لقد همّت المرأة بالبطش به لعصيانه أمرها،

وهي في نظرها سيّدته وهو عبدها، وقد أذلّت نفسها له بدعوته الصريحة إلى نفسها بعد الاحتيال عليه بمراودته عن نفسه، ومن شأن المرأة أن تكون مطلوبة لا طالبة، ومراوَدة عن نفسها لا مراوِدة... إلى أن قال: ولكن هذا العبد العبراني الخارق للطبيعة البشرية في حسنه وجماله، وفي جلاله وكماله، وفي إبائه وتألّهه، قد عكس القضية، وخرق نظام الطبيعة والعوائد بين الجنسين، ثم قال: ولا علاج لهذا الفاتن المتمرّد إلاّ تذليله بالانتقام. هذا ما ثار في نفس هذه المرأة المفتونة بطبيعة الحال (كما يقال) وشرعت في تنفيذه أو كادت، بأن همّت بالبطش به في ثورة غضبها، وهو انتقام معهود من مثلها، وممّن دونها في كلّ زمان ومكان، وكاد]يوسف[يردّ صيالها ويدفعه بمثله، وهو قوله تعالى: (وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أَنْ رَأى بُرْهَانَ رَبِّهِ) ولكنّه رأى من برهان ربّه في سريرة نفسه، ما هو مصداق قوله تعالى: (وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ)(يوسف:٢١.)(تفسير المنار:١٢/٢٧٧ـ ٢٧٨.)

ونضيف على ما ذكره أنّ يوسف(عليه السلام) لو همّ بالبطش بها ولم يرَ برهان ربّه، لظهر أثر الضرب والبطش في امرأة العزيز، وهذا ما يجعل منه دليلاً على أنّه هو الذي راودها عن نفسها فامتنعت، ويكون ذلك سبباً لإدانة يوسف(عليه السلام).

يلاحظ على هذا التفسير: أوّلاً: أنّ ما ذكره من أنّ الهمّ لا يتعلّق بالشخص بل بالفعل، صحيح، لكنّ القرائن تشهد على أنّ ما هو متعلّق الهمّ جدّاً، محذوف، وذلك لنزاهة التعبير، أي همّت بالفحشاء، أو نظير ذلك.

وثانياً: أنّ قيام امرأة العزيز بضرب يوسف(عليه السلام) لغاية الانتقام إنّما يتحقّق إذا يئست من مطاوعته، مع أنّ الآية التالية، أعني: استباقهما إلى الباب وجرّ قميصه من دُبر، أظهر دليل على أنّها كانت راجية ومطمئنّة بجذب يوسف(عليه السلام) إلى ما تريد، فكيف تقوم بضربه انتقاماً بسبب اليأس؟

وثالثاً: أنّ ما ذكره قول شاذّ مخالف لفهم عامّة المفسّرين.

ثمّ إنّ بعض المعاصرين الذي يتتبّع الأقوال الشاذّة في رسائله اختار رأي صاحب المنار، وأضاف دليلاً آخر وقال: إنّ تفسير الهمّ في كلا الموردين بالعزم على العمل يورث التكرار، لأنّه دلّ على عزمها وإرادتها العمل، قوله في الآية المتقدّمة:(هَيْتَ لَكَ) فما هو المبرّر للتكرار؟

يلاحظ عليه: أنّ وجه التكرار هو أنّ يوسف(عليه السلام) استعاذ بالله سبحانه وقال: (مَعَاذَ اللهِ) فجاء البيان القرآني في الآية التالية لبيان نجاته من المكيدة، فلذلك بدأ بذكر الهمّ من كلا الجانبين، فرتّب عليه أنّ يوسف(عليه السلام)رأى برهان ربّه أي أراه الله سبحانه برهان ربّه فلم يهمّ، وبذلك صرف عنه السوء والفحشاء.

إلى هنا تمّ الكلام في الفقرتين الأُولى والثانية، وبقي الكلام في الفقرة الثالثة.

الفقرة الثالثة: ما هو المراد من برهان ربّه؟

قال تعالى:(لَوْلاَ أَنْ رَأى بُرْهَانَ رَبِّهِ) فيقع الكلام فيما هو المراد من البرهان الذي رآه يوسف(عليه السلام)وعصمه من الهمّ بامرأة العزيز؟ هناك عدّة وجوه ذكرها المفسرون منها:

أ. أنّه حجّة الله سبحانه في تحريم الزّنا، والعلم بالعذاب الّذي يستحقّه الزّاني.

ب. أنّه ما أتاه الله سبحانه من آداب الأنبياء وأخلاق الأصفياء في العفاف وصيانة النفس عن الأدناس.

ج. أنّه النبوّة المانعة من ارتكاب الفواحش، والحكمة الصارفة عن القبائح.

د. أنّه اللُّطف الّذي لطف الله تعالى به في تلك الحال أو قبلها فاختار عنده الامتناع عن المعاصي، وهو ما يقتضي كونه معصوماً، لأنّ العصمة هي اللُّطف الّذي يختار عنده التنزّه عن القبائح والامتناع عن فعلها، ويجوز أن تكون الرؤية هاهنا بمعنى العلم كما يجوز أن تكون بمعنى الإدراك.(مجمع البيان:٥/٤٣٤.) هذه هي الوجوه المذكورة.

وهناك احتمال آخر، وهو أفضل من الجميع وهو أنّه تمثّل واقع الفحشاء ونتائج هذا العمل السيِّئ في الحياتين عنده، وهذا صار سبباً للاعتصام وعدم الهمّ. وكان التمثُّل على حدّ كأنّه رأى النتائج بأُمّ عينيه، وتسمية ذلك بالبرهان من باب المشاكلة، فكما أنّ الحجج القاطعة تصدّ الإنسان عن الاعتقاد بالخلاف أو ارتكاب عمل يكون على جانب الخلاف من البرهان، فهكذا تمثُّل نتائج المعصية يصدّ الإنسان عن الهمّ بها. ولعلّ هذا هو المراد من اللُّطف في الوجه الرابع.

الفقرة الرابعة: ما هو المراد من صرف السوء والفحشاء عن يوسف(عليه السلام) وأثر إخلاصه في ذلك؟

اقتضت إرادته سبحانه أن يعصم يوسف(عليه السلام) من السُّوء والفحشاء لأنّه من الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته واصطفاهم لرسالته، كما في قوله: (كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ).

إنّ قوله: (كَذَلِكَ) نظير قوله فيما سبق:(وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ)، ومعنى ذلك: أريناه كذلك رؤية لنصرف عنه السُّوء.

وأمّا السُّوء وهو القبيح فالمراد به هنا خيانة مَن ائتمنه، وقيل: كيد امرأة العزيز، وقيل: هو ما كان همّ به من أذاها، وقيل: هو مقدّمات الفاحشة من النَّظر بشهوة وغيره. والفحشاء هي أقبح أنواع المعاصي، والمراد بها هنا الزّنا.

ثمّ إنّ قوله: (لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ) من ألطف البيان لتنزيه يوسف عن ارتكاب أيّ عزم قبيح أو فعل شنيع، فالآية تدلّ على أنّ السُّوء والفحشاء هما اللّذان قصداه فصرفهما الله سبحانه عنه، وإلاّ فلو كان يوسف قاصداً للسُّوء والفحشاء، لكان الصحيح أن يقول: لنصرفه عن السوء والفحشاء.

ثمّ إنّ التعليل (لِنَصْرِفَ) دليل على أنّ يوسف لم يهمّ أصلاً، وأنّه امتنع عن الهمّ لأجل وجود رؤية البرهان، وإلاّ فلو كان الهمّ مطلقاً بلا قيد لكنّه سبحانه أتى بالصارف لَمَا صحّ أن يقول: لنصرف عنه السُّوء والفحشاء، لأنّ الهمّ المطلق من مصاديق السُّوء، وقد صار يوسف ـ حسب الفرض ـ مصدراً له.

٢٥. (وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ):

نجاة يوسف من المكيدة

إنّ الأجواء الحافلة بالمغريات التي أحاطت بيوسف(عليه السلام)، كانت تستدعي الاستسلام لدعوة امرأة العزيز التي كانت تصرّ على تلبية رغبتها بينما كان هو(عليه السلام)يأبى ذلك ويمتنع أشدّ الامتناع، واستمر النزاع بينهما مدّة، الله أعلم بحدّها، إلى أن حسمه بالتصميم على الهرب من الغرفة للتخلّص منها، فجرى نحو الباب وجرت هي خلفه مسعورة لتمنعه، فلحقت به قبل أن يهرب من الباب فجذبت قميصه من الخلف فخرقته، وفي هذا الوقت فوجئا بمجيء الزوج، كما يقول:(وَاسْتَبَقَا الْبَابَ) الباب منصوب بنزع الخافض وأصله واستبقا إلى الباب، يعني تبادرا الباب، أي طلب كلّ واحد منهما (يوسف(عليه السلام) وامرأة العزيز) السبق إلى الباب؛ أمّا يوسف فإنّه كان يقصد أن يهرب منها، ومن ركوب الفاحشة؛ وأمّا هي فإنّما كانت تطلب يوسف(عليه السلام) لتقضي حاجتها منه، وتقصد أن تغلق الباب، وتمنعه من الخروج، وتراوده ثانياً عن نفسه. مجمع البيان:٥/٤٣٦.

(وَ)الحال (قَدَّتْ) امرأة العزيز (قَمِيصَهُ): أي قميص يوسف(عليه السلام) (مِنْ دُبُرٍ) ففوجئا بقدوم الزّوج، كما قال: (وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا) العزيز (لَدَى الْبَابِ). وإطلاق السيِّد على الزوج كان أمراً شائعاً بين المصريّين. وبما أنّ امرأة العزيز غلّقت الأبواب، فالظاهر أنّ يوسف(عليه السلام) سبق إلى الباب وفتحه ثمّ باباً آخر إلى أن انتهى إلى الباب الخارجي فعندئذ وجد العزيز يريد الدخول إلى البيت من ذلك الباب.

وفي هذه اللحظات الحاسمة يتميّز العشق الإلهي عن العشق الغريزي ويفترق العاشقان في المسلك والموقف، فالأوّل منهما لا

يتراجع عن أُمنيته وحبّه، ويجاهر بها مادامت الدماء تجري في عروقه، والثاني منهما يتراجع بسرعة، فبدل أن يعترف العاشق بحبّه وعمله، يتّهم المعشوق بتهمة مخزية كما تراه في المقام حيث (قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً). أفرغت الكلام في قالب كلّي ليأخذ صبغة القانون، فاتّهمت يوسف(عليه السلام) بالتعدّي على أهل السيّد فصارت مدّعية، والعجب أنّها ـ مع ذلك ـ صارت قاضية وأصدرت حكمها على المتّهم (إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ): أي لابدّ أن يجازى بالسجن أو العذاب. ولعلّ مرادها من العذاب، هو الضرب و القتل، وفي التعبير (بِأَهْلِكَ) مكان (نفسها) نوع من التحريض، وتهييج الزوج على مؤاخذته.

نعم في التردّد بين السجن والعذاب الأليم نوع إشارة إلى بقاء حبّها له، حيث تردّدت لكي لا يؤخذ يوسف(عليه السلام) بالثاني.

ومن ذكائها أنّها لم تصرّح باسم المعتدي ـ على زعمها ـ ولا المعتدى عليه ـ أعني: نفسها ـ تأدّباً في حضور زوجها واحتراماً لساحته. وطبيعة الموقف كانت تقتضي أن يبتدئ يوسف(عليه السلام)بالكلام ويشتكي من زوجة العزيز ولكنّه تأدّباً وحفظاً لستر العائلة وعفافها لم يبدأ بالكلام وسكت، وإنّما بادرت المرأة إلى الشكوى، واتّهمته وأصدرت حكمها عليه، وعند ذلك لم يجد يوسف (عليه السلام)بـدّاً من بيان الحقيقة:

٢٦. (قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُل فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ):

بدأ يوسف(عليه السلام) بكلامه و(قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي): أي لم أردْها بالسوء، بل هي التي أرادت ذلك منّي، وراودتني عن نفسي، قال ذلك بلهجة المطمئن بنزاهته دون أن يؤكّد كلامه بقسَم أو غيره، أو يذكر ما جرى بينه وبينها من كلام كأن يذكر قولها: هيت لك، وذلك حفظاً لشؤون العائلة.

لقد فوجئ العزيز بهذه الحادثة التي تمسّ كرامته، ولكنّه لم يشأ أن يحكم فيها، بل حكم فيها أحد أقارب الزوجة كما يقول:(وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا) وضمير التأنيث حاك عن أنّه كان من أقارب الزوجة، قيل: هو ابن عمّ لها، وكان رجلاً حكيماً .

ثمّ إنّ هنا قولاً آخر، وهو أنّ ذلك الشاهد كان صبيّاً أنطقه الله تعالى في المهد.

ثمّ إنّ الرازي ردّ هذا الوجه بوجهين:

١. لو أنطق الطفل بهذا الكلام لكان مجرّد قوله: إنّها كاذبة، كافياً وبرهاناً قاطعاً لأنّه من البراهين القاطعة القاهرة، والاستدلال بتمزيق القميص من القُبُل والدُّبُر دليل ظنّي، والعدول عن الحجّة القاطعة حال حضورها إلى الدلالة الظنّية لا يجوز.

يلاحظ على الرد: أنّه إنّما يتمّ إذا شهد الصبيّ بكذبها، ولكنّ الظاهر أنّه شهد بما في الآية بتمزيق القميص من قُبُل أو دُبُر، وعندئذ لم يكن محيص إلاّ بملاحظة القميص.

٢. أنّ قول الشاهد لا يقع في العرف إلاّ على مَن تقدّمت له معرفة بالواقعة وإحاطة بها.(تفسير الرازي:١٨/١٢٣ـ ١٢٤.)

يلاحظ عليه: أنّ الإشكال مشترك، فابن العمّ أيضاً لم يشاهد الواقعة.

إلى هنا تمّ ردّ الرازي على القول بأنّ الشاهد هو الصبيّ، وقد عرفت أنّ ردوده ليست بتامّة.

ثمّ إنّ السيد الطباطبائي ـ خلافاً للرازي ـ أيّد هذا القول بقوله: فليس من البعيد أن يكون التعبير عن قول هذا القائل بمثل: (وَشَهِدَ شَاهِدٌ) إشارة إلى كون ذلك كلاماً صدر عنه من غير تروٍّ وفكر فيكون شهادةً لعدم اعتماده على تفكّر وتعقّل، لا قولاً يعبّر به عرفاً عن البيان الذي يبتني على تروٍّ وفكر، وبهذا يتأيّد ما ورد من الرواية أنّه كان صبيّاً في المهد، فقد كان ذلك بنوع من الإعجاز أيّد الله سبحانه به قول يوسف(عليه السلام).(الميزان في تفسير القرآن:١١/١٤٣.)

أقول: مع أنّنا لم نقبل ردود الرازي على هذا القول الذي اختاره السيد الطباطبائي، لكن هذا القول ضعيف؛ لأنّ المتبادر أنّ الشاهد كان شخصاً بالغاً رشيداً مثل العزيز وامرأته وهو لا ينطبق على الصبيّ، على أنّ الشهادة صدرت حين الخروج من الغرف

نحو باب البيت، فوجود الصبيّ هناك أمر بعيد، خصوصاً أنّ الظاهر من قوله لامرأته (عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا) أنّ العزيز وامرأته، كانا لا يُنجبان، فما معنى وجود الصبيّ في داخل القصر؟

وقد جعل الشاهد مبنى قضائه وتشخيصه وجود الشقّ في قميص يوسف(عليه السلام)، حيث إنّه يدلّ على منازعتهما ومواجهتهما، فقال: (إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) فجعل شقّ قميص يوسف(عليه السلام)من قُبُله، طولاً، دالاً على كذبه وصدق الامرأة. وسوف يوافيك كيف يكون ذلك دليلاً على كذبه وصدقها.

٢٧. (وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ):

(وَ) أمّا (إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ): أي قميص يوسف(عليه السلام) (قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ)امرأة العزيز (وَهُوَ): أي يوسف(عليه السلام) (مِنَ الصَّادِقِينَ).

وعندئذ يقع الكلام، كيف استدلّ الشاهد بإحدى الحالتين على أحد الأمرين، وهو أنّ شق القميص من قُبُل، شاهد على صدق المرأة وكذب يوسف، وشقّه من دُبُر على العكس؟ ويمكن بيان ذلك بالنحو التالي:

أنّه لو كان يوسف هو الذي نازعته نفسه وهجم عليها فوقفت امرأة العزيز أمامه للمواجهة والدفاع، فلازم ذلك أن يُقَدّ قميص يوسف من قُبُل لأنّه علامة المواجهة والدفاع، وأمّا إن كان الطلب من المرأة، فقد ركضت خلف يوسف عند هربه، فقدّت قميصه من دُبُر، فشَقُّه من ذلك الجانب يدلّ على هروب يوسف ومتابعتها له ولذلك شُقَّ قميصه من دُبُر. ولسيد قطب هنا تعبير يقرب ممّا ذكرنا، قال: فإن كان قميصه قُدّ من قُبُل فذلك إذن من أثر مدافعتها له وهو يريد الاعتداء عليها فهي صادقة وهو كاذب، وإن كان قميصه قُدّ من دبر هو إذن من أثر تملّصه منها وتعقّبها هي له حتى الباب، وهي كاذبة وهو صادق.(في ظلال القرآن:٤/٧١٣.)

ثم وصف قوله بالشهادة مع أنّه لم يشهد الواقعة، فلعلّه لأجل أنّ قوله آلَ إلى إظهار الحقّ في إثبات اعتداء يوسف(عليه السلام) على سيّدته، أو دحضه.

٢٨. (فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ):

لمّا رأى العزيز أنّ قميص يوسف(عليه السلام) قد شُقّ من الخلف، أذعن أنّ يوسف(عليه السلام) كان يفرّ من بين يدي المرأة فجذبته المرأة حتى شقّت قميصه كما يقول: (فَلَمَّا رَأَى) العزيز (قَمِيصَهُ):أي قميص يوسف (قُدَّ مِنْ دُبُرٍ): أي شقّ منه، خاطب امرأته و (قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ) معاشر النساء (إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ) وأُريد بالكيد أنّها أرادت إشباع غريزتها، لكنّها تظاهرت بأنّ يوسف(عليه السلام) هو الذي أراد ذلك الأمر.

واحتمل الزمخشري أنّه إشارة إلى قولها: (مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً).(تفسير الكشّاف:٢/١٣٢.)

كان المترقّب أن يستفزّ ذلك الحادث الجلل غَيرة العزيز، ويثير نخوته، فيبادر إلى معاقبة زوجته أو تعنيفها بشدّة، خاصّة بعد أن أيقن بعزمها على ارتكاب الفاحشة وخيانته في فراشه، بيد أنّه اكتفى بأمرين، كما في قوله تعالى:

٢٩. (يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ):

عدم الغيرة من آثار الترف

قلنا إنّ العزيز اكتفى بأمرين:

١. أمر يوسف بالإعراض وكتمان الخبر وعدم إذاعته، وقال:(يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا): أي عن هذا الأمر والشأن ولا تكشفه.

٢. أمر زوجته بالاستغفار وقال: (وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ).

نقل صاحب المنار أنّ الكرخيّ استدلّ بقول العزيز لزوجه على أنّه كان قليل الغَيرة، وزعم أبو حيّان في «البحر» إن هذا مقتضى

طبيعة تربة مصر وبيئتها، وإنّها لرخاوتها لا ينشأ فيها الأسد، ولو دخل فيها لا يبقى.

وبما أنّ صاحب المنار كان يسكن مصر، فقد ردّ هذا الاستدلال بقوله: وهذا كلام غير مبنيّ على علم صحيح، وأمّا سبب عدم نشوء الأسد في هذا القطر فهو خلوّه من الغابات التي يعيش فيها، وأمّا كونه إذا أُدخل لا يبقى، فإن صحّ بالتجربة في الماضي، فسببه عدم وجود المأوى، وها نحن نرى الأسود والفهود والنمور تعيش وتتناسل في حديقة الحيوان في الجيزة.(تفسير المنار:١٢/٢٨٩.)

أظنّ أنّ استدلال الكرخي وتأييد أبي حيّان، ودفاع صاحب المنار، كلّ ذلك قد وقع في غير محلّه، وأنّ الآية تدلّ على عدم الغَيرة لدى صنف خاصّ من الناس، وهم المترفون الخانعون لمُتع الحياة، الغارقون في الرذائل والمفاسد، وفي حبّ النِّساء والغرام بهنّ، من غير فرق بين المصريّ وغيره، وأنّ دفاع صاحب المنار ليس بأعلى شأناً من كلام الكرخيّ.

وما ذكرناه هو الذي أيّده سيد قطب قائلاً: إنّها الطبقة الأرُسْتقراطية(الأرُسْتقراطية: طبقة اجتماعية عالية تدّعي أنّها أرفع منزلة من غيرهم من الناس بسبب صِلاتهم الأُسرية وثرواتهم وقدراتهم.)من رجال الحاشية في كلّ جاهلية، قريب من قريب.(في ظلال القرآن:٤/٧١٤.)

وفي الختام نقول: هكذا تبعث حياة اللّهو والترف على التحلّل من القيّم، والميوعة في اتّخاذ المواقف الحازمة بشأنها.

ثمّ إنّ في هذه الآية الأخيرة من الأُسلوب ما يسمّى بالإقبال تارة وبالالتفات ثانياً، وهو غير عزيز في الكلام البليغ، قال أحمد بن محمد المرزوقي(المتوفّى ٤٢١هـ) في «شرح الحماسة»: والعرب تجمع في الخطاب والإخبار بين عدّة، ثم تقبل أو تلتفت من بينهم إلى واحد لكونه أكبرهم أو أحسنهم سماعاً وأخصّهم بالحال.(نقله عنه ابن عاشور في التحرير والتنوير:١٢/٥٣.)

الألطاف الإلهية الخفيّة

إنّ لله تعالى ألطافاً خفيّة وراء ألطافه الظاهريّة قد يحمي بها عبده عند الشدائد والأزمات، فلو لم يكن هناك ـ عندما فوجئ يوسف(عليه السلام) وامرأة العزيز بسيدّها ـ شاهد من أهلها أو كان ثمّة شاهد ولكن لم يقع نظره على قميص يوسف الذي قُدّ من دُبُر، لصار يوسف(عليه السلام) محكوماً بأشدّ العذاب، إذ لم تتبيّن للعزيز براءته، هذا إذا لم يكن حبّه لامرأته يدفعه إلى تصديقها والأخذ بقولها. والعجب لقميص يوسف ولِما ترتّب عليه من آثار، فيوماً يفضح إخوة يوسف عندما جاءوا به أباهم وهو ملطّخ بدم كذب، ويوماً يفضح امرأة العزيز لأنّه قُدّ من دُبر قدّاً، وثالثة صار سبباً لعَود النور والبصر إلى عيني أبيه، كما يأتي في قوله سبحانه:(فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا).(يوسف:٩٦.)

الآيات: الثلاثون إلى الرابعة والثلاثين(وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ.... إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ).

(وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَال مُبِين * فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَة مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ للهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ * قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ * فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ).

المفردات

شَغَفَها: الشَّغاف، غلاف القلب. يقال: شغفت فلاناً إذا أصبت شغافه، كما تقول: كَبَدْته، أي أصبت كَبِدَه.

بمكرهنّ: قولهنّ الذي أردن به انتقاصها وإشاعة أمرها.

أعتَدَت: أصله أعددت، قلبت الدال تاء، بمعنى هيّئت.

المُتَّكأ: ما يُتّكأ عليه من الكراسي والأرائك أو النّمارق(الوسائد)، قال تعالى في صفة الجنّة:(مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ)(الإنسان:

١٣).

أكبَرْنه: أعظَمْنه، ودُهشنَ من جماله الرائع.

قطّعن أيديهنّ: جَرَحْنها.

حاش لله: تعبير يراد به التعجب والتنزيه.

فاستعصم: استمسك وامتنع.

الصاغرين: الصاغِر: الذليل المُهان.

أصبُ إليهن: الصّبْو: الميل إلى المحبوب. والمعنى: أمِلْ إلى موافقتهنّ.

الجاهلين: سفهاء الأحلام.

كيدهنّ:خداعهنّ.

التفسير
محاولة امرأة العزيز تبرير عملها

انتشرت في المدينة أخبار ما يدور في قصر العزيز، وتلقّفتها النِّسوة ـ على عادتهنّ ـ فرُحن يتحدَّثنَ ـ لغرض في نفوسهنّ ـ عن قصة تعلّق سيدة القصر ذات المقام الاجتماعي الرفيع، بمملوكها الذي اشتراه زوجها بثمن زهيد، واكتوائها بنار حبّه، وتهالكها في بذل نفسها له، على حدٍّ وصفْنَ حبَّها له بأنّه أصاب شغاف قلبها، أي غلافه، كما يحكي عنهنّ سبحانه ذلك بقوله:

٣٠. (وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ):

قوله:(وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ) النِّسوة اسم مفرد لجمع المرأة، قال جار الله الزمخشريّ:تأنيث غير حقيقي ولذلك لم تلحق فعله تاء التأنيث.(تفسير الكشاف:٢/١٣٣).

وقال الشيخ الطوسي:(وَقَالَ نِسْوَةٌ) لأنّه تأنيث جمع قُدِّم عليه الفعل، وتأنيث الجمع تأنيث لفظ يبطل تأنيث المعنى، لأنّه لا يجتمع في اسم واحد تأنيثان، وكما يبطل تذكير المعنى في رجال، فإذا صار كذلك جاز فيه وجهان، إن حُمل على اللّفظ أُنِّث، وإن حُمل على المعنى ذُكِّر.(التبيان في تفسير القرآن:٦/١٢٩).

قوله: (امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ): أي امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعانيّ، وأردن بذلك انتقاصها (قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا) في تفسيره وجهان:

١. أنّ الحبّ بلغ شَغاف قلبها وهو داخله. ومعنى ذلك أنّ الحبّ ملأ قلبَها حتى اخترق الشَّغاف.(المصدر نفسه).

٢. أنّ حبّها ليوسف صار على قلبها كالشّغاف، فكما أنّ الشَّغاف يحيط بالقلب فهكذا أحاط الحبُّ قلبها.(رحمة من الرحمن في تفسير وإشارات القرآن من كلام ابن العربي جمع وتأليف محمود محمود الغراب:٢/١٨٢).

وكلاهما كناية عن تمكّن الحبّ في نفسها (إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ): أي في خطأ وبُعد عن طريق الصواب، إذ كيف تعشق المرأة ذات الجمال والمقام عبدها الكنعانيّ حتى خرق الحبّ شغاف قلبها؟!!

٣١. (فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ):

أدركت امرأة العزيز غرض هذا الحديث الذي يُراد به النَّيل منها ومن شأنها، وفكّرت في طريقة تتيح لها إطلاعهنّ على محنتها التي تعانيها، لتلمس العذر لها، وتشفي غيظها منهنّ، وهي تشهد انهيارهنّ أمامها، فأقامت لهن مأدبة في قصرها ووفّرت لهن

وسائل الراحة والانبساط، وأعدّت لهن وسائد يتّكئنَ عليها، أو أرائك يجلسن عليها، وقدّمت لهن الطعام والسكاكين، وبينما كنّ يتفكّهنَ ويستعملنَ السّكاكين عند الأكل، أمرت يوسف(عليه السلام) بأن يخرج عليهنّ، فلما رأين طلعته أجللنه، وجرحنَ أيديهنّ من فرط التعجّب والذهول، وصرّحن بأنّ هذا ليس بشراً، بل هو ملك كريم في جماله وبهائه، وهذا ما تحدّث عنه البيان القرآني في هذه الآية.

قوله: (فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ) أُريد بالمكر الاغتياب لأنّه كان في خفية وحال غَيبة، كما يخفي الماكر مكره (أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ): أي دعتهنّ عن طريق رسول (وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً): أي هيّأت لهنّ ما يتّكئنَ عليه، والمشهور تفسير المتّكأ بالنمارق أو الأرائك التي يُتّكأ عليها (وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَة مِنْهُنَّ سِكِّينًا): أي أمرت خدمها بالإيتاء، والسّكين آلة قطع اللَّحم والفواكه. وعندما بدأن يستعملن السّكاكين عند الأكل أمرت يوسف(عليه السلام) بالخروج عليهنّ (وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ) وبما أنّ الخروج يتضمّن معنى الدخول عُدّي بعلى، ولعلّ التعبير بالخروج لأجل كونه وراء السّتار (فَلَمَّا رَأَيْنَهُ)النّسوة، صدرت منهنّ أُمور:

١. (أَكْبَرْنَهُ) أعظمنَ جماله وشمائله، وتحيّرن في جماله إذ كان كالقمر ليلة البدر.

٢. (وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ): أي جَرحْنَها، كما تقول: كنت أقطع اللحم فقطعت يدي، تريد جرحتها.

٣. (وَقُلْنَ حَاشَ للهِ مَا هَذَا بَشَرًا): أي تنزّه الله تعالى عن العجز، حيث قدر على خلق جميل مثله (مَا هَذَا بَشَرًا)بل هو في حُسن الوجه وجمال المنظر فوق أن يكون بشراً (إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ) في حُسن صورته وجمال خَلقِه وخُلقه.

قال السيد الطباطبائي: إنّ تقدّم قولهنّ هذا على قول امرأة العزيز: (فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ) يدلّ على أنّهنّ لم يقصدن بهذا الكلام إعذار امرأة العزيز في حبّها له وتيمها وغرامها به، وإنّما كان ذلك اضطراراً منهنّ على الثناء عليه وإظهاراً قهرياً لانجذاب نفوسهنّ وتولّه قلوبهنّ إليه فقد كان فيه فضاحتهنّ، ولم تقل امرأة العزيز:(فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ) إلاّ بعدما فضَحتْهنّ فعلاً وقولاً، بتقطيع الأيدي وتنزيه الحُسن، فلم يبق لهنّ إلاّ أن يصدّقْنها فيما تقول ويعذرنَها فيما تفعل.(الميزان في تفسير القرآن:١١/١٥٠ـ ١٥١.)

٣٢.(قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ):

اعتراف امرأة العزيز بالحقيقة دون حياء نجحت الخطّة الماكرة لامرأة العزيز، فانبرت تصرّح، وهي ترى مصرعهنّ أمام هذا الجمال الباهر، بما في نفسها و(قَالَتْ فَذَلِكُنَّ) مركّب من «فاء» الفصيحة واسم الإشارة «ذا» و الضمير المؤنث «كنّ» وهو خطاب للنِّسوة،(ورد في عمدة القارئ:٦/١٦٢ قوله:«إذا خاطبت إناثاً قلت: ذلكنّ».) والمعنى: هو هذا العبد الكنعانيّ الذي صوّرتنّ في أنفسكنّ، ثم بمجرّد وقوع أعينكنّ عليه طارت عقولكنّ ممّا رأيتنّ فقطّعتنّ أيديكنّ، فهذا هو (الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ) وأسرفتنّ في لومي وتعنيفي وقلتنّ ما قلتنّ، فكيف إذا عشتنّ معه ليل نهار(انظر:تفسير الكشاف:٢/١٣٥.)؟!

ثمّ اعترفت بالحقيقة دون حياء، وقالت:(وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ): أي دعوته إلى مرادي(فَاسْتَعْصَمَ): أي امتنع عن الاستجابة لي. ثمّ أردفت قائلة في صلافة وتحدّ، بحضور المدعوّات اللّواتي لم يكنّ أقلّ منها وقاحة وتهتّكاً (وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ)الضمير يرجع إلى الموصول أي ما آمر به (لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ): أي الأذلاّء. والتقدير: ليسجننّ ويكونن، والنون في (لَيُسْجَنَنَّ) نون التوكيد الثقيلة وفي (لَيَكُونًا)نون التوكيد الخفيفة، وربّما تبدّل إلى الألف ـ كما في المقام ـ قال ابن مالك:

و أبدِلَنْها بعدَ فتح ألِفا *** وَقْفاً كما تقولُ في قِفَنْ قِفا

جدير بالتنبيه أنّ كلام امرأة العزيز بهذه الصراحة في هذا المجلس العام يدلّ على أنّ هذا العمل الشائن لم يكن عيباً ولا

مستهجناً عند هذه الطبقة.

إنّ اعتصام يوسف(عليه السلام) أمام غرام امرأة العزيز وولعها أمر جميل يُحمد عليه، حيث إنّ امرأة العزيز ظهرت، وقد عرضت نفسها على يوسف الصّدّيق، بأفتن الثياب وأجمل الزينة، ومع ذلك لم تجد منه إقبالاً عليها، وأعجب من ذلك اعتصام يوسف (عليه السلام) أمام هؤلاء النِّسوة اللّواتي لم يكنّ من عامة النِّساء، بل هنّ نساء الطبقة المترفة، فتهيّأن للحضور وتبرّزن بأحسن الجمال وأوقع الزينة على ما هو الدأب في أمثال هذه المجالس والحفلات ومن أمثال تلك السيّدات، وكلٌّ تتمنّى أن ترى يوسف (عليه السلام)وتشاهد ما عنده من الحُسن الذي أوقع على امرأة العزيز ما أوقع وفضحها، ومع كلّ ذلك، ثبت يوسف(عليه السلام) في مواجهة هذه الفتن، ولم يضعف أمام هذه المغريات.

٣٣. (قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ):

مناجاة يوسف(عليه السلام) وترجيحه السِّجن على ارتكاب المعصية

وجد يوسف(عليه السلام) نفسه مقحماً في أجواء مشبعة بالفتنة والإغراء، ووسط كلمات الإعجاب والحبّ والغرام، وأمام التهديد الصارم لامرأة العزيز بسجنه وإذلاله، فتوجّه إزاء هذه الضغوط القاسية إلى ربّه، وأخذ يناجيه قائلاً: (رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي) هؤلاء النِّسوة (إِلَيْهِ) من ارتكاب المعصية.

ثم تضرّع إليه تعالى مستمدّاً منه المزيد من اللطف والرعاية للثبات أمام هذه الفتنة التي تعصف به والتي يخشى أن يقع في شباكها وتُبعده عن رحاب الله، قائلاً: (وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ): أي خدعتهنّ في تزيين الحرام (أَصْبُ إِلَيْهِنَّ): أي أمِلْ إلى جانبهنّ.

فإن قلت: أو ليس قوله(عليه السلام): (قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ) دعاءً على نفسه بالسِّجن؟ ثم كيف يكون السِّجن محبوباً لديه، وفيه ما فيه من الأذى والمشقّة؟

قلت: إنّ معنى الفقرة: ربي إنّي لو خُيّرتُ بين السِّجن وبين ما يدعونني إليه لاخترت السِّجن وإن كان فيه أذىً للنفس على غيره، وليس فيه دلالة على أنّه دعا على نفسه بالسِّجن، وهذا نظير قول القائل: إن خيّرني الحاكم الظالم بين الظلم ودفع الغرامة لاخترتها على الظلم.

ومنه يظهر أنّه ليس في قوله: (أَحَبُّ) أنّ ما يدعونه إليه محبوب إليه، بل المراد: السِّجن محبوب لديّ دون الآخر.

وبعبارة أُخرى: صيغة أفعل التفضيل مجرّدة عن معنى التفضيل.

ثمّ إنّ يوسف(عليه السلام) أتمّ كلامه بقوله: (وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ) وفي تفسيره وجهان:

١. أنّ المراد بهم سفهاء الأحلام، فالجهل هنا في مقابل الحلم والعقل.

٢. أنّ الجهل هنا ضدّ العلم الذي أُريد به علم العصمة، فإنّ العصمة من شؤون العلم لعواقب المعصية. ومعنى الفقرة: فإنّي أتوقّ شرّهنّ بعلمك الذي علّمتنيه وتصرف به كيدهنّ، فإن أمسكتَ عن إفاضته عليَّ صرتُ جاهلاً، ووقعت في مهلكة الصَّبوة والهوى. (الميزان في تفسير القرآن:١١/١٥٢.)

٣٤. (فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ):

لم تتأخّر إجابة دعاء هذا العبد الصادق المخلص، حيث أُجيب كما يقول:(فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ) فثبّته على العصمة فلم ينخدع بكيدها ولا بكيد خلائلها، وذلك بإضافة المزيد من اللطف عليه (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)، هذه الفقرة بمنزلة العلّة لقوله: (فَاسْتَجَابَ): أي أجاب دعاءه بدون إمهال، حيث علم سبحانه بدعائه وسمعه.

الآيات: الخامسة والثلاثون إلى الثانية والأربعين(ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا.... فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ).

(ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ * وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ * يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ * يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ * وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ).

المفردات

بدا لهم: ظهر لهم.

الآيات:العلائم الدالّة على براءة يوسف من قدّ القميص من دُبُر، وقطع الأيدي.

حتى حين: إلى زمان.

فتَيان: تثنية فتى، ويراد به هنا المملوك.

تأويله: إرجاع الرؤيا إلى أصلها، أو بيان حقيقة طعام كلّ واحد منكما.

ذلكما: مركّب من أُمور ثلاثة:

ذا: للإشارة، اللاّم: للبعيد، كما: خطاب للفتّيان.

اتّبعت: الاتّباع اقتفاء الأثر، وأُريد هنا اتّباع دين آبائه.

التفسير

الحلقة الرابعة: حياة يوسف(عليه السلام) في السِّجن

بالرغم من أنّ الآيات والشواهد دلّت على براءة يوسف(عليه السلام) وطهارة ذيله، كشهادة شخص من أُسرة المرأة، واعترافها هي أمام النِّسوة ببراءته واعتصامه، إلاّ أنّ قراراً ظالماً صدر بحقّه يقضي بسجنه لأمد محدّد أو غير محدّد، لرفضه الخضوع لرغبة السيّدة الكبيرة وللتغطية على فضيحتها التي صارت حديث الناس، وإظهار أنّه هو المتجاوز دونها، ولعلّ الأمر الأخير هو العلّة الأساسية لسجنه حيث رامت أن تغطي ذلك بسجن يوسف(عليه السلام)حتى يظهر في صورة المجرمين بإرادته السُّوء بامرأة العزيز، حتى تُوهم الناس بأنّه المجرم دونها، ولذلك يحكي البيان القرآني عنهم ذلك القرار الظالم بقوله:

٣٥. (ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ):

تستعمل كلمة «بدا» في شيء ظهر بعد ما خفي، كما هو الحال في المقام، حيث عزموا على اعتقال يوسف(عليه السلام) وزجّه في السجن كما يقول: (ثُمَّ بَدَا لَهُمْ): أي لجماعة العزيز من مشير ومشار (مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ)الدالّة على براءته (لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ): أي إلى زمن محدّد عندهم. قيل: إلى سبع سنين، وقيل أيضاً: إلى خمس سنين. ويحتمل إلى وقت يُنسى حديث المرأة معه، وعلى هذا لا تكون المدّة محدّدة.

روى سيف بن عميرة قال: سمعت أبا عبد الله[الصادق](عليه السلام) يقول: «جاء جبرئيل(عليه السلام) إلى يوسف وهو في السجن،

فقال له: يا يوسف قل في دبر كلّ صلاة: اللّهم اجعل لي فرجاً ومخرجاً وارزقني من حيث احتسب ومن حيث لا أحتسب».(الكافي:٢/٥٤٩.) زُجّ(عليه السلام) في السّجن، فلبث فيه فترة ذكر القرآن الكريم بعض أحداثها، وشيئاً من دوره في تأدية مهمّته الرّسالية التي منها تأويل رؤيا فتيَين اعتُقلا مع يوسف ورأيا في المنام ما تحكيه الآية التالية.

٣٦. (وَ دَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ):

اعتقال فتيين مع يوسف(عليه السلام)

سُجن يوسف (وَ دَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ) كان أحدهما صاحب شراب الملك، والآخر صاحب طعامه، فنُمي إلى الملك أنّ صاحب طعامه يُريد أن يسمّه وظن أن الآخر ساعده على ذلك(لاحظ: تفسير الرازي:١٨/١٣٤.)، وقد قصّا ما رأياه في منامهما ويطلبان منه تعبير ما رأيا بعد أن لمسا فيه كمال العقل والفهم، وعلما بفضله وحسن سيرته.

وأمّا رؤياهما فهذا ما يحكيه القرآن:(قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي)، وقوله:(أَرَانِي) يتعدّى إلى مفعولين، فالضمير المتّصل ـ أعني: الياء ـ هو المفعول الأوّل، وجملة (أَعْصِرُ خَمْرًا) في محلّ المفعول الثاني، ومن العجيب أنّ فاعله ومفعوله ضميرين متَّحدَي المعنى، لأنّ في (أَرَانِي) ضمير الفاعل المستتر. وقوله:(أَعْصِرُ خَمْرًا)أي أعصر عنباً يصير خمراً، وهو من قبيل إطلاق الشيء وارادة ما يؤول إليه.

قوله: (وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ): أي أخبرنا بتعبيره وما يؤول إليه أمره (إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) وهو تعليل لسؤالهما إيّاه عن أمر يهمّهما برؤيتهما إيّاه من المحسنين. وهذا إنّما يصحّ إذا كان سؤالهما إيّاه بعد مضيّ مدّة رأيا فيها من يوسف أعمالاً حسنة وسيرة محمودة مع أهل السّجن. وقد روي عن أبي عبد الله الصادق(عليه السلام)أنّه قال: «كان يقوم على المريض، ويلتمس المحتاج، ويوسّع على المحبوس».(تفسير القمي:١/٣٤٦.)

وروي أيضاً أنّه كان يوسّع المجلس، ويستقرض للمحتاج، ويعين الضعيف.(الكافي:٦/٦٣٧.)

وربّما يقال في تفسير كونه من المحسنين أنّه العلم بتأويل الرؤيا، وما قالا هذا القول إلاّ بعد أن رأيا سعة علمه.(انظر: التحرير والتنوير:١٢/٦١ـ ٦٢.)

٣٧و٣٨. (قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْم لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْء ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ):

قيام يوسف(عليه السلام) بمسؤوليته الرسالية

اغتنم يوسف(عليه السلام) فرصة إقبالهما عليه ووثوقهما بعلمه وسيرته، للقيام بمسؤوليته الرّسالية والدعوة إلى عقيدة التوحيد ونبذ الشرك بحكمة، منتهجاً أُسلوب التدرّج أو الخطوة خطوة لبلوغ أهدافه الإلهيّة، فسعى أوّلاً إلى تعزيز ثقتهما به، من خلال كشفه أسراراً ترتبط بشيء حسّيّ من عالمهما الضيّق «السجن»، كما حكى عنه سبحانه ذلك: (قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا) الضمير في قوله: (بِتَأْوِيلِهِ)فيه وجهان:

الأوّل: أنّه يرجع إلى الطعام كما هو مقتضى الأقربية. ويكون معنى الآية: لا يأتيكما طعام إلاّ أخبرتكما بصفة ذلك الطعام قبل أن يأتيكما. وعلى هذا فيوسف(عليه السلام) بمعرفته بخصوصيّات الطعام قد برهن على أنّ علمه ببعض الأسرار ـ ومنها تعبير الرؤيا ـ لم يكن ضرباً من العلوم والمعارف البشرية، وإنّما هو بإفاضة من الله تعالى، وإلهام منه، وهو قد مهّد بذلك للتدليل على صدقه في دعوته إلى التوحيد، كما سيأتي.

وأُشكل على هذا الوجه بأنّه لا يحسن إطلاق التأويل على الإنباء بأسماء أصناف الطعام.(لاحظ: التحرير والتنوير:١٢/٦١.)

وأُجيب عنه بأنّ إطلاق التأويل على الطعام إمّا بطريق الاستعارة فإنّه بمنزلة التأويل بالنظر إلى ما رُئي في المنام وشبيه له، وإمّا بطريق المشاكلة حسبما وقع في عبارتهما من قوله:(نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ).(انظر: تفسير أبي السّعود:٣/١٠٦.)

الثاني: أنّه يرجع إلى المرئيّ أو المنام. ويكون مراده(عليه السلام) بأنّه يعبّر لهما رؤياهما في وقت قريب معلوم، وهو وقت إحضار طعام المساجين. والمعنى: لا يأتي الطّعام المعتاد إلاّ في حال أنّي قد نبّأتكما بتأويل رؤياكما.

وربّما يؤيّد الوجه الأوّل بأنّه لو كان المراد تأويل المرئيّ والرؤيا لأسرع في الجواب من غير حاجة إلى أن يقول: (لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ).

ويمكن أن يقال: بأنّ كلامه هذا استمهال من صاحبي السّجن حتى لا يطلبا منه تأويل الرؤيا بلا تروٍّ، وما هذا إلاّ لأجل أن يرشدهما إلى التوحيد ويخرجهما من ظلمات الشّرك إلى نور التوحيد، ولذلك أعقب كلامه هذا بقوله: (إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ) ـ إلى قوله: ـ (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ).

ونحن نرجّح الوجه الأوّل، فإنّه أكثر ملائمة للسّياق.

وعلى كلّ تقدير، فقد أتمّ (عليه السلام) كلامه بقوله: (ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي)بمعنى أنّه ليس علماً مأخوذاً من الناس.

ثم شرع ثانياً في بيان عقيدته، فبرّأ نفسه من الإيمان بدين القوم القائم على الشّرك بالله تعالى وإنكار المعاد، وهذه إشارة إلى فساد العقيدتين، عقيدة الفتَيين السَّجينَين، قال: (إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ) أراد بهم كفرة الكنعانيّين الذين نشأ فيهم، وربّما أراد المصريّين الذين عاش معهم مدّة في قصر العزيز، فكانوا ينكرون توحيد الربّ والبعث للمعاد، فقوله: (لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ): أي لا يوحّدونه في الربوبيّة والعبادة. ثمّ ذكر تعليم آبائه تكريماً لهم وأنّ عقيدته متسلسلة من آبائه فقال: (وَاتَّبَعْتُ): أي آثرت (مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ) ذكر أسماءهم لتكون دعوته للتوحيد أدعى للقبول بها والاطمئنان إليها. وأضاف بياناً آخر وقال: (مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْء) فقوله هذا نظير قول عيسى(عليه السلام): (سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقّ)(المائدة:١١٦.).

ثمّ إنّ يوسف(عليه السلام) أعاد سبب هذا الاعتقاد إلى الله وقال: (ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا): أي خصّنا به وهدانا إليه (وَعَلَى النَّاسِ): أي وعلى قسم من الناس الذين شملهم فضل الله بالاتّباع والاقتفاء بإرسالنا إليهم ننشر فيهم دعوته ونقيم عليهم حجّته، ونبيّن لهم هدايته(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ)ما أنعم الله عليهم، فهم يشركون به ربوبيّة وعبادة.

٣٩. (يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ):

البرهنة على التوحيد في الرّبوبيّة

كان البيان السابق من يوسف(عليه السلام) لغاية كسب ثقة السجينَين لِما سيُلقيه عليهم من البرهان، ولولا هذا التمهيد لربّما يكون البرهان عقيماً عندهم، فأخذ يوسف(عليه السلام) ببيان التوحيد مقروناً بالبرهان قائلاً: (يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ) ناداهما بعنوان الصحبة في هذه الدار وهي دار الهموم والأحزان، وفيها تصفو المودّة وتخلص النصيحة، ناداهما بهذا العنوان ليصغيا إلى مقاله ويقبلا على استقبال ما يلقي عليها به، فالآذان صاغية والقلوب مقبلة، فقال: (أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ): أي متفرّقون في الذّوات والصفات والأفعال حسب ما يصوّرها الكهنة في المعابد (خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) فإذا كان الله هو الواحد القهار والباقون هم المقهورون، فهو أَولى بالعبادة، لأنّ الأرباب المتفرّقين كلّهم من مخلوقات الله الواحد القهّار، وهو الذي أعطى لهم الوجود والقوّة والقدرة، فإذا كان هذا الحال فمبدأ القوة والقدرة الذي يستمدّ الكلّ منه، هو الأَولى بالعبادة لا غيره.

وما ذكره من البرهان يدلّ على أنّ الاعتقاد بوجود إله قاهر كان أمراً متّفقاً عليه بين يوسف(عليه السلام)وصاحبيه، غير أنّهما ومن على شاكلتهما كانوا مشركين في أمر التدبير، إذ يعتقدون أنّ الإله القاهر الواحد فوّض تدبير الأُمور إلى أرباب مختلفة، كلّ يدبّر شأناً من شؤون الكون والإنسان، ولذا كانوا يعبدون تلك الأرباب المتفرّقة مع الاعتقاد بكونهم مخلوقين لله سبحانه.

وأمّا وجه تخصيصهم بالعبادة دون الله فلأجل قولهم: إنّ الله سبحانه أجلّ وأرفع ذاتاً من أن تحيط به عقولنا أو تناله أفهامنا فلا يمكننا التوجّه إليه بعبادته ولا يَسَعنا التقرّب منه بعبوديّته والخضوع له، والذي يَسَعنا هو أن نتقرّب بالعبادة إلى بعض مخلوقاته الشريفة التي هي مؤثّرات في تدبير النظام العالمي حتى يقرّبونا منه، ويشفعوا لنا عنده.

وبذلك ظهر أنّ القوم كانوا موحّدين في الخالقية وأنّه لا خالق إلاّ الله، ولكنّهم كانوا مشركين في الأمرين التاليين:

١. الربوبيّة وتدبير العالم عُلْوه وسُفْله.

٢. العبوديّة والخضوع لمن له قوّة التصرّف في العالم، فالنبيّ يوسف(عليه السلام) أبطل كلا الشِّركَين بأنّ الكلّ مخلوق لله، ولو كان لهم قدرة فهي معطاة من الله سبحانه، فعبادة الغنيّ المطلق هي المتعيّنة دون هؤلاء الفقراء بالذات المتمسّكين بذيل قدرته. كلّ ذلك على فرض وجود أرباب متفرقّين.

يقول السيد الطباطبائي: إنّ قوله(عليه السلام): (أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) مسوق لبيان الحجّة على تعيّنه تعالى للعبادة إذا فُرض تردّد الأمر بينه وبين سائر الأرباب التي تُدعى من دون الله لا لبيان أنّه تعالى هو الحقّ الموجود دون غيره من الأرباب، أو أنّه تعالى هو الإله الذي تنتهي إليه الأشياء بدءاً وعَوداً دونها أو غير ذلك، فإنّ الشيء إنّما يُسمّى خيراً من جهة طلبه وتعيينه بالأخذ به بنحو، فقوله(عليه السلام): أهو خير أم سائر الأرباب؟ يريد به السؤال عن تعيّن أحد الطرفين من جهة الأخذ به، والأخذ بالربّ هو عبادته.(الميزان في تفسير القرآن:١١/١٧٥.)

البرهان الوارد في الآية لا صلة له بقاعدة التمانع

وممّا ذكرناه آنفاً «أنّ ظاهر البرهان أنّ الاعتقاد بوجود إله قاهر كان أمراً متّفقاً عليه بين يوسف(عليه السلام) وصاحبيه غير أنّهما ومَن على شاكلتهما كانوا معتقدين بتفويض التدبير إلى أرباب مختلفة» يظهر أنّ برهان يوسف(عليه السلام) ليس ناظراً إلى قاعدة التمانع فإنّ موردها هو فرض واجبَي الوجود، فعندئذ يقال: لو كان العالَم الإمكاني مخلوقاً لإلهين واجبَي الوجود لَلزم الفساد، لفرض أنّ كلاًّ منهما إله تامّ، ولكلٍّ علم وقدرة، وكلاًّ منهما يباين الآخر تمام المباينة، وهذا يلازم الفساد في العالم الإمكاني؛ لأنّ تصرّف كلٍّ يغاير تصرّف الآخر، وإن كان تصرّف كلٍّ صالحاً خالياً عن الإشكال، لكنّ المقام ليس من هذا القبيل.

٤٠. (مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَان إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ):

انتقل يوسف(عليه السلام) في هداية صاحبَي السِّجن من أُسلوب إلى أُسلوب آخر، فقد سلّم في الحوار السابق بوجود أرباب بَيد أنّهم أرباب مقهورون، وفي هذا الحوار ينكر بصراحة أيّ وجود خارجي للأرباب قائلاً بأنّ (مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً) فليس لما تعبدون من الربوبيّة حظٌّ ولا نصيبٌ إلاّ الأسماء، فهي مجرّدة عن المعاني ولا تعبّر عن حقيقة، وذلك لأنّكم (سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ) :أي وصفتموها بالأرباب (مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَان)دون أن يكون هناك دليل باهر على صحّة ما تدّعونه.

إلى هنا أبطل يوسف(عليه السلام) ربوبيّة المعبودات الكاذبة، ثمّ انتقل إلى إبطال عبادتهم وخضوعهم أمامها قائلاً: (إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ) أُريد من الحكم: التشريع؛ لأنّه المالك لأزمّة الأُمور، فيكون الحكم لله تعالى وهو (أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ) فلم يأمر إلاّ

بعبادته وحده دون عبادة غيره، يقول سبحانه:

(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ)(النحل:٣٦.)، وقال عزّ اسمه مخاطباً الأنبياء:(إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ)(الأنبياء:٩٢.)، وعلى ذلك فإنّ دين التوحيد في الربوبيّة والعبادة الذي دلّت على صحّته الفطرة والعقل هو الدين المستقيم القادر على قيادة الحياة الإنسانية بجدارة، كما يشير قوله: (ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ): أي الدين المستقيم الذي لا عوج فيه (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ): أي لا يدركون هذا.

وبعين الحق أنّ النبيّ يوسف(عليه السلام) جسّد في كلامه الموجز هذا قوله تعالى: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالتي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)(النحل:١٢٥.)، فنهض بأعباء الرسالة في سجن الملك باتّخاذه منبراً إلهياً لهداية الناس إلى الدين القيّم.

الحكم لله لا الإمرة

قلنا: إنّ المراد بالحكم في قوله سبحانه:(إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ): التشريع، ويشهد لذلك أنّه عقّبه بقوله: (أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ)، وأمّا الإمرة التي تعني فيما تعني تطبيق الأحكام والقضاء بين الناس وغير ذلك، فهي شأن مَن بعثهم الله تعالى من الأنبياء والأولياء ومَن نصبوه. وبهذا يظهر أنّ الخوارج قد أخطأوا في فهم هذه الآية واستدلالهم بها على الإمام علي(عليه السلام) حينما اضطرّ إلى قبول التحكيم بعد مكيدة الفئة الباغية برفع المصاحف في وقعة صفّين، فاختصاص التشريع بالله ليس بمعنى اختصاص القضاء به سبحانه، نعم يجب على القاضي أن يحكم بما شرّع الله تعالى، كما أنّ اختصاص التشريع بالله ليس بمعنى كونه سبحانه حاكماً بين الناس، وإن كان يجب على الحاكم أن يحكم بما أنزل الله، ولذلك نرى أنّ الإمام علياً(عليه السلام)لمّا سمع قول الخوارج:«لا حكم إلاّ لله»، قال(عليه السلام) : «كَلِمَةُ حَقٍّ يُرَادُ بِهَا بَاطِلٌ! نَعَمْ إِنَّهُ لاَ حُكْمَ إِلاَّ لِلّه. وَلكِنَّ هؤُلاَءِ يَقُولُونَ: لاَ إِمْرَةَ إِلاَّ لِلّه. وَإِنَّهُ لاَبُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ أَمِير بَرٍّ أَوْ فَاجِر يَعْمَلُ فِي إِمْرَتِهِ الْمُؤْمِنُ، وَيَسْتَمْتِعُ فِيهَا الْكَافِرُ»(نهج البلاغة: ا لخطبة ٤٠، وقسم الحكم برقم ١٩٨.) أي أنّ حقّ التشريع لله وحده، وعلى الناس أن يطبّقوا ما شرّعه الله، والذي يحملهم على هذا هو الأمير، والخوارج خلطوا بين مصدر الشريعة، وبين مَن يطبّقها ويزاولها، ولم يميّزوا بين الأمرين.

٤١. (يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ):

لمّا أتمّ يوسف(عليه السلام) إلقاء الحجّة على صاحبيه بدأ بالوفاء بوعده في تأويل رؤياهما، وهما يستمعان إليه بفارغ الصبر وبانتباه شديد، فقال: (يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا) فهو وإن لم يعيّن صاحب هذا المصير ولكنّه بقرينة المناسبة هو تأويل رؤيا من قال منهما:(إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا) حيث أوّلها بأنّه سيُطلق ويُخلى سبيله ويرجع إلى عمله عند سيّده الملك فيسقيه خمراً (وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ)فيكون كلامه هذا ناظراً إلى مَن قال: (إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ)، وقد راعى يوسف(عليه السلام) في عدم التعيين الجانب العاطفي، فلم يقل: أما أنت فكذا، وأمّا أنت فكذلك، ولكن لمّا وعدهما بتأويل رؤياهما لم يكن له بدٌّ إلاّ إخبارهما بما ألهمه الله. ولذلك جاء البيان القرآني بأنّ ما عبّر به يوسف (عليه السلام)قد صار مقضيّاً وأنّه واقع لا محالة، كما يقول: (قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ) وتريدان إزالة الحَيرة والإشكال عنه.

٤٢. (وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ):

لمّا كان يوسف على ثقة من تعبيره، رغب في إيصال مَظلمته إلى الملك عن طريق مَن سيُخلى سبيلُه، كما يقول: (وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ

(أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا): أي علم أنّه ينجو، وهو ساقي الملك.

ثمّ إنّ قوله: (ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا) ليس بمعنى الظنّ المعروف الذي يلازم عدم الجزم، بل التعبير به من باب إرخاء العنان والتأدّب مع الله تعالى.

(اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ): أي سيّدك، وهو الملك.

لم يكن تمسّك يوسف(عليه السلام) بالأسباب الطبيعية منافياً للتوحيد، فإنّ الله تبارك وتعالى جعل لكلّ شيء سبباً وأمر بالتمسّك به بما أنّه سبب مخلوق لله سبحانه، وقد صرّح في العديد من الآيات الكريمة بتأثير الأسباب الطبيعية في الكون ولكن بإذن منه سبحانه، مثل قوله: (وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ)(البقرة:٢٢).

وأمّا مَن تمسّك بهذه الأسباب معتقداً بأصالتها واستقلالها في التأثير، فهذا هو الشِّرك المحض.

وعلى ضوء ذلك فإنّ استعانة يوسف(عليه السلام) بالسبب الطبيعي (وهو هنا الملك) لإثبات براءته والتحرّر من السِّجن، تأتي في إطار التمسّك بالسبب من المقولة الأُولى، فالمؤثّر في الواقع هو الله سبحانه، والملك سبب في مسير تحقّق إرادته سبحانه.

قال الرازي: والذي جرّبته من أوّل عمري إلى آخره أنّ الإنسان كلّما عوّل في أمر من الأُمور على غير الله صار ذلك سبباً إلى البلاء والمحنة والشدّة والرزيّة، وإذا عوّل العبد على الله ولم يرجع إلى أحد من الخلق حصل ذلك المطلوب على أحسن الوجوه، فهذه التجربة قد استمرّت لي من أوّل عمري إلى هذا الوقت الذي بلغت فيه إلى السابع والخمسين، فعند هذا استقرّ قلبي على أنّه لا مصلحة للإنسان في التعويل على شيء سوى فضل الله تعالى وإحسانه.(تفسير الرازي:١٨/١٤٥).

أقول: ما ذكره صحيح إذا كان التوسّل بغير الله بصورة الاستقلال وكأنّه يراه مؤثّراً في قضاء حاجته مع الغفلة عن قضاء الله وإرادته، وأمّا التوسّل بغيره سبحانه على أنّه سبب جعله الله لقضاء حاجته فلا يخلّ بالتوحيد، بل هو التوحيد عينه.

الناسي هو الناجي لا يوسف(عليه السلام)

ومهما يكن فإنّ رغبة يوسف(عليه السلام) في إبلاغ مَظْلمته لم تتحقّق، وهذا ما تذكره الفقرة التالية: (فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ) الضميران في قوله: (فَأَنْسَاهُ)وفي (رَبِّهِ) يرجعان إلى الناجي من السِّجن، أي أنسى الشيطانُ الناجيَ أن يذكر أمر يوسف(عليه السلام) لربّه.

ومع ذلك، ذهب عدد من المفسّرين(منهم محمد بن جرير الطبريّ(المتوفّى٣١٠هـ).) إلى أنّ الضميرين يرجعان إلى يوسف(عليه السلام)، ومعنى الفقرة: أنسى الشيطانُ يوسف ذكر الله تعالى في تلك الحال، فاستغاث بمخلوق، حيث التمس من الناجي من السِّجن أن يذكره عند سيّده، وكان من حقّه أن يتوكّل في ذلك على الله سبحانه:(فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ)ولولا أنّه قال تلك الكلمة ما لبث في السِّجن طولَ ما لَبث.

ثمّ إنّ لكلّ من هذين المعنيَين روايات تدعم كلاًّ منهما، وهي مذكورة في «جامع البيان» لابن جرير الطبريّ، و «مجمع البيان» لأبي علي الطبرسيّ.

أقول: إنّ الرجوع إلى الروايات فرع وجود الإجمال في الآية، أو عدم إمكان استظهار معناها بآيات أُخرى، فإذا حصل ذلك، فيؤخذ بالرواية الموافقة، وأمّا الرواية المخالفة فيردّ علمها إلى المعصوم(عليه السلام).

ونحن نعتقد أنّ الآية ظاهرة في المعنى الأوّل، وذلك من وجوه:

الأوّل: أنّ النبيّ يوسف(عليه السلام) من المخلَصين، كما يدلّ عليه قوله سبحانه:(إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ)(يوسف:٢٤.)، وقد نطق الكتاب المجيد بأنّ الشيطان لمّا أقسم على إغواء ذرّيّة آدم استثنى منهم المخلصين، كما حكى عنه سبحانه ذلك بقوله: (قَالَ

فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ).(ص:٨٢ و٨٣)

الثاني: أنّ لازم المعنى الثاني هو اختلال السياق في الفقرة. توضيحه: أنّه لو قلنا بالمعنى الأوّل يكون المراد بالربّ في كلا الموردين، هو سلطان مصر، ويكون معنى الفقرة: اذكرني عند ربّك (أي الملك) فأنسى الشيطانُ الناجيَ ذكر ربّه (أي الملك)، وأمّا لو قلنا بالمعنى الثاني، فإنّ لازمه كون المراد بالربّ في الأوّل، هو الملك، وبالثاني ربّ العالمين سبحانه وتعالى، ويكون معنى الفقرة: اذكرني عند ربّك، أي عند ملك مصر، فأنسى الشيطانُ يوسفَ ذكر ربّه، أي ذكر الله سبحانه، وهذا على خلاف الظاهر.

الثالث: أنّ هناك في السورة ذاتها ما يشهد على أنّ الناسيَ هو النّاجي من السِّجن، وهو قوله تعالى:(وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ)(يوسف:٤٥)، فإنّ معنى قوله: (وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ) أنّ الناجي تذكّر أمر يوسف(عليه السلام) وما أوصاه به بعد حين من الدهر وزمان طويل.

وبما تقدّم من هذه الوجوه المستفادة من الآية نفسها ومن خارجها، يتعيّن المعنى الأوّل.

هذا، وأمّا ترتّب لبثه في السِّجن سنين فيُنبئ عن أنّ السِّجن لم يكن مضبوطاً بسجلّ يذكر فيه أسماء المسجونين، وأسباب سجنهم، والمدّة المسجون إليها، ولا كان من وَزَعة (أعوان الملك على السُّجون) السُّجون ولا ممّن فوقهم مَن يتعهّد أسباب السِّجن ويتفقّد أمر المساجين ويرفع إلى الملك في يوم من الأسبوع أو من العام. وهذا من الإهمال والتهاون بحقوق الناس وقد أبطله الإسلام، فإنّ من الشريعة أن ينظر القاضي أوّل ما ينظر فيه كلّ يوم أمرَ المساجين.(التحرير والتنوير:١٢/٦٨)

الآيات: الثالثة والأربعون إلى التاسعة والأربعين(وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ.... وَفِيهِ يَعْصِرُونَ).

(وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ * قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ * وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ * يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ * قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ).

المفردات

سِمان: جمع سَمين وسَمينة.

عِجاف: جمع أعجف للذكر، وعجفاء للأُنثى، بمعنى هزيل وهزيلة.

الملأ:الأعيان من العلماء والحكماء. وأُريد هنا حاشية الملك.

تعبُرون: المعروف هو تخفيف الباء أي بيان مآلها ومرجعها. وسُمّي تفسير الرؤيا بالتعبير كأنّ المفسّر يَعبُر من ظاهر الرؤيا إلى باطنها، ولذلك قال الملك:(تَعْبُرُونَ). قال الزمخشريّ: رأيتهم ينكرون عبّرت بالتشديد، وقد عثرت على بيت أنشده المبرّد في كتاب «الكامل» لبعض الأعراب:

رأيت رؤياً ثم عبّرتُها *** وكنت للأحلام عبّارا[1]

[1]تفسير الكشّاف:٢/١٤٠.

أضغاث: جمع ضِغث، وهو الحزمة من كلّ شيء، وقيل من النبات فقط يختلط فيه الرّطْب باليابس.

أحلام: منامات .

ادّكر: أصله اذتكر، قُلبت الذال دالاً لسهولة التلفّظ بالدّال، ثم قُلبت التاء دالاً للإدغام، فصار: ادّكر.

أُمّة: حين أو زمان: وأصل إطلاق الأُمة على المدّة الطويلة، هو أنّها زمن ينقرض في مثله جيل، والجيل يسمّى أُمّة. قال الوزير المغربي:بعد مدّة، وأصله الجماعة، فكأنّه قال: بعد جماعة من السنين أو الأزمان.(المصابيح في تفسير القرآن: ٥٩٧.)

أَفتِنا: الإفتاء الإخبار بالفتيا وتفسير الرؤيا.

دأباً: الدأب: العادة، وأُريد هنا الدّوام على الزّرع.

تُحصِنون: الإحصان: الإحراز والادّخار.

يغاث الناس: يُسقَون من الغيث، فيكون من (الأجوف اليائي). ويحتمل أنّه من الغوث(الأجوف الواوي) بمعنى النُّصرة، والأوّل أقرب، وهو المطر الذي يفرّج الله به عنهم.

يَعصرون: يستخرجون العصير ممّا يُعصر، كعصر العنب والزيتون، وهو كناية عن الخِصب. وقال الوزير المغربي: يُمطَرون مأخوذ من المُعصِرات، وهي السَّحاب.(المصابيح في تفسير القرآن:٥٩٨.)

التفسير

تتضمّن هذه المجموعة أُموراً:

١. رؤيا الملك التي عجز عن تعبيرها الملأ.

٢. تذكّر الناجي(وهو ساقي الملك) يوسف(عليه السلام) وما أوصاه به عند إطلاقه من السِّجن.

٣. تجلية جانب ممّا أفاضه الله على النبيّ يوسف(عليه السلام) من علم، وهو تأويله الرؤيا، فقد عبر رؤيا الملك على وجه يكشف عن وجود الرابطة بين الرؤيا والتأويل. وإليك الكلام في الأمر الأوّل، أعني:

رؤيا الملك

٤٣. (وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَات سِمَان يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاَت خُضْر وَأُخَرَ يَابِسَات يَا أَيُّهَا الْمَلاَ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ):

بعد أن أمضى يوسف(عليه السلام) سنوات من عمره سجيناً، هيّأ الله تعالى له ـ جزاء على إيمانه العميق وإخلاصه الشديد ـ وسيلة للخروج من السِّجن، معزّزاً مكرّماً مبرَّأً من كلّ تهمة وريب، فقد رأى الملك حُلماً غريباً أثار لديه اهتماماً كبيراً، كما يحكيه الملك نفسه(وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى) عبّر عن الماضي بصيغة المضارع لغاية استحضاره في ذهن المخاطب (سَبْعَ بَقَرَات سِمَان يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ) وكأنّ العجاف ابتلعنَ السِّمان (وَ)رأى أيضاً (سَبْعَ سُنْبُلاَت خُضْر) قد انعقد حبُّها (وَ) سبعاً (أُخَرَ يَابِسَات) وكأنّ اليابسات التَوَت على الخضر، فصارت هذه الرؤيا سبباً لقلق الملك واضطرابه؛ لأنّه شاهد أنّ الناقص الضعيف (سَبْعٌ عِجَافٌ)استولى على الكامل القويّ (سَبْعَ بَقَرَات سِمَان) فشهدت فطرته بأنّه منذر بنوع من أنواع الشرّ، إلاّ أنّه ما عرف كيفيّة الحال فيه، وقويت رغبته لتعبير الرؤيا، ولذلك خاطب حاشيته بقوله: (يَا أَيُّهَا الْمَلاَ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ).

٤٤. (قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلاَم وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ):

أظهر الملأ عجزهم عن تفسير الرؤيا و (قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلاَم): أي أخلاط أحلام متراكمة (وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ): أي نجهل تأويل هذا النوع من الأحلام، لا كلّ حلم، فإنّ الحلم إذا كان منتظماً يسهل تأويله بالانتقال من الصور الذهنية إلى المصاديق الخارجية، وأمّا إذا كان مختلطاً مضطرباً فنحن لا نهتدي إلى تأويله.

وحاصل جوابهم أنّ الأحلام على قسمين:

١. أحلام منتظمة متّسقة يمكن التدبّر فيها والانتقال من الصور الرُّؤيائية إلى مصاديقها وحقائقها في الخارج.

٢. أحلام مختلطة بعضها ببعض، فلا يُعرف المتقدّم منها على المتأخّر، ونحن نجهل تأويلها، كما يقول: (وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ).

قال الشريف الرضيّ في شأن هذه العبارة:(أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ): وهذه أبلغ استعارة وأحسن عبارة، لأنّ واحد الأضغاث: ضغث، وهو الخليط من الحشيش المضموم بعضه إلى بعض، كالحزمة وما يجري مجراها، فشبّه سبحانه اختلاط الأحلام وما يراه الإنسان من المحبوب والمكروه، والمساءة والسرور، باختلاط الحشيش المجموع من أخياف عدّة، وأصناف كثيرة.(تلخيص البيان في مجازات القرآن:٧٠.)

ثمّ إنّ الرؤيا على قسمين:

الأوّل: ما يحكي عن الأُمور الخارجية التي ستتحقّق في المستقبل.

الثاني: ما له صلة بروحيّات الإنسان وعواطفه ونفسيّاته.

والذي يقبل التعبير هو القسم الأوّل، والمعبّر الذي عنده مَلَكة التعبير ينقل ما رآه الرّائي في الرُّؤيا إلى ما يتحقّق في الخارج.

وأمّا القسم الثاني فإنّما يتناوله علماء النّفس بالدراسة للوقوف على روحيّات الإنسان ونفسانيّته.

فإن قلت: كيف يحكي ما رآه الإنسان عمّا سيتحقّق في المستقبل حيث إنّه لم يتحقّق بعد؟

قلت: العالَم الإمكاني له صور وتماثيل في عالم المثال المنفصل، فالنفس تتّصل بعالَم المثال وترى ما فيها من الحقائق التي ستتحقّق إلى يوم القيامة.

ثمّ إنّ الملأ لمّا أدركوا العجز عن تعبير رؤيا الملك وصفوها بأنّها أضغاث أحلام، أي أُمور متفرّقة أوجدتها الأحلام ونفسيات الملك وروحياته، وليست أُموراً منتظمة حتى نعبر منها إلى الحقيقة.

ثمّ إنّ طلب الملك من الملأ تعبير رؤياه يعرب عن وجود علماء بارزين في تعبير الرؤيا يضمّهم بلاط الملك، وأنّ كشف حقيقة الرؤيا كان فنّاً رائجاً في ذلك الزمان، وبذلك يمكن أن يقال: إنّ إعجاز يوسف كان هو تعبير الرؤيا بشكل يعجز عنه الآخرون، فإنّ إعجاز كلّ نبيّ يجب أن يكون مجانساً للفنّ الرائج في عصره، وكان هذا هو الفنّ الرائج يومذاك.

٤٥. (وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّة أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ):

في ظلّ الأجواء المشحونة بالحَيرة والقلق تذكّر النّاجي (السّاقي) صاحبه يوسف الذي تركه في السجن منذ سنوات، والذي لمس منه صدق تعبيره لرؤياه ورؤيا صاحبه الآخر الذي صُلب، فأخبر الملك عنه وعن علمه بتعبير الرؤى مقترحاً إرساله إليه ليأتيهم بالتأويل الذي لا مرية فيه، كما يقول:(وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا)وهو السّاقي (وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّة): أي وتذكّر بعد فترة طويلة من الوقت الذي أوصاه فيه يوسف(عليه السلام)، قيل: خمس سنين، وقيل: سبع سنين (أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ) فطلبُ الإرسال كان لأجل أنّ دخول السّجن يحتاج إلى أمر وإذن من الملك خصوصاً إذا كان هذا السَّجين مثل يوسف(عليه السلام) في منزلته.

وكان موقناً بصحّة تأويل يوسف(عليه السلام) ولذلك قال جازماً (أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ) قطعاً من دون تردّد.

٤٦.(يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَات سِمَان يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاَت خُضْر وَأُخَرَ يَابِسَات لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ):

صدر الأمر بإرسال السّاقي، فانطلق إلى يوسف(عليه السلام) في سجنه وتحدّث إليه واصفاً إيّاه بالصادق الكثير الصّدق، كما يقول:

(يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ) ثم طلب منه تفسير الرؤيا التي نقلها له بدقّة وقال: (أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ)نرى أنّه حكى رؤيا الملك بدقّة وأمانة خاصّة، ثم قال:(لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ) أراد به الملك وحاشيته؛ لأنّه يهمّهم تأويل الرُّؤيا (لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ)فضلك ومكانتك فيخرجونك من السِّجن. وقيل: لعلّهم يعلمون تأويل ما سألتك عنه من الرؤيا.

فإن قلت: جاء لفظ «لعلّ» في كلام الرّسول مكرراً حيث قال:(لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ)فما وجه ذلك؟

قلت: أجاب السيد الطباطبائي بقوله: إنّ الأوّل تعليل لقوله: (أَفْتِنَا)والثاني تعليل لقوله: (أَرْجِعُ)والمراد: أفتنا في أمر هذه الرؤيا ففي إفتائك رجاء أن أرجع به إلى الناس وأُخبرهم بها وفي رجوعي إليهم رجاء أن يعلموا به فيخرجوا به من الحَيرة والجهالة.(الميزان في تفسير القرآن:١١/١٨٩.)

٤٧. (قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ):

يوسف يفسّر رؤيا الملك

نرى أنّ يوسف(عليه السلام) لم يكتف بتأويل الرؤيا التي تنذر بوقوع أزمة اقتصادية خانقة في المستقبل؛ بل شفعه بطرح حلول

ناجعة لمواجهتها، كما يظهر من مجموع كلامه في تعبير الرؤيا (قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا): أي متوالية تجود فيها الأرض بالغلاّت الوافرة (وهي تأويل البقرات السَّبع السِّمان) ثمّ نصحهم بإبقاء الزّرع في سنابله ليُصان من الفساد، وبالاقتصاد في الاستهلاك، فقال: (فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ)فقوله: (إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ) إشارة إلى عدم الإسراف، والقناعة في الأكل.

٤٨. (ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ):

أشار يوسف(عليه السلام) هنا إلى أنّ سنوات الخصب والرَّخاء هذه ستنطفئ، وتأتي بعدها سبع سنين يعمّ فيها البلاد الجدب والقحط (وهذا تأويل البقرات السَّبع العِجاف) الأمر الذي يفضي إلى نفاد كلّ ما ادّخروه في سنين الخصب، وهنا ينصحهم ثانياً بأن يحصنوا ويحرزوا قليلاً منه ليُتَّخذ بذراً، كما قال: (إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ).

قيل: إنّما نسب تعالى الأكل إلى السنين، لأنّ الناس يأكلون فيهنّ ما ادّخروه، ويستنفدون ما أعدّوه، كما يقال: يوم آمن، وليل خائف، أي يأمن الناس في هذا، ويخافون في هذا.(انظر: تلخيص البيان في مجازات القرآن:٧١.) ومنه قول الشاعر:

نهارُك يا مغرورُ سهوٌ وغفلةٌ *** وليلُك نومٌ والرّدى لك لازمُ[٢]

[٢] جامع البيان(تفسير الطبري):١٢/٢٨٧.

٤٩. (ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ):

أضاف يوسف(عليه السلام) شيئاً لم يرد في رؤيا الملك، فذكر مزايا عام رخاء يأتي بعد السَّبع الشداد، تكثر فيه الخيرات والبركات، فقال: (ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ) الغيث هو المطر، أي فيه يُمطَرون فيرتفع الجدب من بينهم (وَفِيهِ يَعْصِرُونَ): أي يعصرون الثّمار التي تعصر كالعنب والزّيتون والسِّمسم وغيرها.

وحصيلة الكلام: أنّ يوسف أخبر عن أمرين:

١. (ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ).

٢. (وَفِيهِ يَعْصِرُونَ).

وأُريد من الأوّل أنّهم يُمطَرون.

ومن الثاني أنّهم يعصرون الثمار.

ثمّ إنّ بعض المستشرقين (لاحظ: الميزان في تفسير القرآن:١١/١٩٢.) أشكل على الأمر الأوّل بأنّ زراعة مصر غير قائمة على الأمطار، بل هي تعتمد على سقي الأراضي من نهر النّيل، ولكن غاب عنه أنّ وفرة ماء النّيل رهن نزول الأمطار في المناطق التي تعد مبدأً لنهر النّيل، فإنّ ماءها ماء سماوي يستمد وجوده من الأمطار الغزيرة في المناطق النائية كالسُّودان والحبشة.

جدير بالتنبيه أنّ الملك لم يسأل إلاّ عن الأمرين الأوّلين اللّذين فسّرهما يوسف(عليه السلام) بالقحط والجفاف أوّلاً، والرخاء والخصب ثانياً، وإنّما أضاف يوسف(عليه السلام) على رؤيا الملك ما في هذه الآية: (ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ...).

وقد وجّه صاحب المنار ذلك بقوله: هذا التفصيل لم يعرفه يوسف(عليه السلام) إلاّ بوحي من الله عزّ وجلّ لا مقابل له في رؤيا الملك، ولا هو لازم من لوازم تعبيرها بهذا التفصيل. (تفسير المنار:١٢/٣٢٠.)

ولكنّ السيد الطباطبائي لم يرض بكلامه حيث يقول: والظاهر أنّه(عليه السلام)استفاده من عدد السَّبع الذي تكرّر في البقرات السِّمان والعجاف والسُّنبلات الخضر، وقوله: (ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ) وإن كان إخباراً صورة عن المستقبل لكنّه كناية عن أنّ هذا العام الذي سيستقبلهم بعد مضيّ السَّبع الشِّداد في غنىً عن اجتهادهم في أمر الزرع والادّخار، ولا تكليف فيه يتوجّه إليهم بالنسبة إلى أرزاق الناس. (الميزان في تفسير القرآن:١١/١٩٣.)

وعلى كلّ تقدير، فإخباره هذا يؤكّد صلته وارتباطه بالله تعالى الذي وهبه هذا العلم الّذي لا يهتدي إليه العقل البشري، الأمر الّذي يعزّز من ثقة الناس به، ويجعلهم أكثر استجابة لرسالته ودعوته إلى التوحيد والإيمان بالله تعالى، كما تفتح ـ هذه الإضافة ـ أبواب الأمل للناس، وتنقذهم من حالة اليأس والقلق، الّتي سيبعثها فيهم نبأ السنوات المجدبة الّتي تنتظرهم.

وممّا مضى يتبيّن أنّ يوسف(عليه السلام) قدّم لشعب مصر خدمة جليلة، لولاها لعمّ الجدب هذا القطر الأعظم وهلك الناس من الجوع، وتتمثّل هذه الخدمة في جانبين:

خدمات يوسف(عليه السلام) للمصريّين

١. إخبارهم بأنّ أمامهم سبعة أعوام مخصبة، وسبعةً مجدبة، فليدّخروا من السَّبعة الأُولى للسَّبعة الثانية، ولولا هذا الإخبار ما اقتصدوا في استهلاكهم، وما ادّخروا شيئاً لأيّامهم السُّود.

٢. تعليمهم كيفية صيانة الزّرع من السوس وغيره من مسبّبات فساده في ذلك العصر، الّذي لا توجد فيه مخازن ضخمة لحفظ الطعام، فقد أرشدهم إلى مخازن طبيعية تقوم على ترك الزّرع في سنابله عند حصده، وعدم تذريته وتصفيته. وهذه الطريقة تتيح صيانته من الفساد مدة من الزمان.

فمن أين تعلّم ذلك، هذا الّذي قضى عمره في القصر رقيقاً، وفي السَّجن مظلوماً؟

الآيات: الخمسون إلى السابعة والخمسين(وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ..... خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ).

(وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ * قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ للهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوء قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ * وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ * قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ * وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ

نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ).

المفردات

ما خَطبكنَّ: ما شأنُكنَّ. والخَطْب: الأمر والشأن العظيم الجدير بأن يخاطب الإنسان فيه صاحبه.

حصحص: وَضَح وتبيّن.

الكيد: الاحتيال سرّاً لإيصال الضَّرر إلى الغير.

أُبرّئ: لا أدّعي براءة نفسي من ارتكاب الذنب.

لأمّارة بالسّوء: كثيرة الأمر بالسُّوء.

استَخلصْه: اجعله خالصاً لنفسي، خاصّاً بي، لا يشاركني فيه أحد.

المكين: مَن صار ذا مكانة.

الأمين: أي المأمون على الشيء.

خزائن الأرض: البيت الذي يختزن فيه الحبوب والأموال.

مكّنّا له في الأرض: أي أقدرناه على ما يريد برفع الموانع.

يتبوّأ: التبوّأ اتّخاذ منزل يعود إليه، وأصله من باء يبوء إذا رجع.

التفسير

٥٠. (وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ):

إنّ من مزايا القرآن المجيد الاقتصار على المورد اللازم من القصة وعدم الإشارة إلى التفاصيل التي تُعلم من القرائن كما في المقام، فإنّ لازم كلامه الآتي أنّه رجع الرّسول إلى الملك وملئه وأبلغهم تعبير رؤياه عن يوسف(عليه السلام)، فأثار علمه وتدبيره إعجاب الملك بل إعجاب عامّة رجال البلاط، ولعلّهم أحسّوا بظلمهم لمن يملك هذه القدرات العلمية والتدبير الرائع في السِّجن، وفهموا أنّه سيحلّ بلادهم خطب عظيم وبلاء جلل، ولذلك أمر الملك بإحضاره ليتحقّق بنفسه صدق ما بلّغه الرسول، إذ ليس السَّماع كالعِيان، ولا الخبر كالخُبَر كما يحكي سبحانه بقوله: (وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ) أبي يوسف(عليه السلام) أن يخرج من السِّجن ويحضر ين يدي الملك إلاّ بعد أن تثبت براءته ممّا اتُّهم به من خلال الكشف عن أمر النسوة اللاّئي قطّعن أيديهنّ وما هي قصّتهنّ وما نهايتها، كما يقول: (قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ): أي إلى سيّدك الملك (فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ) ومن كرامته أنّه عفّ عن اتّهام النِّسوة بالسوء والتصريح بالطعن عليهنّ، وإنّما ذكر شيئاً جزئياً من تلك القصة ـ أعني: جرح أيديهنّ ـ حتى يتحقّق الملك من الموضوع بنفسه، ويكشف عن ملابساته.

ومن كرم أخلاقه أيضاً أنّه لم يذكر امرأة العزيز معهنّ وما جرى بينه وبينها، والتي كانت هي السبب في تلك الفتنة الشعواء، لم يذكرها وفاءً لزوجها ورحمة بها أمام الملأ.

سبب امتناع يوسف(عليه السلام) من الخروج لتبين الحال

إنّ امتناع يوسف(عليه السلام) من الخروج من السِّجن إلاّ بعد أن يتبيّن حال النِّسوة وشأنهنّ، أوضح دليل على شخصيته العالية ومكانته السامية، ولم يكن كغيره من الناس الذين إذا سُجِن أحدهم وبُشّر بإطلاقه منه نسيَ كلّ شيء يترتّب على خروجه من السِّجن وإن أضرّ بمكانته وشخصيته. ثمّ إنّه(عليه السلام) أتمّ كلامه بقوله:(إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ)حيث لا تخفى عليه خافية في

الأرض ولا في السماء.

هذا، وأمّا ما روي من أنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) قال:«يرحم الله يوسف إنْ كان لذا أناة حليماً، لو كنت أنا المحبوس ثم أُرسل إليّ لخرجت سريعاً»، أو «عجبت لصبر أخي يوسف وكرمه... ولو كنت أنا لبادرت الباب...».(انظر تفسير الدر المنثور:٤/٥٤٨.) فلا يصحّ، فإنّ الرسول الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) أعظم صبراً، وأرسخ حلماً وأناة من أن يتعجّل الخروج، لو كان محبوساً، دون أن يُثبت براءته ممّا أُلصق به من التّهمة، وهو الذي تجرّع في سبيل الله كلّ غصّة، واحتمل من الأذى ما لم يحتمله نبيّ من الأنبياء.

٥١. (قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ للهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوء قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الاْنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ):

اعتراف امرأة العزيز بجريمتها

لمّا رجع الرّسول وأخبر الملك بقول يوسف(عليه السلام) وامتناعه من الخروج قبل التحقيق، جمع الملك النِّسوة اللاّئي كنّ حضرن ذلك المجلس الذي دعتهنّ إليه امرأة العزيز و(قَالَ) لهنّ: (مَا خَطْبُكُنَّ): أي ما الأمر العظيم الذي ظهر منكنّ (إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ)؟

فإن قلت: ركّز يوسف على سؤال الملك إيّاهن عن قطع الأيدي وقال:(فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ) بَيْد أنّ الملك غيّر السؤال وقال: (مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ) فما وجه ذلك؟

قلت: لعلّ الملك انتقل من قطع الأيدي إلى منشئه، ولذلك ترك السؤال عنه، وعطف منشأه، وهو السؤال عمّا سبّب المراودة.

وعلى كلّ تقدير، فعندما طرح الملك السؤال، رفعن أصواتهنّ بالشهادة على أمرين:

١. (قُلْنَ حَاشَ للهِ) مبالغة في النفي والتنزيه.

٢. (مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوء): أي لم يظهر لنا منه أمر قبيح. وفي هذه الأجواء لم تجد امرأة العزيز بدّاً من الاعتراف والقول بصراحة (قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الاْنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ) واستبان (أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ): أي أغريته ودعوته إلى نفسي، وتقديم المسند إليه على المسند لإفادة القصر (وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ) عندما قالت: إنّني أنا التي راودته.

٥٢. (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ):

هل الآية من كلام يوسف(عليه السلام) أو من كلام امرأة العزيز؟ وجهان:

الأوّل: أنّه من كلام يوسف، وقوله: (ذَلِكَ) إشارة إلى إرجاع الرّسول إلى الملك وسؤاله إيّاه التحقيق في الأمر، كما تقدّم في قوله: (ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ)(يوسف:٥٠.) والضميران في (لِيَعْلَمَ) و (لَمْ أَخُنْهُ) عائدان إلى العزيز الذي مرّ ذكره في قوله:(امْرَأَةُ الْعَزِيزِ) والمعنى: وذلك الفعل الذي فعلته من إرجاع الرسول إلى الملك للتحقيق في الأمر(لِيَعْلَمَ) العزيز (أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ)فلتطمئنّ نفسه ولا يشكّ. ثمّ ركّز هذه القاعدة التي تتحكّم في سلوك الإنسان إذا استند إليها بقوله: (وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ) ولايسدّد خطواتهم إلى نيل مآربهم، بل يفضحهم ويكشف مساوئهم ولو بعد حين. وهذه القاعدة هي التي انطلق منها يوسف(عليه السلام) في تعامله مع مختلف القضايا، فخروجه من السِّجن مرفوع الرأس منزّه النفس، دليل على أنّه لم يكن خائناً.

٥٣. (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لاَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ):

ولمّا يتبادر في بدء الأمر من قوله: (أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ) أنّ يوسف(عليه السلام) ممّن يزكّي نفسه ويُعجب بها، بادر إلى استدراك ذلك قائلاً:

(وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي) فهي بطبعها تميل إلى الأهواء والشهوات (إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي) فهو تعالى وحده الذي يلطف بها ويعصمها من الذنوب والآثام ويوفّقها للصالحات.

رواية منكرة يخجل القلم من نقلها

ومن عجيب الروايات ما أخرجه الحاكم في تاريخه وابن مردويه والدّيلمي عن أنس: أنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) قرأ هذه الآية(ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ) قال: لما قالها يوسف(عليه السلام) قال له جبرئيل(عليه السلام): يا يوسف اذكر همَّك. قال: (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي).(تفسير الدر المنثور:٤/٥٤٩.)

والرواية منكرة، لمخالفتها للكتاب العزيز، وقد قلنا إنّه لم يصدر منه همٌّ، وأنكرُ من هذه الرواية ما جاء بعدها ممّا يخجل القلم من ذكره.(لاحظ نفس المصدر.)

الثاني: أنّه من كلام امرأة العزيز عملاً بظاهر السياق، وعلى هذا فيكون معنى قوله: (ذلِك): أي اعترافي بأنّي راودته عن نفسه (لِيَعْلَمَ) يوسف (أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ) ثمّ قالت: (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي...).

يلاحظ عليه بوجهين:

الأوّل: لو كان ذلك من تتمّة كلامها، فكان اللازم أن تقول: وليعلم أنّي لم أخنه بالغيب، بحذف (ذلِكَ)فالإتيان باسم الإشارة البعيد غير لازم.

الثاني:لو كان الهدف من قولها:(ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ) هو الاعتراف بالحقّ في هذه اللحظة الحاسمة، فقد تبلّجت فيها الحقيقة كتبلُّج الفجر الصادق قبل هذه الجملة، لأنّها اعترفت بذنبها وطهارة يوسف(عليه السلام)بقولها: (أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ). وإن كان الهدف منه القول بعدم خيانتها طول الزمان فهو خلاف الواقع، لأنّها خانته حيث اتّهمته وقالت: (مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً)، ولم يقرّ لها قرار حتّى أودعته السّجن وقالت في كلامها السابق (وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ).

ثمّ إنّ امرأة العزيز كانت تعيش في أجواء الشّرك واللّهو والمُجون، فأين هي من هذه القيم الإيمانية والحقائق الرفيعة حتى تقول: (وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)؟ وتقول: (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ)؟(انظر: الميزان في تفسير القرآن:١١/١٩٩.)

هذا، وقد قال أكثر المفسّرين بالوجه الأوّل، ومنهم: الحسن البصريّ، ومجاهد، وقتادة، والضحّاك، وابن جرير الطبري الذي اقتصر على ذكر الوجه الأوّل.(جامع البيان(تفسير الطبري):١٢/٢٩٦.) أمّا الشيخ الطوسيّ فجوّز كلا الوجهين، ولكنّه قال: إنّ الأوّل أشبه.(التبيان في تفسير القرآن:٦/١٥٤.)

ثمّ إنّ الزّمخشريّ اختار الوجه الأوّل طارحاً هذا السّؤال مع جوابه، قال: فإن قلت: كيف صحّ أن يُجعل من كلام يوسف ولا دليل على ذلك؟

قلت: كفى بالمعنى دليلاً قائلاً إلى أن يجعل من كلامه.(تفسير الكشّاف:٢/٢٦٢.)

ثمّ إنّ الرازي لمّا ذكر الوجهين لم يرجّح أحدهما على الآخر وذكر لكلّ وجهاً، فقال: جعلُه كلاماً ليوسف مشكل، لأنّ قوله: (قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ) كلام موصول بعضه ببعض إلى آخره، فالقول بأنّ بعضه كلام المرأة والبعض كلام يوسف مع تخلّل الفواصل الكثيرة بين القولين وبين المجلسين، بعيد. وأيضاً جعلُه كلاماً للمرأة مشكل أيضاً لأنّ قوله: (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي) كلام لا يحسن صدوره إلاّ ممّن احترز عن المعاصي، ثم يذكر هذا الكلام على سبيل كسر

النفس، وذلك لا يليق بالمرأة التي استفرغت جهدها بالمعصية.(تفسير الرازي:١٨/١٥٧.)

أقول: ما استشكله من جهة أنّه كلام ليوسف من تركّب الكلام من كلام المرأة وكلام يوسف غير تامّ، فإنّه سبحانه ربّما يجمع بين كلام المرأة وكلام نفسه، يقول سبحانه حاكياًعن بلقيس ملكة سبأ:(إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ)(النمل:٣٤.)، فإنّ قوله: (وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ) من كلام الله والباقي من كلام المرأة.

غير أنّ الحقّ ما أشار إليه صاحب «الكشّاف» من أنّ المحتوى أفضل دليل على أنّه من كلام يوسف(عليه السلام)، أعني: الفقرات التالية:

١. (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ).

٢. (وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ).

٣. (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ).

٤. (إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ).

وأين هذه المعاني الباهرة التي وردت في الآيتين الكريمتين من منطق امرأة غارقة في الفساد؟! وإنّما اعترفت بما اعترفت لأجل أزمة حاقت بها ولم تجد بدّاً من الاعتراف.

وقد برّر أحد الأعلام صدور هذه المعاني الجليلة من امرأة العزيز بقوله: (لا يبعد أنّ الإنسان حين ترتطم رجله بصخرة صمّاء، تظهر في نفسه حالة من التيقُّظ المقرون بالإحساس بالذنب والخجل، خاصة أنّه لوحظ أنّ الهزيمة في العشق المجازي يجرّ الإنسان في طريق العشق الحقيقي «عشق الله». وبالتعبير الحديث المعاصر: بدلاً من زوال الميول النفسية الّتي أُصيبت باللّوم والتوبيخ، يحصل عندها «تصعيد» وتتجلّى بشكل عال).(الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل:٧/٢٠٧.)

وهذا التبرير صحيح في نفسه، ولكنّه ـ فيما نرى ـ لا يصحّ في امرأة العزيز الّتي كانت من قوم كافرين، وكانت تعيش حياة اللّهو والترف والتحلّل من القيود الأخلاقية في قصرها وفي علاقاتها الاجتماعية، ولم تتورّع عن خيانة زوجها بمراودة فتاها، والتهالك على بذل نفسها له، وحياكة قرار ظالم ضد يوسف(عليه السلام)، سُجن على أثره بضع سنين، دون أن يظهر ـ طول هذه الفترة ـ أيّ مسعىً لها تتدارك به خطيئتها برفع الظلم عنه وتحريره من السِّجن.

والله يعلم مقدار السنوات الّتي كان يمكن أن يقضيها في السِّجن بفعل ظلمها واستهتارها، لو لم يرَ الملك رؤياه، ويفتح تحقيقاً في الأمر.

أمّا إصحارها بالحقيقة، فهو لا يعبّر عن حالة من التيقّظ المقرون بالإحساس بالذنب والخجل، خاصة أنّه جاء في جلسة استجواب يعقدها الملك، وفي ظلّ معرفته بفضل يوسف(عليه السلام) وعلمه ورجاحة عقله، وبعد شهادة النسوة بنزاهته من كلّ سوء.

وثمّة سبب آخر دعا إلى استبعاد ربط هاتين الآيتين بيوسف(عليه السلام)، وهو: أنّه (إذا كانت هاتان الآيتان بياناً لكلام يوسف(عليه السلام)، فسيبدو بينهما نوعاً من التناقض والتضادّ، فمن جهة يقول: (أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ)، ومرة يقول: (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ)، وهذا الكلام لا يقوله إلاّ من يعثر أو ينزلق ولو انزلاقاً يسيراً، في حين أنّ يوسف(عليه السلام) لم يصدر منه أيّ انزلاق).(نفس المصدر.)

لا شكّ في أنّ يوسف(عليه السلام) لم يعثر أو ينزلق ولو انزلاقاً يسيراً، لأنّه يقف على أرض ثابتة من الإيمان والورع والتقوى، ويتمتّع بألطاف إلهية تقيه من الانزلاق... فهو من الصدّيقين الأبرار الذين أخلصهم الله لطاعته واصطفاهم لرسالاته، فعصمهم

من الذنوب والآثام، وطهّرهم من أرجاسها.

وقوله(عليه السلام): (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي)ينسجم مع مقامه الرفيع هذا، لأنّه تعبير عن شعوره بضعف نفسه وقلّة حيلته في مقاومة الشهوات والأهواء وكلّ ضغوط الحياة، وتعبير أيضاً عن عميق ثقته بالله تعالى وافتقاره إلى رحمته ولطفه وعصمته.

لقد أراد(عليه السلام) بهذا القول، بعد أن أعلن عن أمانته وبراءته من الخيانة:(أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ) أراد أن ينأى بنفسه عن الاغترار بهذا الإنجاز والانتصار، وأن ينسبه إلى ربّه الكريم، الّذي صرفه عن سيِّئ الأعمال ووفّقه لصالحها، لأنّ النفس بطبيعتها تجنح إلى السُّوء، فتزلّ وتردى.

وهذا التذلّل والخضوع لله تعالى واتّهام النفس بالضعف والتقصير، يتجلّى بوضوح في سيرة المعصومين، ونجده بارزاً في أدعية الإمام زين العابدين علي بن الحسين(عليهما السلام) في «الصحيفة السجادية».

ونحن نورد هنا كلاماً لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام)، يُلقي أضواءً ساطعة على ما نحن بصدده، وكأنّه تفسير وبيان لقول النبيّ يوسف(عليه السلام). قال(عليه السلام):«...فَلاَ تَكُفُّوا عَنْ مَقَالَة بِحَقٍّ، أَوْ مَشْوَرَة بِعَدْل، فَإِنِّي لَسْتُ فِي نَفْسِي بِفَوْقِ أَنْ أُخْطِئَ، وَلاَ آمَنُ ذلِكَ مِنْ فِعْلِي، إِلاَّ أَنْ يَكْفِيَ اللهُ مِنْ نَفْسِي مَا هُوَ أَمْلَكُ بِهِ مِنِّي(أمعن النظر في قوله: فإنّي لست في نفسي... وقوله: إلاّ أن يكفي الله من نفسي...)، فَإِنَّمَا أَنَا وَأَنْتُمْ عَبِيدٌ مَمْلُوكُونَ لِرَبٍّ لاَ رَبَّ غَيْرُهُ؛ يَمْلِكُ مِنَّا مَا لاَ نَمْلِكُ مِنْ أَنْفُسِنَا...».(نهج البلاغة: الخطبة ٢١٦).

الحلقة الخامسة من حياة يوسف(عليه السلام)
٥٤. (وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ):
اختيار يوسف(عليه السلام) للوزارة

لمّا ثبتت براءة يوسف(عليه السلام) أمام الناس جميعاً وتجلّت شخصيته بأبهى حُللها، رضيَ عليه السلام هذه المرّة بالخروج من السِّجن والحضور بين يدي الملك الذي أراد أن يستأثر به ويجعله من خاصّته لينتفع بمواهبه، كما قال: (وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي): أي اجعله خالصاً لنفسي ومستشاراً في الأُمور المهمة ـ وقد مرّ أنّ القرآن يكتفي بالمهمّ من القصة ويترك ما يُعلم، فالفقرة التالية: (فَلَمَّا كَلَّمَهُ) تدلّ على أنّ رسول الملك ذهب إلى السِّجن وأخبره بما جرى بحضرته من شهادة النِّساء على نزاهته وطهارته، وعند ذلك تهيّأ للخروج، فلمّا جمع المجلس بينه وبين الملك، يقول سبحانه: (فَلَمَّا كَلَّمَهُ): أي كلّم الملك يوسفَ(عليه السلام)، وهو عطف على جملة مقدّرة: فأتوا به فحضر لديه وكلّمه، عجب من عقله وحكمته وأدبه، وازداد إعجاباً بشخصيته وبما يتمتّع به من صفات وملكات وقال: خصصتك بمكانة رفيعة ومنحتك ثقتي المطلقة، كما قال: (قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ): أي ذا مكانة (أَمِينٌ): أي موثوق به في حفظ الأموال وغيرها.

٥٥. (قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ):

انتهز يوسف(عليه السلام) هذا التكريم الذي أولاه الملك والعزم على إشراكه في إدارة شؤون البلاد، انتهز ذلك ليعرض عليه رغبته في تولّي خزائن مصر وشؤونها الاقتصادية في ذلك الوقت و: (قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ)طلب ذلك لعلمه بما ينتظر البلاد من سنوات مُجدبة، تتطلّب رسم خطط اقتصادية محكمة وتدابير مُتقنة في سنوات الخصب والرخاء، تتيح له تجاوز المصاعب والأزمات والشدائد التي ستحدث في السنوات الحالكة القادمة.

كما تتطلّب ـ سنوات القحط ـ وضع إجراءات حازمة وموازين عدل صارمة، تمنع المحتكرين والمستغلّين والمحتالين من

الاستئثار بأقوات الناس، وهضم حقوقهم، والتلاعب بمصائرهم، وتحول دون وقوع مجاعة تهدّد حياة المستضعفين والفقراء والمحرومين.

لقد رأى يوسف(عليه السلام) الفرصة سانحة لتحقيق رسالة الأنبياء في إقامة العدل وإزالة مظاهر الظلم في أهمّ جوانب الحياة، وذلك من خلال حفظ الأموال العامّة وتحقيق مصالح المجتمع وتوفير العيش الكريم له. وهو(عليه السلام)يمتلك من الصفات والقابليات ما يؤهّله للنهوض بهذا العبء الفادح، وقد أشار إلى بعضها بقوله للملك:(إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ).

إنّ يوسف (عليه السلام) لم يكن مزكّياً لنفسه وهو يقول:(إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ) إنّما يذكر الوصفين الضروريّين للقيام بذلك الواجب الثقيل صادقاً فيما يقوله، متحدّثاً بنعمة الله عليه وقد آتاه الله العلم والحلم.(في ظلال القرآن:٩/١٣.)

وقوله: (اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ) يشير إلى أمرين مهمّين، بهما تناط حياة الإنسان:

١. الزراعة. ٢. تربية المواشي، معرضاً عمّا في خزائن الملك من المجوهرات. وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّ الاقتصاد أمر مهمّ لحياة العباد واستقرار البلاد، وقد آثر يوسف(عليه السلام) القيام على شؤونه فيما يستقبل البلاد من الأحداث الحلوة والمرّة.

٥٦. (وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ):

باشر النبيّ يوسف(عليه السلام) مهامّه وأصبح له ـ بفضل الله تعالى ـ نفوذ واسع وسلطة ممتدّة في البلاد، كما يقول: (وَكَذَلِكَ): أي مثل ذلك التمكين الظاهر، ويمكن أن يكون إشارة إلى ما مضى من قصة يوسف (مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ) يتصرّف فيها كما يريد بعد أن عانى وحشة البئر وقيود السّجن وضيقهما (نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا) بعطائنا في الدنيا من الملك (مَنْ نَشَاءُ): أي مَن اقتضت الحكمة أن نشاء له ذلك كأنّه إشارة إلى قوله:(وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ)، (وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)فيه إيماء إلى أنّ هذا التمكين في الدنيا أجر دنيويّ ليوسف(عليه السلام) لصبره وتحمّله للمصاعب والمتاعب في سبيل الله، وله مع ذلك أجر أُخرويّ.

٥٧. (وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ):

يقرّر سبحانه في هذه الآية أنّ وراء الأجر الدنيويّ أجر أُخرويّ خير من الدنيوي لعُظمه ودوامه كما قال: (وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ)لمن اجتمع فيه وصفان:

١. (لِلَّذِينَ آمَنُوا) بالله تعالى إيماناً صادقاً.

٢. (وَكَانُوا يَتَّقُونَ): أي مستمرّون على التقوى، وهي استشعار خشية الله تعالى.

الولاية عن الظالم

وردت في الفقه الإسلامي مسألة وهي: قبول الولاية عن الظالم، وقد طرح الشيخ الأنصاري المسألة في كتابه «المكاسب» وخرج ببعض النتائج منها: قبولها إذا تمكّن من القسط والعدل ورفع الظلم.(المكاسب:١/٧٦، طبعة لجنة تحقيق تراث الشيخ الأعظم.) نعم كانت وزارة يوسف(عليه السلام) عن الملك فوق ذلك، فإنّ قضاء الله تعلّق بالغلاء وجفاف المناخ سبع سنين، وفيها هلاك الناس من الصّغار والكبار، فلولا قبوله الوزارة لما حصلت صيانة حياة الناس.

وربّما يكون هناك إجبار على القبول بحيث لولاه لترتّب عليه فساد كبير؛ فعن الرّيان بن الصلت قال: دخلت على عليّ بن موسى الرّضا(عليه السلام)فقلت له: يابن رسول الله الناس يقولون: إنّك قبلت ولاية العهد مع إظهارك الزهد في الدنيا؟ فقال(عليه السلام): «قد علم الله تعالى كراهتي لذلك، فلمّا خيّرت بين قبول ذلك وبين القتل، اخترت القبول على القتل. ويحهم أما علموا أنّ

يوسف(عليه السلام) كان نبياً ورسولاً فلمّا دفعته الضرورة إلى تولّي خزائن العزيز: (قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ) ودفعتني الضرورة إلى قبول ذلك على إكراه وإجبار بعد الإشراف على الهلاك، على أنّي ما دخلت في هذا الأمر إلاّ دخول خارج منه، فإلى الله المشتكى وهو المستعان». (عيون أخبار الرضا(عليه السلام):٢/١٣٩.)

الآيات: الثامنة والخمسون إلى الثانية والستين(وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ... أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ).

(وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ * وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ * فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلاَ تَقْرَبُونِ * قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ * وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ).

المفردات

منكرون: أي لم يعرفوه.

بجهازهم: الجَهاز: ما يعدّ من متاع للمسافر وغيره. والتجهيز حمل ذلك أو بعثه. وأُريد به هنا الطعام.

المُنزِلين:النُّزُل: ما يقدّم للضيف من الطعام وغيره. وخير المُنزلين: أي خير المضيّفين، مأخوذاً من النُّزُل بالمعنى الذي عرفت. وقيل: مأخوذ من المنزل وهو: الدار.

فتيانه:خدمه.

رحالهم: الرَّحْل: ما يوضع على ظهر الدابة. والمراد هنا أوعيتهم التي توضع فوق السَّرج للفرس.

انقلبوا:أي رجعوا.

التفسير

مرّت السنوات السَّبع المخصبة وأقبلت السَّبع المُجدبة. اشتدّ الجَدْب في مصر، وامتدّ إلى فلسطين أرض كنعان، فأصاب الكنعانيين من القحط ما أصاب غيرهم، وقد وصلت يعقوب وأبناءه أخبار طيّبة عن مصر وعن توفّر الطعام فيها، فتجهّز بنو يعقوب، باستثناء بنيامين (شقيق يوسف)، وساروا حتى وردوا مصر، كما يقول:

٥٨. (وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ):

حضور أبناء يعقوب عند يوسف(عليه السلام)

دخل أبناء يعقوب على يوسف(عليه السلام) في مقرّه الذي يشرف فيه على عملية بيع الغلال وتوزيعها، كما يقول:(وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ)وعند دخولهم، عرفهم يوسف(عليه السلام) كما يقول: (فَعَرَفَهُمْ) ولم يعرفوه (وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ) لطول العهد به وتغيّر ملامحه، وبُعْد حاله التي رأوه عليها عن حاله يوم فارقوه، وطبع الحال يقتضي أنّهم لا يعرفونه لأنّهم ألقوه في البئر وهو صبيّ، ثم وجدته إحدى القوافل وباعته في سوق النّخاسة بمصر واشتراه العزيز وجاء به إلى بيته فأمضى هناك فترة من عمره إلى أن أصبح فتى يافعاً، استهوى المرأة بفتوّته، فراودته عن نفسه ولكنّه امتنع امتناعاً شديداً، ثم بعد فترة من الزمن زُجّ في السِّجن وأمضى فيه بضع سنين ثم أُطلق منه وضمّ إلى بلاط الملك يدبّر أمر وزارته حتى أتت السنوات المخصبة السّبع، وتلتها السنوات المجدبة، والله يعلم في أيّ سنة من تلك السنين جاء الإخوة إلى مصر ودخلوا عليه(عليه السلام)، ويمكن تقدير عمره آنذاك بأربعين سنة أو نحوها، وقد تركوه صبيّاً ، ولذلك يقول:(فَعَرَفَهُمْ)بنور النبوّة وفراسته، ولم يعرفوه للتغيّر الحاصل في ملامحه.

ويظهر من سياق الآية أنّ يوسف(عليه السلام) أنزل إخوته منزلاً طيباً وتركهم يأنسون إليه حتى ذكروا له من هم على وجه التفصيل، وأنّ لهم أخاً أصغر من أبيهم لم يحضر معهم. وطبع الحال يقتضي أن يتكلّم يوسف(عليه السلام)بلغة القبط، والإخوة

بلغة الكنعانيّين، والمترجم يقوم بترجمة كلامهم، أو هم كانوا يعرفون لغة القبطيّين، إذ أنّه لو تكلّم بلغة الكنعانيّين لربّما انكشف أمره وعرفوه.(مجمع البيان:٥/٤٧٣.)

٥٩. (وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ):

طلب يوسف(عليه السلام) بأن يأتوا بأخ لهم في المرّة الثانية

قوله سبحانه: (وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ)، التجهيز هو إعطاء الجهاز، والجهاز ما يحتاج إليه المسافر وسافر لأجله، فيكون المعنى: ولمّا هيّأ لهم ما جاءوا لأجله من الطّعام وملأ به أوعيتهم، وحينئذ (قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ)هذا الطلب يدلّ على أنّهم أخبروا يوسف(عليه السلام) بأخ لهم من يعقوب حتى سألهم يوسف(عليه السلام)عنه، وقد ذكر المفسّرون وجوهاً لتظاهر يوسف بوجود أخ لهم، وهي لا تهمّنا. ولعلّ الإخوة طلبوا سهماً له ولأبيه فوافق العزيز ولكن أمر بأن يأتوا به إليه في المرّة القادمة حتى يعلم صدق قولهم.

ثم قال: (أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ): أي أتمّه ولا أبخسه، وأزيدكم حمل بعير لأجل أخيكم (وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ): أي خير المُضيفين الذين يكرمون الضيوف. وأين هذا ممّا روي من أن يوسف(عليه السلام) قال لإخوته: إن أمركم ليريبني، كأنّكم جواسيس؟(تفسير الدر المنثور:٤/٥٥٤.)

٦٠. (فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلاَ تَقْرَبُونِ):

قال يوسف(عليه السلام):(فَإِنْ) فإذا عدتم مرّة أُخرى و(لَمْ تَأْتُونِي بِهِ): أي بأخيكم الصغير، فعندئذ أوعدهم بأمرين:

١. (فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي) والمراد بالكيل المَكيل.

٢. (وَلاَ تَقْرَبُونِ): أي لا تقربوا داري ولا بلادي، فكلامه هذا ممزوج بالوعيد.

٦١. (قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ):

أحسّ إخوة يوسف بأنّ ما يحملونه من الطعام لا يكفي عائلة كبيرة تضمّ يعقوب(عليه السلام) وأبناءه وهم أحد عشر رجلاً، مع زوجاتهم وأولادهم، ومن جانب آخر هدّد العزيز بمنعهم من ابتياع الطعام إذا لم يأتوا بأخيهم، ولذلك خاطبوا يوسف(عليه السلام) بقولهم:(قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ): أي نبذل قُصارى جهدنا في الإتيان بأخينا، لأنّهم جوّزوا أن يرفض أبوهم إرساله معهم، لتجربته المريرة معهم في أمر يوسف(عليه السلام). ثمّ أكدّوا اجتهادهم في طلبه منه والإتيان بأخيهم إلى يوسف(عليه السلام)، ولذلك قالوا: (وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ). وقد مرّ معنى المراودة في الآيات السابقة .

٦٢. (وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ):

أمر يوسف(عليه السلام) خَدمه قبل أن يرحل الإخوة بأن يدسّوا ما قدّمه إخوته من الأثمان لشراء الطعام، يدسّونها في أوعية أمتعتهم، كما حكى عنه سبحانه ذلك بقوله: (وَ قَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ) البضاعة ما يشترى به الشيء (فِي رِحَالِهِمْ): أي اجعلوا ما كانوا قد أتوا به من أثمان الطّعام الذي اشتروه، في أوعيتهم (لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا): أي رجاء أن يعرفوا حقّ ردّها وحقّ التكرّم بإعطاء البدلين، بالجمع بين البدل والمبدل منه. وقد فعل يوسف ذلك ليقفوا على أنّه إنّما فعل ذلك إكراماً لهم، فيبعثهم ذلك على العودة إليه.

وأمّا تعليل سيد قطب، الذي قال فيه: إنّ ردّ الثمن يشير إلى عدم الرغبة في البيع مرّة أُخرى، أو هو إنذار بذلك واعتبار المرّة الأُولى هدية أو ما يشبه ذلك(في ظلال القرآن:١٣/١٣.)، أمّا تعليله هذا فبعيد، وهو لا ينسجم مع ظاهر قولهم حينما وقعت أعينهم على بضاعتهم (يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا)(يوسف:٦٥.) فهو يدلّ على أنّهم قد استبشروا بذلك.

كما أنّ قوله، في أحد توجيهاته لمعنى جعل البضاعة في رحالهم: إنّ يوسف(عليه السلام) لم يعطهم قمحاً، إنّما وضع لهم بضاعتهم في رحالهم(في ظلال القرآن:١٣/١٣.)؛ مخالف لظاهر قوله: (أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ)، فهو ينبئ عن أنّه(عليه السلام)أحسن ضيافتهم وجهّزهم بالزّاد الكافي لهم.

الآيات: الثالثة والستون إلى السادسة والستين(فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا..... اللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ).

(فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ * قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ * قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ).

المفردات

الكيل: أُريد هنا المَكيل. وهذا يدلّ على أنّ السيرة في مصر يومذاك بيع المِيرة بالكيل لا بالوزن. فالمتاع القليل يباع بالوزن، والكثير يباع بالكيل وذلك لسهولة الأمر، فإنّ وزن الكثير يحتاج إلى زمان طويل.

نكتل: مجزوم لوقوعه جواباً للأمر، أي فأرسل. والمراد: نكتل من الطعام ما نحتاج إليه، ويرفع المانع.

نمير: نجلب المِيرة، وهي الطعام.

كيل بعير: حمل بعير.

موثقاً:عهداً.

يُحاط بكم: تُغلبوا على أمركم.

التفسير

٦٣. (فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ):

عودة الإخوة إلى وطنهم

عاد إخوة يوسف بما يحملون من الطعام إلى وطنهم فلسطين، وسارعوا إلى إخبار أبيهم يعقوب(عليه السلام)قبل فتح رواحلهم بخبر محزن، وهو قرار متولّي خزائن مصر برفض التعامل معهم والكيل لهم في المستقبل ما لم يأتوه بأخيهم من أبيهم، كما يقول:(فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ): أي لمّا دخلوا على يعقوب وسألهم عمّا جرى عليهم في سفرهم، فقالوا: (يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ) في المستقبل إن لم نأته بأخينا حيث قال لهم:(فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي)ولذا (فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا)بنيامين (نَكْتَلْ): أي نأخذ طعامنا بالكيل (وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) من أن يصيبه سوء ومكروه.

٦٤. (قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ):

لم يطمئنّ الأب إلى قولهم: (وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) حيث إنّ له معهم تجربة قاسية نغّصت عليه حياته، حيث أعطوه نفس هذا العهد وقالوا: (أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)(يوسف:١٢.) فأجابهم بقوله: (هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ): أي (آمَنُكُمْ) على بنيامين في الذهاب به إلا كأمني على يوسف(عليه السلام)، ضمنتم حفظه ثم ضيّعتموه، وقد تعهّدتم بحفظه ولكنّكم فرّطتم فيه وادّعيتم أنّ الذئب أكله وأنتم عنه غافلون؟ ثم توجّه يعقوب(عليه السلام) بكلّ كيانه إلى الله تعالى وقال: (فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) وقد فوّضت إليه أمري في حفظ ولدي، وقطعت رجائي عمّن سواه.

ويلاحظ أنّ النبيّ يعقوب(عليه السلام) ختم كلامه بفقرتين:

١. (فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظًا).

٢. (وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) .

فالفقرة الثانية ـ أعني: (أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) ـ في موضع التعليل لقوله:(فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظًا): أي إنّ غيره تعالى ربّما أُمن في أمر وائتمن عليه في أمانة، فلم يرحم المؤتمن وضيّع الأمانة، لكنّه سبحانه أرحم الراحمين لا يترك الرحمة في محلّ الرحمة، ويرحم العاجز الضعيف الذي فوّض إليه أمراً وتوكّل عليه،(وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)(الطلاق:٣.)(انظر: الميزان في تفسير القرآن:١١/٢١٤.)

ثمّ إنّ كلتا الفقرتين تفريع على سابق كلامه(هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ): أي إذا كان الاطمئنان إليكم في أمره لُغىً لا أثر له ولا يغني شيئاً، وإذا تردّد الأمر بين التوكّل على الله والتفويض إليه وبين الاطمئنان بغيره، كان الوثوق به تعالى هو المختار المتعيّن.(الميزان في تفسير القرآن:١١/٢١٤.)

لمّا تمّ حوار الأبناء مع الأب، تركوه والأحزان تستعر في قلبه، وتوجّهوا إلى رواحلهم، لإخراج ما في الأوعية من طعام، وهناك وجدوا المفاجأة وهو ما يذكره القرآن الكريم:

٦٥. (وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ):

لمّا فتحوا رحالهم وجدوا فيه أيضاً بضاعتهم التي حملوها كثمن للشراء كما يقول:(وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ): أي أوعية الطعام (وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ): أي الأثمان التي اشتروا بها الميرة (رُدَّتْ إِلَيْهِمْ) ودُسّت في متاعهم، فعند ذلك عادوا مسرعين إلى أبيهم مسرورين (قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي): أي أيّ شيء نطلب بعد هذا وقد أكرمَنا متولّي الخزائن بإعطائنا الغلال مجاناً؟ ثم أخذوا يعدّدون مزايا الرّحلة التي يعتزمون القيام بها في المستقبل إلى مصر. كلّ ذلك لإغراء أبيهم بالموافقة على إرسال أخيهم معهم، قائلين: (هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا)وستنفعنا في المستقبل (وَنَمِيرُ أَهْلَنَا): أي نأتيهم بالميرة (وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ) باستصحاب أخينا (ذَلِكَ): أي

إعطاء كيل لأخينا (كَيْلٌ يَسِيرٌ): أي متيسّر، لا عسر فيه على ذلك المحسن الجواد المتولّي للخزائن، ولا يشقّ عليه.(التبيان في تفسير القرآن:٦/١٦٥، نقل هذا المعنى عن الحسن البصريّ. ثم نقل وجهاً آخر عن الجبّائي: إنّ ذلك كيل قليل لا يكفينا، نحتاج إلى أن نضيف إليه كيل بعير لأخينا.)

٦٦. (قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ):

النبيّ يعقوب (عليه السلام)يطلب من أولاده أن يعطوه ميثاقاً ليُردنّ عليه الأخ

استسلم يعقوب(عليه السلام) لطلب الأبناء وفقاً لما وصفوا له من الأُمور، حيث رأى أنّ البضاعة قد ردّت وأنّ العزيز قد أكرمهم، فوافق على إرسال (بنيامين) معهم، ولكن اشترط عليهم هذا الشرط: (قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللهِ): أي تؤتوني بيمين أو عهد (لَتَأْتُنَّنِي بِهِ) .

قال السيد الطباطبائي: والمعاهد والمقسم بقوله: عاهدت الله أن أفعل كذا أو بالله لأفعلنّ كذا، يراهن كرامة الله وحرمته فيضعها رهينة عند من يعاهده أو يقسم له، ولو لم يفِ بما قال خسر في رهينته، وهو مسؤول عند الله لا محالة.(الميزان في تفسير القرآن:١١/٢١٦.)

ولمّا كانت قدراتهم محدودة في هذا المجال فقد ينزل بهم ما لا حيلة لهم في ردّه استثنى يعقوب(عليه السلام)وقال: (إِلاَّ أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ): أي تُغْلَبوا بالحوادث الخارجة عن اختياركم، كما يحكي عنه قوله: (إِلاَّ أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ): أي إلاّ أن تكونوا محاطين

مغلوبين. ولمّا استجاب الأبناء لطلبه كما يقول:(فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ)وتعهّدوا بالعمل بعهدهم (قَالَ)يعقوب: (اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ) تذكيراً لهم بأنّ الله رقيب وشاهد على ما تعهّدوا به، وكأنّه تأكيد للحلف.

الآيتان: السابعة والستون والثامنة والستون(وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ.. أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ).

(وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ * وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ).

المفردات

متفرّقة: متعدّدة، بقرينة قوله: (مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ).

أُغني: من الغَناء بمعنى الإجزاء وكفاية الأمر، وأمّا الغناء ـ بكسر الغين ـ فهو ضد الفقر.

الحكم:التقدير، فيكون الحكم حكماً تكوينياً، بخلاف قوله: (إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ)(يوسف:٤٠.) فقد مرّ منّا أنّ المراد هو الحكم التشريعي.

قضاها: أنفذها. يقال: قضى حاجة لنفسه، إذا أنفذ ما أضمره في نفسه.

التفسير

٦٧. (وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ):

إيصاء النبيّ يعقوب(عليه السلام) أولاده بعدم الدخول من باب واحد

لمّا استعدّ أبناء يعقوب للسّفر ثانية إلى مصر، وهم أحد عشر رجلاً، أوصاهم أبوهم بالاحتراز من دخول مصر مجتمعين من باب واحد، وأمرهم بالدخول متفرّقين من أبواب متعدّدة، قال: (وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ) فإنّ للمدينة أبواباً متعدّدة (وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ)متعدّدة. وقد اختلفت كلمة المفسّرين في ما هو الغرض من الإيصاء، منها:

١. أن يكون النهي هو خشية أن يسترعي عددهم أبصار أهل المدينة، فربّما يوجس الحرّاس منهم خيفة فيُسجنون حتّى يتبيّن حالهم وما هو الهدف من سفرهم، فربّما ينتهي ذلك إلى حرمانهم من شراء الطعام الذي هو الغرض الأقصى من السفر.(انظر: التحرير والتنوير:١٢/٩١.)

٢. خاف يعقوب(عليه السلام) عليهم العين، لأنّهم كانوا ذوي جمال وهيبة وكمال، وهم أُخوة، أولاد رجل واحد.

وقد ورد في بعض الروايات عن أبي عبد الله(عليه السلام) قال: قال أمير المؤمنين(عليه السلام): «رقى النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) حسناً وحسيناً فقال: أُعيذكما بكلمات الله التامّات وأسمائه الحسنى كلّها عامّة من شرّ السامّة والهامّة ومن شرّ كلّ عين لامّة، ومن شرّ حاسد إذا حسد. ثم التفت النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) إلينا فقال: هكذا كان يعوّذ إبراهيم إسماعيلَ وإسحاق (عليهم السلام)».(الكافي:٢/٥٦٩، برقم٣.)

٣. خاف عليهم حسد الناس إيّاهم، وأن تبلغ الملك قوّتهم وبطشهم فيحبسهم أو يقتلهم خوفاً على ملكه.(التبيان في تفسير القرآن:٦/١٦٧. نقله عن الجُبّائي.)

وبما أنّ ظاهر الإيصاء أنّ العمل به يدفع عنهم الشرّ مطلقاً، استدرك يعقوب(عليه السلام) ذلك بقوله: (وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ): أي لا يكون ما أمرتكم به مغنياً عن تقدير الله سبحانه، وربّما يصيبكم شيء من دون أن يدفعه ما أوصيتكم

به، لأنّ حكمه نافذ. ثم علّل ذلك بقوله: (إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ) فالكون وما فيه محكوم بحكمه، وإرادته لا تُردّ، ولذلك يجب إيكال الأمر إلى الله سبحانه بعد الأخذ بالأسباب الظاهرة، كما قال: (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ) إذ لله الولاية المطلقة الحاكمة على الكون وما فيه ومنه الإنسان. وعلى هذا المسير يجب أن يسير كلّ رشيد يرى أنّه لا يقوى بالاستقلال لإدارة أُموره ويرى أنّ الأسباب العادية باستقلالها لا تقوى على إيصاله إلى ما يبتغيه من المقاصد، بل عليه أن يلتجئ في أُموره إلى مَن يدبّر أمره أحسن تدبير، وهو الله سبحانه الظاهر الذي لا يقهره شيء، الغالب الذي لا يغلبه شيء، يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد.

٦٨. (وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْء إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْم لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ):

نزول المصيبة بأولاد يعقوب بعد الدخول

عمل الإخوة بما أوصاهم أبوهم، فدخلوا المدينة من الأبواب المتعدّدة، ومع ذلك أصابهم ما يخاف منه يعقوب، وما توقّعه من نزول المصيبة بهم وهي تفرُّق جمعهم ونقصان عددهم. والوسيلة التي اتّخذها لتلك الغاية ـ أعني الدخول من أبواب متفرّقة ـ لم تكن لتدفع عنهم البلاء، بل صار قضاء الله ماضياً فيهم حيث تفرّق شملهم، كما سيأتي. وإلى ما ذكرنا يشير سبحانه: (وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي)دخولهم مصر من أبواب متعدّدة (عَنْهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْء) فلم يكن مغنياً عن ردّ القضاء المقدّر من الله سبحانه، فقوله:(مِنْ شَيْء) نائب مناب «شيئاً» وزيدت «مِن» لتوكيد عموم شيء في سياق النفي.

ثمّ إنّه سبحانه استثنى شيئاً وقال: (إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا)وجعلُ الاستثناء منقطعاً أفضل، إذ ليست الحاجة جزءاً من الشيء المنفي عنهم من الله. وتقدير الآية: لكن حاجة في نفس يعقوب(عليه السلام)قضاها. وأمّا ما هو المراد من الحاجة المقضية فهناك آراء وأقوال:

١. المراد بها اضطراب قلبه حيث ارتفع بالإيصاء.(مجمع البيان:٣/٢٥٠.)

٢. حرصه على تنبيههم على الأخطار الّتي تعرض لأمثالهم في هذه الرحلة إذا دخلوا من باب واحد، وتعليمهم الأخذ بالأسباب مع التوكّل على الله.(التحرير والتنوير:١٢/٤٩.)

يلاحظ على الوجهين: أنّه لو كان المراد هو هذا فقد قضيت حاجته عندما استعدّ الأولاد للرحيل، ولكن ظاهر الآية أنّه قضيت حاجته بعد رحيلهم ودخولهم مصر.

ولعلّ المراد هو تهيئة السبب الّذي يتوصّل به يعقوب(عليه السلام) إلى لقاء ابنه يوسف(عليه السلام)، حيث إنّ الوصال كان حاجة يعقوب(عليه السلام) الّتي تدور في خلده ليلاً ونهاراً، فصار هذا التفريق سبباً لقضاء ذلك. يقول العلاّمة السيد الطباطبائي: لكن الله سبحانه قضى بذلك حاجة في نفس يعقوب(عليه السلام)، فإنّه جعل هذا السبب الّذي تخلف عن أمره وأدّى إلى تفرُّق جمعهم ونقص عددهم بعينه سبباً لوصول يعقوب إلى يوسف(عليه السلام)، فإنّ يوسف(عليه السلام) أخذ أخاه إليه ورجع سائر الإخوة إلاّ كبيرهم إلى أبيهم، ثمّ عادوا في المرحلة الثالثة إلى يوسف(عليه السلام) يسترحمونه ويتذلّلون لعزّته، فعرّفهم نفسه، وألزمهم بإشخاص أبيهم وأهله إلى مصر، فتبدّل الفراق بالوصال.(انظر: الميزان في تفسير القرآن:١٣/٢١٩.)

الآيات: التاسعة والستون إلى السادسة والسبعين(وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ... وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْم عَلِيمٌ).

(وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ * قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ * قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ

حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ * قَالُوا تَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ * قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ * قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ * فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ).

المفردات

آوى: أوى إلى كذا: انضمّ إليه. وأُريد هنا الإدناء والتقريب حتى يتمكّن من الإسرار، فمعنى آوى إليه أخاه: ضمّه وقربّه إليه.

فَلاَ تبتئس: فلا تحزن، من البؤس بمعنى الحزن والكدر.

السِّقاية: الوعاء الذي يُسقى فيه. والمراد به هنا الصُّواع.

أذّن: من التأذين، وهو النّداء.

العِير: الإبل التي عليها الأحمال، ثم كثر الاستعمال حتى قيل لكلّ قافلة عير.

صُواع: لغة في الصّاع، وهو وعاء للكيل. وهو غير الصاع في الفقه. وقد عبّر عن هذا الوعاء بالسِّقاية لأنّه في الأصل كان يُستعمل للشرب، ثمّ أصبح لكيل الطعام، فعبّر عنه بالصُّواع تارة، وبالسِّقاية أُخرى.

زعيم: كفيل.

التفسير

٦٩. (وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ):

الوفود الثاني على عزيز مصر

نشاهد في هذه الحلقة، وهي الوفود الثاني على عزيز مصر، التقاء الإخوة بيوسف(عليه السلام) للحصول على الميرة وتوفّر الفرصة ليوسف (عليه السلام) للخلوة بأخيه(بنيامين) وتقريبه منه، ومصارحته بأنّه هو أخوه، ثم تطييب نفسه بعدم الابتئاس والاغتمام بما صدر من إخوته من أذى (وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ): أي قرّبه وأدناه يوسف للإسرار و(قَالَ) له سرّاً (إِنِّي أَنَا أَخُوكَ) يوسف الذي قيل في أمره أنّه أكله الذئب (فَلاَ تَبْتَئِسْ): أي لا تحزن ولا تتكدّر (بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) من أنواع الأذى والمظالم التي حملهم عليها حسدهم لي ولك ونحن أخوان من أُم واحدة، وصيغة المضارع (يَعْمَلُونَ) تدلّ على أنّ الأذى كان مستمرّاً في حقّ «بنيامين» بعد فقد يوسف(عليه السلام)، ولذلك يوصيه يوسف(عليه السلام) بعدم الحزن والابتئاس.

وظاهر الحال يقتضي أنّه أسرّه بما سيجري عليه من اتّهامه بالسرقة وأنّه محاولة لفصله عن إخوته حتى يبقى مع يوسف ويذهب الآخرون إلى أبيهم، ولذلك نرى أنّه لما اتُّهم بالسرقة سكت ولم يدافع عن نفسه لأنّه علم أنّه خطة دُبّرت لاستبقائه في مصر، وعلى كلّ تقدير أراد يوسف(عليه السلام) أن يحتفظ بأخيه فألهمه الله تعالى، من أجل تحقيق بغيته، تدبيراً محكماً ستتوضح معالمه بعد قليل.

٧٠. (فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ):

أمر يوسف(عليه السلام) بعض فتيانه وخدّامه بدسّ الوعاء الذي يُسقى به والمستعمل عندهم لكيل الطعام، أمر بدسّه في الرَّحل المختصّ بأخيه عند تجهيزهم بالطعام، كما يقول: (فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ): أي أعطاهم ما جاءوا لطلبه من الميرة، وجعل لكلٍّ منهم حِمل بعير (جَعَلَ السِّقَايَةَ): أي أمر بجعل السقاية (فِي رَحْلِ أَخِيهِ)وإنّما أضاف الله تعالى ذلك إليه، لوقوعه بأمره، وعلى هذا فالنسبة إليه من باب السببيّة (ثُمَّ) لمّا تهيّأوا للانطلاق والرحيل (أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ): أي نادى مناد، مُسمعاً ومُعلناً (أَيَّتُهَا الْعِيرُ): أي أيّتها القافلة (إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ).

وحصيلة الكلام: إنّ الآية تنسب فعلين إلى شخصين:

١. جعل السِّقاية في رحل أخيه.

٢. وصف القافلة بالسَّرقة مع أنّه لم تكن منهم سرقة.

والظاهر أنّ الأمر الأوّل كان بأمر من يوسف(عليه السلام)، وأمّا الأمر الثاني فإنّما كان من العاملين على تقسيم الميرة حيث التفتوا إلى فقدان السِّقاية بعد أن كالوا بها الطّعامَ لإخوة يوسف، وعندئذ لم يجد العاملون بدّاً من نسبة السَّرقة إليهم . وبذلك تُعلم نزاهة يوسف(عليه السلام) من أمر يخالف العقل والشريعة.

وثَمّ وجه آخر في تبرير اتّهامهم بالسَّرقة، وهو أنّ الشخص الّذي ستثبت عليه تهمة السرقة وفق الخطة المرسومة هو شقيق يوسف (بنيامين)، وقد أطلعه يوسف(عليه السلام) على خطّته، فوافق عليها، ورضي بأن يقوم بهذا الدور، كما يُفهم ذلك من السياق، إذ لم يُبدِ أيّ ردود فعل إزاء كلّ ما جرى عليه.

٧١. (قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ):

صُعق أبناء يعقوب لهذا الخبر الذي يسيء إلى سمعتهم وهم من أهل بيت رفيع الشأن، وقد يغلق عليهم باب الحصول على الطعام في هذه الأوقات العصيبة، ولذا سارعوا إلى فتيان يوسف للتساؤل عن حقيقة الأمر (قَالُوا): أي أصحاب العير (وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ): أي على فتيان يوسف (مَاذَا تَفْقِدُونَ): أي ما الذي فقدتموه من متاعكم؟ فأجاب فتيان يوسف بما في الآية التالية:

٧٢. (قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِير وَ أَنَا بِهِ زَعِيمٌ):

تتضمّن الآية أُموراً ثلاثة:

١. (قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ) والصُّواع ـ كما تقدّم ـ وعاء للكيل. وفي الوقت نفسه كان وعاء للملك يستعمله للشّرب، ولذا عبّر عنه بالسِّقاية. ويظهر أنّه كان ذا قيمة عالية، وقد قيل إنّه كان من الذهب أو الفضّة.

٢. قال المنادي (وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ): أي بالصُّواع (حِمْلُ بَعِير): أي يُعطى له وراء ما أخذ من الميرة(حِمْلُ بَعِير) .

٣. قال المنادي أيضاً: (وَ أَنَا بِهِ زَعِيمٌ): أي كفيل. وهذا يشعر بأنّ المنادي للأمرين غير من دسّ صُواع الملك في رحل (بنيامين)، ولذلك كان خائفاً من عدم العثور على الصُّواع فعيّن جائزة، وهي أنّ من جاء به سيعطى حمل بعير بالإضافة إلى ما أخذ من قبل.

٧٣. (قَالُوا تَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ):

انتاب الإخوة اضطراب شديد لمّا سمعوا نداء الاتّهام بالسرقة، وبادروا إلى تبرئة أنفسهم بهذا الكلام المعزّز باليمين (قَالُوا تَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ)أيها القوم (مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ) أضافوا العلم إليهم لأجل أنّه ظهر لهم حُسن سيرتهم (وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ): أي ليس من شأننا السرقة.

٧٤. (قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ):

(قَالُوا): أي فتيان يوسف (فَمَا جَزَاؤُهُ): أي جزاء السارق (إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ) في قولكم إنّا لن نسرق، وظهرت السرقة؟ فأجاب الإخوة بما في الآية التالية:

٧٥. (قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ):

أجاب أبناء يعقوب ـ كما في الآية ـ بأنّ جزاء من وُجد الوعاء في رحله هو استرقاقه تبعاً، حيث نجزي السارق بهذا الأُسلوب في بلدنا، كما يحكيه سبحانه:(قَالُوا جَزَاؤُهُ): أي جزاء السارق (مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ): أي الإنسان الذي وُجد المسروق في رحله (فَهُوَ جَزَاؤُهُ) يؤخذ ويُسترقّ (كَذَلِكَ): أي مثل ما ذكرنا من الجزاء (نَجْزِي الظَّالِمِينَ): أي إذا سَرق استُرقّ. وعن أبي عبد الله

الصادق(عليه السلام) في تفسير قوله: (جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ) يعنون السنّة التي تجري فيها أن يحبسه.(تفسير العياشي:٢/١٨٣.) ولعلّ الغاية هو الاسترقاق أو الإجبار على العمل.

٧٦. (فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ نَرْفَعُ دَرَجَات مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْم عَلِيمٌ):

اتّفق إخوة يوسف(عليه السلام) وعُمّاله على أنّ مَن وُجد الصُّواع في رحله يُسترقّ ويُستعبد، وكان هذا هو القانون السائد بين الكنعانيّين.

فبدأ فتيان يوسف وعُمّاله بفتح أوعية الإخوة وتفتيشها قبل تفتيش وعاء (بنيامين)، لإبعاد فكرة أنّها خطّة مدبَّرة عن أذهان بقية الإخوة، وهذا يدلّ على علم فتيان يوسف بالخطّة وأنّهم يعملون وفقها، كما يحكيه سبحانه بقوله:(فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ) لتفتيشها (قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ) وعند ذلك استقرّ الجزاء عليه باسترقاقه لكون الصُّواع في رحله.والهاء في (اسْتَخْرَجَهَا) تعود إلى السِّقاية. وفي قول الزجّاج إلى الصُّواع فإنّه يُذكَّر ويؤنَّث.

ثمّ أشار سبحانه إلى أنّ هذا التخطيط الدقيق ليوسف(عليه السلام) كان بإلهام من الله ليتوصّل به إلى أخذ أخيه، كما يقول:(كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ) والكيد عمل يُتوصَّل بظاهره إلى مقصد خفيّ، وأُسند الكيد إلى الله لأنّه مُلهمه، وليس كلّ كيد بمنتف عنه سبحانه وإنّما يُنفى الكيد المبنيّ على الظلم، وقد وصف تخطيط يوسف(عليه السلام)بالكيد لجهل الإخوة بعمله ولو علموا لما رضوا به ولا مكّنوه منه، وهذا هو الكيد، غير أنّه لمّا كان بإلهام من الله أو وحي منه إليه نسبه الله سبحانه إلى نفسه، فقال: (كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ).(انظر:الميزان في تفسير القرآن:١١/٢٢٥.)

ولولا هذا الكيد لم يتوصّل يوسف(عليه السلام) إلى ما يطلبه من أخذ أخيه، حيث إنّ السارق في القانون السائد في مصر لا يعاقب بالاسترقاق بل بعقوبة أُخرى، وإلى هذا يشير قوله سبحانه: (مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ): أي حكمه وقانونه، لولا حيلة وضع الصُّواع في رحل أخيه (إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ) ويقصد بالمشيئة هنا التدبير الذي أُتيح له به أخْذ أخيه، وهكذا يرفع الله من يشاء بالعلم كما رفع يوسف(عليه السلام) (نَرْفَعُ دَرَجَات مَنْ نَشَاءُ)وفيه إشارة إلى رفع درجة يوسف(عليه السلام) بالتدبير الحكيم.

قال الشريف الرضيّ: وهذه استعارة لأنّه ليس هناك على الحقيقة بناء يوطّد ولا درجات تُشيَّد، وإنّما المراد به تعلية معالم الذِّكر في الدنيا، ورفع منازل الثواب في الآخرة....(تلخيص البيان في مجازات القرآن:٧١.)

قوله سبحانه:(وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْم عَلِيمٌ) فيه إشارة إلى تفاوت الناس في العلم.

هذا، وقد دلّت الروايات المتضافرة على أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) قال:«إنّما أقضي بينكم بالبيّنات والأيمان».(الوسائل:١٨، الباب؟ من أبواب كيفية القضاء، الحديث١.)

وهنا وقع الكلام بين الفقهاء في أنّه هل يصحّ للقاضي أو الحاكم أن يقضي بالقرائن والشواهد التي تُثبت كون أحد طرفي الدعوى محقّاً؟ وإلى هذا يرجع قول الفقهاء: هل يجوز للقاضي أن يقضي بعلمه أو لا؟ ويمكن أن يقال: إنّه يستفاد من قصة يوسف(عليه السلام) أنّه يحق للقاضي أن يحكم بالقرائن الدالّة على الموضوع حيث إنّ العثور على الصُّواع في متاع بنيامين صار دليلاً على كونه مذنباً وسارقاً وحكم عليه بالاسترقاق، إذ لا يحتمل أن يقوم أحد المصريّين أو أحد الإخوة بهذا العمل، فهذا قرينة قطعية على أنّه صدر عمّن وُجد عنده الصُّواع.

الآيات: السابعة والسبعون إلى التاسعة والسبعين(قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ.. إِذًا لَظَالِمُونَ).

(قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ * قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * قَالَ مَعَاذَ اللهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلاَّ مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ).

المفردات

فأسرّها: أضمرها وأخفاها. والضمير يرجع إلى مقالتهم أنّه سرق.

شرٌّ: أصله أشرّ.

مكاناً: تمييز للأشرّ، وأُريد بالمكان المكانة والمنزلة.

معاذ: مصدر ميمي للعَوذ، وهو اللجأ إلى مكان للتحصّن. وهو مفعول حذف فعله، أي: أعوذ بالله معاذاً.

التفسير

٧٧. (قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ): فوجئ أبناء يعقوب(عليه السلام) بالصُّواع وهو يُستخرج من رحل أخيهم مع أنّهم أكّدوا براءة ساحتهم من السَّرقة، وعندئذ اعتراهم الاضطراب والارتباك، وأخذوا يتشبّثون بالبهتان كما يتشبّث الغريق بالقشّة فـ(قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ) وهكذا يعبّر الحقد الكامن في نفوسهم تجاه يوسف(عليه السلام) وأخيه، يعبّر عن نفسه باختلاق هذه التُّهمة في حقّ يوسف(عليه السلام)، وكأنّهم بقولهم السابق (وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ) قصدوا أنفسهم لا المتّهم بالسَّرقة ولا أخاه، لأنّهما كانا أخوين لهم من جهة الأب فقط، وكأنّهم لم يحسبوهما أخوين لهم، وقد سبّبت مقالتهم هذه ألماً مرّاً في قلب يوسف(عليه السلام)، ولكنّه تحمّلها ولم يؤاخذهم بها كعادته واعتصم بحلمه وكرمه، كما يقول:(فَأَسَرَّهَا): أي تُهمتهم أو مقالتهم (يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ) ولم يكاشفهم ولم يأمر باعتقالهم، نعم (قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا): أي أنتم شرٌّ عند الله منزلة ممّن تتّهمونه وتنسبون إليه السَّرقة، فأُريد من (مَكَاناً)المنزلة والحالة التي كانوا عليها (وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ): أي أعلم بصدقكم وكذبكم.

إنّما الكلام: هل هو قال ذلك لساناً أو قلباً؟

الظاهر هو الثاني، لأنّه(عليه السلام) ضرَب المثل الأعلى في الحلم والصفح والتجاوز عن الإساءة، ويتّضح ذلك بجلاء في موقفه الكريم منهم يوم اعترفوا أمامه بخطيئتهم بعد أن كشف لهم عن هويّته، إذ قال لهم: (لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ).(يوسف:٩٢.)

ثم اختلف المفسّرون فيما وصفوه به من السَّرقة على أقوال ذكرها الطبرسي(لاحظ: مجمع البيان:٥/٤٩٢.) على وجه التفصيل، فمن قائل: إنّه بيضة سرقها وأعطاها لجائع، إلى آخر قال: إنّه سرق دجاجة ودفعها إلى جائع، إلى ثالث قال: إنّه سرق صنماً لجدّه أبي أُمّه، وكسره، إلى غير ذلك من الوجوه التي لا يؤمن بها مَن وقف على حياة يوسف(عليه السلام)العامرة بالطهارة والأمانة، وعلى حياة أولاد يعقوب، الذين لا يُستبعد منهم أن يكذبوا في هذا الموقف، فقد كذبوا من قبل أكبر كذبة عندما جاءوا أباهم ومعهم قميص يوسف ملطّخ بدم، زاعمين أنّ الذّئب أكله، فلماذا لا يكذبون في هذا الموقف؟! وعلى هذا فالبحث عن مصداق سرقة يوسف (عليه السلام) أمر غير صحيح، وكأنّ الباحثين جعلوا إخبار الإخوة أمراً مسلّماً فصاروا يبحثون عن مصداق له!!

قال السيد الطباطبائي: إنّ قول الإخوة هنا: (إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ) لا ينسجم مع قولهم: (وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ) لأنّهم كانوا ينفون به السرقة عن أبناء يعقوب جميعاً وإلاّ لم يكن ينفعهم البتّة، فقولهم: (فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ) يناقضه وهو

ظاهر. على أنّهم أظهروا بهذه الكلمة ما في نفوسهم من الحسد ليوسف(عليه السلام)وأخيه ولعلّهم لم يشعروا به، وهذا يكشف عن أُمور مؤسفة كثيرة فيما بينهم.(الميزان في تفسير القرآن:١١/٢٢٧.)

٧٨. (قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ):

استعطاف عزيز مصر(يوسف)

لم يجد الإخوة الذين أخذ أبوهم منهم العهد المؤكّد بالإتيان بأخيهم إليه سالماً، لم يجدوا وسيلة للتخلّص من هذا المأزق الذي وقعوا فيه، سوى استعطاف العزيز وتهييج عواطفه فـ(قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا) خطاب يوسف(عليه السلام) باسم العزيز، ثم ذكر صفات الأب كل ذلك يقتضي الرقّة والعطف: حنان الأب وشغفه بابنه، وضعف الشيخوخة وكبر السنّ. لقد استعطفوه بهذه الكلمات مقدّمين بين يديه هذا الاقتراح: (فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ) أن يُطلق أخاهم (بنيامين)، ويأخذ بدله واحداً منهم ويختاره من بينهم وهم عشرة رجال. ثمّ علّلوا ذلك بقولهم: (إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)فمثلك يرحم الأب الطاعن في السنّ المتعلّق بشدّة بهذا الولد.

٧٩. (قَالَ مَعَاذَ اللهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلاَّ مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ):

اعتذر يوسف(عليه السلام) عن قبول طلبهم و (قَالَ مَعَاذَ اللهِ): أي نعوذ بالله معاذاً من (أَنْ نَأْخُذَ) غيره مكانه، فإنّا لا نأخذ (إِلاَّ مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ)لأنّ أخْذَ من وُجد المتاع عنده أخذٌ على نظام العدل، وأمّا أخذ غيره مكانه، فهو عدول عن الحقّ، ولو فعلنا ذلك (إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ).

الآيات: الثمانون إلى الثانية والثمانين(فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ... وَإِنَّا لَصَادِقُونَ).

(فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ * ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ * وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ).

المفردات

استيأسوا منه: استيأس بمعنى يئس، والسّين والتاء للمبالغة، واليأس ضدّ الطمع.

خلصوا نجياً: انفردوا عن الناس من غير أن يكون معهم غيرهم ممّن ليس منهم.

فرّطتم: قصّرتم في أمره.

أبرح: أُغادر، والبَراح: الرُّجوع.

التفسير

٨٠. (فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ):

العودة الخائبة

شعر أبناء يعقوب(عليه السلام) بالخيبة وغمرهم اليأس بعد فشل مساعيهم في إقناع العزيز بأخذ أحدهم بدل «بنيامين»، فانتحَوا جانباً وعقدوا اجتماعاً خاصّاً بهم بعيداً عن أعين الناس للتشاور بصورة سرّية في كيفية التعامل مع هذه المشكلة المستعصية كما يقول: (فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ): أي قبول أحدهم مكان «بنيامين» (خَلَصُوا نَجِيًّا) ذكر المفسّرون أنّ هذه الجملة تُعدّ من عجيب فصاحة القرآن الخارقة للعادة، حيث إنّها تضمّنت أُموراً في كلمتين يحتاج بيانها إلى جمل متعدّدة. ومن الغريب أنّ

ابن أبي العوجاء اعترف بذلك، فعن هشام بن الحكم قال: اجتمع ابن أبي العوجاء وأبو شاكر الديصاني الزنديق وعبد الملك البصري وابن المقفَّع عند بيت الله الحرام، يستهزئون بالحاجّ ويطعنون على القرآن، فقال ابن أبي العوجاء: تعالَوا ننقض كلّ واحد منّا ربع القرآن وميعادنا من قابل في هذا الموضع، نجتمع فيه وقد نقضنا القرآن كلّه، فإنّ في نقض القرآن إبطال نبوّة محمّد، وفي إبطال نبوّته إبطال الإسلام وإثبات ما نحن فيه، فاتّفقوا على ذلك وافترقوا، فلمّا كان من قابل اجتمعوا عند بيت الله الحرام، فقال ابن أبي العوجاء: «أمّا أنا فمفكّر منذ افترقنا في هذه الآية:(فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا) فما أقدر أن أضمّ إليها في فصاحتها وجمع معانيها شيئاً، فشغلتني هذه الآية عن التفكير فيما سواها».(الاحتجاج للطبرسي:٢/٣٠٦)

وذكر القاضي عياض أنّ أعرابيّاً سمع رجلاً يقرأ هذه الآية:(فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا) فقال: أشهد أنّ مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام.(الشّفا بتعريف حقوق المصطفى:١/٥٠٧، الفصل الرابع(بحث إعجاز القرآن)) وذلك أنّ الآية ذكرت صفة اعتزالهم لجميع الناس، وانفرادهم من غيرهم، وتقليبهم الآراء ظهراً لبطن، وأخذهم في تزوير ما يلقون به أباهم عند عودتهم إليه، وما يوردون عليه من ذكر الحادث، فتضمّنت تلك الآية القصيرة، معاني القصة الطويلة.(صفوة التفاسير:٢/٦٦)

نعود إلى اجتماع الإخوة، حيث انتهى بتسجيل وإقرار رأي أخيهم الكبير، الذي ذكّرهم بأمرين:

أ. (قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا) فذكّرهم بالعهد المأخوذ عليهم لأبيهم بشأن «بنيامين».

ب. (وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ): أي تقصيركم في شأن يوسف(عليه السلام)فيما مضى من الزمان. ويظهر من قوله:(مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ) أنّه لم يكن متّفقاً مع بقية الإخوة على الجريمة التي ارتكبوها في حقّ يوسف(عليه السلام)، ولذلك قال: (فَرَّطْتُمْ) ولم يقل فرّطنا، ويشهد لذلك ما ورد في صدر السورة، حيث إنّ الإخوة ـ عدا واحد منهم ـ اجتمع رأيهم على قتل يوسف(عليه السلام)، غير أنّ قائلاً منهم جاء بخطّة جديدة: (قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لاَ تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ)(يوسف:١٠): أي إذا كنتم جازمين بذلك. وهو يحكي عن عدم رضاه ورغبته في الاشتراك بالجريمة. والظاهر أنّ هذا القائل هو كبير الإخوة.

ولذلك نرى أنّه ـ انطلاقاً من شعوره بالحرج الشديد أمام أبيه ـ عزم على البقاء في مصر وعدم مغادرتها إلاّ بعد أن يأذن له أبوه، كما قال: (فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي) بالرجوع (أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي): أي يحكم الله بما فيه نفعي فيجعل لي طريقاً إلى النجاة من هذه المضيقة التي سدّت أمامي كلّ باب. وبعد أن أبلغهم بقراره خاطبهم بقوله:

٨١. (ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ):

طلب الأخ الأكبر من أُخوته أن يعودوا إلى ديارهم ويُخبروا أباهم بحقيقة ما جرى لهم في حضرة العزيز قائلاً:(ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا) فقد رأينا بأُمّ أعيننا أنّ صواع الملك كان في رحل ابنك، وكان هذا مصدر علمنا، ونحن وإن أعطيناك المواثيق بإرجاعه إليك إلاّ أنّنا لم نكن عالمين بالغيب وأنّه سيسرق (وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ).

٨٢. (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ):

واصل كبيرهم حديثه وقال: لو شكّ الوالد وصار متردّداً في القضية فعليه أن يستخبر الواقعة من أحد طريقين:

١. أن يسأل أهل مصر ـ طبعاً لا بنفسه لكونه شيخاً هرماً يعسر عليه السَّفر، بل يرسل إليهم أحداً أو يكاتبهم ـ لتحقيق الحال، حيث شاعت سرقته في مصر، كما قال: (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا) يطلق لفظ القرية تارة على نفس البلد، وأُخرى على المجتمع الذي فيها، فلا حاجة إلى تقدير«أهل».

حكى الشريف الرضيّ(رحمه الله) عن بعضهم أنّ القرية: الجماعة المجتمعة لا الأبنية المشيّدة وذلك مأخوذ من قولهم: قرى الماء

في الحوض، إذا جمعه.(تلخيص البيان في مجازات القرآن:٧٢.) فعلى هذا فما ربّما يقال من أنّ جعل القرية مسؤولاً دليل على اشتهار الأمر بحيث وقفت عليه الجدران والأبواب، فليس بتامّ لما عرفت من أنّ لفظ القرية يطلق على نفس الجماعة. نعم ما ذكروه صحيح في شعر الفرزدق الذي أنشده لغاية التعريف بالإمام علي بن الحسين زين العابدين(عليه السلام) حيث قال:

هذا الذي تعرف البطحاءُ وطأتَهُ *** والبيتُ يعرفُه والحِلُّ والحَرَمُ

٢. أن يسأل أصحاب القافلة القادمين معهم من مصر إلى أرض كنعان فقد رأوا ما رأيناه، كما يقول: (وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا) الضمير في قوله:(فِيهَا) يرجع إلى العير باعتبار أصحابها، قال الشريف الرضيّ: والعير هي الإبل وفيها أصحابها. أي اسأل أصحاب العير الذين كانوا يمتارون معنا، جئنا معهم من مصر وكانوا قوماً من كنعان من جيران يعقوب(عليه السلام).

وبما أنّ أبناء يعقوب(عليه السلام) جاءوا برفقة قافلة من الكنعانيّين، قالوا: (أَقْبَلْنَا) مصاحبين لهم (فِيهَا) في العير، ثمّ استدركوا وقالوا:(وَإِنَّا لَصَادِقُونَ) فيما نخبرك عن سرقته واسترقاقه بسبب ذلك، ونكلّفك السؤال لإزالة الرَّيب عن نفسك.

الآيات: الثالثة والثمانون إلى السابعة والثمانين(قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ.... إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ).

(قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ * قَالُوا تَاللهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ * قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ).

المفردات

سوّلت: زيّنت لكم أنفسكم أمراً كبيراً آخر. وأمّا ما هو التزيين فسيأتي ذكره في التفسير.

فصبر جميل: صبر لا جزع فيه ولا شكوى لأحد إلاّ لله سبحانه.

تولّى عنهم: أعرض عنهم لكراهة ما جاءوا به من الخبر.

يا أسفى: يا حسرتى.

ابيضّت عيناه: أصابتهما غشاوة بيضاء غطّت على البصر مع بقاء العصب الذي يُدرك المبصرات سليماً.

كظيم: الكظيم: الممسك غيظه على ما في نفسه منه. والغيظ: الغضب أو أشدّه.

تفتؤا: تزال.

حَرَضاً: الحَرَض: ذو المرض المشرف على الهلاك. وهو لا يثنّى ولا يجمع.

الهالكين: الميّتين.

أشكو: أعرضُ وأَذكر. قال اللَّيث: ويستعمل في المَوجِدة والمرض.(لاحظ: لسان العرب:١٤/٤٣٩، مادة «شكا».)

بثّي: البثّ: إثارة الشيء، وأُريد هنا إظهار ما انطوت عليه النفس من الغمّ الذي لا يقدر صاحبه على كتمانه.

فتحسّسوا: من الحسّ، وهو يوحي بوجوب العمل بكلّ الحواسّ ظاهرها وباطنها. وفي المجمع: التحسّس: طلب الشيء بالحاسّة، والتجسّس نظيره، وقيل: التجسّس: البحث عن عورات الناس، وقيل: الأوّل في الخير، والثاني في الشرّ.

الرَّوح: بفتح الراء، النَّفَس ـ بفتح الفاء ـ كناية عن كشف الكرب، لأنّ الكرب والهمّ يطلق عليهما الغمّ وضيق النفَس والصدر. وفي المجمع: الراحة.

التفسير

هذه المجموعة تتضمّن حوار يعقوب(عليه السلام) مع أبنائه بعد رجوعهم من مصر وإخبارهم له بما جرى على أخيهم «بنيامين»، وأمره لهم برجوعهم إلى مصر مرّة ثالثة والتحسّس من يوسف(عليه السلام) وأخيه. يقول الطبرسي: وهنا حذف شيء كثير تدلّ الحال عليه.(مجمع البيان:٥/٤٩٧.) وهذا هو أُسلوب القرآن حيث لا يتعرّض لذكر الأحداث التي تُعلم من القرائن، ولذلك بدأت الآيات بخطاب يعقوب(عليه السلام) للإخوة، حيث يدلّ على أنّهم أخبروا أباهم بالحوادث المرّة، فخاطبهم بقوله:

٨٣. (قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ):

رجاء يعقوب(عليه السلام) بعودة يوسف وأخويه

ما تكلّم يعقوب(عليه السلام) في هذا المقام إلاّ بنفس ما تكلّم به عندما أخبره أبناؤه بأنّ يوسف(عليه السلام) قد أكله الذئب، ففي كلا المقامين قال: (بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ)(يوسف:١٨.) مع وجود الفرق بين المقامين، حيث كانوا كاذبين في الإخبار الأوّل دون المقام، اذ كانوا معتقدين به، مستندين إلى أمارات تدلّ على صحّة الخبر، وعندئذ يقع السؤال: كيف خاطبهم النبي يعقوب(عليه السلام) في كلا المقامين بكلام واحد؟ اختلفت كلمة المفسّرين في الجواب عن ذلك، فلنذكر الأقوال:

١. قال ابن عطيّة: والظاهر أنّ قوله:(بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا) إنّما هو ظنّ سيّئ بهم كما كان في قصّة يوسف(عليه السلام) من قبل، فاتّفق أنّ صدق ظنّه هناك ولم يتحقّق هنا.(المحرر الوجيز:٣/٢٧١.)

يلاحظ عليه: بما ذكره السيد الطباطبائي، قال: حاشاه أن يكذب خبراً يحتفّ بقرائن الصدق وتصاحبه شواهد يمكن اختباره بها.(الميزان في تفسير القرآن:١١/٢٣١.)

وتبع ابنَ عطيّة ابنُ عاشور، حيث قال بعد نقل كلامه: وأمّا تهمته أبناءه بأن يكونوا تمالؤوا على أخيهم بنيامين، فهو ظنّ مستند إلى القياس على ما سبق من أمرهم في قضية يوسف(عليه السلام)... إلى أن قال: ويجوز على النبيّ الخطأ في الظنّ في أُمور العادات، كما جاء في حديث ترك إبّار النخل.(التحرير والتنوير:١٢/١٠٧.)

يلاحظ عليه: أنّ تجويز الخطأ على الأنبياء بعد بعثتهم يسبب عدم الوثوق بالأخبار التي يحكونها عن الوحي، مضافاً إلى أنّ الخطأ في الظنّ هنا يلازم اتّهام عدد من أبنائه مع أنّه لم يكن لهم دور في استرقاق بنيامين....

٢. ذهب الزمخشري إلى أنّ المراد من التسويل هو: تعليمهم العزيز بأنّ جزاء السرقة هو الاسترقاق فأنتم الذين أخبرتموه بذلك حيث يقول: أردتموه وإلاّ فما أدرى ذلك الرجل أنّ السارق يؤخذ بسرقته لولا فتواكم وتعليمكم.(تفسير الكشّاف:٢/١٥٠.)

٣. ما يمكن أن يقال: إنّ النبيّ يعقوب ليس بصدد تكذيب أبنائه بل بصدد تخطئة اعتقادهم بأنّ بنيامين سَرق لعلمه بطهارة ابنه وترفّعه عن هذه الأُمور، فكأنّه يقول: ليس الأمر كذلك، وهذا ظنٌّ منكم بأخيكم واقع على غير محلّه ولا أظنّ أنّ الأمر على ما تصفونه، بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً فيما أظنّ.

وبعبارة صديقنا الشيخ الفقيد مغنية(رحمه الله): «إنّ مراد يعقوب أنّ أنفسكم صوّرت لكم أنّ بنيامين سارق وما هو بسارق».(التفسير الكاشف:٤/٤٤٨.) وأنتم قصّرتم في هذه العقيدة، بعد إحاطتكم علماً بنزاهة بنيامين، ولذلك أتمّ كلامه بقوله:(فَصَبْرٌ جَمِيلٌ): أي أمري صبر جميل. ثم أظهر رجاءه بحياة يوسف(عليه السلام) ورجوعه مع بنيامين وولده الكبير، فقال: (عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا) وفيه إشارة إلى حياة يوسف(عليه السلام). والجملة جملة خبرية وليست دعاءً(إنشائية) بشهادة قوله: (إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) ـ ولو كانت دعاءً لختمها بقوله: إنّه السميع العليم أو الرؤوف الرحيم ـ وكأنّه يخبر بثمرة صبره وأنّ

ثمرته هي رجوع الجميع إلى أحضان العائلة. وختمُ الآية بهذين الاسمين الحُسنيين إشارة إلى أنّه سبحانه عالم بحزنه وألمه وأنّه حكيم، إذ لعلّ في هذه المفارقة مصلحة.

٨٤. (وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ):

ذهاب عيني يعقوب(عليه السلام) من الحزن

آثر يعقوب(عليه السلام) الإعراض عن أبنائه والاختلاء بنفسه إذ لم يجد فيهم مَن يعزّيه ويواسيه في نوائبه، كما يقول: (وَتَوَلَّى عَنْهُمْ) ثم أعرب عن أسفه وحزنه على يوسف(عليه السلام): (وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ) والألف في آخره تنوب عن الياء، والتقدير: يا أسفي على يوسف، كأنّه نزّل الأسف منزلة العاقل فناداه .

وإنّما ذكر يوسف(عليه السلام) دون بنيامين، لأنّه هو المحور في هذه الحادثة المرّة. وعلى كلّ تقدير، فإنّ أمر هذا الصبيّ الذي ترك في قلب والده كلّ هذه الذكريات التي لا يمحوها كرّ الأيام والسنين لعجيب، فقد ظلّ الحزن يستعر في صدر يعقوب(عليه السلام) حتى أثّر ذلك في بصره، كما قال: (وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ) وقد مرّ ما هو المراد من ابيضاض العين وقلنا: إنّ المراد هو حدوث غشاوة على العينين مع بقاء العَصَب البصَريّ سليماً (فَهُوَ كَظِيمٌ)يطوي حزنه عن الناس ويكظم غيظه.

وقد ورد عن أبي عبد الله الصادق(عليه السلام) أنّه قال: «البكّاؤون خمسة: آدم، ويعقوب، ويوسف، وفاطمة بنت محمد(صلى الله عليه وآله وسلم)وعلي بن الحسين(عليهما السلام)... وأمّا يعقوب(عليه السلام) فبكى على يوسف(عليه السلام) حتى ذهب بصره».(الخصال:١/٢٧٢ـ ٢٧٣، باب الخمسة.)

٨٥. (قَالُوا تَاللهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ):

لم يزل اسم يوسف(عليه السلام) يتردّد على شفتي يعقوب(عليه السلام) ويلهج به لسانه إلى أن تبرّم وضجر منه أبناؤه و (قَالُوا تَاللهِ تَفْتَؤُا) لا تزال (تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا): أي مريضاً بشدة، أي تَمرُض ويُذوى جسمك (أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ): أي تموت غمّاً.

٨٦. (قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ):

جاء ردّ أبيهم عليهم منسجماً مع إيمانه العميق وبصيرته النافذة، قال: (قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي) والبثّ هو الهمّ الذي لا يقدر صاحبه على كتمانه فيبثّه أي يُفرغه (وَحُزْنِي إِلَى اللهِ) الذي لا يُبرمه إلحاح الملحّين ولا يخيب في حضرته الراجون (وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ): أي وألهمني ربّي أنّ هذا الغمّ زائل، والأمل بلقاء الحبيب حاصل.

٨٧. (يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ):

إنّ المؤمن لا ينطفئ أمله مهما عصفت به ريح الشدائد، وامتدّ ظلام المآسي، ويظلّ يتطلّع إلى عين الله الرحيمة، وينتظر سحائب رأفته، ولو جفاه الدهر وقسى عليه القدَر. ولذا نرى يعقوب(عليه السلام) قد حداه الأمل والرجاء إلى أن يخاطب أبناءه بقوله: (يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ) بنيامين واستخبروا من شأنهما واطلبوا خبرهما (وَلاَ تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ): أي ولا تقنطوا من رحمته (إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)فالمؤمن يرجوه في الشدائد والبلاء، ويشكره ويحمده في الرخاء، وأمّا الكافر فعلى الخلاف. ثمّ إنّ في أوامره لهم: (اذْهَبُوا)و (فَتَحَسَّسُوا) و (وَلاَ تَيْأَسُوا)، إشارة إلى أنّ الأمل يجب أن يكون مقروناً بالعمل، فالأمل المجرّد عن العمل لا ينتج شيئاً، والناس هنا على أصناف:

١. المتشائم، فهو لا يعمل.

٢. الإنسان العاطل البطّال، فهو يأمل ولكن لا يعمل.

٣. المؤمن، وهو يأمل ويعمل.

قال الشريف الرضيّ(رحمه الله) حول هذه الفقرة: وهذه استعارة والمراد: لا تيأسوا من فرج الله، والرَّوح هو نسيم الرّيح التي يلذُّ شميمها ويطيب نسيمها، فشبّه تعالى الفرج الذي يأتي بعد الكربة، ويطرق بعد اللّزبة(اللَّزْبَة: الشّدّة.)، بنسيم الريح الذي ترتاح إليه القلوب، وتثلج الصدور به.(تلخيص البيان في مجازات القرآن:٧٢.)

الآيات: الثامنة والثمانون إلى الثالثة والتسعين(فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا... وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ).

(فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَة مُزْجَاة فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ * قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ * قَالُوا أَئِنَّكَ لأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * قَالُوا تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ * قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * اِذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ).

المفردات

الضُّرّ: سوء الحال، وأُريد به هنا المجاعة.

مُزجاة: قليلة لا يُرغب فيها. وأصلها من التزجية، وهي دفع الشيء برفق، فكأنّ البضاعة، لقلّة الاعتداد بها، يدفعها صاحبها لكي يقبلها المدفوعةُ إليه.

تصدَّق: المراد بالتصدُّق هنا تخلية سبيل الأخ المأخوذ، وتفسيره بإعطاء المِيرة بالكيل الكامل غيرتامّ، لتقدّم طلبه في قولهم: (فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ).

آثرك: فضّلك واختارك.

خاطئين: جمع خاطئ، وهو غير المخطئ، فالأوّل يتعمّد الخطيئة، والثاني يريد الصواب فلا يصيبه.

لا تثريب: التثريب: التقريع والتقهير بالذّنب.

التفسير

٨٨. (فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَة مُزْجَاة فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ):

الوفود الثالث على عزيز مصر

توجّه أبناء يعقوب(عليه السلام) للمرة الثالثة إلى مصر بقصد الحصول على الطعام، ولتقصّي أخبار يوسف(عليه السلام)وأخيه، كما أوصاهم أبوهم بذلك ـ وإن كانوا آيسين من التقاط أخبار عن يوسف(عليه السلام) بعد هذا الغياب الطويل ـ فلمّا دخلوا على العزيز شكوا إليه ما نابهم وأصاب أهلهم من شدّة صمّاء، وفاقة مُجهدة، راجين إحسانه ونواله (فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ). ولمّا كان ما يحملونه من بضاعة قليلاً لا يُرغب فيه، فلا يساوي ثمناً لشراء الطعام، أضافوا قولهم: (وَجِئْنَا بِبِضَاعَة مُزْجَاة): أي بثمن قليل ثم طلبوا منه أمرين:

١. (فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ) كما كنت توفيه من قبل، ولا تنظر إلى قلّة بضاعتنا في هذه السنة .

٢. (وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا) بتخلية سبيل الأخ المأخوذ (إِنَّ اللهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ) خيراً و(لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)(التوبة:١٢٠.).

٨٩. (قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ):

أمام هذا المشهد المؤلم للإخوة وكلمات الاستعطاف التي أطلقوها، رأى يوسف(عليه السلام) أنّ الوقت أصبح مناسباً للكشف عن وجه الحقيقة وتعريف الإخوة بنفسه واستلهام نتائج الدروس من الواقع والحوادث، وتبيان عواقب الأُمور، فـ (قَالَ) مخاطباً لهم: (هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ)؟ بهذه الكلمة القصيرة والعابرة دون الخوض في التفاصيل لما ارتكبوا من أعمال ذميمة!! وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على سموّ أخلاقه وسعة صدره، وأريحيّته، والألطف من ذلك أنّه التمس لهم العذر بقوله: (إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ): أي أنّ السّبب هو جهلكم آنذاك، مشعراً بذهاب الجهل عنهم الآن.

ثمّ إنّ يوسف(عليه السلام) جسّد هنا بسؤاله عمّا فعله إخوته، ما أُلهمه عند إلقائه في البئر، أعني قوله سبحانه:(وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ).(يوسف:١٥.)

٩٠. (قَالُوا أَئِنَّكَ لأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ):

يوسف(عليه السلام) يميط اللّثام عن شخصه لإخوته الخاطئين

أثارت كلمته القصيرة هذه انتباه الإخوة وذكرياتهم فقالوا في صيغة الاستفهام التقريري(أَئِنَّكَ لأَنْتَ يُوسُفُ) فأجابهم و (قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي) فعرّف نفسه وأخاه مع أنّهم لم يسألوه عنه، تفخيماً لشأنه وإدخالاً له في قوله: (قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا). ثمّ أشار إلى وجه المنّ وقال: (إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ): أي مَن صبر ولم يعصِ الله (فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)، فعدل إلى الاسم الظاهر (الْمُحْسِنِينَ) مكان المضمر «أجرهم» للدّلالة على أنّ كلّ ذلك من الإحسان، وللتعميم في الحكم حتى يدخل هو وأخوه وكلّ مَن كان كذلك تحت هذه الضابطة.

وهذا هو الدرس الكبير الّذي أراد يوسف(عليه السلام) أن يستلهمه البشر، كلّ البشر، ومنهم إخوته:

أن يتّقيَ الإنسان ربّه تعالى، ويستشعر رقابته في كلّ ما يصدر عنه.. أن يخشاه حقّ خشيته، فيبادر إلى طاعته، ويتجافى عن معصيته.. أن يتّبع صراطه المستقيم، ويصدّ عن جميع السُّبل الّتي تفرّق به عن سبيله.

وأن يصبر: يصبر على المِحَن والشدائد والمواقف الصعبة، فلا يضعف أمامها ولا ينهار، بل يواجهها بعزم وإصرار، ويصبر على طاعة الله، فلا يزيغ ولا ينحرف ولا يملّ ولا يسأم، وعلى نِعَم الله، فلا يبطر أو يتجبّر ويطغى، ويصبر عن المعاصي، فلا يُقدم على المنكرات والموبقات، ولا يسترسل مع الأهواء والشهوات.

ومن جَمعَ هاتين الخصلتين الساميتين: (التقوى والصبر)، فهو من المحسنين الذين لا يُضيع الله تعالى أجرهم وثوابهم.

جدير بالذكر أنّ كلام يوسف(عليه السلام) هذا وقوله: (قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا) إنّما هو مصداق واضح لامتثال أمره سبحانه حيث قال: (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)(الضحى:١١.).

٩١. (قَالُوا تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ):

اعترف الإخوة هنا وأذعنوا بمنزلة يوسف(عليه السلام) وعلوّ درجته عند الله تعالى، كما حكاه عنهم سبحانه: (قَالُوا تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا)بالعلم والحكم والصبر والتقوى والمُلك والقدرة (وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ): أي آثمين فيما فعلْنا، ومجرمين فيما عمِلْنا.

٩٢. (قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ):

عفو يوسف(عليه السلام) عن الإخوة ودعاؤه لهم

وهنا، في موقع الحاكم الغالب القادر، أبان يوسف(عليه السلام) عن جوهره، كما أبان عنه وهو في موقع المحكوم المغلوب المقهور، ذلك الجوهر الذي صنعته الرسالة وطهّره الإيمان والتقوى وصقلته المصاعب والتجارب (قَالَ) مخاطباً لهم: (لاَ تَثْرِيبَ

عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ): أي لا لوم عليكم ولا توبيخ ولا تقريع فيما فعلتم (يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) فقوله: (يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ)دعاء من الأخ المظلوم للإخوة الظالمين، وهو يدلّ على كمال سماحته، وسعة صدره.

كان النبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) صنو أخيه يوسف(عليه السلام) في الصبر على الأذى والصفح عن الإساءة، فقد لاقى من قريش صنوف الأذى والتُّهم حتى همّوا بقتله، فخرج ليلاً من مكّة باتجاه يثرب، فلمّا فتح مكّة وأصبحت بيده القدرة والسلطة كان أهل مكّة يتحدّثون في أنفسهم وهم يتذكّرون معاداتهم الشديدة والطويلة لرسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)وجرائمهم الكبرى بحقّه، وبحقّ دعوته، ويقول بعضهم: إنّه سيقتلنا حتماً، أو يقتل فريقاً منّا ويحبس آخرين، ويسبي ذريتنا ونساءنا، جزاء ما فعلنا. وبينما كانوا ـ في تلك اللحظات ـ فريسة هذه الأفكار والتصوّرات الشيطانية، كسر رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)جدار الصمت الرهيب الذي يُخيّم على أرجاء المسجد الحرام وقال سائلاً: «ماذا تقولون... وماذا تظنّون»؟ فقال أهل مكّة ـ وقد تملّكتهم حيرةٌ شديدة، وخوف عظيم وهم قد عرفوا رحمة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) ورأفته، ولطف لطفه، وخُلقه العظيم ـ : نقول خيراً، ونظنّ خيراً، أخٌ كريم، وابن أخ كريم، وقد قدرت.

فقال رسول الله نبيّ الرحمة(صلى الله عليه وآله وسلم)، وقد سمع هذه العبارات العاطفية: «فإني أقول لكم كما قال أخي يوسف:(قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)» (المغازي:٢/٨٣٥؛ بحار الأنوار:٢١/١٠٧ و ١٣٢).

٩٣. (اِذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ):

يوسف(عليه السلام) يرسل قميصه إلى أبيه لغايتين

سياق الآية يدلّ على أنّ يوسف (عليه السلام) لمّا عرّفهم نفسه، سألهم عن أبيه(عليه السلام)، فأخبروه بحزنه الشديد وذهاب عينيه، ولذلك أمر يوسف(عليه السلام)إخوته أن يذهبوا بقميصه إلى أبيه، وذلك لغايتين:

الأُولى: أن يكون إرسال القميص علامة لأبيه على صدق كلام إخوته أنّهم جاءوا من عند يوسف(عليه السلام)، وأنّه حيّ وله شأن ومنزلة.

الثانية: أنّ الإخوة جاءوا من قبل بقميص يوسف(عليه السلام) ملطّخاً بالدّم، وصار ذلك سبباً لحزنه وبكائه إلى أن انطفأ نور عينيه، واليوم يرسل قميصه معهم ليصير سبباً لسروره وعودته بصيراً، كما قال: (اِذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا)، وهذا أيضاً أحد الألطاف الإلهية على يوسف(عليه السلام) بعدما وصل إلى هذا المقام، حيث إنّ الله قد جعل لطرح قميصه على وجه الأب سبباً لإبصاره، ولا مانع من أن يكون وقوع القميص سبباً لعودة البصر. ومن المعلوم أنّ المؤثِّر هو إرادة يوسف(عليه السلام) غبّ إرادة الله سبحانه، حيث قضت مشيئته بإجراء فيضه عن طريق الأسباب، والسبب منه طبيعيّ وعادي، ومنه غيبيّ وغير عادي.

ثمّ إنّ يوسف(عليه السلام) أمرهم أن يجيئوا بأهلهم من البدو إلى مصر وقال: (وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ). قيل: إنّ عشيرة يعقوب (عليه السلام) كانت ستّاً وسبعين نفساً بين رجال ونساء.

الآيات: الرابعة والتسعين إلى الثامنة والتسعين(وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ..... إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ).

(وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لاَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَنْ تُفَنِّدُونِ * قَالُوا تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ * فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ).

المفردات

فصلت:يقال: انفصل عن البلد، إذا تجاوز حيطانه.

ريح يوسف: رائحته، وهي ما يعبق من طيب تدركه حاسة الشّمّ.

تُفنِّدون:الفَنَد: فساد الرأي وضعف العقل، أي تنسبوني إليهما.قال النابغة:

إلاّ سليمان إذ قال المليك له *** قُم في البريّة فاحددْها عن الفَنَدِ

أي امنعها عن الفساد.

ضلالك: المراد بالضَّلال هنا الخطأ والذهاب عن الصواب، لا الضَّلال في الدين، وكأنّهم خطّأوه في اعتقاده بحياة يوسف(عليه السلام).

فارتدّ بصيراً: فعاد إليه بصره بعد العمى.

التفسير

٩٤. (وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَنْ تُفَنِّدُونِ):

تبرُّك يعقوب(عليه السلام) بقميص ابنه

اتّجهت القافلة التي تضمّ أولاد يعقوب ومعهم قميص يوسف(عليه السلام)إلى أرض كنعان، وما أن تجاوزت أرض مصر، كما قال: (وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ)حتى (قَالَ أَبُوهُمْ) المفجوع بفراق ابنه منذ أمد طويل، وقد أحسّ بشيء عجيب يغمر كيانه، قال لمن حوله من أهله:(إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ)ولمّا كان النبي يعقوب(عليه السلام) يعلم أنّ من حوله لا يستسيغون كلامه هذا، استدرك بقوله:(لَوْلاَ أَنْ تُفَنِّدُونِ)وتتّهمونني بالسّفاهة وضعف الرأي. وفي قوله: (لَوْلاَ أَنْ تُفَنِّدُونِ) حُذف خبر المبتدأ مع جواب لولا، أي: لولا تفنيدكم حاصل لصدّقتموني.

فإن قلت: كانت البئر التي طُرح فيها يوسف(عليه السلام) على مقربة من أرض كنعان ولم تكن المسافة بينها وبينه طويلة، فلماذا لم يشمّ ريح يوسف(عليه السلام)، في حين أنّ الأمر هنا صار على العكس، فقد أخبر بأنّه ـ وهو في أرض كنعان ـ يجد ريح يوسف ـ وهو في مصر ـ وبين المكانين مسافة شاسعة تعد بعشرات الفراسخ؟

قلت: لو فتح الله سبحانه شامّة النبيّ يعقوب(عليه السلام)، وولده على مقربة من أرض كنعان لما ابتُلي بهذا الابتلاء الذي وصل به إلى مرتبة عليا من الإخلاص والصبر. يقول سبحانه: (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَات فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ).(البقرة:١٢٤)

٩٥. (قَالُوا تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ):

لقد تحقّق ما تنبّأ به يعقوب(عليه السلام) من ردّهم عليه، حيث خاطبوه و(قَالُوا تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ)إذ لازلت تنتظر يوسف وتنتظر عودته وتتشوّق إلى لقائه بسبب إفراطك في حبّه، وما هذا إلاّ تحليق في الخيال وانطلاق مع الأوهام. ولم يريدوا ـ كما قلنا ـ الضلال الدينيّ، كما هو واضح.

٩٦. (فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ):

إنّ الردّ العنيف الذي تفوّه به من كان عند يعقوب(عليه السلام) لم يستطع أن يخنق روح التفاؤل لدى هذا الأب العارف الصابر، أو يذوي أمل اللقاء بحبيبه، فلم تمرّ إلاّ أيام قصيرة حتى أدرك الجميع صِدق ما ينبض به قلب هذا النبيّ المفعم بالإيمان من مشاعر وأحاسيس، فقد وصلت القافلة، وأتى مَن يحمل القميص، كما يقول: (فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ) الذي حمل قميص يوسف(عليه السلام) (أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ): أي طرحه على وجه أبيه (فَارْتَدَّ بَصِيرًا)عاد إليه نور بصره الذي هو سعادة الحياة، فعندئذ

التفت يعقوب(عليه السلام) لمن حوله ليذكّرهم مرّة أُخرى بسرّ هذه الثقة بانفراج الهموم وزوال الشدائد قائلاً:(أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ)؟ وكان قد قال ذلك أيضاً عندما كان الأبناء يلومونه في بكائه على يوسف فأجابهم بقوله: (قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ)(يوسف:٨٦.)، وهذا من وجوه الغيب التي علّمها الله سبحانه نبيّه يعقوب(عليه السلام). قال الإمام علي(عليه السلام):«فَمَنْ أَخَذَ بِالتَّقْوَى عَزَبَتْ عَنْهُ الشَّدَائِدُ بَعْدَ دُنُوِّهَا، وَاحْلَوْلَتْ لَهُ الأُمُورُ بَعْدَ مَرَارَتِهَا، وَانْفَرَجَتْ عَنْهُ الأَمْوَاجُ بَعْدَ تَرَاكُمِهَا، وَأَسْهَلَتْ لَهُ الصِّعَابُ بَعْدَ إِنْصَابِهَا، وَهَطَلَتْ عَلَيْهِ الْكَرَامَةُ بَعْدَ قُحُوطِهَا، وَتَحَدَّبَتْ عَلَيْهِ الرَّحْمَةُ بَعْدَ نُفُورِهَا، وَتَفَجَّرَتْ عَلَيْهِ النِّعَمُ بَعْدَ نُضُوبِهَا، وَوَبَلَتْ عَلَيْهِ الْبَرَكَةُ بَعْدَ إِرْذَاذِهَا».(نهج البلاغة: الخطبة ١٩٨(عَزَبت: غابت وبَعُدت. الإنصاب: الإتعاب. وَبَلَت السماء: مطرت مطراً شديداً، وأرذّت: مطرت مطراً ضعيفاً).)

٩٧. (قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ):

أحسّ الإخوة بالخجل أمام الأب الذي صار بصيراً ينظر إلى وجوه أبنائه الذين خانوه، كما خانوا أخاهم، فعند ذلك اغتنم الأبناء الفرصة و (قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ): أي عاصين.

٩٨. (قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ):

طلب الأبناء من أبيهم العفو عن خيانتهم

تشير الآية إلى أنّ أباهم لم يستغفر لهم فوراً، بل وعدهم بذلك و (قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)وإنّما لم يستغفر لهم في الحال لأنّه أخّر استغفاره إلى وقت يستجاب فيه الدعاء، وروي أنّ جبرئيل(عليه السلام) علّم يعقوب(عليه السلام) هذا الدعاء: «يا رجاء المؤمنين لا تخيّب رجائي، يا غوث المؤمنين أغثني، ويا عون المؤمنين أعنّي، ويا حبيب التوابين تُب عليّ واستجب لهم».(مجمع البيان:٥/٥١٠.)

قال مؤلّف تفسير «في ظلال القرآن» في تعليقه على هذه الآية: نلمح هنا أنّ في قلب يعقوب(عليه السلام) شيئاً من بنيه وهو أنّه لم يصفُ لهم بعد، وإن كان يعدهم باستغفار الله لهم بعد أن يصفو لهم ويسكن ويستريح. وحكاية عبارته بكلمة (سَوْفَ)لا تخلو من إشارة إلى قلب مكلوم.(في ظلال القرآن:٥/٧٤.) وقد ردّ عليه الشيخ محمد جواد مغنيّة بأنّ هذا قياس لقلوب الأنبياء على قلوب سائر الناس. وأضاف: والصحيح أنّ يعقوب(عليه السلام) أرجأ الدعاء لهم بقبول التوبة إلى خلوته وانقطاعه إلى ربّه في الظلمات والأسحار، لأنّ ذلك أدعى للقبول والاستجابة، قال سبحانه:(وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)(الذاريات:١٨.)، وقال: (وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ)(آل عمران:١٧.).(التفسير الكاشف:٤/٣٥٦.)

روى الكليني بإسناده عن أبي عبد الله(عليه السلام) قال: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): «خير وقت دعوتم الله عزّ وجلّ فيه الأسحار، وتلا هذه الآية في قول يعقوب(عليه السلام): (سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي)، وقال: أخّرهم إلى السَّحَر».(الكافي:٢/٤٧٧، برقم٦.)

ويتبيّن لنا، من رواية أُخرى، وجود الفرق بين عفو يوسف(عليه السلام)بقوله:(لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ)وبين استغفار يعقوب(عليه السلام) حيث أخّر الاستغفار لهم، يقول الإمام الصادق(عليه السلام): «وكانت جناية ولد يعقوب على يوسف وجنايتهم على يعقوب إنّما كانت بجنايتهم على يوسف، فبادر يوسف إلى العفو عن حقّه وأخّر يعقوب العفو؛ لأنّ عفوه إنّما كان عن حقّ غيره فأخّرهم إلى السَّحر ليلة الجمعة».(علل الشرائع:١/٥٤.)

بقي هنا أمران لهما صلة بالآيات الماضية:

١. التبرّك بآثار الأنبياء والأولياء

٢. التوسّل بدعاء الأنبياء والأولياء

أمّا الأمر الأوّل ـ أعني: التبرك بآثار الأنبياء والأولياء ـ فقد استوفينا الكلام فيه في رسالة مستقلّة نأتي بها بعد الفراغ من تفسير هذه السورة إن شاءالله.

إنّما الكلام في الأمر الثاني، فنقول:

التوسّل بدعاء الأنبياء والأولياء

التوسّل بدعاء الأنبياء والأولياء والمؤمنين أمر لم يختلف فيه اثنان حتى ابن تيمية وتلامذته، وذلك لتنصيص الكتاب العزيز على ذلك، قال تعالى:(وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا)(النساء:٦٤.)، والآية تحثّ المؤمنين على التوسّل بدعاء النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) حتى يستغفر لهم، وفي آية أُخرى ذمّ القرآن الكريم المنافقين لعدم استفادتهم من بحر الرحمة الإلهية الزاخر، وعدم استثمار وانتهاز هذه الفرصة الذهبية والولوج من نافذة الرحمة التي فتحها الله أمام المذنبين، حيث قال تعالى في وصفهم: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ)(المنافقون:٥.).

هذا ممّا اتّفق عليه علماء الإسلام كافّة، إنّما الكلام في جواز التوسّل بالنبيّ بعد رحيله ولحوقه بالرفيق الأعلى، فهل بقي هذا الباب على ما كان عليه بحيث يحقّ للمسلمين التوسّل بدعائه والوقوف في حضرته وطلب الاستغفار منه، أو أنّ الباب أُوصد برحيله؟

والجواب: هو أنّ الباب مفتوح إلى يومنا هذا ويبقى مفتوحاً إلى يوم القيامة، والدليل على ذلك هو أنّ سيرة المسلمين قاطبة من عصر الصحابة والتابعين قائمة على التوسّل به(صلى الله عليه وآله وسلم) بعد رحيله ولحاقه بالرفيق الأعلى، وما كانوا يرون فرقاً بين الحياتين، فمَن تصفّح سيرة المسلمين ورجع إلى غضون الكتب وشاهد عملهم في المسجد النبوي قرب مزاره الشريف، يلمس بسهولة استقرار سيرتهم على التوسّل بدعائه من غير فرق بين حياته الدنيوية وانتقاله إلى الرفيق الأعلى، فبالإضافة إلى السيرة المذكورة نجد أنّ نفس متن الزيارة التي نقلها الشيعة والسنّة على السّواء تتضمّن الطلب المذكور. ولكي يطمئن القارئ الكريم نأتي ببعض الكلمات التي رواها كبار العلماء من أهل السنّة في هذا المجال، ليتّضح أنّ منهج السلف في الزيارة هو نفس المنهج القائم الآن بين أوساط المسلمين، ومن هذه الكلمات:

١. ما ذكره محيي الدين النّووي(٦٣١ـ ٦٧٦هـ)، قال: ثمّ يأتي القبر الكريم فيستدبر القبلة ويستقبل جدار القبر... ثمّ يسلّم ولا يرفع صوته، بل يقصد فيقول: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يانبيّ الله، السلام عليك يا خِيرة خلق الله... ثمّ يقول: جزاك الله يا رسول الله عنّا أفضل ما جزى نبيّاً ورسولاً عن أُمّته، وصلّ عليك كلّما ذكرك ذاكر وغفل عن ذكرك غافل،... إلى أن يقول: اللّهمّ آته الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، وآته نهاية ما ينبغي أن يسأله السائلون.

وأضاف: ومن أحسن ما يقول: ما حكاه الماورديّ والقاضي أبو الطيّب وسائر أصحابنا عن العُتْبي(هو: محمد بن عبيد الله بن عمرو الأمويّ، البصريّ(المتوفّى ٢٢٨هـ).) مستحسنين له قال: وكنت جالساً عند قبر رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) فجاء أعرابي فقال: السلام عليك يا رسول الله، سمعت الله يقول:(وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا)(النساء:٦٤.) وقد جئتك مستغفراً من ذنبي مستشفعاً بك إلى ربّي، ثمّ أنشأ يقول:

يا خير من دُفنت في القاع أعظُمُهُ *** فطاب من طيبهنّ القاع والأكَمُ

نفسي الفداء لقبر أنت ساكنُهُ *** فيه العفاف وفيه الجود والكرمُ[٣]

ولا يتصوّر أحد أنّ القول بصحّة طلب الدعاء من النبيّ والتوسّل

[٣] كتاب المجموع(شرح المذهب للشيرازي):٨/٢٥٨، ط مكتبة الإرشاد.

به(صلى الله عليه وآله وسلم) يختصّ بالنووي وبعض أساتذته، بل روى ذلك النحو من الزيارة محدّثون وفقهاء آخرون في كتبهم أيضاً.

٢. نقل ابن قدامة الحنبلي(المتوفّ ٦٢٠هـ) في باب آداب زيارة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) ـ بعد أن ذهب إلى استحباب زيارة قبر النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) ـ عن أبي هريرة أنّه قال:

ويستحب زيارة قبر النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) لما روى الدارقطنيّ بإسناده عن ابن عمر، قال: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم):«مَن حجّ فزار قبري بعد وفاتي فكأنّما زارني في حياتي».

وفي رواية:«مَن زار قبري وجبت له شفاعتي».

وعن أبي هريرة أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) قال: «ما من أحد سلّم عليّ عند قبري إلاّ ردّ الله عليّ روحي حتى أردّ عليه السلام».

ثمّ نقل عن العُتبي قصة الأعرابي المذكورة آنفاً.(المغني لابن قدامة:٣/٥٨٨، مع الشرح الكبير.)

٣. نقل الشريف السّمهودي(المتوفّى٩١١هـ) عن كتاب «المستوعب» لمحمد بن عبد الله السامريّ الحنبلي المعروف بابن سُنَينة (المتوفّى٦١٦هـ)، نقل عنه زيارة الرسول الأكرم بالصورة التالية: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا نبيّ الله... اللّهمّ إنّك قلت في كتابك لنبيّك(صلى الله عليه وآله وسلم):(وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ)وإنّي قد أتيت نبيّك مستغفراً، فأسألك أن توجب لي المغفرة كما أوجبتها لمن أتاه في حياته، اللّهم إنّي أتوجّه إليك بنبيّك(صلى الله عليه وآله وسلم).(وفاء الوفا:٤/١٣٧٦.)

٤. نقل الغزالي (المتوفّى ٥٠٥هـ): في باب زيارة المدينة وآدابها، الزيارة بصورة مفصّلة، فبعد أن ذكر الآداب وطريقة الوقوف والخطاب، ثمّ التوجه إلى الرسول الأكرم بالتحية والسلام؛ قال: ثمّ يرجع ـ الزائر ـ فيقف عند رأس رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) ـ بين القبر والأُسطوانة اليوم ـ ويستقبل القبلة وليحمد الله عزّ وجلّ وليمجّده، وليكثر من الصلاة على رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، ثمّ يقول: اللّهمّ إنّك قد قلت وقولك الحقّ(وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيمًا)، اللّهم إنّا قد سمعنا قولك وأطعنا أمرك وقصدنا نبيّك متشفعين به إليك في ذنوبنا، وما أثقل ظهورنا من أوزارنا، تائبين من زللنا، معترفين بخطايانا وتقصيرنا، فتب اللّهم علينا، وشفّع نبيّك هذا فينا، وارفعنا بمنزلته عندك، وحقّه عليك.(إحياء علوم الدين:١/٢٢٩ـ ٢٣٠.)

٥. نقل الشيخ حسن بن عمار الشُّرنُبُلالي المصري(المتوفّى١٠٦٩هـ) في كتاب «مراقي الفلاح» زيارة النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بالشكل التالي:«السلام عليك يا سيّدي يا رسول الله، السلام عليك يا نبيّ الله... إنّ الخطايا قد قصمت ظهورنا، والأوزار قد أثقلت كواهلنا وأنت الشافع المشفّع، الموعود بالشفاعة العظمى والمقام المحمود والوسيلة، وقد قال الله تعالى: (وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيمًا)، وقد جئناك ظالمين لأنفسنا، مستغفرين لذنوبنا، فاشفع لنا إلى ربّك».(الغدير:٥/١٣٩، نقلاً عن مراقي الفلاح.)

هذا بعض ما ورد في كتب إخواننا السُّنّة، ومَن يرجع إلى مصادر الشّيعة يجد أنّ الآية التي ذكرها علماء السنّة في الزيارة، قد أوردها أيضاً علماء الشيعة، منهم:

٦. السيد ابن طاووس(المتوفّ ٦٦٤هـ) حيث نقل عن الإمام الصادق(عليه السلام) كيفية الزيارة بالصورة التالية:«اللّهمّ إنّك

قلت لنبيّك محمّد(صلى الله عليه وآله وسلم):(وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيمًا)، ولم أحضر زمان رسولك، وقد زرته راغباً تائباً من سيّئ عملي، ومستغفراً لك من ذنوبي ومقرّاً لك بها». (إقبال الأعمال:٦٠٦.)

جدير بالتنبيه أنّ هذه النماذج التي نقلناها من آداب الزيارة تتضمّن جميعها الاستشهاد بالآية، وأنّ على زائر المدينة ـ على صاحبها آلاف التحية والسلام ـ أن يتلو الآية المذكورة. وفي الحقيقة أنّ الإمعان في الآية يكشف عن أنّها تضع تكليفاً على كاهل المكلّف وآخر على كاهل الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم).

أمّا التكليف الذي يقع على كاهل المكلّف، فهو أن يأتي إلى حضرة الرسول الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) ويستغفر الله لديه ويطلب منه الاستغفار.

وأمّا التكليف الذي يقع على عاتق الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) فيتمثّل بالاستغفار للزائر إذا جاء إلى حضرته وطلب ذلك منه.

ثمّ إنّ المستفاد من مجموع الآداب والسنن الخاصّة بالزيارة أنّها تعتبر التوسّل بعد رحيله(صلى الله عليه وآله وسلم)كالتوسّل به في حال حياته(صلى الله عليه وآله وسلم)، وأنّه لا فرق أبداً بين الحالتين في اعتماد هذه الوسيلة للتقرّب إلى الله وطلب المغفرة منه. وسيوافيك شيء من البحث في تفسير سورة المنافقين.

شبهات و ردود حول التوسُّل

أثار ابن تيمية وأتباع مدرسته، هنا شبهات وقد ردّ عليها العلماء، بوضوح نذكر المهم منها:

الأُولى: طلب الدعاء من الميّت يُعد شركاً بالله

قالوا: إنّ طلب الدعاء من الإنسان الحيّ القادر على القيام بالدعاء أمر جائز، وأمّا طلب الدعاء من الميّت شرك ينبغي التحرّز منه.

والجواب: أوّلاً: كيف يكون العمل الواحد في حالة توحيداً وفي حالة أُخرى شركاً مع وحدة العملين في الماهيّة؟!

ثانياً: أنّ مثير الشبهة زعم أنّ طلب الدعاء عبادة، مع أنّه لا صلة له بها، وما ذلك إلاّ لأنّه لم يعرّف العبادة تعريفاً منطقياً يكون جامعاً لجميع أفرادها ومانعاً عن دخول غيرها فيها، وزعم أنّ مطلَق طلب الحاجة عبادة، مع أنّه لو كان طلب الحاجة عبادة لكان طلبه من الحيّ ـ أيضاً ـ عبادة، إذ ليس الموت والحياة معياراً لصدق العبادة وعدمها، وقد ثبت في محلّه أنّ العبادة عبارة عن الخضوع باللّفظ أو بالجوارح أمام موجود بزعم أنّه خالق السماوات والأرض أو ربّهما ومدبّرهما أو أنّ بيده مصير الإنسان ـ إلى غير ذلك ممّا هو من شؤون الله سبحانه ـ وأين هذا من طلب الدعاء من نبيٍّ ارتحل إلى لقاء الله، وله عنده مقام محمود، يستجاب دعاؤه إذا دعا، كما يستجاب دعاؤه في الحياة الدنيا؟

الثانية: لا جدوى في طلب الدعاء من الميّت

قالوا: إنّ طلب الدعاء من الميّت العاجز عن استجابة دعاء الإنسان أمر لا يجدي نفعاً بخلاف طلب الدعاء من الحيّ.

والجواب: إنّ هذه الشبهة تنطلق من الرؤية المادية لحياة الإنسان، والتي تقول إنّ الموت يمثّل نهاية الحياة، وليس وراء هذه الحياة الدنيا شيء، ولكن هذه النظرة باطلة، فإنّ الأنبياء والأولياء والشهداء أحياء عند ربّهم يُرزقون، وقد دلّت الآيات على حياتهم(لاحظ: الأعراف:٧٩،ترى فيها أنّ النبيّ صالح(عليه السلام) يخاطب الهالكين من قومه، ولاحظ أيضاً سورة يس:٢٦ و ٢٧، إلى غير ذلك من الآيات الواردة في إثبات الحياة البرزخية، وأمّا الروايات فكثيرة.)، وحياة غيرهم كذلك. ثمّ إنّ الظرف، أعني قوله: «عند» متعلّق بالفعل، أي أحياء يُرزقون عند ربّهم، لا أنّه متعلّق بأحياء، بمعنى أحياء عنده، وعلى فرض تعلّقه بـ «أحياء»، فمعنى ذلك نفي كونهم أحياء في الحياة الدنيوية، لا أنّهم ليسوا بأحياء. وعلى ذلك لا يكون طلب الدعاء أمراً لغواً إذا كانت الصلة بيننا وبينه موجودةً،

كما سيوافيك.

الثالثة: وجود الحائل بين الداعي والمدعوّ

قالوا: إنّ هناك حائلاً ومانعاً بين الأموات والأحياء، أطلق عليه القرآن الكريم عنوان «البرزخ»، كما في قوله تعالى: (وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)(المؤمنون:١٠٠).

وعلى هذا الأساس لا يتسنّى للموتى أن يسمعوا دعاء الأحياء، وإذا لم يسمعوه فما الفائدة من مخاطبة موجود لا يسمع كلام الأحياء؟

والجواب: إنّ البرزخ بمعنى الحائل صحيح، ولكن أُريد الحائل والمانع عن العودة إلى الحياة الدنيوية، لا الحائل بمعنى المانع عن الارتباط والاتّصال. والعجب أنّ الوهابيين يستدلّون بهذه الآية على بطلان التوسُّل بدعاء النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) غافلين عن أنّ البرزخ يحول بين الميّت والعودة إلى الدنيا، بشهادة مفهوم الآية، قال تعالى:(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِي مَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا)(النمل:٨٠).

الرابعة: الميّت لا يسمع الدعاء

هذه الشبهة آخر ما في كنانة القوم في تصوير النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بأنّه ميّت لا يسمع، مستندين إلى قوله تعالى:(إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى)(المؤمنون:٩٩ـ ١٠٠)، وفي آية أُخرى:(وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ)(فاطر:٢٢).

والجواب: إنّ المراد نفي كلّ ثمرة متوقّعة من خطاب المشركين، فإنّ خطابهم كخطاب الميّت في عدم الثمرة، وعلى هذا فوجه الشبه هو، نفي الثمرة، لا عدم السّماع، بشهادة أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) كلّم صناديد قريش الذين قتلوا في غزوة بدر، فقد روى البخاري عن أبي طلحة: أنّ نبيّ الله(صلى الله عليه وآله وسلم) أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش، فقُذفوا في طَويٍّ من أطواء بدر خبيث مُخبِث... إلى أن قال: فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم، «يا فلان بن فلان، ويا فلان، أيسُرُّكم أنّكم أطعتم اللّهَ ورسوله، فإنّا قد وجدنا ما وعدنا ربُّنا حقّاً، فهل وجدتم ما وعد ربّكم حقّاً؟» قال: فقال عمر: يا رسول الله ما تُكلّم من أجساد لا أرواح لها؟ فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم):«والذي نفس محمد بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم».(صحيح البخاري:٣/٩ـ١٠، برقم ٣٩٧٦. ولاحظ:السيرة النبوية:٢/٤٥٠؛ السيرة الحلبية:٢/١٧٩ـ١٨٠).

وممّا يورث العجب أنّ ابن كثير ـ تلميذ ابن تيمية ـ يعترف بما ذكرنا ويقول في قصة نبيّ الله صالح(عليه السلام): أنّه خاطب قومه بعد هلاكهم، قائلاً لهم: (يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ)(الأعراف:٧٩): أي جهدت في هدايتكم بكلّ ما أمكنني.

ثم يقول ابن كثير: وهكذا خاطب النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) أهل قليب بدر بعد ثلاث ليال... إلخ.(لاحظ: قصص الأنبياء لابن كثير:١/١٦٢).

هذا موجز القول في التوسّل بدعاء الأنبياء والأولياء، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى كتابنا:«الوهابية بين المباني الفكرية والنتائج العملية».(لاحظ: الوهابية بين المباني الفكرية والنتائج العملية:٢٨٣ـ٣٤٤).

الآيات: التاسعة والتسعون إلى الآية الأُولى بعد المئة(فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ.... وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ).

(فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ * وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ

الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ).

المفردات

آوى إليه أبويه: ضمّهما إليه وأنزلهما عنده.

العرش:السَّرير الرفيع.

خرّوا: انحطّوا بوجوههم على الأرض.

البدو: البادية.

نزغ: أفسد.

التفسير

٩٩. (فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ):

استقرار آل يعقوب في مصر

قد تقدّم أنّ يوسف(عليه السلام) طلب من إخوته أن يهاجروا إليه وقال: (وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ) فلمّا بلغ هذا الخبر يعقوب (عليه السلام) وأُسرته استعدّ الجميع للرحيل إلى مصر، ولكن القرآن طوى ذكر سفرهم من أرض كنعان إلى مصر لعدم وجود عبرة فيه، فلذلك بدأ بذكر دخولهم مصر وقال: (فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ)الظاهر أنّ دخولهم عليه كان في مضرب له في ناحية البلد، وكأنّه أقام لأهله سرادقات بالقرب من الحدود، وفيها دخلوا على يوسف(عليه السلام)، الذي (آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ): أي ضمّهما إليه وأنزلهما لديه. وظاهر الآية كون الأُمّ أيضاً مع يعقوب(عليه السلام)، ولكن قال أكثر المفسّرين أنّه عنى بأبويه أباه وخالته، فسمّيت الخالة أُمّاً كما سُمّي العمّ أباً في قوله تعالى:(نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا)(البقرة:١٣٣.) وقد ماتت أُمّ يوسف في نفاسها ببنيامين، وتزوّج أبوه بأُختها.(تاريخ الطبري:١/٢٢٥.)

أقول: ما ذُكر خبر واحد لا يصلح لتفسير القرآن الكريم به، وظاهر الآية أنّهما كانا أبويه الحقيقيّين. ومهما يكن، فلقد حيّا يوسف (عليه السلام) هؤلاء الداخلين عليه بقوله: (ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ) حيّاهم بذلك عند استقباله إيّاهم ـ على ما ذكرنا ـ خارج مصر. ويحتمل أن يكون ذلك دعاء منه بعد دخولهم مصر وأُريد به الاستقرار والاستيطان فيها بأمان واطمئنان، حيث استقرّ يعقوب وأولاده في مصر، وتكاثروا فيها إلى أن خرجوا منها مع موسى(عليه السلام).

فقوله: (إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ) ظاهر في أنّه لا يمكن لهم الدخول والاستقرار في مصر إلاّ أن يسمح لهم من بيده الأمر، ولذا أعطاهم الأمان في مبتدأ الأمر، مقيّداً بمشيئة الله تعالى، وختم كلامه بقوله: (آمِنِينَ)مشعراً بسيادة الأمن في مصر في ظلّ إدارة يوسف الناجحة لها، مع وجود الفوضى في خارجها لأجل الغلاء والقحط.

١٠٠. (وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ):

تتضمّن فقره: (وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا) أمرين:

١. رفع الأبوين على العرش.

٢. خرورهم للسُّجود ليوسف(عليه السلام).

مع أنّ طبيعة الأمر تقتضي تأخّر الأوّل عن الثاني، ولهذا لا محيص من القول أنّ الجميع دخلوا المدينة واستراحوا من عناء

السفر، ولمّا جلس يوسف(عليه السلام) على العرش دخلوا المجلس الذي جلس فيه وسجدوا له، فعندئذ رفع يوسف(عليه السلام) أبويه على العرش.

ثمّ هنا جهات من البحث:

ما هو المراد من العرش؟

والجواب: أُريد به السرير الرفيع الذي يجلس عليه الملوك، وليس سريراً عادياً.

٢. ما هو المراد من الخرور في قوله:(وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا)؟

والجواب: الخرور هو السُّقوط على الأرض، وتفسيره بالخضوع، خلاف ظاهر الآية،والزَّعم بأنّ: «القلب يميل إلى أنّه كان انحناءً كتحية الأعاجم وكثير من الناس اليوم»(روح المعاني:٩٥/١٣. نقله عن بعضهم. وما هذا إلاّ تفسير بالرأي، ومحاولة لتطبيق القرآن المجيد على العقيدة.)، لا يُعتدّ به.

٣. ربما يقال: إنّ يعقوب(عليه السلام) كان أبا يوسف وحقّ الأُبّوة أمر عظيم، قال تعالى: (وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)(الإسراء:٢٣.) حيث قرن حقّ الوالدين بحقّ نفسه، وأيضاً أنّه كان شيخاً والشابّ يجب عليه تعظيم الشيخ، فلماذا عُكس الأمر هنا، فعظّم الوالدُ الولدَ الشابّ. وحصيلة الكلام: جِدّ يعقوب(عليه السلام)واجتهاده في تكثير الطاعات أكثر من جدّ يوسف(عليه السلام)، فهذا يوجب أن يبالغ يوسف(عليه السلام) في خدمة يعقوب(عليه السلام)، فكيف استجازيوسف(عليه السلام) أن يسجد له يعقوب(عليه السلام)؟(تفسير الرازي:٢١١/١٨.)

ثمّ إنّ الرازي أجاب عن السؤال بوجوه سبعة أوضحها السابع، قال: لعلّ الله تعالى أمر يعقوب(عليه السلام)بتلك السجدة لحكمة خفيّة لا يعرفها إلاّ هو، كما أنّه أمر الملائكة بالسجود لآدم لحكمة لا يعرفها إلاّ هو، ويوسف(عليه السلام)ما كان راضياً بذلك في قلبه، إلاّ أنّه لمّا علم أنّ الله أمره بذلك سكت.(تفسير الرازي:٢١٣/١٨.)

ومن أوهن الأجوبة ما ذكره في الوجه الثاني، حيث قال: إنّهم جعلوا يوسف(عليه السلام) كالقبلة وسجدوا لله شكراً لنعمة وجدانه، فإنّه يقال: صلّيت للكعبة، كما يقال: صليت إلى الكعبة. قال حسّان شعراً:

ما كنت أعرف أنّ الأمر منصرف *** عن هاشم ثم منها عن أبي حسنِ

أليس أوّلَ من صلّى لقبلتكم *** وأعرفَ الناس بالقرآن والسننِ(٣)

(٣)نُسب هذان البيتان (مع اثنين آخرين) إلى عتبة بن أبي لهب في«تاريخ اليعقوبي»١٢٤/٢، وإلى بعض ولد أبي لهب في «شرح نهج البلاغة» لابن أبي الحديد:٢١/٦.

وهذا يدلّ على أنّه يجوز أن يقال فلان صلّى للقبلة، وكذلك يجوز أن يقال سجد للقبلة، وقوله:(وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا): أي جعلوه كالقبلة، ثمّ سجدوا لله شكراً لنعمة وجدانه.(تفسير الرازي:٢١٢/١٨.)

يلاحظ عليه: بأنّ المفسّر الموضوعي هو مَن يجعل نفسه متعلّماً والقرآن معلّماً، ولكن المجيب عكس فجعل عقيدته المسبقة، بعدم جواز السُّجود لغير الله حتى في الشرائع السابقة، دليلاً على أنّ يوسف(عليه السلام) كان قبلة لا مسجوداً له!! وهذا على خلاف ظاهر الآية، لو لم نقل نصّها.

سجود يعقوب(عليه السلام) وأبنائه لم يكن سجود عبادة

ثمّ إنّ المجيب غفل عن أنّ السُّجود على قسمين:

الأوّل: السُّجود لشخص بما أنّه إله، خالق السماوات والأرض ومدبّرهما وبيده مصير الإنسان وغيره، فالسُّجود بهذا المعنى شرك

مرفوض حتى في الشّرائع السابقة، وقد بعث الأنبياء لتحطيمه بأيّ صورة كانت.

الثاني: السُّجود حاكياً عن الخضوع للمسجود له، دون أن يرى له شيئاً من الربوبية والأُلوهية، بل يتلقاه إنساناً عظيماً له حقٌّ على السّاجد، فالسُّجود بهذا المعنى أمر لا يتّفق مع الشّرك أصلاً، وقد كان جائزاً في الشرائع السابقة.

نعم مُنع في الشريعة الإسلامية ونهى عنه النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) فقد روي أنّه قال:«لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهنّ لما جعل الله لهم عليهنّ من حقّ».(سنن أبي داود:١/٤٧٥.)

ولذلك نرى أنّ السُّجود في شريعتنا محرّم على وجه الإطلاق .

٤. قال تعالى: (وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا) ظاهر في أنّ الرَّفع سبق السُّجود، مع أنّ القاعدة تقتضي العكس.

والجواب: إنّ الترتيب الذِّكري لا يجب أن يكون على وفق الترتيب الوقوعي، فإنّ تأخير السُّجود كان ليتّصل به ذكر كونه تعبيراً لرؤياه وما يتّصل بها، ولذلك قال بعد قوله: (وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا): (يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ)، فإنّ اسم الإشارة (هذا) يرجع إلى سجودهم ليوسف(عليه السلام)، فالتأخير كان لهذا الوجه.

وعلى كلّ تقدير، فلمّا رأى يوسف(عليه السلام) سجودهم بين يديه التفت إلى والده و:(قَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا)فقوله:(هَذَا) إشارة إلى سجود الوالدين والإخوة. والمراد من جعل الرؤيا حقّاً، تحقُّقها. ثمّ إنّ الشمس والقمر هما والداه والأحد عشر كوكباً هم إخوته، وهكذا أصبحت الرؤيا حقيقة واقعة. وهذه الفقرة أيضاً تدلّ على أنّ السُّجود كان ليوسف(عليه السلام)، وإلاّ لا تكون الرؤيا محقّقة.

قوله تعالى:(وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ).

يوسف (عليه السلام) العبد الشكور

في هذا المقام الذي يبعث الإنسان على الزّهو والغرور، وفي هذه اللحظات التي يشعر فيها المُعتدى عليه بالرغبة في الثأر والانتقام، راح يوسف(عليه السلام) يستذكر ما أعطاه ربُّه من مواهب هنيئة وما أفاضه عليه من نعم سابغة، فقال: (وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ) فذكر منها التحرّر من السّجن (وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ): أي مجيء أهله من البادية إلى الحضر، وانتقالهم من حياة الرعاة والفقر إلى الحياة الطيبة الناعمة،وهذا من نعم الله تعالى. و «البدو» عكس «الحضر» وسمّي بدواً لأنّ سكّانه بادون أي ظاهرون لكلّ وارد، إذ لا تحجبهم جدران ولا تغلق عليهم أبواب.

ثمّ إنّه(عليه السلام)، انطلاقاً من رفعة نفسه ونُبل سماته، تجنّب ذكر حادثة إلقاء الإخوة إيّاه في البئر تكريماً لهم وحرصاً على توثيق عُرى المودّة معهم، وإنّما اكتفى بالإشارة وقال: (مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي): أي من بعد ما أفسد الشيطان بيني وبين إخوتي. ثمّ أسند كلّ تلك النّعم إلى ربّه اللطيف وقال: (إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ) وهو تعليل لقوله: (إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ): أي لطيف في تدبير عباده، يدبّر أمرهم على ما يشاء ويسهّل لهم العسير، وبلطفه حصلت هذه النّعم لي ولكم. وختم كلامه بوصفين لله سبحانه:(إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)ليقع موضع العلّة لقوله:(إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ)كما وقع هو موضع العلّة لقوله: (إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ).

١٠١. (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ):

تضرُّع يوسف(عليه السلام) إلى ربّه أن يرزقه حسن العاقبة

لمّا فرغ يوسف(عليه السلام) من ذكر النّعم الإلهية، أخذ بمناجاة ربّه ذاكراً أعظم نعم الدنيا والآخرة عليه. وهذه النّعم الأربعة

التي ذكرها اثنتان منها دنيويتان، واثنتان أُخرويتان، وإليك البيان:

أ. (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ) الظاهر هو ملك مصر.

ب. (وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ): أي إدراك حقائق الحوادث والوقائع من خلال الاهتداء إلى عللها وأسبابها. وقيل: المراد تأويل الرؤى.

هاتان النعمتان من نعم الله سبحانه الدنيوية التي أنعمها عليه في الدنيا. ثمّ إنّ قوله: (مِنَ الْمُلْكِ)وقوله:(مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ) يدلّ على أنّه آتاه بعض الملك لا كلّه، وتأويل بعض الأحاديث لا جميعها، ولعلّه إشعار بأنّ ذلك في مقابل مُلك الله سبحانه وعلمه، شيء قليل.

قوله: (فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) كأنّه دعا الله بقوله: يا فاطر السماوات والأرض، أي خالقهما على غير مثال سابق لهما.

ج. (أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ) وهي جملة خبرية بمعنى الإنشاء، أي كن وليّي في الدنيا والآخرة. وهذه نعمة أُخروية، وهي الأُولى التي سألها النبيّ يوسف(عليه السلام).

د. (تَوَفَّنِي مُسْلِمًا) وهذه نعمة أُخروية، وهي نعمة الدّين الحقّ (وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ)اللّحاق بالصالحين من لوازم الوفاة على الدّين الحقّ، حيث يكون محشوراً مع الأنبياء والأولياء.

وأراد من الصالحين أباه إبراهيم وإسحاق ومن قبلهم من أنبياء الله تعالى(عليهم السلام).

الآيات: الثانية بعد المئة إلى الرابعة بعد المئة(ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ... إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ).

(ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ * وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ * وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ).

المفردات

الغيب: ما غاب عن الحسّ، ولكن أُريد هنا ما غاب عن علم الناس.

أجمعوا:قصدوا بالاتّفاق.

يمكرون: المكر: التدبير الخفيّ لعمل الشرّ. وأُريد به هنا جعل يوسف(عليه السلام) في غيابة الجُبّ.

حرصت:الحرص: شدّة الطلب في الحصول على شيء.

التفسير

١٠٢. (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ):

أنهى البيان القرآني ذكر قصة يوسف(عليه السلام) وحياته وما جرى عليه من المحن والبلايا، كما تمّ بيان جزاء الله له على تقواه وصبره على المصائب والطاعات، وتصبّره عن المعاصي، والآية تشير إلى أنّ ما مرّ من قصة يوسف(عليه السلام) ممّا أوحى الله سبحانه إلى نبيّه كما يقول: (ذَلِكَ) إشارة إلى ما مرّ في السورة (مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ)والغيب ما غاب عن الناس، وكانت القصة من أنباء الغيب وقد أوحاها الله تعالى إلى رسوله الكريم(صلى الله عليه وآله وسلم) ليخبر بها قومه وتكون دليلاً على نبوّته، ومعجزة مشيرة إلى صدقه، كما يقول: (نُوحِيهِ إِلَيْكَ)والدليل على أنّها من أنباء الغيب ومن وحي السماء هو أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)لم يكن مع الإخوة حتى يقف على مكرهم وحيلتهم كما يقول: (وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ): أي لدى الإخوة(إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ): أي عزموا عليه بكلمة واحدة (وَهُمْ يَمْكُرُونَ): أي يحتالون في أمر يوسف(عليه السلام) حتى ألقوه في الجبّ. **ويظهر من بعض الروايات أنّ علماء اليهود** قالوا لكبراء المشركين سلوا محمداً[مجمع البيان:٥/٣٩٦.]، ونقل الرازي أنّ كفّار قريش وجماعة من اليهود

طلبوا هذه القصة من رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) وأنّه إذا ذكرها آمنوا به فلمّا ذكرها أصرّوا على كفرهم.(تفسير الرازي:١٨/٢٢٢.)

وممّا يجدر ذكره أنّ القصة جاءت في التوراة ولكن بين النقلين بون شاسع، وفيها الكثير من النقول التي لا تنسجم مع مقام النبوّة. وقد أنهى أحد الباحثين ذكر مواضع الاختلاف بين نقل التوراة ونقل القرآن إلى ما يرتقي إلى ثلاثة وثلاثين مورداً.(جمال انسانيت:٣٣٨.)

وهذا أفضل دليل على أنّ السورة من وحي الله سبحانه إلى نبيّه المصطفى(صلى الله عليه وآله وسلم)، دون أن يقصّ القصة على غرار ما في التوراة.

١٠٣. (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ):

لمّا تقدّم أنّ قصة يوسف(عليه السلام) من أنباء الغيب التي أوحاها الله سبحانه إلى نبيّه(صلى الله عليه وآله وسلم) لتكون معجزة على نبوّته، وبرهاناً على صدقه، عقّب بما يتضمّن تسلية نبيّه(صلى الله عليه وآله وسلم)، وذلك بتقرير عناد أكثر الناس ولجاجتهم، حيث يُعرضون عن الإيمان برسالته مع هذه المعجزة الباهرة، كما قال: (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ)مع أنّ الواجب أن يتّخذوا من قصة يوسف (عليه السلام)التي ذكرها القرآن على هذا النحوالنزيه والمقبول عند العقل من دون أن يعتمد على كتاب قبله، دليلاً على صدق دعوته. وجواب «لو» الشرطية محذوف بقرينة قوله: (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ)وتقدير الآية: لو حرصت على إيمانهم وتصديقهم فإنّ أكثر الناس ليسوا بمصدّقين.

١٠٤. (وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ):

الآية توجّه اللّوم على إعراضهم من وجه آخر، وهو أنّك لو طلبت منهم أجراً على تبليغ الرسالة لهم، لكان ذلك ـ في الظاهر ـ ذريعة لإعراضهم عن قبول رسالتك، مع أنّك كما قال تعالى:(وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ)الضمير في (عَلَيْهِ)هنا يرجع إلى القرآن المعلوم من السياق (مِنْ أَجْرٍ) كما هي سيرة عامّة الأنبياء (إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ). وهذا التفسير أظهر وأَولى مما قيل في معنى الآية: لا يسوؤك عدم إيمانهم فلست تبتغي أن يكون إيمانهم جزاء على التبليغ، بل إيمانهم لفائدتهم.(التحرير والتنوير:١٢/١٢٣.)

الآيات: الخامسة بعد المئة إلى السابعة بعد المئة(وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ.... وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ).

(وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ * وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ * أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ).

المفردات

كأيّن: كلمة تدلّ على كثرة العدد. أصلها (أيّ) دخلت عليها (الكاف). والنون في آخرها علامة التنوين، وليست جزءاً من الكلمة.

يمرّون: يشاهدون.

غاشية: محيطة من كلّ جانب، كما في قوله: (وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ)(لقمان:٣٢.).

بغتة: فَجأة.

التفسير

١٠٥. (وَ كَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ):

موقفهم من دلائل التوحيد، موقف المعرضين عن الحقّ

لمّا كانت الغاية التي توخّاها القرآن من ذكر قصة يوسف(عليه السلام) هي البرهنة على صدق النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)ومن ثمّ صدق دعوته إلى التوحيد ونبذ الشِّرك، وبيّن فيما تقدّم عدم إيمان أكثر الناس بما يتضمّنه الكتاب المجيد والقصص الحقّ من دلائل على صدق مَن جاء به وأنّه تلقّاه عن جبريل الأمين عن ربّ العالمين، نبّه على أنّ موقفهم هذا، هو موقفهم ذاته من الدلائل المبثوثة في الكون وما فيه من عجائب وأسرار وإبداع، كما يقول:(وَ كَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ): أي كم من آيات كثيرة سماوية وأرضية تدلّ على توحيد خالقها (يَمُرُّونَ عَلَيْهَا): أي يشاهدونها (وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)لا يلتفتون إليها ولا يعتبرون بها، أي وهم مع ذلك متلبّسون بالشِّرك، فكأنّه تعبير آخر عمّا تقدّم من قوله:(وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ). ثمّ إنّ قوله: (يَمُرُّونَ عَلَيْهَا)، كناية عن عدم الاعتداد بالدلائل والأمارات. يقال: مرّ فلان على تلك القضايا مروراً، أي بلا تأمّل.

١٠٦. (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ):

لمّا دلّ قوله تعالى فيما سبق: (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ)على عدم إيمان أكثر الناس من قريش وعرب ومن أهل الكتاب، هذا من جانب ومن جانب آخر أنّهم كانوا مؤمنين بوجوده سبحانه وأنّه خالق السماوات والأرض، حتى أنّ القرآن الحكيم حكى عن المشركين أنّهم لو يسألون عمّن (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ)(العنكبوت:٦١.) فجاءت الآية جواباً عن هذا السؤال المقدّر بأنّهم وإن كانوا مؤمنين بوجود الخالق ولكنّ إيمانهم مقرون بالشِّرك في التدبير والعبادة والطاعة كما يقول سبحانه:(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ): أي كونه خالقاً (إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ)في التدبير والعبادة والطاعة،

حتى أنّ اليهود ذهبوا إلى أنّ عُزيراً ابن الله، والمسيحيّين إلى أنّ عيسى المسيح هو ابن الله عزّ وجل، فلا ملازمة بين الإيمان بالخالق وكونهم مؤمنين، فإنّ إيمانهم ممزوج بالشِّرك.

١٠٧. (أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ):

غفلة المشركين عن عذاب الله

الآية تشير إلى غفلتهم عن عقاب الله سبحانه، إذ يمكن أن يغشاهم العذاب وهم في غفلتهم سادرون، كما يقول: (أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللهِ) تعمّهم وتحيط بهم، وأُريد به عذاب الاستئصال، كلّ ذلك في الدنيا (أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ): أي القيامة (بَغْتَةً): أي فجأة على غفلة منهم (وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ)بقيامها.

قال الشريف الرضيّ(رحمه الله): قوله تعالى: (أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللهِ)، وهذه استعارة، والمراد بذلك المبالغة في صفة العذاب بالعموم لهم والإطباق عليهم كالغاشية التي تشتمل على الشيء فتجلّله من جميع جنباته، وتستره عن العيون من كلّ جهاته.(تلخيص البيان في مجازات القرآن:٧٣.)

بقي هنا سؤال، وهو: إنّ ذكر البغتة يغني عن ذكر (وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ)

فما هو الغرض من التكرار؟ وقد أجاب الرازي عن ذلك بقوله: إنّه للتأكيد(تفسير الرازي:١٨/٢٢٤.). وذكر الشيخ مغنية وجهاً آخر، قال: إنّ لفظ البغتة يومئ إلى وقوع العذاب حين يقظة الحواسّ، أمّا عدم الشعور بمجيء العذاب فقد يكون في اليقظة والناس منصرفون إلى أعمالهم، وقد يكون في النوم، ومن ذلك قوله تعالى:(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا)(يونس:٥٠.).(تفسير الكاشف:٤/٣٦٥.)

الآيات: الثامنة بعد المئة إلى آخر السورة (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ.... وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ).

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلاَ تَعْقِلُونَ * حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ * لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ).

المفردات

سبيلي: السبيل: الطريق، وهو المكان المهيّأ للسلوك، وأُريد به الشريعة. والسبيل تؤنّث كما في هذه الآية، وتذكَّر كما في قوله:(وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً).(الأعراف:١٤٦)

بصيرة: ما يُبصَر به الشيء ويُعرف.

يسيروا: السير: الورود الممتدّ في جهة.

استيأَس: يئس. واليأس: انقطاع الطمع.

بأسنا: عقابنا وعذابنا.

قصصهم: القصص: الخبر يتلو بعضه بعضاً من أخبار مَن تقدّم.

عِبرة: اسم مصدر للاعتبار، وهو التوسّل بمعرفة الشاهد على معرفة الغائب.

التفسير

١٠٨.(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ):

الدعوة إلى التوحيد سبيل النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)

لمّا تقدّم في قوله سبحانه:(وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ)

إعراض أكثر الناس عن السبيل التي عليها النبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم)، أمر الله سبحانه نبيّه أن يخاطب هؤلاء المعرضين ويقول لهم: (هَذِهِ سَبِيلِي): أي سبيل التوحيد ونبذ الشِّرك وأنّ دعوتي مقرونة بالبصيرة (أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ) ويقين ومعرفة وحجّة قاطعة لا على وجه التقليد، ولعلّ تأنيث البصيرة لأنّها وصف لموصوف محذوف وهي الحجّة أي حجّة واضحة مبصرة (أَنَا) تأكيد للمستتر في (أَدْعُوا)، (وَمَنِ اتَّبَعَنِي) عطف على (أَنَا): أي أدعو إليها أنا ويدعو إليها من اتّبعني. ولا يبعد أنّ حمل أعباء الدعوة إلى التوحيد كان واجباً على جميع المسلمين يوم كانوا قلّة، وعندما كثروا أصبح واجباً كفائياً. ثمّ إنّه سبحانه أمر النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) أن ينزّهه عن الشرك، وقال: (وَسُبْحَانَ اللهِ): أي أُسبّح الله سبحاناً (وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) الذين اتّخذوا لله أنداداً وشركاء. وفي هذه الآية بلاغ للمشركين بأنّ رسول الإسلام لا يتّفق مع المشركين، وأنّ سبيله سبيل التوحيد، وهو داعٍ إليه ما دامت الحياة سواء آمن المشركون أو أصرّوا على شركهم.

١٠٩. (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلاَ تَعْقِلُونَ):

الآية تتضمّن أمرين:

١. الردّ على زعم المشركين من امتناع كون الرسول بشراً.

٢. بيان مصير المكذِّبين، وشمول عذاب الاستئصال لهم.

أمّا الأوّل، فيقول سبحانه:(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً) بشراً لا ملائكة (نُوحِي إِلَيْهِمْ) الضمير يرجع إلى (رِجَالاً) فتكون الآية ردّاً على قولهم: (مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلاَ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ)(الفرقان:٧.)فإنّ النبيّ يجب أن يكون من جنس المرسَل إليهم حتى يشافههم ويعيش معهم ويقف على خصوصيّات حياتهم وما يضرّهم أو ينفعهم. ثمّ إنّه سبحانه وصف الرجال الموحى إليهم بأنّهم (مِنْ أَهْلِ الْقُرى) والظاهر من صاحب «الكشاف» أنّ للفقرة مفهوماً حيث قال: «لأنّهم أعلم وأحلم، وأهل البوادي فيهم الجهل والجفاء».(تفسير الكشاف:٢/١٥٧.)، ولكنّها فكرة غير صحيحة إذ أنّ مسكن يعقوب(عليه السلام)كان في البدو، كما في قوله تعالى: (وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ) وقد ارتقى وأصبح نبيّاً، وقيل: إنّ خالد بن سنان العبسي(من أنبياء العرب في الجاهلية) كان ساكناً في البادية، وعلى ذلك يُحمل قوله:(مِنْ أَهْلِ الْقُرى)على الغالب. فظهر بذلك أنّه ليس لقوله: (رِجَالاً) ولا لقوله:(مِنْ أَهْلِ الْقُرى)مفهوم، إذ ليست الآية بصدد بيان ذلك، وقد عرفت أنّه أتى بلفظة رجال في مقابل الملائكة، بقصد بيان أنّ النبيّ من البشر.

الثاني: ما يترتّب على الأوّل، أي على قوله: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً) غير أنّ أقوامهم كذّبوهم كتكذيب قومك إيّاك، فعليهم أن يعتبروا بما حلّ بالأقوام السالفة من عذاب الاستئصال، كما يقول: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) من الأُمم المكذّبة لرُسلهم كيف أهلكناهم بعذاب الاستئصال؟ ثمّ أضاف سبحانه قائلاً: (وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ) من الدنيا وما فيها (لِلَّذِينَ اتَّقَوْا)ربّهم، ولم يتعرّضوا لمخالفته فيما يأمر به وينهى عنه، وراقبوه في جميع أعمالهم (أَفَلاَ تَعْقِلُونَ) وتدركون حقيقة ما نخبركم به من سوء عاقبة التمرّد والعصيان، فليعلم قومك أنّ عاقبتهم ستكون نظير عاقبة الذين كذّبوا الرُّسل من قبل إذا تمادَوا في غيّهم، فليكن ذلك عبرة لهم قبل أن يحلّ بهم العذاب.

١١٠. (حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ):

الآية تحكي عن واقعة خاصة، وهي أنّه سبحانه بعث أنبياءه إلى قوم مشركين وأيّدهم بالبيّنات والمعجزات ووعدوا المؤمنين بهم بالنّصر والانتصار على العدوّ، غير أنّ دعوة المرسلين استمرّت وتأخّر النّصر على وجه صار سبباً لشماتة المشركين بالمؤمنين، وهذا ما تحكيه الفقرتان التاليتان:

١. (حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ).

٢. (وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا).

تعتبر الآية ـ لأجل هاتين الفقرتين ـ من الآيات المشكلة، وأساس الإشكال هو أمران:

١. المراد من يأس الرُّسل؟

٢. المراد من قوله:(وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا)، فإنّ الظاهر أنّ الضمائر الثلاثة ترجع إلى الرُّسل، ومن ثمّ صدور الظنّ منهم.

ومن هنا ذكرت في هذه الآية عدّة وجوه:

الأوّل: ما رواه ابن أبي مُلَيكة، عن ابن عباس من أنّ المعنى: أنّ الرُّسل يئسوا من نزول النصر، وظنّوا أنّهم قد أُخلفوا ما وعدهم الله من النّصر، وقال: كانوا بشراً ضعفوا ويئسوا.(انظر: جامع البيان (تفسير الطبري):١٣/١١٠، برقم ٢٠٠٣٢ و ٢٠٠٣٣.)

وهذا الوجه مرفوض، أشكل عليه الطبريّ(المصدر نفسه.)، وردّه الطبرسيّ، وقال: إن ذهب إليه ذاهب فقد أتى عظيماً، إذ لا يجوز أن ينسب مثله إلى الأنبياء ولا إلى صالحي عباد الله تعالى(مجمع البيان:٥/٤٦٦.)، وقال الرازيّ: إنّ المؤمن لا يجوز أن يظنّ بالله الكذب، بل يخرج بذلك عن الإيمان، فكيف يجوز مثله على الرُّسل؟(تفسير الرازي:١٨/٢٢٦.)

أقول: ونحن نستبعد، بل ننكر أن يذهب ابن عباس إلى مثل هذا التأويل، ويشهد لذلك أنّه اشتهر عن ابن عباس القول بالوجه الثاني الآتي، فقد رواه عنه كلٌّ من: أبي الضُّحى مسلم بن صُبيح الهمْدانيّ، وسعيد بن جُبير، وعمران بن الحارث السُّلَميّ، وعبد الرحمان بن معاوية، وعليّ]ابن أبي طلحة[، و عطيّة بن سعد العَوفيّ.(انظر: جامع البيان:١٣/١٠٤ـ١٠٦.)

الثاني: المراد من قوله: (حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ) أنّهم يئسوا من إيمان قومهم، وظنّ قومهم أنّ الرُّسل كُذِبوا فيما وُعدوا من النَّصر والظَّفر أو أُوعدوا من العذاب. وعلى هذا فالضمائر الثلاثة في(ظَنُّوا) و (أَنَّهُمْ)و (قَدْ كُذِبُوا) ترجع إلى القوم الذين أُرسل إليهم الرُّسل، فصار تأخير النصر سبباً لظنّ قومهم أنّ الرُّسل كذبوا عليهم بنزول النَّصر أو العذاب.

وهذا الوجه من التأويل مرويّ عن ابن عباس (كما قلنا آنفاً)، وهو مرويّ أيضاً عن سعيد بن جُبير، ومجاهد، وابن زيد.(انظر: جامع البيان(تفسير الطبري):١٣/١٠٧، الأرقام٢٠٠١٤ـ٢٠٠١٨.)

يلاحظ عليه: أنّه يلزم انقطاع الصلة بين قوله: (إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ)وظنّ هؤلاء، إذ أي صلة بين يأس الرّسل من إيمان قومهم وظنّ هؤلاء بأنّهم قد كذَبوا وأخبروا بنزول النّصر على الأنبياء، والعذاب على مناوئيهم.

أضف إلى ذلك: أنّه لم يجرِ ذكر المرسَل إليهم حتى يحسن عَود الضمير في (ظَنُّوا) عليهم.

وقد أُجيب عن هذا الإشكال بأنّ ذلك لا يمتنع، لأنّ ذكر الرُّسل يدلّ على المرسل إليهم، وقد قال الشاعر:

أمنك البرق أرقبه فهاجا *** فبتّ أخاله دُهماً خِلاجا[٢]

[٢] قائله أبو ذؤيب الهذليّ.

أي بتّ أخال الرّعد صوت دُهم، فأضمر الرّعد ولم يجرِ له ذكر لدلالة البرق عليه.

نقل هذا الجواب الشيخ الطوسي، وأضاف: وإن قلت: قد جرى لهم ذكرٌ في قوله: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا)، فيكون الضمير للذين من قبلهم من مكذّبي الرُّسل، كان جيّداً، ذكره أبو عليّ(التبيان في تفسير القرآن:٦/٢٠٧ـ٢٠٨.) ـ يعني الجُبّائيّ ـ.

الثالث: أمّا هذا الوجه فبناءً على قراءة «كُذِّبوا»، ومعنى ذلك: حتى إذا استيأس الرُّسل من قومهم أن يؤمنوا بهم ويصدّقوهم، وظنّت الرُّسل، بمعنى استيقنت، أنّهم قد كذّبهم أُممهم جاءت الرُّسل نصرتُنا، وقالوا: الظنّ في هذا بمعنى العلم.

نقل هذا الوجه الطبريّ عن الحسن البصريّ، وقتادة، بروايته عنهما.(جامع البيان:١٣/١١١.)

يلاحظ عليه: أنّ هذه القراءة «كُذِّبوا» غير معروفة، والأَولى تأويل الآية وفق القراءة المتواترة التي تلقّاها المسلمون جيلاً بعد جيل.

ما هو المراد من استيئاس الرّسل؟

الرابع: قد عرفت ضعف الوجوه المتقدّمة لأنّها بين ما يكون غير مقبول وما يكون على خلاف سياق الآيات، ولذا يمكن أن يقال: لا شكّ أنّ الصالحين والأولياء ـ فكيف الأنبياء ـ معصومون من سوء الظنّ بالله سبحانه، هذا من جانب ومن جانب آخر لا يمكن لنا التصرّف في سياق الآية، فإنّ ظاهرها أنّ مرجع الضمائر هو الرُّسل والتفكيك أمر غير مستساغ. والذي يمكن فيه الجمع بين الأمرين، هو أنّ استمرار معاداة المشركين والمجرمين للرُّسل وتماديهم فيها سنة بعد أُخرى دون أن يجيء النَّصر أو ينزل العذاب عليهم من الله سبحانه، قد صوّر الواقع لكلّ ناظر بأنّ ما وُعد الرُّسل من النَّصر ونزول العذاب أمر غير صحيح.

وبعبارة أُخرى: إنّ تأخير العذاب من جانب، واشتداد عداوة المشركين والمجرمين من جانب آخر، جعل الواقع بمنزلة عدم صحّة الوعد بالنَّصر أو بنزول العذاب، دون أن يكون ذلك أمراً اعتقادياً للرُّسل، ففي هذه الأجواء المثيرة لسوء الظنّ تتبدّد غيوم اليأس بمجيء نصر الله تعالى، كما يقول: (جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ): أي نأخذهم بعذاب

الاستئصال.

وبما أنّه لم يكن هناك اعتقاد بالكذب عبّر سبحانه بقوله: (وَظَنّوا): أي بلغ الأمر إلى درجة يتبادر إلى الأذهان منه الخُلف بما وعد. وبتعبير آخر: إنّ القرائن الحالية تشعر بذلك دون أن يكون هناك اعتقاد به، ويشهد لِما ذكرنا ـ من أنّه لم يكن هناك أي سوء ظنّ من الرُّسل بالنسبة إلى وعده سبحانه أو وعيده، بل كان المشهد على نحو يوحي إلى الأذهان باليأس والقنوط ـ قوله سبحانه:(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ)(البقرة:٢١٤.)، فإنّ نداء الرَّسول ومن معه من المؤمنين بقولهم: (مَتَى نَصْرُ اللهِ) يكشف عن وجود أزمة تحيط بالأنبياء والمؤمنين على نحو جعلتهم ينادون بنداء أشبه بنداء اليائس، وإن لم يكونوا يائسين ولا ظانّين بالخلاف.

هذا ما وصلنا إليه في تفسير الآية، والله أعلم.

١١١. (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لاِوُلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْء وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْم يُؤْمِنُونَ):

الآية بمنزلة ردّ العجز إلى الصدر، فقد جاء في صدر السورة قوله تعالى: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ).

يحكي القرآن الكريم عن اجتماع خصال خمس في قصّة يوسف(عليه السلام)وإخوته، وتشير إليها الآية بكمال الإيجاز والاختصار، ونحن نشرحها حسب اقتضاء المقام.

١. الاتّعاظ بما في القصّة من العبر
إنّ سرد القصص غالباً ما يكون لإحدى الغايتين: أ. قضاء الوقت بسماع القصص الحربية أو الغرامية وأمثالها. ب. الاتّعاظ وأخذ الدروس والعبر من حياة الآخرين، فإنّ في حياتهم أُموراً إيجابية ينبغي أن تُتّخذ أُسوة، وأُموراً سلبية ينبغي اجتنابها، واللَّبيب يأخذ الأُمور الإيجابية ويتجنّب السَّلبية، وهذا ما يشير إليه سبحانه بقوله:(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لاِوُلِي الأَلْبَابِ) يقول الراغب: أصل العَبْر التجاوز من حال إلى حال، والاعتبار والعِبرة بالحالة التي يُتوصّل بها من معرفة المُشاهَد إلى ما ليس بمُشاهَد.(المفردات للراغب:٣٢٠، مادة «عبر».)
٢. الدلالة على صدق دعوة النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)
إنّ النبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) لم يقرأ كتاباً ولا سمع حديثاً من أهل الكتاب ولا خالط أحداً منهم، ومع ذلك فقد حدّثهم بهذه القصّة الحاوية على المعاني الحسنة والألفاظ الرائعة بحيث لم يردَّ عليه أحد من ذلك شيئاً، وهذا من أدلّ الدلائل على صدقه وصحّة نبوّته(مجمع البيان:٥/٥٢٦.)، وهذا ما يشير إليه سبحانه بقوله:(مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى): أي لا يمكن أن يكون حديثاً مختلَقاً كذباً لو لم يكن من وحي السماء، فإنّ الإنسان الأُمّيّ لا يستطيع أن يخبر عن قصة واقعية حدثت في الماضي البعيد، ويصوغها بالنحو الموصوف.
٣. تصديق الكتب السماوية المتقدّمة
إنّ في انطباق ما ورد في القرآن الكريم على ما ورد في التوراة في كثير من المواضع، دلالة واضحة على أنّ القرآن وحيٌ سماويٌّ كسائر الكتب السماوية، فلا وجه لليهود وغيرهم تصديق أحدها دون الآخر، فإنّ النبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) كان أُميّاً

غير قارئ ولا كاتب، فمن أين جاء بهذا القصص الصادق وبهذا السَّبك الرائع وهو أكثر تهذيباً ممّا جاء في الكتب الموجودة قبل القرآن؟ كما قال: (وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ).
٤. تفصيل العِبَر
بما أنّ قصّة يوسف(عليه السلام) جاءت في سورة واحدة متسلسلة الحلقات، متتابعة من دون انقطاع، فقد تضمّنت الكثير ممّا يرجع إلى الاعتبار والاتّعاظ بالقصص، كما يقول: (وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ) ولعلّه أراد بكلّ شيء ما فيها من العِبر الكثيرة، ولا بُعد في إطلاق الكلّ على الكثير كما في قوله: (وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَ يُؤْمِنُوا بِهَا)(الأنعام:٢٥).
٥. انتفاع المؤمنين علماً وعملاً
لمّا تقدّم أنّ في قصّة يوسف(عليه السلام) وغيره عبرة لأُولي الألباب، فالمؤمنون في الرعيل الأوّل في هذا المقام، فبالمواعظ التي تشتمل عليها والعبر ينتفع المؤمنون علماً وعملاً، وإليهما يشير قوله سبحانه:(وَهُدًى): أي علماً (وَرَحْمَةً) عملاً (لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)، وإنّما خصّ المؤمنين لأنّهم هم المتّعظون والعاملون، فتغمرهم هداية الله ورحمته. بقي هنا أمران: الأوّل: أنّ الله سبحانه قال:(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)، وهذا يلزمنا الإشارة إلى رؤوس العبر المستفادة من قصة يوسف(عليه السلام)وإخوته، تاركين العبر الجزئية. الثاني: أنّ النبيّ يعقوب(عليه السلام) تبرّك بقميص ابنه يوسف(عليه السلام)، كما قال تعالى: (فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا)، وهذا يدفعنا إلى بحث مسألة التبرّك على ضوء الكتاب والسنّة. وإليك دراسة الأمرين:
الأوّل: الدروس والعبر
١. إنّ المتحمّل لمسؤولية الدعوة إلى الحقّ والخير يقوم بهذه المسؤولية بكلّ كيانه، ويغتنم كلّ الفرص لأدائها، فلا يقعد به غمٌّ أو ضيق وشدّة عن القيام بها، كما لا تُلهيه عنها شؤونه الدنيوية. فالصدّيق يوسف(عليه السلام) نهض بمهمّاته الرسالية وأعباء الدعوة إلى الله وهو في السِّجن، ونهض بها وهو يُمسك بزمام الأُمور ويعتلي عرش المُلك. وكان(عليه السلام) مبلّغاً ناطقاً بالكلمة الطيبة الصادقة المؤثِّرة المعزَّزة بالبرهان، وكان داعية صامتاً بسيرته وسلوكه في زمن سادت فيه القيم المادية الزائفة، وانحسرت فيه معاني الشرف والفضيلة والكرامة. ونحن ـ في هذا العصر ـ أحوج ما نكون إلى أن نحمل هموم الرسالة الإسلامية الخالدة الّتي تتعرّض لهجمات شرسة ومخطّطات صهيونية وصليبية حاقدة، تستهدف النَّيل منها ومن قادتها وأتباعها، وأن لا ندّخر جهداً في الدعوة إليها بالحكمة، وبالتجسيد الحيّ لها في سيرتنا. قال الإمام جعفر الصادق(عليه السلام):«كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم، ليرَوا منكم الورع والاجتهاد والصلاح والخير، فإنّ ذلك داعية».(أُصول الكافي:٢/٧٨، باب الورع، الحديث١٤.) ٢. إنّ المؤمن بعقيدته، الوثيق الصلة بربّه، يظلّ ملتزماً بمواقفه ومبادئه وقيمه الإلهية في كلّ الظروف والأوضاع: في الشدّة والرخاء، والعسر واليسر، وعند إدبار الدنيا عنه أو إقبالها عليه. وكان يوسف(عليه السلام) مَثَلاً أعلى لهذا الالتزام الواعي، فلم تصرعه شهوة أو يذلّه طمع، ولم يطغيه غنىً أو جاه وقوة، ولم تزلزله نكبة أو تُبطره نعمة.

وقد تقلّبت به الأحوال، فلم تختلف حالاته في أيّ منها، قال الإمام علي(عليه السلام):«فِي تَقَلُّبِ الأَحْوَالِ، عِلْمُ جَوَاهِرِ الرِّجَالِ».(نهج البلاغة:٥٠٧، باب المختار من حكم أمير المؤمنين(عليه السلام)، رقم ٢١٧.)

٣. إنّ صاحب الأهداف الإلهية وإن كان يبدي الكثير من المرونة في التعامل الاجتماعي، ويتغاضى عن الكثير من الممارسات الخاطئة في حقّه، ويحلم ويكظم غيظه في الموارد الّتي يُساء فيها إليه، إلاّ أنّ ذلك لا يمنعه من اتّخاذ مواقف حازمة وممارسات صارمة من أجل إنجاز الأهداف الّتي تفرضها المصلحة الرسالية والقيم الإيمانية، وعدم إبداء أيّ نوع من التساهل أو التراجع تحت ضغط العاطفة والإحساس الرهيف أو سائر الضغوط.

والصّدّيق يوسف(عليه السلام) قد تعرّض لمحن قاسية بسبب مواقف إخوته تجاهه، فعفا عنهم وصفح ولم يعنّفهم أو يوبّخهم، بل دعا لهم بالمغفرة والرحمة، ولكنّه في الوقت نفسه أصرّ ـ قبل أن يكشف هويّته لهم ـ على تلقينهم دروساً صعبة، تطلّبتها مسؤوليته الرسالية لا رغباته النفسية الّتي قد تدعو إلى الثأر والانتقام، ومن هنا لم يخضع لعواطفه تجاه أبيه، ولم يستجب لتوسّلات إخوته وضراعتهم بين يديه بشأن إطلاق أخيهم بنيامين، قبل أن تتحقّق الأهداف الّتي كان يتوخّاها.

٤. قد يتصوّر الإنسان أنّه يمتلك من الإرادة والعزيمة ما يجعله قادراً على تجنّب ممارسة بعض الأعمال غير اللائقة، فيقوم بتعيير مَن يمارسها، ويصفهم بكلّ قبيح، ولكنّه عندما يقع في بوتقة الاختبار يفشل ويسقط، إذ يرتكب نفس تلك الأعمال، ويلقى المصير الّذي لقيه مَن عابَهم وأزرى عليهم فيها.

وفي هذه القصة نجد أنّ نسوة مصر كنّ يَلُمْن امرأة العزيز في مراودة فتاها ويندّدن بعملها، ويصفنَها بأنّها في ضلال مبين، ولكنّهنّ لمّا واجهنَ ما واجهت تلك المرأة، وقعنَ في المصيدة ذاتها الّتي وقعت فيها، فقطّعن أيديهن بمجرّد رؤيته، وطارت عقولهنّ لجماله.

ومن هنا ينبغي التريّث وعدم التسرّع في نقد الآخرين والطعن عليهم قبل التأكّد من امتلاك إرادة قوية وعزيمة ماضية، تحصّن الفرد من الانزلاق بتلك المداحض، فـ(أكبر العيب أن تعيب ما فيك مثله)(نهج البلاغة:٨٢/٤ برقم ٣٥٣.)كما يقول الإمام علي(عليه السلام).

٥. إنّ الله تبارك وتعالى إذا شاء ـ لحكمة ما ـ أن يرفع إنساناً ويُعلي مكانته ويعطيه القدرة والعظمة، فإنّ مشيئته سبحانه غالبة لا رادّ لها، إذ يهيّئ له الأسباب الّتي ترتقي به إلى أسمى المقامات، ويمدّه بلطفه وعنايته.

وهذا النبي يوسف(عليه السلام) قد نُبذ في البئر، وأقام في بيت العزيز عبداً رقيقاً، ثمّ زُجّ في السّجن بضع سنين، ولكنّه غدا بعد كلّ ذلك عزيزَ مصر وسيّدها، وموئلَ الناس، وأملهم المُرجّى... كلّ ذلك بعناية الله جلّ شأنه وفضله العميم، ومواهبه الجزيلة.

٦. إنّ اللجوء إلى أساليب غير نزيهة، واعتماد طرق ملتوية للوصول إلى مآرب وغايات معينة، يضرّ الفرد ولا ينفعه، ويفتح عليه نوافذ الشرّ من حيث لا يحتسب، فأولاد يعقوب(عليه السلام) قد نسجوا مؤامرة دنيئة ضد أخيهم غير الشقيق يوسف(عليه السلام)، وآذوا أخاهم الآخر شقيق يوسف (بنيامين)، وتوسّلوا بالأباطيل للوصول إلى هذه الغاية: الاستئثار بحبّ أبيهم وعطفه، ولكنّهم ـ ليس فقط ـ لم يبلغوا مأربهم، بل ابتعدوا عنه كثيراً، وارتدّ إليهم مكرهم، ففقدوا ثقة والدهم بهم، وأصبحوا موضع شكّه واتّهامه، وجَنَوا من وراء ذلك ثماراً مرّة نغّصت عليهم طعمَ الحياة... وما أصدق قول شاعرنا الكبير أبي فراس الحمداني:

إذا كان غيرُ الله للمرء عدّةً *** أتته الرزايا من وجوه الفوائدِ

٧. إنّ أصحاب الرسالات الإلهية، يستطيعون بمواهبهم وقدراتهم وبوحي من رسالاتهم، قيادةَ المجتمع نحو الأرقى والأفضل في

مختلف مجالات الحياة المادية، وحلّ أزماته ومشاكله وفق تخطيط دقيق وحكمة ودراية، وعلى أُسس العدل والخير والفضيلة. إنّهم يقدرون على ذلك، تماماً كقدرتهم على قيادة المجتمع وتوجيهه في المجالات الرُّوحية والمعنوية.

ولا ريب في أنّ المجتمع إذا استكمل هذين البُعدين: المادّي والرُّوحيّ، فإنّه سيعيش في رخاء وسعادة وهناء، وفي سموّ ورفعة وكرامة.

وفي هذه القصة، أبدى يوسف(عليه السلام) من المواهب والقابليات، ما جعله محطّ أنظار الملك وحاشيته لإنقاذ البلاد من التردّي في هوّة الفقر والحاجة في سنين الجدب والقحط واستفحال الأزمة الاقتصادية.

٨. إنّ الحوادث الّتي مرّ بها يوسف خلال حياته وإن كانت بظاهرها مؤلمة وحزينة، لكنّه جنى منها ثماراً حلوة انتهت إلى بلوغه درجة عالية من الكمال وصار مظهراً لإرادته ومشيئته سبحانه. ومن مصاديق ذلك، أنّه(عليه السلام)بعث بقميصه إلى أبيه يعقوب ليعيد إليه بصره الّذي فقده حزناً وكمداً على فراقه، فلمّا ألقاه البشير على وجهه ارتدّ بصيراً، وهذا يشير إلى أنّ المحن والفتن هي الطريق الّذي يبلغ به الإنسان ذروة الكمال، وقد ورد في قوله(عليه السلام): «إِنَّ الْجَنَّةَ حُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ».(نهج البلاغة:٢/٩٠، الخطبة ١٧٦.)

٩. إنّ الحبّ النابع من الغريزة الحيوانية لا يثبت أمام القيود الاجتماعية والعلاقات الشخصية، وربّما ينسى المحبُّ غرامه ولوعته إذا كان الثبات عليه سبباً للتُّهمة، وربّما يسعى لإلصاقها بحبيبه ليتخلّص هو من تبعاتها، وهذا ما رأيناه عند امرأة العزيز عندما خاطبت زوجها: (مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ).

وأمّا الحب النابع عن صفاء النفس والميل إلى الكمال المطلق الّذي ليس فوقه كمال فيدفع صاحبَه إلى العكوف والثبات عليه وإن كلّفه ذلك دفع ثمن غال، واحتمال المشقّة والعنت، ولهذا نرى أنّ يوسف(عليه السلام)رجّح السجن طواعيه ورغبة، في سبيل حفظ نفسه وصدّها عن مخالفة مولاه الجليل.

١٠. من صفات المؤمن أن يدفع عن حيثيته وسمعته السوءَ، كما يدفع عن نفسه الأخطار المادية، فلا يساوم بها بأي شيء غال، لأنّه يراها من أغلى الأشياء عنده، وإن استدعى حفظها البقاء في السجن والعذاب. وعلى هذا الأساس نرى أنّ يوسف(عليه السلام) عندما أبلغه الرّسول طلب الملك بأن يخرج من السِّجن ويلتحق ببلاطه، رفض هذا الطلب حتّى يتبيّن البريء من المجرم في القضية الّتي زُجّ بسببها في السِّجن، وبذلك أعاد النظر في هذه القضية فثبتت نزاهته، حتّى اعترفت بها امرأة العزيز نفسها والنساء اللّواتي كنّ معها، حيث: (قُلْنَ حَاشَ للهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوء قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ)وعند ذلك طاب له الخروج من السِّجن.

والحقّ أنّ قصة يوسف كلّها عبر ودروس، ومن أراد المزيد فليرجع إلى ثنايا عرضنا للقصة، أو إلى بعض التفاسير والكتب الّتي استخلصت منها جملة من الدروس والعظات، وما ذكرناه من الوجوه العشرة ليس إلاّ نزراً يسير منها.

تمّ تفسير سورة يوسف

والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات

التبرّك على ضوء الكتاب والسنّة

تقدّم منّا في تفسير قوله سبحانه: (فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ) أنّ لنا رسالة حول التبرّك نأتي بها في آخر الجزء. وهذه هي الرسالة التي وعدناك بها.

التبرّك لغةً
التبرّك مأخوذ من «برك» وله معنيان: ١. الثبات والدوام، كما يقال: وبارك على محمد وعلى آل محمد، أي أثبت وأدم ما آتيتهم من التشريف والكرامة. ٢. الزيادة والنمو.(مقاييس اللغة: ١ / ٢٢٧ ؛ النهاية في غريب الحديث: ١ / ١٢٠ .) ويناسب المعنى الثاني قوله تعالى: (وَ هَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ)(الأنعام: ١٥٥ .)، وقوله سبحانه: (الذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ).(الإسراء: ١ .) ويقال في المثل: بارك الله الشيءَ وبارك فيه وعليه. ففي الموارد المشار إليها، خير مكنون يزيد وينمو على مرّ الزمان، ويقصده المتبرّك.

التبرّك اصطلاحاً
التبرّك اصطلاحاً، هو طلب ثبوت الخير الإلهي في الشيء(الموسوعة الفقهية الكويتية: ١٠ / ٦٩ .). وعلى هذا فالمتبرِّك بالقرآن وبالآثار المتبقّية من الأنبياء والأئمة، يطلب الخير الإلهي، وكأنّ هذه الأُمور تحمل في ذاتها خيراً ينمو ويزداد، يطلبه المتبرّك، لا بمعنى أنها تحمل خيراً في ذاتها وإنّما يتوسّل بها لطلب الخير من الله سبحانه وتعالى، وعلى هذا فالأحرى أن يُعدّ التبرّك من فروع التوسّل، فكلّ خير من الأثر المتبرّك به فإنّما هو من الله سبحانه وهو الّذي أعطاه هذا الأثر، فطلب الخير منه طلب خير من الله وهو كعملة ذات وجهين، فهو يطلب الخير من الأثر ظاهراً ولكن يطلبه من الله حقيقة، لأنّ ما للسبب من الأثر هو من الله سبحانه وليس منه بالذات. وهنا كلمة قيّمة لبعض الأعلام نأتي بنصّها: إنّ التبرّك ليس إلاّ توسّلاً إلى الله تعالى بذلك المتبرّك به، سواء أكان عيناً أم أثراً أم مكاناً أم شخصاً. أمّا الأعيان فلاعتقاد فضلها وقربها من الله سبحانه وتعالى، مع اعتقاد عجزها عن جلب خير أو دفع شر إلاّ بإذن الله. وأمّا الآثار فلأنّها منسوبة إلى تلك الأعيان، فهي مشرّفة بشرفها ومكرّمة ومعظّمة ومحبوبة لأجلها. وأمّا الأمكنة، فلا فضل لها لذاتها من حيث هي أمكنة، وإنّما لما يحلّ فيها ويقع من خير وبرّ، كالصلاة والصيام وجميع أنواع العبادات ممّا يقوم به عباد الله الصالحون، إذ تتنزّل فيها الرحمات وتحضرها الملائكة وتُغشّيها السكينة، وهذه هي البركة الّتي تطلب من الله في الأماكن المقصودة لذلك. وهذه البركة تطلب بالتعرّض لها في أماكنها، بالتوجّه إلى الله تعالى ودعائه واستغفاره، وتذكّر ما وقع في تلك الأماكن من حوادث عظيمة ومناسبات كريمة، تحرّك النفوس وتبعث فيها الهمّة والنشاط للتشبّه بأهلها أهل الفلاح والصلاح.(مفاهيم يجب أن تصحّح، للسيد محمد بن علوي المالكي الحسيني: ٢١٩، الطبعة العاشرة.) إذا عرفت ذلك، فلنذكر النصوص الدالّة على جواز التبرّك بين الأُمم السالفة، والأُمّة الإسلاميّة .

١. التبرّك في الأُمم السالفة
يظهر من الآيات والروايات أنّ التبرّك بآثار الأنبياء كان رسماً شائعاً عند الأُممّ السالفة، فكانوا يطلبون الخير تارة من الأسباب الطبيعية، وأُخرى من الأسباب غير الطبيعية. وبعبارة أُخرى: إنّ الخير في كلا الموردين بيد الله سبحانه لقوله تعالى: (بِيَدِكَ الْخَيْرُ)(آل عمران: ٢٦ .)، ولكنّه ينزل ضمن أسباب خاصّة، تارة عادية طبيعية، وأُخرى على خلاف العادة، وطالب الخير تارة يقصده من القسم الأوّل، وأُخرى من الثاني، والسيرة جارية على هذا في أكثر الأُمم. قال ابن الأثير الجزري في حوادث سنة (٣٣١هـ): وفيها أرسل ملك الرّوم إلى المتقّي لله يطلب منديلاً زعم أنّ المسيح مسح به

وجهه، فصارت صورة وجهه فيه، وأنّه في بِيعة الرُّها. وذكر أنّه إن أرسل المنديل أطلق عدداً كثيراً من أسارى المسلمين، فأحضر المتّقي لله القضاة والفقهاء، واستفتاهم، فاختلفوا... وكان في الجماعة علي بن عيسى الوزير، فقال: إنّ خلاص المسلمين من الأسر، ومن الضرّ والضّنك الذي هم فيه أَولى من حفظ هذا المنديل، فأمر الخليفة بتسليمه إليهم، وإطلاق الأسرى...،(الكامل في التاريخ:٨/٤٠٥.)

وما ذكره ابن الأثير يكشف عن وجود التبرّك عند المسيحيّين، وقد ورثوا الفكرة عن آبائهم وأجدادهم.

وقد وردت لفظة (بارَكَ) ومشتقاتها كثيراً في «الكتاب المقدس»، ومنه: «بركة هارون وبنيه لبني إسرائيل» (عد ٦: ٢٣ ـ ٢٧) وقد بارك المسيح تلاميذه قبل أن يصعد (إنجيل لوقا: ٢٤: ٥٠، ٥١).(قاموس الكتاب المقدّس: ١٧١ .)

٢. التبرّك في القرآن الكريم

ذكر القرآن الكريم التبرّك في العديد من الآيات نذكرها تباعاً :

١. تبرّك نبيّ الله يعقوب(عليه السلام) بقميص ولده يوسف، قال تعالى حاكياً عن يوسف(عليه السلام): (اِذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ)(يوسف: ٩٣ .). ثم قال تعالى: (فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ).(يوسف: ٩٦ .)

فالله سبحانه هو الّذي جدّد بصر يعقوب(عليه السلام) بعدما كُفَّ، لكن بسبب خاصّ وهو قميص ولده يوسف(عليه السلام).

وأمّا ما هي الصلة بين القميص المنسوج من القطن أو غيره وإعادة البصر إلى يعقوب(عليه السلام) فغير معلومة لنا. وعلى كلّ تقدير فللقميص وإرادة يوسف(عليه السلام) مدخلية في إعادة البصر بإذن من الله سبحانه.

٢. تبرّك بني إسرائيل بصندوق العهد، أي التابوت. والتابوت ـ كما جاء في «قاموس الكتاب المقدّس» ـ صندوق صنعه موسى (عليه السلام) بأمر الله تعالى، طوله ذراعان ونصف وعرضه ذراع ونصف وارتفاعه ذراع ونصف. وكان في التابوت، الوعاء الّذي يحتوي المنّ، وعصا هارون الّتي أفرخت، ولوحا العهد، وكان عليهما وصايا الله العشر....(قاموس الكتاب المقدس: ٢٠٩ .)

ويصفه سبحانه بقوله: (فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ بَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلاَئِكَةُ)(البقرة: ٢٤٨ .).

قال أبو عليّ الطبرسيّ: روى علي بن إبراهيم في تفسيره عن أبي جعفر] الباقر[(عليه السلام) أنّ التابوت كان]الّذي أنزله الله على أُمّ موسى، فوضعت فيه ابنها وألقته في البحر، وكان في بني إسرائيل معظّماً يتبرّكون به، فلمّا حضر موسى الوفاة، وضع فيه الألواح ودرعه وما كان عنده من آثار النبوة، وأودعه عند وصيّه يوشع بن نون، فلم يزل التابوت بينهم، وبنو إسرائيل في عزّ وشرف ما دام فيهم (مجمع البيان:٢/١٨٣.).

وقال السيوطي: كان في التابوت عصا موسى وعصا هارون وثياب موسى وثياب هارون ولوحان من التوراة والمنّ وكلمة الفرج «لا إله إلاّ الله الحليم الكريم، وسبحان الله ربّ السماوات السَّبع وربّ العرش العظيم، والحمدلله ربّ العالمين»(الدر المنثور: ١ / ٧٧٨ .).

وعلى كلّ تقدير، فقد كان بنو إسرائيل يتبرّكون به ويحملونه عند مواجهة الأعداء فينتصرون، وكفى بالتابوت قداسة أنّه سبحانه يقول: (تَحْمِلُهُ الْمَلاَئِكَةُ) وقصة التابوت وكيفية غلبة العمالقة على بني إسرائيل وأخذ التابوت منهم، مذكورة في التفاسير، والله سبحانه وعدهم بأنّهم لو قاتلوا مع ملكهم طالوت، يسترجع إليهم التابوت وتحمله الملائكة إليهم، يقول سبحانه: (إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَ آلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلاَئِكَةُ)(البقرة: ٢٤٨ .. أي أنّ آية

ملك (طالوت) هو أنّه يحارب الأعداء ويسترجع التابوت الّذي تحمله الملائكة فيرونه بنو إسرائيل عياناً.(مجمع البيان:٢/١٨٤.)

***

٣. التبرّك بأصحاب الكهف وهم فتية مؤمنون هجروا مجتمعهم الغارق في الوثنية والتجأوا إلى كهف ضيّق موحش من أجل أن تبقى قلوبهم عامرة بالعقيدة الصحيحة، متوهّجة بحرارة الإيمان، فأطبق الله سبحانه على آذانهم فناموا ثلاثمئة وتسع سنين، ثمّ بعثهم الله سبحانه بعد تلك المدّة الطويلة، وانكشف أمرهم للناس، وثبت أنّ وعد الله حقّ حيث إنّ إيقاظهم الّذي يشبه البعث والإحياء بعد إنامتهم الّتي تُشبه الموت، أقوى دليل على قدرته سبحانه على أن يبعث الناس يوم القيامة. أماتهم الله سبحانه بعد ذلك، فاختلف الناس في حقّهم وفي شأنهم، فاقترح فريق منهم أن يبنوا جداراً على باب الكهف ويجعلوهم وراء البنيان، وإلى هذا يشير قوله سبحانه: (ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا)(الكهف: ٢١.)، والقائلون بذلك هم الأقلّية الوثنية، أرادوا بذلك أن يخفوا أمرهم لكي ينساه الناس ولا يتحدّثون به، وقالوا ـ تحقيراً لشأنهم ـ (رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ)(الكهف: ٢١ .)، وقال فريق آخر، وهم: (الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ)(الكهف: ٢١ .): أي على أمر القائلين بالاقتراح الأوّل: (لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا)(الكهف: ٢١ .) تتعبّدون فيه لله سبحانه تبرّكاً بتربتهم. وهذا يدلّ على أمرين:

١. جواز بناء المساجد على قبور الأولياء .

٢. جواز التبرّك بتربة القبور، لأنّ القرآن يذكر ذلك من دون ردّ واعتراض، بل يظهر منه التأييد والموافقة.

تبرّك الصحابة بآثار النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)
ذكر أصحاب السير والتاريخ تبرّك الصحابة بأنواع متعدّدة من آثار النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) نظير: «التبرّك بماء وضوئه، وبريقه، وبنخامته، وبدمه، وبشعره، وبسؤره، وبطعامه، وبأظافره، وبلباسه، وبأوانيه، وبما لمسه، وبمصلاه»، هذا ما جاء في الموسوعة الفقهية الكويتية: ١٠ / ٧٠ ـ ٧١، ولكن الموارد أوسع ممّا ذكر هناك، ولأجل الإشارة إلى شيء منها، نذكر بعض النصوص:
١. التبرّك بماء وضوئه (صلى الله عليه وآله وسلم)
أرسلت قريش عروة بن مسعود الثقفي ليمثّلها في صلح الحديبية مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وكلّمه رسول الله بنحو ما كلّم به أصحابه وأخبره أنّه لم يأت يريد حرباً، وبعدما تمّ الحوار بين الطرفين قام عروة من عند رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)وقد رأى ما يصنع به أصحابه، لا يتوضأ إلاّ ابتدروا وضوءه، ولا يَبْصق بُصاقاً إلاّ ابتدروه. ولا يسقط من شعره شيء إلاّ أخذوه، فرجع إلى قريش، فقال: يا معشر قُريش، إنّي قد جئت كِسْرى في مُلكه، وقيصر في مُلكه، والنجاشيّ في مُلكه، وإنّي والله ما رأيت مَلِكاً في قوم قط مثلَ محمد في أصحابه، ولقد رأيت قوماً لا يُسلمونه لشيء أبداً، فَرَوا رأيكم .(السيرة النبوية لابن هشام: ٣ / ٣٢٨ .)
٢. التبرّك بقدحه
أخرج البخاري في صحيحه عن أبي حازم، عن سهل بن سعد، أنّه قال: فأقبل النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)يومئذ حتّى جلس في سقيفة بني ساعدة هو وأصحابه، ثم قال: اسقنا يا سهل، فأخرجتُ لهم هذا القدح فأسقيتهم فيه]وقال أبو حازم [فأخرج لنا سهل ذلك القدح فشربنا منه، قال: ثم استوهبه عمر بن عبدالعزيز بعد ذلك فوهبه له.(فتح الباري: ١٠ / ٩٨، برقم ٥٦٨٧ .)

٣. التبرّك بسؤره
روى أحمد بن حنبل عن أبي صالح، عن أُم هاني(رضي الله عنها) أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) دخل عليها يوم الفتح، فأتته بشراب، فشرب منه، ثم فضلت منه فضلة، فناولها فشربته، ثم قالت: يا رسول الله، لقد فعلت شيئاً ما أدري يوافقك أم لا؟ قال: «وما ذاك يا أُمّ هاني؟»، قالت: كنت صائمة فكرهت أن أرد فضلك فشربته، قال: «تطوُّعاً أو فريضة؟» قالت: قلت: بل تطوُّعاً، قال: «فإنّ الصائم المتطوّع بالخيار إن شاء صام، وإن شاء أفطر»(مسند أحمد: ١٠ / ٣٩١، برقم ٢٧٤٥٤. ط. دار الفكر، بيروت).
٤. التبرّك بمنبره
روى عبدالله بن أحمد عن أبيه قال: سألته عن الرجل يمسّ منبر النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) ويتبرّك بمسّه، ويقبّله، ويفعل بالقبر مثل ذلك، أو نحو ذلك، يريد بذلك التقرّب إلى الله جلّ وعزّ، فقال: «لا بأس بذلك» .(العلل ومعرفة الرجال: ٢ / ٤٩٢، برقم ٣٢٤٣ .) وعلّق وصيّ الله بن محمد عباس محقّق كتاب «العلل ومعرفة الرجال» على هذا الحديث، بقوله: أمّا مسّ منبر النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) فقد أثبت ابن تيمية ـ في الجواب الباهر لزوّار المقابر ـ فعله عن ابن عُمر، دون غيره من الصحابة، وروى أبو بكر بن أبي شيبة في المصنّف (٤ / ١٢١) عن زيد بن الحباب قال: حدّثني أبو مودودة قال: حدّثني يزيد بن عبدالملك بن قُسَيط، قال: رأيت نفراً من أصحاب النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا خلا لهم المسجد قاموا إلى رُمّانة المنبر القرعاء فمسحوها ودعوا، قال: ورأيت يزيد يفعل ذلك». وقال الكرماني حول قول عمر عندما قبّل الحجر الأسود: إنّي أعلم أنّك حجر لا تضرّ ولا تنفع ولولا أنّي رأيت النبي يقبّلك ما قبّلتك: «وأمّا تقبيل الأماكن الشريفة على قصد التبرّك وكذلك تقبيل أيدي الصالحين وأرجلهم فهو حسن محمود باعتبار القصد والنيّة، وقد سأل أبو هريرة الحسن (عليه السلام) أن يكشف له المكان الّذي قبّله رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو سُرّته فقبّله تبرّكاً بآثاره وذرّيته(صلى الله عليه وآله وسلم)، وقد كان ثابت البُناني لا يدع يد أنس حتّى يقبّلها ويقول: يد مسّت يد رسول الله، وقال أيضاً: وأخبرني الحافظ أبو سعيد ابن العلائي قال: رأيت في كلام أحمد بن حنبل في جزء قديم عليه خطّ ابن ناصر وغيره من الحفّاظ، أنّ الإمام أحمد سُئل عن تقبيل قبر النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) وتقبيل منبره؟ فقال: لا بأس بذلك، قال: فأريناه للشيخ تقي الدين بن تيمية، فصار يتعجّب من ذلك ويقول: عجيب أحمد عندي جليل يقوله؟ هذا كلامه أو معنى كلامه. وقال: وأيّ عجب في ذلك وقد روينا عن الإمام أحمد أنّه غسل قميصاً للشافعي وشرب الماء الّذي غسله به، وإذا كان هذا تعظيمه لأهل العلم فكيف بمقادير الصحابة؟ وكيف بآثار الأنبياء(عليهم السلام)؟! ولقد أحسن مجنون ليلى حيث يقول: أمرّ على الديار ديار ليلى *** أُقبّل ذا الجدار وذا الجدارا وما حبّ الديار شَغَفْنَ قلبي *** ولكنْ حبُّ مَن سكن الديارا[1] [1] عمدة القارئ: ٩ / ٢٤١ .
٥. التبرّك بالدنانير الّتي لمسها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)
أخرج أحمد في مسنده عن جابر بن عبدالله قال: كنت مع النبي في سفر ـ إلى أن قال: ـ وكنت على جمل فاعتلّ، قال: فلحقني رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأنا في آخر الناس قال: فقال: «مالكَ يا جابرُ؟» قال: قلت اعتلّ بعيري، قال: فأخذ بذنبه ثم زجره قال: فما زلت إنّما أنا في أوّل الناس يهمني رأسه فلمّا دنونا من المدينة قال: قال لي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «ما فَعَلَ الجملُ؟» قلت: هو ذا، قال: «فبعنيه» قلت: لا بل هو لك، قال: «بعنيه» قال: قلت: هو لك، قال: «لا، قد أخذته بأُوقية، اركبه فإذا قدمتَ فائتنا به» قال:

فلمّا قدمت المدينة جئت به فقال: «يا بلال زن أوقيةً وزده قيراطاً» قال: قلت: هذا قيراط زادنيه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لا يفارقني أبداً حتّى أموت، قال: فجعلته في كيس فلم يزل عندي حتّى جاء أهل الشام يوم الحَرّة فأخذوه فيما أخذوا.(مسند أحمد: ٥ / ٥١ ـ ٥٢ برقم ١٤٣٨٣.)

٦. التبرّك بالعصا الّتي أعطاها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

روى أحمد في مسنده عن عبدالله بن أنيس في حديث: فلمّا قدمت على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فرآني فقال: «أفلح الوجه». قال: قلت: قتلته يا رسول الله، قال: «صدقت». قال: ثم قام معي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فدخل في بيته فأعطاني عصاً فقال: «أمسك هذه عندك، يا عبدالله بن أنيس». قال: فخرجت بها على الناس فقالوا:ما هذه العصا؟ قال: قلت: أعطانيها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأمرني أن أمسكها، قالوا: أوَلا ترجع إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فتسأله عن ذلك؟ قال: فرجعت إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقلت: يا رسول الله، لم أعطيتني هذه العصا؟ قال: «آية بيني وبينك يوم القيامة، إنّ أقلّ الناس المتخصّرون(تَخصّر بالمِخصرة: أمسكها بيده. والمِخْصَرة: ما يُتوكّأ عليه كالعصا.) يومئذ يوم القيامة». فقرنها عبدالله بسيفه، فلم تزل معه حتّى إذا مات أمر بها فصبّت معه في كفنه، ثمّ دُفنا جميعاً.(مسند أحمد: ٥ / ٤٣١ برقم ١٦٠٤٧.)

٧. التبرّك بقميص النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)

روى أبو عمر بن عبد البرّ في ترجمة فاطمة بنت أسد بن هاشم، قال: أسلمتْ وهاجرتْ إلى المدينة وتوفّيت بها، وقال الزُّبير: هي أوّل هاشمية ولدت لهاشميّ. قال: وقد أسلمت وهاجرت إلى الله ورسوله وماتت بالمدينة في حياة النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) وشهدها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم). قال أبو عمر: روى سعدان بن الوليد السابريّ، عن عطاء ابن أبي رباح، عن ابن عباس قال: لمّا ماتت فاطمة أُمّ علي بن أبي طالب ألبسها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)قميصه واضطجع معها في قبرها فقالوا: ما رأيناك صنعت ما صنعت بهذه، فقال: «إنّه لم يكن أحد بعد أبي طالب أبرّ بي منها، إنّما ألبستها قميصي لتُكسى من حُلل الجنّة، واضطجعت معها ليهون عليها» (الإصابة: ٤ / ٣٦٨؛ والاستيعاب بهامش الاصابة: ٤ / ٣٧٠.).

٨. التبرّك بالبُردة المهداة

قدم كعب بن زهير على الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وأنشد قصيدته اللاّمية المعروفة الّتي مستهلّها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبولُ *** متيّم إثرها لم يُفدَ مكبولُ

وجاء فيها قوله:

كلُّ ابن أُنثى وإن طالت سلامتُهُ *** يوماً على آلة حدباء محمولُ

أُنبئت أنّ رسول الله أوعدني *** والعفو عند رسول الله مأمولُ

إنّ الرسول لنور يستضاء به *** مهنّد من سيوف الله مسلولُ

قال الدياربكري: رمى عليه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بُردة كانت عليه، وأنّ معاوية بذل له فيها عشرة آلاف مثقال، فقال: ما كنت لأُوثر بثوب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أحداً، فلمّا مات كعب بعث معاوية إلى ورثته بعشرين ألفاً فأخذها منهم. قال: وهي البُردة الّتي عند السلاطين إلى اليوم.(تاريخ الخميس: ٢ / ١٣١.)

٩. التبرّك بجُبّته (صلى الله عليه وآله وسلم)

روى مسلم عن أسماء بنت أبي بكر أنّها أخرجت جُبّة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كانت عند عائشة، فلمّا قبضت قبضتها، وكان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يلبسها، فنحن نغسلها للمرضى ونستشفي بها.(صحيح مسلم: برقم ٢٠٦٩، باب النهي

عن لبس الحرير ، كتاب اللباس والزينة.)
١٠. التبرّك بالقبر الشريف
أخرج الحاكم عن داود بن أبي صالح، قال: أقبل مروان يوماً فوجد رجلاً واضعاً وجهه على القبر، فأخذ برقبته وقال: أتدري ما تصنع؟ قال: نعم، فأقبل عليه فإذا هو أبو أيّوب الأنصاريّ(رضي الله عنه) فقال: جئتُ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ولم آت الحَجَر، سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: لا تبكوا على الدين إذا وليَه أهلُه، ولكن ابكوا عليه إذا وليه غير أهله. ثم قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه (يعني البخاري ومسلم) (مستدرك الحاكم: ٤ / ١١٥، كتاب الفتن والملاحم.). وروى السَّمهودي عن أبي الجوزاء قال: قُحِطَ أهلُ المدينة قحطاً شديداً، فشكوا إلى عائشة، فقالت: فانظروا قبر النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) فاجعلوا منه كُوَّةً إلى السماء حتّى لا يكون بينه وبين السماء سقف، ففعلوا، فمُطروا حتّى نَبَتَ العُشْبُ وسمنت الإبلُ حتّى تفتقت من الشحم، فسمُيّ عام الفتق. قال الزين المراغي(أبو بكر بن الحسين القرشيّ الأمويّ، زين الدين (المتوفّى ٨١٦هـ): مؤرّخ مصريّ، استوطن المدينة نحو (٥٠) سنة. له «تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة ـ ط». الأعلام:٢/٦٣.): واعلم أنّ فتح الكُوَّة عند الجَدْب سُنَّةُ أهل المدينة حتّى الآن، يفتحون كوّة في سفل قبة الحجرة: أي القبة الزرقاء المقدسة من جهة القبلة، وإن كان السقف حائلاً بين القبر الشريف وبين السماء. قلت: وسنّتُهم اليوم فتحُ الباب المواجه للوجه الشريف من المقصورة المحيطة بالحجرة، والاجتماع هناك، والله أعلم. (وفاء الوفا: ١ / ٥٦٠.). وروى البخاري: لمّا حضرت الوفاة عمر بن الخطاب، قال لابنه عبدالله: انطلق إلى أُمّ المؤمنين عائشة، فقل: يقرأ عليك عمر السلام ويستأذن أن يُدفن مع صاحبيه، قال: فاستأذن وسلّم، ثم دخل عليها وهي تبكي، فقال: يقرأ عليك عمر السلام ويستأذن أن يُدفن مع صاحبيه . فقالت: كنت أُريده لنفسي ولأُوثرنّه اليوم على نفسي، فلمّا أقبل قال له: ما لديك؟ قال: أذنت لك يا أمير المؤمنين. قال: ما كان شيء أهمّ من ذلك المضجع، فإذا قُبضت فاحملوني ثم سلّموا ثم قل: يستأذن عمر بن الخطاب فإن أذنت لي فادفنوني، وإلاّ فردّوني إلى مقابر المسلمين . (صحيح البخاري: برقم ١٣٩٢ ، كتاب الجنائز.).
١١ . التبرّك بالمواضع الّتي صلّى فيها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)
أخرج البخاري عن مولى ابن عقبة قال: رأيت سالم بن عبدالله يتحرّى أماكن من الطريق فيصلّي فيها ويحدّث أنّ أباه كان يصلّي فيها، وأنّه رأى النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) يصلّي في تلك الأمكنة، وحدّثني نافع عن ابن عمر أنّه كان يصلّي في تلك الأمكنة، وسألت سالماً فلا أعلمه إلاّ وافق نافعاً في الأمكنة كلّها إلاّ أنّهما اختلفا في مسجد بشرف الروحاء. (صحيح البخاري: برقم ٤٨٣، باب المواضع الّتي صلّى فيها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) .). وعن نافع: أنّ ابن عمر كان يتّبع آثار رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، كلّ مكان صلّى فيه، حتّى أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) نزل تحت شجرة، فكان ابن عمر يتعاهد تلك الشجرة، فيصبّ في أصلها الماء لكيلا تَيبَس. (سير أعلام النبلاء:٣/٢١٣، رقم الترجمة٤٥.)
التبرّك في روايات أهل البيت(عليهم السلام) ...
١٢. التبرّك بخاتم النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)
روى عبدالرزاق عن معمر، قال: أخرج إلينا عبدالله بن محمد (بن) عقيل خاتماً نقشه تمثال، وأخبرنا أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لبسه مرّة أو مرّتين، قال: فغسله بعض من كان معنا فشربه . (المصنّف لعبدالرزاق الصنعاني: ١ / ٣٤٧.).

١٣. التبرّك بالمسح واللّمس

كانت الصحابة يطلبون من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)أن يمسح على رؤوسهم ويبارك لهم، ومن هؤلاء زياد بن عبد الله بن مالك الهلالي، قال ابن حجر: فدخل زياد منزل ميمونة أُمّ المؤمنين وكانت خالته ... فقالت: يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إنّه ابن أُختي، فدعاه فوضع يده على رأسه ثمّ حدرها على طرف أنفه، فكان بنو هلال يقولون: ما زلنا نعرف البركة في وجه زياد.

ثمّ قال ابن حجر: وذكر ابن سعد القصة مطوّلة عن هشام بن الكلبي... وقال الشاعر لعليّ بن زياد المذكور:

يا ابن الذي مسح الرسول برأسه *** ودعا له بالخير عند المسجدِ

مازال ذاك النور في عرنينه *** حتى تبوّأ بيته في مَلحدِ[٢]

[٢]الإصابة:١/٥٣٩ـ٥٤٠، رقم الترجمة٢٨٥٦.

هذه ثلاثة عشر مورداً تبرّك فيها الصحابة ولم يعترض عليها أحد وكانوا يتلقّون التبرّك بأنّه غير مناف للتوحيد الّذي بُعث لأجله النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)والموارد كثيرة نكتفي منها بهذا المقدار، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى الكتابين التاليين فقد بلغا الغاية:

١. «تبرّك الصحابة بآثار النبيّ والصالحين» للعلاّمة المحقّق والمؤرّخ الخبير محمد طاهر بن عبد القادر بن محمود المكّي، طبع الكتاب في القاهرة، مطبعة المدني، عام ١٣٨٥هـ .

٢. «التبرّك» بقلم المحقّق الخبير آية الله علي الأحمدي الميانجي(١٣٤٤ـ ١٤٢١هـ)، فقد تتبّع(قدس سره) في كتابه هذا ـ وبنحو يثير الإعجاب حقّاً ـ المسألة من جميع أبعادها التاريخية والحديثية و...، وأثبت بما لا مزيد عليه، وبنحو لا يدع للتردّد أو الشكّ مجالاً في أنّ سيرة المسلمين عامّة والصحابة والتابعين خاصّة كانت قائمة على التبرّك بآثار النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) والصالحين.

التبرّك في روايات أهل البيت (عليهم السلام)

قد ذكرنا فيما مضى التبرّك في السنّة النبوية ومصادر التاريخ، والآن نذكر ما ورد عن أئمة أهل بيت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهم أعلم بما فيه .

١. التبرّك باسم الله جلّ وعلا

روى الإمام الحسن بن علي العسكري، عن آبائه، عن علي(عليهم السلام)ـ في حديث ـ أنّ رجلاً قال له: إن رأيت أن تعرّفني ذنبي الّذي امتحنت به في هذا المجلس، فقال: «تركك حين جلست أن تقول: بسم الله الرحمن الرحيم، إنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حدّثني عن الله عزّوجلّ أنّه قال: كلّ أمر ذي باللا يذكر بسم الله فيه فهو أبتر» (تفسير الإمام العسكري(عليه السلام): ٢٤ و ٢٥ ؛ وسائل الشيعة: ج٤، (كتاب الصلاة)، الباب ١٧ من أبواب الذكر، الحديث ٤ .).

٢. التبرّك بالقرآن الكريم

روى الكليني بسنده عن ابن القدّاح، عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: «قال أمير المؤمنين (عليه السلام): البيت الّذي يقرأ فيه القرآن ويذكر الله عزوجل فيه تكثر بركته وتحضره الملائكة وتهجره الشياطين، ويضيء لأهل السماء كما تضيء الكواكب لأهل الأرض، وإنّ البيت الّذي لا يقرأ فيه القرآن ولا يذكر الله عزوجل فيه تقلّ بركته وتهجره الملائكة وتحضره الشياطين» .(أُصول الكافي: ٢ / ٦١١، كتاب فضل القرآن).

٣.التبرّك بماء وضوء النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)
روى الصّدوق بإسناده عن الإمام الرضا (عليه السلام) قال: «سمعت أبي يحدّث عن أبيه، عن جدّه(عليهم السلام)، عن جابر بن عبدالله قال: كان رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) في قبّة من أدم وقد رأيت بلالاً الحبشيّ وقد خرج من عنده ومعه فضل وضوء رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فابتدره الناس، فمن أصاب منه شيئاً يمسح به وجهه، ومَنْ لم يُصب منه شيئاً أخذ من يدي صاحبه فمسح به وجهه، وكذلك فعل بفضل وضوء أمير المؤمنين (عليه السلام) ».(عيون أخبار الرضا (عليه السلام): ٢٢٧ ؛ بحار الأنوار: ١٧ / ٣٣، برقم ١٥ .)
٤.التبرّك بقبر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)
روى الكليني بسنده عن علي بن جعفر، عن أخيه أبي الحسن موسى]الكاظم[، عن أبيه، عن جدّه(عليهم السلام) قال: «كان علي بن الحسين (عليه السلام) يقف على قبر النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) فيسلّم عليه ويشهد له بالبلاغ، ويدعو بما حضره، ثمّ يسند ظهره إلى العروة الخضراء الدقيقة العرض ممّا يلي القبر، ويلتزق بالقبر ويسند ظهره إلى القبر، ويستقبل القبلة فيقول: «اللّهم إليك ألجأت ظهري، وإلى قبر نبيّك محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم) عبدك ورسولك أسندت ظهري، والقبلة الّتي رضيت لمحمّد (صلى الله عليه وآله وسلم) استقبلت، اللّهم إنّي أصبحت لا أملك لنفسي خير ما أرجوه، ولا أدفع عنها شرّ ما أحذر عليها، وأصبحت الأُمور بيدك فلا فقير أفقر منّي، ربّ إنّي لما أنزلت إليّ من خير فقير، اللّهمّ اردُدني منك بخير فإنّه لا رادّ لفضلك. اللّهم إنّي أعوذ بك من أن تبدّل اسمي، أو تغيّر جسمي، أو تزيل نعمتك عندي، اللّهمّ كرّمني بالتقوى، وجمّلني بالنعم، واعمرني بالعافية، وارزقني شكر العافية».(الوسائل: ١٤، (كتاب الحج)، الباب ٦ من أبواب المزار وما يناسبه، الحديث ٢ .) وروى الكليني ـ أيضاً ـ عن ابن فضّال قال: رأيت أبا الحسن]الرضا [(عليه السلام) وهو يريد أن يودّع للخروج إلى العمرة، فأتى القبر من موضع رأس رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد المغرب فسلّم على النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) ولزق بالقبر، ثمّ أتى المنبر، وانصرف حتّى أتى القبر فقام إلى جانبه يصلّي، وألصق منكبه الأيسر بالقبر قريباً من الأُسطوانة الّتي دون الأُسطوانة المخلقة الّتي عند رأس النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) فصلّى ستّ ركعات ـ أو ثماني ركعات ـ في نعليه.(الوسائل: ١٤، (كتاب الحج)، الباب ١٥ من أبواب المزار وما يناسبه، الحديث ٣ .) وروى الكليني بسنده عن معاوية بن عمّار قال: قال أبو عبدالله]الصادق[(عليه السلام): «إذا فرغت من الدعاء عند قبر النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) فائت المنبر فامسحه بيدك وخذ برمّانتيه، وهما السفلاوان، وامسح عينيك ووجهك به فإنّه يقال: إنّه شفاء للعين، وقم عنده فاحمد الله وأثن عليه وسل حاجتك فإنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنّة، ومنبري على ترعة من ترع الجنّة ـ والترعة هي الباب الصغير ـ ثمّ تأتي مقام النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) فتصلّي فيه ما بدا لك».(الوسائل: ١٤، (كتاب الحج)، الباب ٧ من أبواب المزار وما يناسبه، الحديث ١ .)
شبهة القائلين بحرمة التبرّك
لمّا وقف القائل بمنع التبرّك على هذه الروايات الهائلة الحاكية عن تبرّك الصحابة بآثار النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)، حاول أن يتخلّص من ذلك بالوجهين التاليين: الأوّل: التبرّك مخصوص بآثار النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في حال حياته لا بعد رحيله (لاحظ:التبرّك والتوسل والصلح مع العدوّ الصهيوني: ٤٠. والقائل عبدالعزيز بن باز مفتي السعودية سابقاً.). ولسائل أن يسأل القائل: هل كان التبرّك بآثار النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في حال حياته أمراً عبادياً يتقرّب به إلى الله

سبحانه أو كان عملاً عاديّاً ـ لا عباديّاً ـ نظير الأعمال الّتي يقوم بها الناس حسب فطرتهم؟ فعلى الأوّل يكون التبرّك عندئذ شركاً، إذ يعدّ نوع عبادة للغير فلا يجوز للنبيّ أن يقرّه فيسكت عنه أو أن يدفعه بالعصا وغيرها، كيف وقد وصف سبحانه الشرك بأنّه ظلم عظيم؟ قال سبحانه مخاطباً نبيّه(صلى الله عليه وآله وسلم): (لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ)(الزمر: ٦٥.) وعلى هذا فلا محيص من ردّ هذا الفرض.

وعلى الثاني، أي كون التبرّك أمراً عاديّاً يطلب به المتبرّك الخير من مورده كما يطلب الخير من سائر الأُمور، فلا يصحّ تخصيص الجواز بآثار النبيّ، لأنّ المفروض أنّه خارج عن إطار العبادة وداخل تحت الأُمور العاديّة.

إنّ التبرّك بآثار الأولياء والعلماء والأخيار أمر فطريّ للناس، ولذلك تبرّكت بنو إسرائيل بتابوت موسى، كما تبرّك الموحّدون بأصحاب الكهف ببناء المسجد على قبورهم والعبادة فيه. وقد مرّ أن إمام الحنابلة أحمد بن حنبل تبرّك بماء غسل فيه قميص الشافعي، وقد جاء في بعض الروايات أنّ في سؤر المؤمن شفاء(الوسائل: ٢٥، الباب ١٨ من أبواب الأشربة المباحة، الحديث ١.)، ونقل بعض الثقات أنّه شارك في ضيافة أقامها الشيخ عبدالعزيز بن باز لجماعة من العلماء وهو منهم، ورأى بأُمّ عينيه أنّ أصحاب المفتي في نهاية الأمر تسابقوا إلى سؤر طعامه، أفيصحّ بعد ذلك تخصيص التبرّك بآثار النبيّ؟!

الثاني: أنّ التبرّك يختصّ بما مسّ جسده الشريف.

إنّ التبرّك بما مسّ جسده(صلى الله عليه وآله وسلم)من ماء وضوء أو عَرَق أو شعر، فهذا معروف وجائز عند الصحابة لما في ذلك من الخير والبركة. وهذا قد أقرّه النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) دون ما لم يمسّ جسده.(التبرّك والتوسل والصلح مع العدو الصهيوني: ٤٠.)

وعلّق وصيّ الله بن محمد عباس محقّق كتاب «العلل ومعرفة الرجال» لأحمد بن حنبل، فقال في الهامش: وأنّ هذا كان لمّا كان منبره الّذي لامس جسده الشريف، أمّا الآن فقد تغيّر، لا يقال بمشروعيّة مسّه تبرّكاً به.(العلل ومعرفة الرجال: ٢ / ٤٩٢.)

يلاحظ عليه: أنّ تخصيص التبرّك بالآثار التي مسّها جسد النبيّ المطهّر لا يخلو من وجهين:

أحدهما: إنّ لجسده المطهّر تأثيراً في نشوء الخير وزيادة النعمة. وهذا الوجه مرفوض بما عليه علماء السنّة وبالأخص فقهاء الحنابلة، لأنّهم ينكرون أيّ مؤثّر في العالم سوى الله تبارك وتعالى، وشعارهم في هذا الموضع قول القائل:

ومن يقل بالطبع أو بالعلّة *** فذاك كفر عند أهل الملّة

فعلى هذا الأصل فليس لجسده المطهّر أي تأثير في وجود الخير وزيادة النعمة، وإلاّ يلزم الاعتقاد بمؤثّر سوى الله سبحانه ولو كان التأثير ظلّيّاً وتابعاً لمشيئته سبحانه، فإنّهم ينفون ذلك كلّه.

الثاني: نفي القول بالتأثير لكن تبرّك الصحابة كان في خصوص ما مسّ جسده الشريف لا غير.

وهذا الوجه مردود بنصّ التاريخ، وذلك:

أوّلاً: أنّ فاطمة الزهراء بنت النبيّ الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم)الّتي طهّرها الله سبحانه في كتابه وقال: (إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً)(الأحزاب: ٣٣. قال الذهبي: وصحّ أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) جلّل فاطمة وزوجها وابنيهما بكساء، وقال: «اللّهمّ هؤلاء أهل بيتي، اللّهمّ فاذهب عنهم الرّجس وطهّرهم تطهيراً». سير أعلام النبلاء:٢/١٢٢، برقم١٨.)، وقال في حقّها رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): «فاطمة بضعة منّي فمن أغضبها فقد أغضبني»(صحيح البخاري: ٤/٢١٠، دار الفكر، بيروت؛ فتح الباري في شرح صحيح البخاري: ٧ / ٨٤.) أنّ فاطمة(عليها السلام)تبرّكت بتراب قبر أبيها ووضعت شيئاً منه على عينها، وقالت:

ماذا على مَنْ شَمَّ تُربةَ أحمد *** ألاّ يشمَّ مدى الزمان غَواليا

صُبّت عليَّ مصائب لو أنّها *** صُبّت على الأيام صِرنَ لياليا[3]

[(٣)] المغني لابن قدامة: ٢ / ٤١١ .

والتراب الّذي أخذته بنت النبيّ لم يمسَّ جسد النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)، إذ لم تأخذه من تراب داخل القبر الّذي مسّ جسده، بل أخذته من تراب ظاهر القبر الّذي يُوارى به الميّت .

وهذا هو مضيّف النبيّ أبو أيوب الأنصاري قد جعل خدّه على تراب قبر النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)متبرّكاً به أيّام كانت الحكومة بيد الأمويين وعلى رأسهم مروان بن الحكم .

وهؤلاء هم صحابة النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) كانوا يتبرّكون بالصلاة في أماكن صلّى فيها النبيّ، ومن المعلوم أنّ تلك الأماكن لم تكن مسقّفة أو مفروشة بالحُصُر والبواري، بل كانت أراض مكشوفة صلّى فيها النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)، فمن المعلوم أنّ الأمطار والرياح والعواصف تفرّق ترابها إلى نقاط بعيدة، يحلّ محلّه تراب آخر.

إنّه سبحانه أمر حُجّاج بيته الحرام بالصلاة في مقام إبراهيم (عليه السلام) فقال: (وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى)(البقرة: ١٢٥ .)

وليس المقام إلاّ جزءاً من المسجد الحرام، ولكنّه سبحانه أمر بالصلاة فيه وما هذا إلاّ للتبرّك به، والمقام الموجود حاليّاً وحتّى الموجود في العصور السابقة لم يكن ممّا مسّه جسد بطل التوحيد(عليه السلام).

ومَن قرأ تبرّك الصحابة بآثار النبيّ يقف على أنّ تلك المحاولة ليست إلاّ لرأي مسبق ودعماً للمذهب ولم تكن هذه المحاولة وما تقدّمها في خلد أي صحابيّ يتبرّك بآثار النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

وثانياً: أنّ كثيراً من الأعمال الّتي يمارسها المسلمون في الحرمين الشريفين من تقبيل الضريح والجدران والأبواب وأركان البيت وغير ذلك كلّه تجسيد منهم لحبّ الله وحبّ رسوله الّذي أمر سبحانه به في قوله: (إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَاد فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)(التوبة: ٢٤ .) .

وأمر في آية أُخرى بتوقير النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى جانب الإيمان به ونصرته واتّباعه وقال: (فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)(الأعراف:١٥٧.)، والمراد من التعزير هو تكريمه وتوقيره، وبما أنّ يد المحبّين لا تصل إلى يد النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) حتّى يقبّلونها، يقبّلون ما له به صلة، وهذه هي العادة السائدة بين العقلاء فيقبّل الولد ما ورثه من الآباء من ألبسة وكتب وأقلام وصُوَر، وكأنّ منطق الجميع منطق مجنون ليلى العامرية:

أمرُّ على الديار ديار ليلى *** أُقبّل ذا الجدار وذا الجدارا

وماحبّ الديار شَغَفْنَ قلبي *** ولكنْ حبُّ مَن سكن الديارا

وقد عدّ البيهقي محبة النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) من شعب الإيمان(لاحظ: شعب الإيمان: ٢ / ١٢٩ .)، كما عقد مسلم في صحيحه باباً باسم توقيره(صلى الله عليه وآله وسلم)وترك إكثار سؤاله عمّا لا ضرورة إليه(لاحظ: صحيح مسلم: كتاب الفضائل، الباب ٣٧ .) .

والعجب أنّ أتباع ابن تيمية ـ الّذي يعدّ التبرّك بآثار النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد رحيله بدعة ـ كانوا يتبرّكون بالماء الّذي فضل من غسل ابن تيمية!!

يقول تلميذه ابن كثير في حوادث سنة (٧٢٨ هـ) : شرب جماعة الماء الّذي فضل من غسله، واقتسم جماعة بقية السِّدر الّذي غُسّل به، ودفع في الخيط ـ الّذي كان فيه الزئبق الّذي كان في عنقه بسبب القمل ـ مئة وخمسون درهماً، وقيل: إنّ الطاقية الّتي كانت على رأسه دفع فيها خمسمئة درهماً، وحصل في الجنازة ضجيج وبكاء كثير وتضرّع، وختمت له ختمات كثيرة بالصالحية وبالبلد، وتردّد الناس إلى قبره أياماً كثيرة ليلاً ونهاراً يبيتون عنده ويصبحون، ورويت له منامات صالحة، ورثاه جماعة بقصائد

٢٣٨ : ٢٥١

جمّة.(البداية والنهاية: ١٤ / ١٤٢ ـ ١٤٣ .)

والحمد لله ربّ العالمين

الفهرس